سليم حسن

موسوعة مصر القديمة

الجزء الأول

موسوعة مصر القديمة (الجزء الأول)

في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر الإهناسي

تأليف
سليم حسن



موسوعة مصر القديمة (الجزء الأول)

سليم حسن

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي

الترقيم الدولي: ٧ ١٣٢١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.

المحتويات

الإهداء	٧
مقدمة	٩
قائمة بأهم التواريخ	١٣
١- مقدمة عن تاريخ مصر وما قبل التاريخ	١٥
٢- حل رموز اللغة المصرية القديمة	٩٧
٣- مصر وأصل المصريين	١٠٩
٤- نحو توحيد البلاد	١١٣
٥- تنظيم نتيجة السنة الشمسية	١١٩
٦- مينا وتوحيد البلاد	١٢١
٧- مصادر التاريخ المصري القديم	١٢٥
٨- الألقاب الرسمية للفرعون	١٣١
٩- مقاطعات القطر المصري منذ أقدم العهود	١٣٥
١٠- آلهة المقاطعات	١٤٧
١١- نظرة إجمالية في أصول الديانة المصرية	١٧١
١٢- مصادر المقاطعات في العهد الفرعوني وما بعده	١٩٣
١٣- الدول القديمة	٢٠٩
١٤- الأسرة الثالثة	٢١٧
١٥- الأسرة الرابعة	٢٢١
١٦- الأسرة الخامسة	٢٥١
١٧- الأسرة السادسة	٢٧٣

١٨- سقوط الدولة القديمة والثورة الاجتماعية ٢٩٧
١٩- الأسرتان السابعة والثامنة ٣٠٣
٢٠- الأسرتان التاسعة والعاشرة ٣٠٩
٢١- مراجع التاريخ المصري في عهد الدولة القديمة ٣٢١

الإهداء

إلى روح صديقي العزيز أحمد عبد الوهاب باشا.
طيَّب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته.
إلى الذين أرادوا الإساءة إليَّ فأحسنوا، وباعدوا بيني وبين الوظيفة فقرَّبوا بيني وبين الإنتاج وخدمة العلم والوطن.
إلى الذين شجعوا الدراسات المصرية.
إلى كل أولئك أهدى هذه الموسوعة في تاريخ الدولة الفرعونية القديمة.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأشكره، وأسأله السداد والتوفيق، والهداية إلى أقوم طريق. وبعد، فهذه محاولة جريئة أردت بها أن أجمع في مؤلَّف واحد تاريخ شعب عريق قديم، له عقيدته وفلسفته في الحياة، وله ثقافته ونظامه وطرائق معيشته، ولم أتخذ من تاريخ الفرعون نموذجًا لتاريخ شعبه — كما جرت العادة بذلك في الكتب — ولم أجعل حياته وعاداته ونظمه وثروته ومعتقداته مقياسًا للحكم على أحوال رعيته، فقد يكون الفرق بينهما كبيرًا، والهوة سحيقة، بل جعلت حال الشعب أساسًا لما كتبت، وفي ذلك ما يقرِّبنا من الحقيقة، ويجنبنا مزالق الخطأ والضلال.

وإذا لازمنا التوفيق، وأمكننا أن نبني تاريخًا من المادة التي وجدناها مبعثرة في مقابر الدولة القديمة ومعابدها، كان ذلك — من غير شك — أساسًا متينًا، ودعامة قوية لدرس كل مدنيات العالم؛ إذ إن مصر هي المنبع الأول الذي ظهرت لنا منه كتابات مدونة، في الوقت الذي كانت فيه كل ممالك العالم تقريبًا تهيم على وجوهها في الغابات، وتتيه في المجاهل والأحراج، ومن هذه المدنية المصرية اغترف العبرانيون والإغريق والآسيويون، ومن ثم تسربت إلى أوروبا.

وإنك لتجد فارقًا واضحًا يفصل بين المدنية المصرية القديمة وبين ما عداها من مدنية الإغريق وغيرهم، ذلك أن المصري كان يفكر دائمًا في دائرة الحس، ولا يسمح لعقله بأن يحلِّق في أجواء المعقولات والمعاني، فهو لا يؤمن بالحب وإن كان يقدس المحبوب، ولا يعرف الشجاعة ولكنه يقدر الرجل الشجاع، وتبعًا لطريقته هذه في التفكير كان لا بُدَّ له من أن يجسِّم آلهته ويصورها، ويتخذ لها من الحيوان والكائنات مظاهر يقدسها

ويعبدها مع اعتقاده بالوحدانية، ويظهر أن شمس مصر الحارة التي كانت تلهب جسم المصري، وتشعره دائمًا بوجودها، هي التي أرهفت عنده قوة الحس، كما أن انتقابها واحتجابها في أوروبا مال بالأوروبيين عن محيط المحسوسات إلى المعقولات.

ولقد اقتصرنا في تاريخنا على الدولة القديمة وبداية العهد الإقطاعي لاتساع الموضوع وتشعب نواحيه وضرورة الإلمام بجميع أطرافه، ولم نستطع أن نجزم في كثير من الأمور برأي قاطع؛ لأن هناك تراثًا تحت الأرض لَمَّا يكشف عنه الزمن، ولم يسمح لنا القدر بالتعرف عليه، وإذاعة ما طواه من خبر يقين وسِرٍّ دفين، ومن التجديف والجرأة أن نقدمه للقراء حقيقة ثابتة، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وهناك موضوعات جديدة حاولت سَبْكَها على غير مثال سابق، بل لم يُطْرَق الكثير منها من قبل لقلة المصادر وغموضها، فأطلقنا للخيال بعض الحرية، لينسج من العناصر التاريخية القليلة التي وجدناها عن هذه الموضوعات ثوبًا قشيبًا تظهر به بين أترابها من الموضوعات التاريخية الأخرى، ونقصد بذلك أن نكسو عظام الحقائق التاريخية الجافة لحمًا، ثم نبعث فيها روحًا يحركها، فتصبح حية يراها القارئون ويتمثلونها.

وإن من يعرف اللغة المصرية القديمة، وصعوبة فهمها، واحتمال اللفظ كثيرًا من المعاني يلتمس العذر لعلماء الآثار في اختلافهم وتعدد آرائهم وتباين مذاهبهم في موضوعات كثيرة، على أنَّا أوردنا أَقْوَم هذه الآراء وأقربها إلى المنطق والعقل وأقواها حجةً ودليلًا.

ولقد آثرت الأسلوب السهل في إبراز موضوعات هذا الكتاب، لوعورة موضوعاته ولتنساب المعاني إلى ذهن القارئ في غير إجهاد فكر أو إعمال عقل، ومن الأسف أن قليلًا من الكلمات الأعجمية أو العربية المحرَّفة قد أَضطرُّني إلى الاعتراف به واستعماله، حينما وجدت رديفه العربي غريبًا أو قليل الاستعمال.

ولقد كانت رغبتنا في أن يبدو كل موضوع من موضوعات الكتاب وحدة متماسكة مكتملة الأجزاء، ظاهرة الاستقلال بجميع عناصرها، سببًا في أن نتعرض إلى بعض الحقائق التاريخية أكثر من مرة ملمحين إليها، أو مارين بها، أو مسهبين في ذكرها حسبما يقتضيه المقام.

ومن الواجب عليَّ هنا أن أعترف بالمساعدة العظيمة التي قدمها لي كل من الأستاذ محمد النجار مدرس اللغة العربية بمدرسة شبرا الابتدائية والأستاذ عبد السلام عبد السلام، فقد عُنِيَ الأولُ بقراءة النسخة الخطية ومراجعتها من الوجهة النحوية بقدر ما

سمحت به الظروف، أما الثاني فقد تعهد قراءة تجارب الكتاب كله ووضع الفهرس له، وساهم في إنجاز طبعه بسرعة. هذا وإني لأشكر صاحبَيْ مطبعة كوثر على عنايتهما بطبع الكتاب طبعًا جميلًا في تلك الظروف الدقيقة.

وقد جعلت الكتاب قسمين: يتحدث الأول عن عهد ما قبل التاريخ إلى نهاية الأسرة العاشرة، ويتكلم الثاني عن مدنية الدولة القديمة حتى العصر الإهناسي.

فإن كنتُ قد قاربتُ السداد وسلكت طريق الرشاد، فهذا ما أرجوه وأحمد الله عليه، وإن كان قد نَبَا بي الفكر أو شَطَّ القلم فالخيرَ أردتُ، وما توفيقي إلا بالله.

سليم حسن

القاهرة في أول أغسطس سنة ١٩٤٠

قائمة بأهم التواريخ

من الدولة القديمة إلى الأسرة العاشرة
(حسب تاريخ الأستاذ برستد)

(١) بداية استعمال النتيجة سنة ٤٢٤١ق.م.
(٢) الأسرتان الأولى والثانية من ٣٤٠٠–٢٩٨٠ق.م.
(٣) الأسرة الثالثة ٢٩٨٠–٢٩٠٠ق.م.
(٤) الأسرة الرابعة ٢٩٠٠–٢٧٥٠ق.م.
(٥) الأسرة الخامسة ٢٧٥٠–٢٦٢٥ق.م.
(٦) الأسرة السادسة ٢٦٢٥–٢٤٧٥ق.م.
(٧) الأسرتان السابعة والثامنة ٢٤٧٥–٢٤٤٥ق.م.
(٨) الأسرتان التاسعة والعاشرة ٢٤٤٥–٢١٦٠ق.م.

هذه التواريخ تقريبية محضة قد تزيد أو تقل عن مائة سنة.

الفصل الأول

مقدمة عن تاريخ مصر وما قبل التاريخ

ظلت معلومات العالم أجمع عن تاريخ مصر القديم ضئيلة هزيلة حتى منتصف القرن التاسع عشر، وذلك يرجع إلى عدم معرفة قراءة نقوشها. حقًّا إن عددًا لا بأس به من قدماء كتَّاب الإغريق والرومان الذين وفدوا على أرض مصر طلبًا للوقوف على غرائبها وعجائبها، قد وصفوا البلاد وصفًا مسهبًا، وكتبوا بقدر ما وصلت إليه معلوماتهم عن تاريخها المجيد، ولكن لسوء الحظ كان كل ما وصل إلينا من كتاباتهم قد أخذوه إما عن طريق الرواية أو مجرد وصف جغرافي، وقد بقيت هذه الروايات مصدرنا الوحيد عن تاريخ مصر القديمة حتى باكورة القرن التاسع عشر، وأهم هؤلاء الكتَّاب المؤرخ «هيرودوت» و«ديدور الصقلي» و«استرابون» وغيرهم، ممن قاموا بسياحات في مصر في عهد ملوك البطالسة والعهد الروماني، وهكذا بقي تاريخ البلاد الحقيقي قبل عصر البطالسة سرًّا غامضًا، لا نعرف شيئًا عنه إلا ما وصل إلينا عن طريق المؤرخ المصري «مانيتون» الذي كتب تاريخ البلاد في عهد البطالسة نقلًا عن أصول مصرية قديمة كما يظهر، ولكن للأسف لم يصل إلينا منه إلا مختصر لا يشفي الغُلَّة.

على أن كثيرًا مما ذكره في كتابه لم تحققه المصادر الأصلية التي عثر عليها للآن بعد كشف أسرار اللغة المصرية، وقد بقي العالم يرتكز في معلوماته عن تاريخ مصر على ما تركه لنا كتَّاب اليونان، ومختصر مانيتون، ولم تكن لدينا طريقة إلى تصحيح أغلاطهم، وسد الفجوات التي كانت تعترض الباحث في تاريخ البلاد، ومن أجل ذلك قام بعض العلماء بمحاولات لحل رموز اللغة المصرية حتى يصلوا إلى معرفة تاريخ البلاد الحقيقي، مثل الأب «كرشر» إلا أن ذلك لم يسفر عن نتيجة مُرضية، ولكن منذ أن رست الحملة الفرنسية على شاطئ النيل بدأت صفحة جديدة في تاريخ البلاد؛ إذ في الوقت الذي كانت فيه الجنود الفرنسية تحارب المماليك، كانت هناك حملة أخرى فرنسية علمية يجول

أعضاؤها في طول البلاد وعرضها، لدرسها درسًا علميًّا منظمًا من كل الوجوه، فبحثوا جغرافية البلاد وحيوانها ونباتها وزراعاتها المختلفة وحرفها، ثم درسوا أخلاق القوم وعاداتهم وآثارهم، ونقلوا النقوش القديمة التي كانت وقتئذ ظاهرة على معابد البلاد، وبعد ذلك قاموا بتدوين كل بحوثهم بدقة وعناية في مؤلف خاص، يشمل عدة مجلدات أطلق عليه Description de l'Egypte، ولكن بكل أسف لم يستفد التاريخ من كل هذه البحوث إلا أشياء ضئيلة؛ وذلك لأن النقوش التي نقلوها من المعابد وغيرها، بقيت صامتة إلى أن جاء «شمبليون» وحل رموزها — كما سنذكره بعد — ومنذ حل رموز اللغة المصرية أخذ تاريخ البلاد الحقيقي ينجلي شيئًا فشيئًا، مما قضى على الأساطير والخرافات التي نقلها كتاب اليونان الذين رادوا وادي النيل وكتبوا عنه، وقد بقيت هذه الأساطير تعتبر في أعين العالم إلى هذا الوقت أنها تاريخ البلاد الذي يُعتمد عليه، وفي الفترة التي كان في خلالها علماء الآثار المصرية يسيرون بخطى وئيدة ثابتة في كشف النقاب عن تاريخ البلاد الحقيقي، بفضل المجهودات الجبارة التي كانت تبذل في عمل الحفائر، وحل رموز النقوش التي كانت على جدران المعابد وفي أوراق البردي في وادي النيل، كانت هناك جهود أخرى عظيمة يبذلها جماعة من علماء أوروبا في وضع أساس لعلم آخر جديد في الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، وهذا العلم الجديد هو علم ما قبل التاريخ، وقد كان في بدايته غير مدعوم الأساس إذا قرناه بعلم الآثار المصرية، وكانت ماهيته تنحصر في بحث حل مسألة أصل الإنسان قبل التاريخ، أو بعبارة أخرى قبل ظهور الكتابة، وذلك بدرس بقايا العظام الإنسانية وغيرها، مما خلفه أصحابها من الآثار والصناعات التي تركت بعدهم على سطح الأرض مهملة، أو وجدت مدفونة في المغارات والكهوف، أو في مجاري الأنهار القديمة، وقد أسفرت النتيجة أخيرًا عن نجاح بعض العلماء بعد معارضات شديدة في وضع أُسُس لهذا العلم، والواقع أنه بعد مجهود نصف قرن تمكن العالمان «بوشيه» و«بيرن» من وضع مؤلف يبحث في عصر ما قبل التاريخ، وقد جاء بعدهما طائفة من العلماء، توصلوا إلى تثبيت أصول هذا العلم ببحوثهم حتى أصبح معترفًا به في كل الأوساط العلمية في أوروبا.

ومن المدهش أن بعض الكتاب الأقدمين قد تكلموا عن هذا العلم قبل معرفته ووضع أصوله، فقد أشار الشاعر اللاتيني لوكريه Lucerêe إلى ذلك بقوله: «إن الإنسان الأول كان يجهل استعمال المعادن، ولذلك كان يتخذ الأخشاب والعظام وخاصة الأحجار المهذبة بحذق ومهارة آلات وأسلحة للصيد والحرب، وبعد ذلك بزمن أصبح الإنسان زارعًا، ثم أخذ في تحسين آلاته وصقل حد «بلطته».»

والواقع أن ذلك يتفق مع الحقائق التاريخية؛ إذ وجدنا أن العصر الحجري قد استعمل فيه الظِّرَّان المهذب ثم المصقول، ثم خلف ذلك عصر يشعر بالرقي والتدرج، وهو عصر استعمال معادن. ويلاحظ أنه بظهور المعادن بدأ استعمال الظِّرَّان يقل شيئًا فشيئًا، ولا غرابة أن استعمال النحاس، ثم اختراع البرنز الذي حل محله الحديد فترة قصيرة، وكان من الأمور التي خطت بالإنسان خطوات جديدة نحو الرقي حتى العصر التاريخي — أي عصر استعمال الكتابة والقراءة — في تدوين كل حوادثه وأعماله، على أن أمم العالم لم تتساوَ كلها في الوصول إلى هذه الدرجة بسرعة واحدة أو في وقت واحد، فمثلًا البلاد المصرية والأقطار الكلدية تعرفان الكتابة والقراءة منذ آلاف السنين قبل التاريخ الميلادي في الوقت الذي بقيت فيه زمنًا طويلًا تجهل وجود الجديد، ومن جهة أخرى نشاهد أن سكان ممالك البحر الأبيض المتوسط قد مكثوا عدة قرون مدفونين في ظلمات عصر ما قبل التاريخ، ومع هذا فإنهم كانوا يعرفون استعمال الحديد منذ أزمان طويلة قبل الفتح الروماني.

ومن الطريف المدهش أن أبحاث علماء ما قبل التاريخ قد ظلت غير معترف بها عند علماء الآثار المصرية معظم القرن التاسع عشر، وسبب ذلك أن هؤلاء الأثريين كانوا يشكُّون في وجود عصر في تاريخ مصر قبل عهد الدولة القديمة؛ وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سكان مصر لم يكن لهم عهد طفولة كباقي الأمم، بل إنهم وُجِدوا في التاريخ فجأة، وأن مدنيتهم كانت شبه كاملة، ولذلك رفض علماء الآثار أن يبحثوا عن منشأ هذه الثقافة الزاهرة، التي كان لا بُدَّ لها أن تصل إلى ما وصلت إليه تدريجًا بعد انقضاء عدة قرون، ولهذا السبب أبوا أن يفحصوا الآلات المصنوعة من الحجر، وهي التي وجدوها عفوًا أثناء القيام بأعمال الحفر، أو التي جمعت من فوق سطح الأرض، وقد فسروا وجودها بأنها من عمل الطبيعة، أو أنها صنعت في عهد الأسرة الفرعونية.

وهكذا بقي النضال بين علماء الآثار قائمًا إلى أن وفد على وادي النيل العالم الفرنسي أرسلان Arcelin، فكان أول من أثبت وجود علم ما قبل التاريخ في مصر، وقد دعم قوله بالبراهين.

حضر هذا العالِم إلى مصر في عام ١٨٦٨، وساح في النيل ذهابًا وإيابًا، وقام أثناء رحلته بأبحاث منتجة، فجمع من حافة الصحراء التي أقيم عليها الأهرام بعض آلات من الظِّرَّان المهذب التي تشبه ما عُثِر عليه في أوروبا، وقد أسعده الحظ بأكثر من ذلك؛ إذ عثر في الهضبة التي تشرف على وادي الملوك تجاه الأقصر على مصنع عظيم من الظِّرَّان، يرجع

عهده إلى العصر الحجري القديم «الباليوليتي»، وقد ظهر أن ما وجد في هذه البقعة يشبه كثيرًا ما عثر عليه في سان آشل Saint Acheul، وفي الجنوب من البقعة السالفة الذكر، وفي أبي منقار عثر على بعض آلات من العصر الحجري الحديث.

وبعد انقضاء فترة وجيزة على هذا الكشف، عثر العالمان «لنرمان» و«هنري» Lanormont & henry على بعض آلات لها أهمية عظيمة بالقرب من جبانة طيبة، وقد كان نتيجة هذا الكشف أن اعترفت جمعية درس أصل الإنسان في عام ١٨٧٠ بإمكان وجود عصر ما قبل التاريخ في مصر، وقد جاء مؤيدًا لهذا الرأي ما عثر عليه الأب «رتشرد» في شبه جزيرة سينا، وفي جوار القاهرة وفي طيبة — غير أنه بالرغم من ذلك — كان علماء الآثار يعارضون في وجود علم ما قبل التاريخ في مصر، بحجة أنهم وجدوا مثل هذه الآلات التي عثر عليها هؤلاء الباحثون في المقابر المصرية القديمة، ولم يفهموا أن هذه الآلات ربما كانت من مخلفات أزمان ما قبل التاريخ، وأنها بقيت مستعملة بالتوارث والعادة حتى العهود التاريخية، وقد بقي علماء الآثار أمثال «مريت باشا» و«لبسيوس» و«شاباس» على رأيهم رغم محاولات علماء ما قبل التاريخ في إقناعهم بصحة وجود عصر في تاريخ مصر قبل الدولة القديمة، وقد استمر هذا أكثر من ثلاثين عامًا إلى أن وضع الأمور في نصابها عالم من علماء الآثار أنفسهم، وهو «جاك دمرجان» الذي كان مديرًا للآثار المصرية في ذلك العهد، فجمع في مجلدين ضخمين كل ما كتب في هذا الموضوع، وانتهى به البحث إلى أن أيَّد فكرة وجود عصر ما قبل التاريخ في مصر، وأضاف إلى ذلك ملاحظاته الشخصية، التي جمعها مدة إقامته الطويلة في وادي النيل. إذ في خلال تلك المدة درس الأحوال والأماكن التي وجدت فيها الآلات الحجرية، وأثبت بالبراهين الناطقة قدم الآلات التي يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ عن الآلات، التي بقي الإنسان يهذبها بطريق العادة على نمط سالفتها في العصور التاريخية ثم يستعملها، وبعد أن وصل إلى هذه النتيجة أخذ يبرهن للعلماء على أن آلات ما قبل التاريخ المصري تكاد تكون مماثلة لما هو محفوظ في متاحف أوروبا من نفس العصر.

وبعد ذلك أثبت بصفة نهائية أن عصر الحجر المهذب في مصر قد سبق عصر الحجر المصقول، وأن الأخير قد خلفه عصر استعمال المعادن، كما هو الحال في إنجلترا وفرنسا وغيرهما.

وفي عام ١٨٩٧ وضع العالم «دي مرجان» نتائج أبحاثه أمام العالم، ومنذ ذلك العهد اعترف فعلًا بوجود عصر ما قبل التاريخ في مصر، ومن ثم أخذت البحوث تَتْرَى مُعَزِّزَةً

رأي هذا العالم العظيم أو مكملة لبحوثه، وفي بعض الأحيان كانت مصححة لبعض أخطائه في نقط مختلفة، وقد مهدت لنا أبحاث الأستاذ «فلندرز بتري»، «ودي مرجان» السبيل لإيجاد صلة بين عصر ما قبل التاريخ المصري وعصر الدولة القديمة، وقد أطلق على هذه الفترة عصر ما قبل الأسرات.

وعثر الأثري «لجران» بعد ذلك على محطات جديدة، وعثر كذلك العالمان «ستون» و«كار» وغيرهما في منطقة الصحراء على حافة النيل على مواقع من هذا العصر.

وقد أشار الأستاذ «شفينفورت» العالم الألماني إلى وجود عدة محطات فيها آلات يرجع عهدها إلى عصر ما قبل التاريخ.

(١) مصر والنيل

مما لا جدال فيه أن البلاد المصرية كانت تختلف اختلافًا بيِّنًا عمَّا هي عليه الآن، عندما بدأ يظهر فيها الإنسان الأول، ولأجل أن نكوِّن فكرة عن حالة البلاد الطبيعية في هذا العهد، يجب علينا أن نرجع إلى الوراء إلى عهود جيولوجية سحيقة في القدم؛ أي قبل أن يظهر أثر الإنسان بمدة قصيرة نسبيًّا، وهذا العصر يُعرف في التاريخ الجيولوجي للقشرة الأرضية بالزمن الجيولوجي الثالث، على أننا لن نبحث هنا عن المراحل الجيولوجية التي سبقت هذا العهد، ونعني بذلك المرحلتين الأوليين، وكذلك لن نتكلم عن النيل الأولى «القديم» الذي سبق النيل الحالي، بل سنكتفي هنا بأن نذكر بعض تفاصيل، لا بُدَّ منها للباحث في تاريخ مصر وطبيعة بلادها.

تتكوَّن القشرة الأرضية في البلاد المصرية من ثلاث طبقات متتابعة بعضها فوق بعض:

أوَّلًا: نجد في الزمن الجيولوجي الأول أن التربة كانت تتألف من صخور شيستية متبلورة منها حجر «البرفير» والجرانيت ثم الديوريت.

ثانيًا: في الزمن الجيولوجي الثاني نجد أن التربة كانت تتكون من صخور رملية.

ثالثًا: ظهرت في بداية الزمن الثالث طبقات جيرية تحتوى على فواقع نومولتية.

والواقع أن الصخور الشيستية المتبلورة السالفة الذكر ينحصر وجودها في الصحراء الغربية وحول الشلال الأول، أما الصخور الرملية فإنها توجد في بلاد النوبة وفي الوجه القبلي حتى إسنا، وكذلك توجد في الأقصر وبالقرب من القاهرة وفي الواحة الخارجة.

أما الطبقات الجيرية فقد تكوَّنت منها الصحراء اللوبية، وكذلك المرتفعات التي تحف نهر النيل من بداية مدينة الأقصر إلى القاهرة.

ولا جدال في أن الكتل الكثيفة الصخرية من الحجر النوبي الرملي التي تتألف منها تربة أرض مصر، قد مرَّت عليها تقلبات جيولوجية كثيرة؛ إذ كانت في الواقع تغطى جزئيًّا بالماء أحيانًا ثم تظهر ثانيًا، مما سهَّل للبحر الجيري ثم البحر النيوموليتي أن يتركا رواسبهما على السطح، ويكوِّنا طبقات جيرية كثيفة من الجير، وهي التي تغطي في كل مكان طبقات الحجر النوبي الرملي من إدفو إلى بداية الدلتا، وبعد ظهور هذا الإقليم من الماء نهائيًّا — وقد حدث ذلك بعد العهد الأيوسيني — نجد أن الإقليم الشاسع الذي أطلق عليه فيما بعد مصر قد ظهر، غير أنه شوهد في سطحه ميل مزدوج، خفيف من ناحية، ومنحدر من الناحية الأخرى، ويتجه الميل الأول من الجنوب إلى الشمال حسب اتجاه النيل، أما الميل الثاني فإنه أشد انحدارًا، ويبتدئ من الشرق إلى الغرب أي من شواطئ البحر الأحمر إلى إقليم الواحات. وهذان الميلان في طبيعة أرض الوادي يرجع سببهما بلا نزاع إلى الظواهر البركانية التي حدثت في الجهة الشرقية منه وفي إقليم السودان، ولا شك أن نتائج هذه الظواهر عظيمة جدًّا من الجهة الجغرافية، لأنها كبقية التغيرات التي كان لا بُدَّ لسطح الوادي أن يخضع لها بفعل تأثير مياه النهر.

والواقع أن نهر النيل قد شق مجراه في هذه الهضبة غير المتكافئة في ارتفاع جبالها، بخط يكاد يكون مستقيمًا، وكوَّن منها منطقتين منفصلتين تختلفان اختلافًا بيِّنا من حيث الارتفاع والشكل. إحداهما شرقية، وهي التي تسمى صحراء العرب، ويمتاز تكوينها الطبيعي بأن جبالها تصل إلى ارتفاع عظيم بالقرب من الشاطئ ثم تنحدر تدريجيًّا نحو الوادي. أما المنطقة الثانية فيطلق عليها اسم صحراء ليبيا، وتبتدئ بتلال قليلة الارتفاع تسير مع السهل الرملي وتنتهي بعدة منخفضات، يصل مستوى بعضها أحيانًا إلى أقل من مستوى البحر، ويطلق على هذه المنخفضات اسم الواحات.

وعلى هذا النحو تكوَّن هيكل بلاد الفراعنة في الزمن الجيولوجي الثالث، وفي نهاية هذا الزمن وبداية الزمن الجيولوجي الرابع أخذت العوامل الجوِّيَّة تؤثر بفعلها حتى نحتت في سطح هذه الهضبة وادي النيل الحالي. إذ كانت تتساقط في هذه الجهة سيول جارفة يمكن أن نعرف مقدار عظمها وشدتها من الأمطار الاستوائية الحالية، وقد كونت هذه الأمطار عدة مجارٍ من الماء، قامت مقام العمال في نحت وديان عدة في الصخور، وهذه الوديان قد جفَّ ماؤها منذ أزمان سحيقة، غير أن أماكنها لا تزال باقية إلى الآن دالةً على وجودها رغم نضوب الماء منها.

والظاهر أن النيل لم يستتبَّ في مجراه الحالي إلا منذ أزمان حديثة، ولا ريب أن سيره كان قد عُوِّق في الأزمان الغابرة عند مرتفعات أسوان بحاجز من الجرانيت، ومكث مدة طويلة لم يتمكن من تذليل هذه العقاب الجرانيتية، فكانت مياه النهر تضطر أن تدور حول هذه الكتل الضخمة، ولكن فعل المياه تغلب في النهاية وشق مجراه الحالي، ولا تزال أحجار الشلال الأول شاهدةَ عَدْلٍ على المقاومة التي كانت ولا تزال تعترض النهر في سيره.

يضاف إلى ذلك أنه كانت تعترض النهر الصخور النوبية الأقل صلابة من الجرانيت، وقد كانت هذه الصخور تؤلف عدة شلالات صغيرة من بداية مدينة السلسلة الحالية جنوبًا، فكانت تعرقل سير النهر وتضع في طريقه العقبة تلو العقبة، وكذلك كان يصادفه في سير مستويات أعلى من مستوى مجراه الحالي مما حتَّم تكوين عدة بحيرات خلفها في جهات مختلفة في الوادي.

ولا أدل على ذلك من بقايا السد الذي كان يعترض النهر عند جبل السلسلة، وكذلك سهل «كوم أمبو» فإنه عبارة عن حوض ماء كانت تخزن فيه المياه التي كان يعوقها سد طبيعي اعترض لها في طريقها.

ويمكننا حسب نظام القوانين الطبيعية وتكوين الأنهار أن نحكم بأن النيل مر عليه عصران متتابعان متميزان في تاريخ تكوينه.

أوَّلًا: كان النهر في بادئ الأمر ذا مياه سيَّالة تجري في منحدر سريع من الجنوب إلى الشمال مما جعله يقطع لنفسه أوَّلًا مجرى عظيمًا جدًّا قريب الغور، كان ينحته لنفسه على كر السنين، ثم أخذ بعد ذلك ينكمش هذا المجرى الواسع شيئًا فشيئًا، وكان قطاع الوادي في هذا الطور يشبه رقم ٧، ولكن الاختلافات التي كانت تحدث في مقدار حجم المياه المتدفقة سنويًّا، وفي قوة التيارات كانت أحيانًا تزيد في حدة التآكل في الصخور وأحيانًا تقلل منها، ويمكن ملاحظة شدة هذا التآكل أو ضعفه في اختلاف حجم المدرجات التي يشاهد بعضها فوق بعض على طول شاطئ النهر؛ إذ الواقع أننا نراها الآن ظاهرة واضحة في الصخور، فتارة يكون المدرج واسعًا وطورًا يكون ضيِّقًا مما يدل على عدم انتظام الظواهر الطبيعية.

أما العصر الثاني فإنَّا نشاهد فيه أنه بعد العهد الذي حفر النهر في خلاله مجراه قد خلفه عهد آخر ارتطم فيه المجرى ثانية، وتفسير ذلك أنه بعد عهد حفر النهر مجراه شوهد أن الجزء الأسفل من المجرى قد أصبح في عمقه يقارب عمق سطح البحر، ثم وقف بعد ذلك عند هذا الحد، غير أن فعل التآكل كان لا يزال سائرًا في منحدر النهر، ولكن

مخلفات هذا التآكل لم تكن تكتسح كلها إلى البحر لقلة الانحدار، بل كانت تتراكم في قعر النهر، وكانت هذه الرواسب تزداد من عام إلى عام في القعر مما سبب ارتفاع منسوب مجرى النهر وقلل من حدة انحداره، ومن ثم أصبح سير مائه معتدلًا، وأخذت البلاد تستفيد منه، وهناك أدلة على هذه التغيرات واضحة ظاهرة في مجرى النهر من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط، فمثلًا في منطقة القاهرة كان النيل في الزمن الجيولوجي الثالث له مجرى يبلغ عرضه في هذه النقطة مقدارًا عظيمًا، وكان جبل المقطم وهضبة الأهرام هما الحدان اللذان يجري النهر في وسطهما في ذلك العهد، ولكن في الزمن الجيولوجي الرابع أخذت الرواسب تغمر هذا المجرى شيئًا فشيئًا، وكانت تتألف من الحصى الذي كان يندفع مع التيار، ثم بعد ذلك غطى في آخر الأمر بالغرين «الطمي الحديث»، ومن ثم أخذ المجرى الواسع ينكمش تدريجيًّا حتى أصبح ولم يبقَ من هذا المتسع العظيم في تلك النقطة إلا مجرى صغير لا يزيد في اتساعه عن بضع مئات الأمتار، وفي نهاية الأمر أخذ النيل يصب في البحر الأبيض المتوسط، غير أن ذلك لم يكن بوساطة مصبه الحالي، بل بخليج ثلاثي الشكل يبعد عن البحر بنحو ٢٠٠ كيلومتر تقريبًا، ولكن الرواسب التي كان يأتي بها النيل سنويًّا أخذت تغطي هذا المصب تدريجًا حتى كوَّنت منه الدلتا الحالية، ويشغل المصب القديم جزءًا من مدينة القاهرة الحاضرة.

ومن مدهشات الصدف أن «هيكاته» السائح اليوناني قد وصف مصر، أو بعبارة أخرى وصف الدلتا بأنها منحة النيل، وقد نقل ذلك عنه فيما بعد «هيرودوت» أبو التاريخ، وقد جاء هذا الوصف مطابقًا للواقع، بل هو الواقع نفسه، ولا جدال في أنه في هذا العصر السحيق لم تكن هناك أية صحارٍ في أفريقيا الشمالية؛ إذ كانت كل هذه الأقاليم من المحيط إلى المحيط تغمرها رطوبة حارة تزيد من اخضرار الأراضي، ولا بد أن منظر هذه البقاع كان يشبه أقاليم شمال البحر الأبيض المتوسط، حيث يتوقف نمو النباتات على التقلبات الجوية وأمطارها الغزيرة التي تجعل وظيفة الأنهار في ري الأراضي مسألة ثانوية محضة، فقد كانت هذه الأمطار تكوِّن البحيرات الشاسعة التي تسبح فيها التماسيح وجاموس البحر، وتنشأ فيها المستنقعات التي تحلق فوقها الطيور، وهذه المستنقعات كانت تشغل الأماكن المنخفضة، ولا تزال الواحات الحالية شاهدًا ناطقًا على ذلك، ولا أدل على حقيقة ما ذكرنا من وجود بركة قارون في الفيوم والبحيرات الملحة ووادي النطرون، وكانت في المناطق التي تحيط بهذه البحيرات حيوانات بعضها من آكلة الحشائش وبعضها من آكلة اللحوم، وقد انقرض بعض أجناسها واختفى نهائيًّا.

وعلى هذه الحال كانت تظهر للعيان الأرض المصرية عند بداية الزمن الجيولوجي الرابع، وهو الوقت الذي ظهرت فيه أول قبيلة بشرية.

والآن نبدأ بالكلام عن هذه العصور التي أخذ الإنسان يظهر فيها، ثم أخذ يتقدم نحو الرقي شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى تدوين أفكاره بالكتابة وهو بداية العصر التاريخي.

(٢) عصور ما قبل التاريخ

نشأ علم ما قبل التاريخ في أوروبا، ولذلك كان من البديهي أن تكون كل مصطلحاته وتعابيره العلمية أوروبية محضة، وقد بدأت دراسة هذا العلم في غربي أوروبا، ولذلك نجد بعض الاختلافات عندما نريد تطبيق ما وصل إليه من النتائج في هذه الجهة بالنتائج التي وصل إليها في شرقي أوروبا، وليس من المستغرب إذن إذا كانت هناك اختلافات في النتائج التي عرفت في أوروبا أن نجد مثلها عند تطبيقها على باقي بلاد المعمورة الأخرى، وذلك أمر طبيعي؛ إذ إن تربة كل بلد وأحوالها تطبعها بطابع خاص يميزها عن غيرها من وجوه عدة.

وقبل أن نخوض في بحث موضوعنا يجب أن نتساءل: إلى أي حد يتفق عهد ما قبل التاريخ في مصر مع عصر ما قبل التاريخ في أوروبا؟ وإلى أي مدى يختلف عنه؟ والجواب على هذا، هو أنهما يتفقان معًا في كثير من الأحوال إلى حد ما وصلت إليه معلوماتنا، اللهم إلا إذا ظهرت أشياء تنقض ذلك في المستقبل، ولذلك يجب علينا أن نقتفي في درس عصور ما قبل التاريخ المصري عصور ما قبل التاريخ الأوروبي، ونقرنهما ببعض ثم نقرِّب كلًّا منهما للآخر، وبهذه الطريقة يسهل علينا درس هذا العصر من تاريخ بلادنا.

وينحصر عصر ما قبل التاريخ المصري في المدة التي بدأ الإنسان يظهر فيها في وادي النيل إلى بداية الأسرة الأولى حوالي ٣٢٠٠ق.م.

وقد أسفرت البحوث التي قام بها العلماء في مدة الأربعين عامًا الأخيرة عن تقسيم هذا العصر الطويل إلى ثلاثة أقسام رئيسية، ولا يزال العصر الأول منها غير معترف به من كل رجال هذا العلم؛ إذ البعض يُقِرُّه وطائفة منهم تنكره:

العصر الأول: ويطلق عليه اسم عصر ما قبل الحجري القديم «الأيوليتي»، وقد استعملت فيه أحجار الظِّرَّان كما وجدت في الطبيعة مع بعض التهذيب.

العصر الثاني: ويطلق عليه اسم العصر الحجري القديم «الباليوليتي» هو عصر استعمال الحجر المهذب تهذيبًا بسيطًا بعد القطع، ومنه يتفرع العصر الحجري الحديث «النيوليتي»، وهو عصر الحجر المصقول بعد التهذيب.

العصر الثالث: الذي ظهر فيه استعمال المعادن، ويطلق عليه عصر بداية استعمال المعادن «الأنيوليتي»، وقد استعمل في هذا العصر الحجر والنحاس والحديد لعمل الآلات جنبًا إلى جنب، وقبل أن نتكلم عن هذه العصور ببعض التفصيل، يجب أن نلاحظ أنه يكاد يكون من ضروب المستحيل أن نحدد تاريخًا معينًا لعصور ما قبل التاريخ في مصر، اللهم إلا عندما ندخل في عصر بداية استعمال المعادن «الأنيوليتي»، وذلك عندما نقرن الآلات التي ظهرت في العصر نضع تواريخ نسبية وبخاصة بعد درس الفخار الذي ظهر في العصر الحجري الحديث.

وكان أول من قام بهذا الدرس الفريد في بابه الأستاذ «فلندرز بتري»، وذلك بوساطة ملاحظات استنتجها من درس مقابر سليمة عثر عليها في جبانات، يرجع تاريخها إلى عصر بداية استعمال المعادن، وأمكنه أن يرتب أنواع الفخار المختلفة التي عثر عليها في تلك المقابر إلى أصناف ظهرت في أزمان متتالية، ورقَّمها من واحد إلى ثمانين، وهذه الأرقام تعادل ما يطلق عليه تتابع التاريخ أو تاريخ التتابع، فرقم ٨٠ يعادل بداية العصر التاريخي الحقيقي أي العصر الذي ظهرت فيه الكتابة.

وأول عمل قام به السير «فلندرز بتري» في ترتيبه التاريخي المتتابع أن أخذ رقم ٣٠ وخصَّصه لأقدم ما عرف إلى عهده من أنواع الفخار، واحتفظ بالرقم من ١–٣٠ إلى ما عسى أن يكشف عنه من فخار أقدم عهدًا مما عرف، والواقع أنه كشف حديثًا في جهة بلدة البداري عن موقع قديم جدًّا يرجع عهده إلى ما قبل رقم ٣٠، وقد خصص له العلماء فعلًا رقم ٢٠–٢٩، ورغم أنه يكاد يكون من المستحيل أن نجزم بتاريخ قاطع لعصر ما قبل التاريخ المصري، إلا أنه يمكننا مؤقتًا أن نذكر على وجه التقريب أن العصر الحجري الحديث يحتمل أنه قد بدأ منذ ١٠٠٠٠ سنة، وأن بداية المعادن قد بدأ منذ حوالي ٦٠٠٠ أو ٥٠٠٠ سنة، وهذه التواريخ لا ترتكز على حقائق علمية، بل وضعت لتكون مجرد مرشد أو إشارة يُهتدى بها فحسب.

والآن نعود إلى التكلم عن كل عصر من عصور ما قبل التاريخ حسب ترتيبها الطبيعي في كلمة موجزة، ثم نتناول الكلام عن كل عصر بشيء من الإسهاب.

(٢-١) العصر الأيوليتي «عهد فجر العصر الحجري القديم»

لا جدال في أن الإنسان الأول عندما ظهر على سطح البسيطة، كان أول هم له أن يجد لنفسه سلاحًا يدافع به عن كيانه ضد الحيوانات التي كانت تحيط به ويعيش في وسطها، ولا بُدَّ أن أول ما فكر فيه من الأسلحة ما كان في متناوله، فمثلًا كان يقطع فرع شجرة ويهذِّبه ليدافع به عن نفسه، وكذلك كان يجمع ما حواليه من الأحجار الصلبة التي هيأتها له الطبيعة، ثم يهذِّبها بنفسه بعض الشيء ليجعل لها حدًّا قاطعًا ويستعملها في أغراضه، وهذه الآلات التي كانت تصنع بهذه الطريقة، قد أطلق عليها في علم الجيولوجية اسم «أيوليت».

ويعزو علماء الجيولوجية هذه الآلات إلى العصر الثالث الجيولوجي، غير أن وجود هذا العصر في حياة الإنسان على ظهر الأرض مشكوك فيه، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم وجود بقايا الإنسان في هذا العصر مطلقًا.

وفي استطاعة الإنسان في مصر أن يجمع قطعًا عدة من آلات هذا العصر من هضبة الصحراء، ولكنها كذلك مشكوك في تاريخها، وسبب ذلك يرجع إلى أن فعل المؤثرات الجوية مثل الحر والبرد وتعاقب الليل والنهار، يحدث تفتت قطع من الظِّرَّان جديدة تشبه القطع الأيوليتية القديمة، وقد جمع الأستاذ «شفينفورت» قطعًا كثيرة من هذا النوع من محطات أبواب الملوك. على أن كثيرًا من هذه القطع يظهر فيها فعل يد الإنسان، ولكنا نجدها مختلطة بآلات من العصر التالي لهذا العصر، وهو ما يسمى العصر الباليوليتي (العصر الحجري القديم)، وليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأنها من عصر أقدم، والواقع أنه لا توجد محطة مصرية قديمة أو حديثة إلا وفيها آلات صنعتها يد الإنسان وقطع من صنع الطبيعة نفسها، ثم استعملها الإنسان بمهارة، ولا نزاع في أن المبدأ القائل بالاقتصاد في استعمال القوى الإنسانية في الإنتاج، قد لعب دورًا عظيمًا في حياة الإنسان الأولى في مصر، كما كان الحال في البلاد الأخرى، ولا غرابة إذن إذا وجدنا أن الإنسان كان يستعمل القطع الطبيعية في الاستعانة بها على قضاء أغراضه في أول نشأته وفي فترة عدم درايته بالصناعات.

(٢-٢) العصر الحجري القديم

هذا العصر يعرف بعصر استعمال الحجر المهذب، وينقسم ثلاثة أقسام: وهي الحجري القديم الأسفل، ويشمل ما يقابله في أوروبا من الصناعات الشيلية[١] والآشيلية،[٢] ثم العصر الحجري القديم المتوسط، وفيه تسود الصناعات، الموستيرية Mousterienne[٣] وأخيرًا العصر الحجري القديم الأعلى، وقد سادت فيه الصناعة الأوريجناسية Aurignacienne[٤] ثم الصناعة السولوترنية Solutereenne[٥] ثم الصناعات المجدلية Magdalenienne.[٦]

(٢-٣) العصر الحجري الحديث

ويتلو العصر السالف عصر بداية المعادن، وهو عصر استعمال الحجر المصقول بعد التهذيب، وهذا العصر أقسامه مرتبكة ولا ضرورة للخوض فيها الآن.

(٢-٤) عصر بداية استعمال المعادن

وهو عصر الانتقال؛ إذ في خلاله بدأ الإنسان يستعمل المعادن، وقد توالى فيه استعمال النحاس والذهب ثم البرنز فالحديد، على أن عهد استعمال الحديد في مصر كان شاذًّا بالنسبة للبلاد الأخرى، وذلك أن مصر في عهد أوج مجدها وسؤددها التاريخي بدأ يُستعمل هذا المعدن فيها، ولم يكن معروفًا من قبل.

---

[١] نسبة لبلدة Chelles-Sur Marne وقد وجد فيها أقدم صناعة من عصر الحجر القديم السفلي.

[٢] نسبة إلى Saint Acheul إحدى ضواحي بلدة Amiens في فرنسا حيث وجدت صناعات من ثقافة هذا العصر في المرتفعات التي تحف نهر Somme.

[٣] نسبة إلى مأوى صخري في قرية Le Moustier وهي على بعد عشرة أميال من Eyzies.

[٤] نسبة إلى بلدة Aurignac وقد وجد فيها مأوى صخري وهو بالقرب من St. Gaudens في صقع البرانيز، غير أن هذا المأوى قد أزيل الآن جملة بسبب قطع الأحجار منه.

[٥] نسبة إلى مأوى صخري وجدت فيه ثقافة هذا العصر، وهو بالقرب من قرية بهذا الاسم في مقاطعة Saone-et Loire.

[٦] نسبة إلى الكهوف التي يطلق عليها اسم Madeleine Tursac على نهر دردوني Dordogne بفرنسا.

(٢-٥) مدينة العصر الحجري القديم

يعد هذا العصرُ العهدَ الذي وُجد فيه أول أثر لبقايا الإنسان؛ إذ عثر فيه فعلًا على بعض عظام بشرية وعلى الآلات التي كان يستعملها الإنسان، غير أنه من المستحيل علينا أن نحدد في أي عهد وقبل أي عدد من آلاف السنين قبل الميلاد ظهر الإنسان في العالم، وكل ما يمكن الجزم به في هذا الموضوع هو أن وجود الإنسان على ظهر البسيطة يرجع إلى أزمان سحيقة جدًّا، والتقديرات المعتدلة ترجع بظهور الإنسان إلى آلاف عدة من السنين، وفي خلال هذا العصر الطويل جدًّا قد حدثت تغيرات وتقلبات عظيمة ظاهرة جلية لا تقتصر على شكل الآلات وصناعتها ولا شكل الإنسان الذي كان يستعملها فحسب، بل تتناول كذلك التقلبات الجوية التي كانت تحيط به والتي كان من أثرها أن حدث تغير كلي في الحيوان والنباتات التي كانت تعيش وتنبت فيه، وهذا العصر الذي نحن بصدده يقع في أوائل الزمن الجيولوجي الرابع، وفيه حدثت في الجو تقلبات من بارد إلى حار كما أثبت ذلك علماء الجيولوجية.

ويتميز هذا الزمن بزحف الجليد الذي غمر الجبال الشامخة ثم تقهقر ثانية مما كان يسبب انخفاض درجة الحرارة، وكل ما يهمنا في ذلك هو أن العصر الحجري السفلي قد بدأ في نهاية عصر حدث فيه تقهقر جليدي، على حين أن العصرين الحجري المتوسط والأعلى يتفقان مع الزمن الجليدي المتتابع، وبظهور العصر الحجري الحديث تبتدئ فترة تقهقر جليدي جديدة لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

العصر الحجري القديم السفلي

يمتاز هذا العصر بجو حار رطب يشبه جو المناطق الاستوائية الآن، غير أنه كان يميل إلى البرودة التدريجية، وهذه الحالة في أوروبا تنطبق على أفريقيا الشمالية أيضًا، على أن الوصف الذي أوجزناه عن القطر المصري في فجر عصر ما قبل التاريخ يمكن تطبيقه على الأقاليم الواقعة شمال حوض البحر الأبيض المتوسط، ولدينا براهين عدة من حفريات العظام التي استخرجت من رواسب الزمن البلستوسيني (الزمن الرابع)، وقد عرفنا أنه كان ينمو في أوروبا في ذلك العهد حيوانات من ذوات الثدي، في وسط غابات كثيفة وعلى شواطئ مجاري مياه، وكانت عظيمة الحجم مثل جاموس البحر ووحيد القرن، والفيل الضخم والدب والضبع والغزال والحصان وغزال الأركس. وقد اختفى كثير من هذه

الحيوانات الآن، على حين أن بعضها قد هاجر فيما بعد نحو الأقطار الاستوائية هاربًا من شدة البرد الذي اكتسحه في الزمن الذي تلى هذا العهد.

وعثر على بعض بقايا بشرية مختلطة ببقايا حيوانات معاصرة، غير أن ما عثر عليه لم يكن إلا أجزاء من جماجم مثل فك «مور»[٧] المشهور أو بعض عظام بسيطة، وقد سهَّل جو هذا الزمن المعتدل للإنسان أن يعيش في الهواء الطلق على شواطئ الأنهار والبحيرات أو في الغابات، وكان هذا الإنسان يتخذ أكواخًا من فروع الأشجار مسكنًا له. أما مقابرهم فيظهر أنها قلبت رأسًا على عقب بفعل الفيضانات التي كانت تخرِّب هذه الجهات تخريبًا ذريعًا، ولذلك لم يعثر منها على آثار تُذكر، مع أن هذه البقايا الضئيلة التي عثر عليها في الرواسب — وهي بلا شك — ذات قيمة عظيمة، قد عرفنا منها أن الجنس البشري في ذلك الوقت كان منحطًّا جدًّا، غير أن عدم العثور على هيكل تام لم يمكننا من إعطاء رأي قاطع في تركيبه الطبعي.

أما عن صناعة هذا العصر فإن معلوماتنا قد زادت؛ لأن بعض المواد التي استعملها إنسان ذلك العصر تكاد تكون غير قابلة للتلف رغم مر العصور. حقًّا إن الدبابيس ذات القبضة المصنوعة من الخشب، لم تحفظ لنا كغيرها من الأشياء المصنوعة من المواد القابلة للعطب مثل جلد الحيوان ولحاء الأشجار، التي كان يستعملها ذلك الإنسان غطاء له، ولكن أسلحة الصيد والحرب وكذلك الآلات التي كان يستعملها في سلخ فريسته كانت مصنوعة من حجر صلب وأرهف حدها، وقد قاومت هذه الآلات تأثير الزمن وبقيت إلى عصرنا هذا، وقد عثر عليها مهملة على شواطئ الأنهار مدفونة تحت طبقات سميكة من الحصا الذي دحرجته تيارات الماء السريعة معها، وكان إنسان ذلك العصر عندما يعوزه الظِّرَّان وهو أهم مادة لصنع آلاته، يستعمل بدلًا منه الكورتسيت أو الأحجار البركانية أو الحجر الجيري الأبيض الصلب، وأهم آلة كانت مستعملة في هذا العصر هي «البلطة» الغليظة البيضية الشكل، وقد تكون مثلثة ذات شفرات حادة تتصل بحد مرهف قاطع، وتصنع هذه الآلة من قطعة من الظِّرَّان طبيعية على شكل الكلى، وذلك بإزالة شظايا

[٧] نسبة إلى مكان بهذا الاسم Mauer بالقرب من مدينة «اليهدلبرج» في ألمانيا، والظاهر أن عهده يرجع إلى زمن تقهقر جليدي، وهذا المكان يحتوي على بقايا حيوانات تؤكد الاستنتاج إذ يحتوي على بقايا عظم لوحيد القرن، وهذا الفك لا دقن له وهو عظيم الحجم، ولكن الأسنان تدل على أنه للإنسان، ويعتبرها المؤرخون أنها من حجر الموستيري.

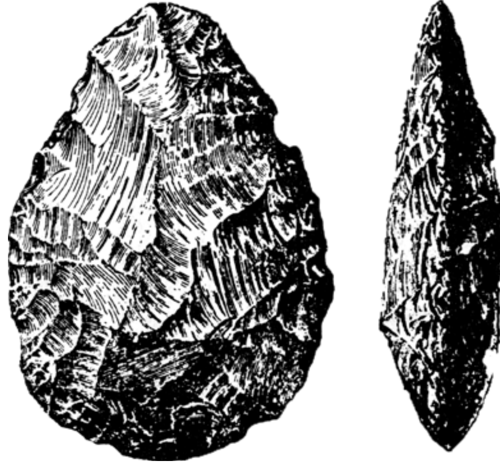
متعادلة من حروف قطعة الظِّرَّان هذه بوساطة أزميل، وهذه الآلة كانت عظيمة الخطر في يد المحارب، على أنها كانت كذلك تستعمل لأغراض أخرى، ويوجد نوع منها لم يهذب إلا من أحد وجهيه ويستعمل كمقطع لتخليص العظام من اللحم ولسلخ الجلود.

وخلافًا لهذه الآلات التي يطلق عليها ذات الوجهين Bifaces، والتي قد تصل أحيانًا إلى حجم عظيم، فإن إنسان هذا العصر استعمل شظايا بسيطة كان يحصل عليها بقطع كلية من الظِّرَّان تهمل نواتها في النهاية، ويلاحظ دائمًا أن كل شظية تقطع بهذه الكيفية فيها بروز مستدير عند النقطة التي وقع عليها الكسر، الذي يترك أثرًا على هيئة تجويف في النواة نفسها، وهذه العلامة تعد بمثابة خاصية مميزة للمصنع الذي صنعت فيه، مما يثبت لنا أن هذه الشظية قد قطعت وهذبت قصدًا وذلك مما لا يوجد في الشظايا الطبيعية.

وهذه الشظايا مرهفة الحد كالموسى القاطع، ولذلك كانت تستعمل بدلًا من السكاكين، وأحيانًا تستعمل كمشط، وذلك بعد إجراء بعض إصلاح في أحد وجهيها أو في نهاية الشظية، وهذه الإصلاحات أو «الرتوش» لا تتناول الوجه العلوي من الشظية، ولذلك يطلق عليها اسم الآلات ذات الوجه الواحد، وكذلك يدخل تحت هذا النوع من الآلات ذات الوجه الواحد الشظايا التي كانت تصنع بهذه الكيفية، لتحضير الجلود والعظام التي كان يستعملها إنسان هذا العصر.

أما عن أخلاق هذا الإنسان وعاداته، فإنا لا نكاد نعرف عنها شيئًا قط، اللهم إلا أنه كان لا يختلف كثيرًا عن قبائل الأقزام الذين يتجولون في الغابات الاستوائية، ويعيشون على صيد البر والبحر.

وإذا كنا لا نعرف شيئًا عن هذا الإنسان من الوجهة الاجتماعية أو الخلقية والدينية، لأنها لا تزال موضع تخمين، إلا أننا من جهة أخرى يمكننا أن نحكم عليه من الآلات التي صنعها، والتي هي الآن في متناولنا؛ إذ تبرزه لنا كإنسان راقٍ يسيطر بذكائه على الحيوان الذي يشن عليه الحرب يوميًّا، يضاف إلى ذلك أنه كان في قدرته أن يخترع ويحسن كل ما هو في متناوله، فقد عرف كيف يوقد النار ويطهو طعامه، هذا رغم أنه كان لا يعرف إلى هذا الوقت صناعة الفخار، واستعداد هذا الإنسان وقدرته على أسباب الرقي يظهر جليًّا عندما ننتقل من طبقة إلى أخرى في القطاعات التي بحثت في الأماكن التي يرجع عهدها إلى العصر الحجري القديم، فمثلًا نلاحظ أن البلطة الثقيلة الخشنة الصنع التي توجد في أسفل طبقة من العصر الحجري تخفُّ تدريجيًّا في الطبقات العلوية، ويحل محلها آلات أحسن صنعًا، وبذلك تختفي الصناعة الشيلية الخشنة أمام الصناعة الآشلية التي أنتجت آلات تعد من فرائد الفن.



ظران من العصر الحجري القديم السفلي (صناعة شيلية عثر عليها في «إسنا»).

على أن كل ما كشف إلى الآن في أوروبا من العصر الحجري القديم السفلي ينطبق في مجموعه على كل ما عثر عليه في مصر.



ظران من العهد الشيلي عثر عليه على طريق القوافل بين الواحة الخارجة و«العرابة».

وكذلك الأبحاث العدة التي عملت في أفريقيا الشمالية تتفق مع ما كشف في أوروبا، وقد صرَّح علماء ما قبل التاريخ بأن حالة الحياة كانت على ساحل البحر الأبيض المتوسط



قبضة يد من الظِّرَّان من العصر الشيلي الأوربي.



بلط من الظِّرَّان عثر عليها في طيبة من العهد الآشيلي.

كله واحدة، ولا ريب أن في هذا الزمن كان مضيق جبل طارق مفتوحًا في بداية الزمن البلستوسيني، وبذلك انمحى الاتصال القديم الذي كان بين إسبانيا ومراكش، ولكن يظن في الوقت نفسه أنه كانت هناك قنطرة عظيمة طبيعية تربط تونس بصقلية وإيطاليا



قبضة يد من الظِّرَّان من العصر الآشيلي «تستعمل كبلطة».

الشمالية ولو أن ذلك مشكوك فيه إلا أنه — على كل حال — لم يكن الاتصال عسيرًا بين شاطئ بحر داخلي أقل اتساعًا من البحر الأبيض المتوسط الحالي.

ويمكننا أن نشبِّه هذا القطر — الذي انكمش الجزء المسكون منه إلى شريط ساحلي — بجَنَّة تجري من تحتها الأنهار، حيث كانت الأمطار الغزيرة تكسوه خضرة يانعة وغابات تحف جبال الأطلس الشاهقة، وأشجار تغطي السهول، وكانت عيون الماء والأنهار تتدفق فيها مجتذبة إليها حيوان أفريقيا المختلف الأنواع كالجمل وحمار الحبشة والقردة ومختلف أنواع الغزال والثيران التي تشبه حيوانات أوروبا في هذا العهد، وفي هذا الإقليم الذي يكثر فيه حيوان الصيد نجد آثار الإنسان في كل مكان إلى مسافات آلاف الكيلومترات من وسط المساكن الحالية.

وكان وادي النيل الذي لم يكن يفصله إلا فاصل صحراوي عن الممالك المجاورة له في ذلك الوقت يتمتع بمناخ يشبهها، وفيه من الحيوانات مثل ما فيها، وقد عثر على بعض بقايا منها ولكنها لا تعطينا فكرة واضحة، ولا شك أن الأسنان والعظام التي استخرجت من مصب النيل عند سهل العباسية الحالي، قد سدَّت نقصًا كان في سلسلة الملاحظات التي قام بها علماء الحيوان والنبات لذلك العهد، من مراكش إلى تونس. ورغم أن دراستها لم تتم إلى الآن إلا أننا نعلم أنها لتماسيح وحيوانات ثديية عظيمة الحجم مثل الفيل

وجاموس البحر والثيران، وهذه العظام والأسنان تشبه عظام الحيوانات المنسوبة للعصر الحجري القديم السفلي التي عثر عليها في أفريقيا الشمالية، وإذا كانت الرواسب النيلية لم تكشف لنا للآن عن بقايا بشرية، فإننا من جهة أخرى قد عثرنا على آلات شيلية وآشلية تشبه ما عثر عليه في أوروبا في ذلك العهد، وبذلك ظهر لنا أن وحدة الحيوان والجو في كِلَا الجهتين كانت متشابهة، وقد عثر فعلًا على «بلط» مبعثرة أو مجتمعة على سطح الأرض في كل مكان تقريبًا، فنجدها على الهضاب التي كانت تحتضن النهر في ذلك الوقت، وعلى المرتفعات التي انحسرت عنها المياه، وفي قعر الوديان، وفي منحدراتها.

وقد سبق أن ذكرنا المصانع التي عثر عليها «أرسلان» في تلال أبواب الملوك، وقد استغلها من بعده عدد من الباحثين، وقد عثروا على بعض آلات جميلة لوزية الشكل لونها لون الشيكولاتة وذلك مميز خاص لها، ويوجد منها عدد عظيم يزيِّن متاحف أوروبا الآن، وقد كشف عن أماكن أخرى العالم «دي مرجان» في الوجه القبلي مثل طوخ و«العرابة» وإسنا، وكذلك عثر على مصانع في الفيوم وفي منطقة الأهرام بمنف، ومنذ ذلك العهد أخذت الكشوف تترى في كل جهات الوادي، وسنكتفي بذكر أهمها ونخص بالكلام المحطة التي عثر عليها بالقرب من نجع حمادي المعروفة بأبي النور ومصنعًا في الجبل الأحمر الواقع في الشمال الشرقي من القاهرة، وقد وجدت فيه مجموعة آلات مصنوعة من حجر الكوارتسيت، وبالقرب من قنا عثر على مصنع يرجع عهده إلى الصناعة الآشيلية.

وقد كشفت الأبحاث أن العصر الحجري القديم السفلي لا يقتصر على شاطئ النيل، بل يمتد إلى الصحاري التي تحتضن هذا النهر العظيم بين جنبيها، ولا أدل على ذلك من الآلات التي وجدها الأب «ريشار» في الغابات المتحجرة الواقعة شرقي القاهرة الحالية، وقد كان وجودها في هذا المكان الباعث له على هذه الفكرة، ثم جاءت أبحاث العالم «شفينفورت» أيضًا تؤيد هذه الفكرة، ولما كان العالم «دي مرجان» كلف بمعرفة مقدار امتداد الصناعات الأولية الفطرية لذلك العصر، أرسل العالم «لجران» لارتياد الصحراء اللوبية، وفعلًا صادف في طريقه من الأقصر إلى الواحة الخارجة ثم من الخارجة للعرابة المدفونة عدة مصانع سطحية، وكذلك عثر على طرق قديمة كانت تبتدئ من النيل إلى الواحات، وقد لاحظ قاعدة عامة هي أنه عند كل عقبة — أي عند كل نقطة يجتاز فيها طريق القوافل هضبة حادة — كانت توجد محطة من العصر الحجري القديم السفلي، وكذلك قام «هنري دي مرجان» شقيق «دي مرجان» مدير مصلحة الآثار برحلة، وقد لاحظ نفس الملاحظات في الوديان التي تربط إسنا بواحة كركور.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا المصانع العدة التي عثر عليها «شفينفورت» قبل بداية الحرب العظمى في أبي العجاج الذي ينفذ على النيل شمال أسوان، وهذه المصانع كانت تصنع فيها آلات من الحجر النوبي، وقد قام عدد من العلماء في السنين الأخيرة بفحص الواحات فحصًا منظمًا فعثرت الحملة التي قام بها الأمير كمال الدين حسين على آلات من الصناعة الشيلية والآشيلية على الهضاب التي تمتد غرب الواحات، ويمكن رؤيتها حتى على مرتفعات «العوينات» في قلب الصحراء.

على أن هذه المحطات السطحية مهما كانت فائدتها، فإنها في الواقع لم تشف غلة الباحث المدقق إلا قليلًا. إذ إنها وإن كانت قد كشفت لنا عن وجود إنسان العصر الحجري القديم ومواطن سكناه في مصر إلا أنها لم تبرز لنا شيئًا عن صناعته وتدرجها نحو الرقي، ويلاحظ أن هذه الأماكن التي كان يختارها الإنسان الأولي قريبة من المياه ومن مناطق خصبة عامرة بالنبات زاخرة بحيوان الصيد، كانت تسكن القبائل الفطرية أحيانًا قرونًا عدة حتى يأتي وقت يضطرون فيه إلى الهجرة منها. ومن أجل ذلك نجد على سطح الأرض آلات مختلطًا بعضها ببعض وأسلحة من الحجر تركها السكان الذين كانوا غالبًا من شعوب مختلفي الثقافة، وليس من السهل وجود أماكن لم يحدث فيها اختلاط، وقد كان من حسن حظ الباحث «سند فورد» أنه عثر على محطة من هذا النوع الأخير في إقليم قنا.

ومنذ زمن بعيد أخذ العلماء يبحثون عن الرواسب التي تخبئ في باطنها أقدم الآلات التي صنعها الإنسان الفطري، وقد جادت الصدف السعيدة بوجود آلات مرتبة حسب قدمها في طبقات جيولوجية بعضها فوق بعض، وقد حاول بعض العلماء من قبل الوصول إلى ذلك، ولكنهم لم يفلحوا حتى أسعد الحظ العالم «دي مرجان» قبل موته ببضعة أشهر، فعثر على رواسب في طبقات بعضها فوق بعض حلَّت المشكل نهائيًّا، وهذه الرواسب كانت موجودة غير أنه كان من الضروري البحث عنها في مظانها، وكان ذلك لا يتأتى إلا في جوف الأرض على بعد عميق؛ أي عند مصب النهر القديم؛ إذ هناك تقف المياه في طريق مجراها، وتترك رواسبها التي لا يمكن حملها أبعد من ذلك، وقد كان من الطبيعي أن تتجمع هذه الرواسب طوال مدة العصر الحجري القديم السفلي حافظة في طبقاتها التي تكوِّن بعضها فوق بعض بقايا الصناعات المعاصرة لكل طبقة.

وهذه الأراضي قد أصبحت في مستوى واحد عند بداية الدلتا وعلى حافتها، حيث لم يتمكن الغرين الحالي من تغطيتها بعد أن زالت عنها المياه، وجفَّت في أول العصر

الحجري القديم، وبهذه الكيفية بقي سهل العباسية الصغير لم يمس بعيدًا عن فعل الفيضان، وهذا السهل يمتد من سفح هضبة النيل القديمة الواقعة في الشمال الشرقي من القاهرة، وقد سهَّل أخذ الرمل والزلط لمباني مدينة القاهرة الحالية منه حفر هذا الشريط الصحراوي إلى عمق عظيم يبلغ نحو ٣٠ مترًا أو يزيد، كما سهَّل ذلك أيضًا درس المنطقة ومحتويات طبقاتها، وفعلًا وجدت الرواسب النيلية فيها بسمك عشرة أمتار في المتوسط، وعثر في وسط الزلط على الآلات التي تبرهن على توالي صناعات العصر الحجري القديم تواليًا تاريخيًّا، فوجدت الآلات الشيلية ثم الآشيلية بعضها فوق بعض، وقد اختلط بها بعض بقايا الحيوانات المعاصرة، وهذه الآلات وجدت منفصلة بوضوح عن الآلات الموستيرية التي لا توجد إلا على سطح السهل، وقد حقَّق هذه النتيجة البحث الذي قام به كل من الأثري «سند فورد» و«أركل»، وكانت جامعة شيكاجو قد كلفتهما ببحث عام في وادي النيل، وتوابعه فقاما ببحوث منظمة في رواسب مرتفعات جهات «قاو» و«أرمنت» ومنخفض الفيوم، وقد كانت البحوث منتجة وبخاصة في «وادي قنا» حيث أصاب الباحث «مري» نجاحًا من قبل؛ إذ جمع مجموعة من الآلات الجميلة، فهناك وجدت آلات العصر الحجري القديم السفلي في مكانها الأصلي في الرواسب البلستوسينية كما وجدت صناعات مما يرى على السطح، فوجد منها من أول الشيلية إلى الموستيرية، وكان بعضها منفصلًا عن بعض بوضوح على المرتفعات التي يتراوح عمقها بين ٣٥ مترًا وخمسة أمتار تقريبًا على كِلَا شِقَّيِ الوادي.

العصر الحجري القديم المتوسط

ترجع معرفتنا للإنسان الموستيري في أوروبا أكثر من معرفتنا لإنسان العصر الذي سبقه إلى عوامل طبيعية غيَّرت معيشته تغيرًا عظيمًا، وذلك أن درجة الحرارة التي كانت مرتفعة في العصر الشيلي قد أخذت في الانخفاض في العصر الذي أعقبه، كما تبرهن على ذلك كثرة الرواسب الآشيلية من بقايا فيل عظيم ذي شعر كثيف، وهو المعروف بالماموث الذي لا يعيش الآن في الجو البارد، وبانتهاء العصر الحجري القديم السفلي ينتهي كذلك عصر تقهقر الجليد، ويتفق العصر الحجري القديم المتوسط مع عصر جليد طويل امتد حتى العصر الحجري القديم الأعلى، وفي ذلك العصر أخذت الحيوانات ذوات الجلد السميك تتقهقر نحو الجنوب متخلية عن أماكنها تدريجًا إلى الحيوانات الأخرى ذوات الثدي التي هاجرت من البلاد الشمالية، ولم يبقَ في مكانه إلا الماموث ووحيد القرن صاحب الخرطوم

المقسم بنتوء، وفي خلال هذا العصر أخذ الإنسان يتخلى عن عيشة الهواء الطلق، واتخذ مأواه إما تحت الصخور أو في الكهوف العميقة التي كان يشاطره فيها الضبع ودب الكهوف التي كانت أول من سكنها، أما موقده فكان يقيمه على الفضاء الذي يتقدم مدخل كهفه أو عند باب الكهف نفسه.

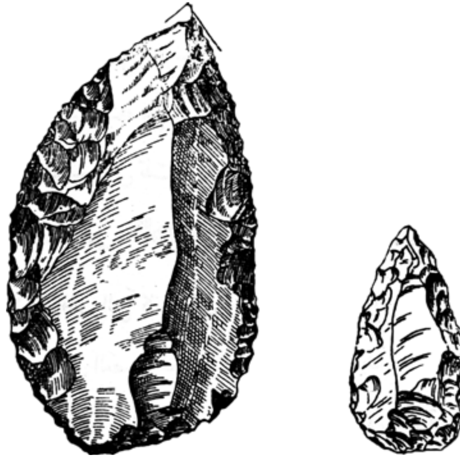
وهناك وجدت مخلفاته وجبانته مختلطة مع بقايا آلاته، وقد تكوَّن من هذه البقايا فيما بعد أكوام من الرواسب متماسكة بفعل الترشيح المختلط بالمواد الجيرية، وفي هذه الأكوام تجمعت عظام الحيوانات التي كان يصطادها الإنسان مع آلات الظِّرَّان. وهذه الأكوام كانت في الواقع بمثابة سجلات غير مكتوبة وبها يمكن المؤرخ أن يعرف مقدار الرقي أو الانحطاط في الصناعة من مستوى لآخر من الطبقات التي كان بعضها موضوعًا فوق بعض وضعًا تاريخيًّا، وكذلك يمكنه أن يُرتِّب حيوانات هذا العصر حسب قدمها التاريخي، وأعظم من ذلك كله أن الإنسان الموستيري كان يدفن في هذه المغارات نفسها ومعه حليه وسلاحه، وقد كان مجهزًا بما يحتاج إليه في آخرته، وقد عثر على هياكل آدمية تامة درست درسًا علميًّا، ولا شك أن الحفائر المنظمة التي عملت في هذه المقابر التي سكنها الإنسان مددًا طويلة مكَّنت العلماء من وضع أساس لتاريخ الصناعات التي أتت متتابعة منذ العصر الموستيري إلى العصر الحجري الحديث، وقد بدت تغيرات واضحة في فن تهذيب الظِّرَّان؛ إذ نجد أن الدبوس الذي حذق في إتقانه الإنسان الآشيلي إلى درجة عظيمة قد أخذ ينحط انحطاطًا عظيمًا في عهد الإنسان الموستيري؛ إذ صغر حجمه حتى أصبح ضئيلًا جدًّا، وكان ذلك بمثابة إعلان لإهمال استعماله، أما الآلة الخاصة بهذا العصر فهي شظية من الظِّرَّان مثلثة الشكل مرهفة الحد قد اقتطعها الصانع من نواة حجرية جهزت بعناية لهذا الغرض بطريقة تحتاج إلى مهارة فائقة، وقد أطلق المؤرخون على هذه الآلة اسم ظهر السلحفاة لقربها من هذا الشكل، وهذه الآلات الحادة كانت بمثابة سهام يثبتها المحارب في نهاية حربته، وكذلك كان يصنع شظايا أخرى يستعملها محشة أو مقراضًا أو منشارًا لحاجياته اليومية. على أن كل هذه الآلات كانت لا تهذب إلا من وجه واحد وهو العلوي عادة أما تهذيب الوجهين فقد استمر على العكس يستعمل في بعض «أقراص» ذات حد قاطع، وهي التي كانت تستعمل أحجارًا للمقلاع.

وقد انتشرت المدنية الموستيرية كسابقتها في كل أفريقيا الشمالية وعثر عليها في آسيا، وقد وجدت براهين عدة تثبت ذلك، وبينما نجد وحدة ظاهرة في الجو والصناعة في العصر الشيلي الآشيلي على كِلَا شاطئي البحر الداخلي؛ إذ نجد في الوقت نفسه أنه قد ظهر خلاف

بين الموستيري الأوروبي وما يماثله في أفريقيا. حقًّا قد عثر في جبال الأطلس وبلاد الحبشة على آثار امتداد الجليد، والرواسب التي عثر عليها في كهوف بلاد الجزائر مما يدل على أنها كانت مستعملة، ولكن من جهة أخرى تدل الملاحظات العامة التي قام بها العلماء على أن برودة الجو التي كانت محسوسة تمامًا في أوروبا في العهد الحجري القديم المتوسط، كانت أقل بكثير في المنطقة الأفريقية؛ وذلك لأن انخفاض الجبال الأفريقية لم يساعد على تكوين جليد بدرجة عظيمة مثل الجليد الذي كان في أوروبا الوسطى.

أما الحيوانات وإن كان قد حدث فيها بعض التغيير إلا أنها بقيت على حالتها الاستوائية أو السودانية، فلم نجد من بينها الماموث أو الحيوانات الأخرى التي تميز العصر الموستيري، وفي الجملة، فإن الحالة العامة للحياة قد بقيت تقريبًا كما كانت عليها في العصر المتقدم الذكر، وقد كان إنسان العصر الموستيري أكثر سعادة في أفريقيا منه في أوروبا؛ إذ كان الأخير مضطرًّا لأن يعيش في الكهوف، أما الإنسان الأفريقي فقد استمر يعيش في الهواء الطلق ويتمتع بالصيد، والظاهر أن الكهوف لم تكن تستعمل إلا عندما تكون بالقرب من الجبال حيث يشعر الإنسان ببرودة الثلج، أما في مصر حيث كان ارتفاع الجبال ضئيلًا، فإنه لم يعثر على كهف سكن فيه الإنسان يرجع تاريخه إلى هذا العصر، والواقع أن المحطات الموستيرية توجد عادة على سطح الأرض وهي في تبعثرها تتفق في مجموعها مع المحطات التي عثر عليها في العصر السابق، والآلات المدببة التي يمتاز بها هذا العصر، وهي التي وجدت معها النواة التي صنعت منها، فقد عثر عليها في أماكن عدة في وادي النيل وفي المناطق الصحراوية التي كانت لا تزال وقتئذ آهلة بالسكان، وقد وجدت هذه الشظايا المدببة في حالات كثيرة مختلطة مع البلط التي خلفها السكان الأُول، وهذا الاختلاط العادي لتلك الآلات الذي يمكن ملاحظته على حدود الصحراء، كما يلاحظ في مصانع تلال طيبة قد حدا بالعالم «دي مرجان» أن يعتقد أن هذين الصنفين من الصناعة قد أخرجتهما يد واحدة في عصر واحد، أما الرأي القائل بأن الصناعات الموستيرية قد وجدت في أماكن مختلفة منفصلة بوضوح عن الصناعة الشيلية الآشيلية، فأصبح لا يؤخذ به، وقد اعترف العالم «دي مرجان» نفسه في كتابه الذي طبع بعد وفاته بذلك الرأي، وتفسيرًا لذلك يمكن الإنسان أن يقارن محطات الجبل الأحمر بمحطات العباسية التي لا تبعد عن بعضها إلا بضع مئات من الأمتار، فيلاحظ الإنسان في الأولى آلات من الشظايا المدببة يرجع عهدها إلى العصر الموستيري وبلطًا من العصر الآشيلي، وكلا النوعين قد اختلط بصاحبه. كل هذه وجدت مطمورة في سفح الهضبة على طول مجرى ماء مختفٍ،

أما في المحطة الثانية «العباسية» فإن الأمر على عكس ذلك فالآلات التي توجد على عمق بعيد يرجع عهدها إلى العصر الحجري القديم السفلي، أما الآلات الموستيرية فإنها تظهر على سطح الأرض، وذلك أنه لما كان تقهقر الماء محسوسًا في ذلك العصر فقد تسبب عنه ظهور رواسب متراكمة في خلال القرون التي سلفت في قعر مصب النهر الذي أصبح فيما بعد بداية الدلتا.



أسلحة مدببة من الظِّرَّان (صناعة موستيرية).

وهذه الأراضي المتخلفة سمحت لبعض القبائل الموستيرية أن تعيش عليها، وقد جاءت الأبحاث العلمية المنظمة التي قام بها علماء ما قبل التاريخ وعلماء الجيولوجية منذ عدة أعوام مثبتة لهذه النتيجة الأولى، ومن أهم هذه الأبحاث ما قامت به كل من «مس كيتون» و«مس جردنر» في الفيوم. إذ عثر على بحيرة قديمة موستيرية، وهي التي عرفت بقاياها فيما بعد ببحيرة موريس، وقد بقي جزء منها إلى الآن يطلق عليه اسم بركة قارون، وكذلك عثر العالم «سند فورد» وزميله «أركل» في الوجه القبلي وفي الفيوم على محطات موستيرية على تلال قليلة الارتفاع بين أغوار الوديان الحالية، وبين السطح الأعلى الذي توجد فيه الصناعات الشيلية والآشيلية، وتدل الملاحظات العدة التي استنتجها العلماء

واتفقوا عليها جميعًا أن البلاد كانت — ولا تزال — في ذلك العهد في معظمها تروى، غير أن النيل وروافده كانت قد أخذت في النقصان رغم شدة انحدارها، وكان النهر إذ ذاك آخذًا في حفر مجراه إلى عمق بعيد، وفي الوقت نفسه بدأ مجراه ينكمش كما يبدو ذلك من تدرج انكماش شاطئيه، ولا نزاع في أن الإنسان كان يتبع المياه التي لا مندوحة لحياته عنها في تقهقرها، وقد بقي هكذا يتبع سير تقهقر المياه في خلال العصور التي تلت بدون انقطاع حتى أصبح النيل على ما هو عليه الآن.

العصر الحجري القديم الأعلى

أخذت الاختلافات التي كانت بين أوروبا وأفريقيا في العصر الحجري القديم المتوسط تزداد في خلال العصر الحجري القديم الأعلى؛ إذ بدأ البرد يزداد شدة في أوروبا وكان في البداية رطبًا ثم ازداد حدة حتى صار قارسًا في النهاية، وقد شاهد الإنسان الموستيري كثرة وجود الماموث، كما وجد جاموس البحر بكثرة في العصر الشيلي، ومنذ ذلك العهد أخذ الماموث يندر وجوده في آن واحد وأخذ الحيوان المسمى بالوعل — نوع من الغزال له قرون متفرعة — يظهر، وكذلك أخذ الحصان يظهر بكثرة، أما الإنسان فقد بقي يسكن كهفه حيث عثر على طبقات جديدة البقايا عرفنا منها تدريجيًّا مستوى الأرض. أما المقابر فكانت تحفر بجوار الموقد، وقد عرفنا منها الجنس البشري الجميل الذي أطلق عليه العلماء اسم Cro-Magnon[8] الذي لا يكاد يختلف عن الإنسان الحالي في شيء ومن المدهش أنه عثر في تلك الكهوف على مظاهر فن حقيقي غاية في الإتقان، ولم نجد علامات تدل على قرب ظهوره في الفن الموستيري الخشن الذي سبقه، والواقع أنه لم يكن رائده في إخراج صناعته المنفعة المحضة، فقد لوحظ أنه لم يكن مجرد صانع بسيط، بل كان يميل بطبعه لتنميق الأسلحة والأدوات المنزلية التي كانت تحذقها يده، ولقد كان عدد القطع الفنية المصنوعة من العظم والعاج وقرون الوعول كثيرة، لدرجة أن العصر الحجري القديم الأعلى يستحق أن يطلق عليه اسم عصر فن الحفر الدقيق وعصر صناعة العاج وحفره، ولم يكتف إنسان هذا العصر بتزيين خطافه والآلات التي كان يستعملها، بأشكال

[8] وهو مخبأ صخري بالقرب من سكة حديد بلدة Les Eyzies، وقد عثر فيه على عدة مدافن آدمية، وكان بعض الهياكل مزينًا بقلائد من أصداف البحر ولو أن البحر بعيد عن هذه المنطقة.

هندسية أو نباتية، بل تخطى ذلك إلى رسم الأشياء الصعبة المستعصية من الأشكال الحية حتى جسم الإنسان نفسه، فنشاهد أنه كانت تحفر صور حيوان الماموث وبقر الوحش والوعل على ألواح الشيست، وعلى العظام بمهارة يظهر فيها صدق التعبير والحركات التي تكاد تكون هي الطبيعة بعينها، وكذلك كان يصور بأحجام كبيرة حيوانات أخرى تظهر فيها الحقيقة الخلابة، وقد كان يحلي بها جدران كهفه ملونة باللون الأحمر أو الأسود، وقد كانت أحيانًا تصور تصويرًا بارزًا أو تصنع من الصلصال.

وكثيرًا ما كانت هذه الرسوم والأشكال تخفى في نهاية غرف لا يكاد يصل إليها الإنسان إذا كانت ثمة محاريب سرية لديانة فطرية، كانت تقام فيها شعائر وطقوس سحرية ربما كان الغرض منها أن تجعل تحت تصرف الصياد الحيوانات التي يريد صيدها، وكذلك تمتاز صناعة هذا العصر باستعمال شظايا الظِّرَّان بطريقة حازمة، وذلك أن صانع هذا العصر ترك الصناعة الموستيرية، ورجع إلى استعمال النواة القديمة التي كان يستخرج منها أسلحته الجميلة وهي التي كانت تمتاز بطولها ورقتها. والواقع أنه كان يستطيع بوساطة تحسينات حاذقة أن يصنع من تلك الشظايا البسيطة آلات متعددة الأنواع يصعب علينا غالبًا أن نعرف كيف كان إنسان هذا العصر يستعملها، فمنها المنقش، والمبرد ذو الأسنان، والنصال ذات الحزات والنصال ذات الظهر.

والعصور الثلاثة التي ينقسم إليها العصر الحجري القديم الأعلى لا تهم المؤرخ المصري إلا من بعيد، وسنكتفي هنا بأن نشير إلى أنه بين العهد الأوريجانسي Aurignacien الذي يظهر فيه فن الزخرفة، والعهد المجدلي الذي يبلغ فيه هذا الفن قمته تظهر في بعض الأقاليم الصناعية الغربية التي يطلق عليها اسم السلوترنية Solutreenne، فتقدمت صناعة آلات الظِّرَّان المهذبة من الوجهين، وهي التي ظهرت في شكل سنان مدهشة على «ورقة الغار»، ويجب هنا أن نشير إلى أن صناعة الظِّرَّان كانت آخذة في الانحطاط في نهاية العهد المجدلي وأخذ يظهر في أشكال هندسية، وقد عثر على هذه الأشكال في أوائل العصر الحجري القديم الأعلى، وقد استمر إنسان أفريقيا الشمالية يتمتع في خلال هذا العصر بما كان يتمتع به إنسان العصر السابق من نعم الجو الجميل، وقد كان سكان الجبال فقط هم الذين يحتمون من غائلة البرد في الكهوف التي يستعملها أهل العصر السالف، أما سكان الهواء الطلق فكانوا يعيشون في الأقاليم ذات الارتفاعات القليلة في العادة. على أن توزيع هذه الأمطار جغرافيًّا يكشف لنا عن جو أشد حرارة من جو أوروبا في هذا العصر، ولكن أكثر جفافًا في الوقت نفسه من الجو الذي كان يسود أفريقيا في



صناعات عظمية من العصر الحجري القديم الأعلى.

العهد الموستيري، فقد كانت الأمطار أقل غزارة؛ إذ لم تكن كافية لتغذية الأنهار التي كانت آخذة في التناقص، وكذلك البحيرات التي كان سطحها آخذًا في الانخفاض، ولذلك بدأت النباتات التي كانت تنمو على الهضاب تقل، وفعلًا أخذت الأقطار تنقلب إلى صحارٍ وبعد أن كانت جنات خضراء صارت قفارًا قاحلة يسود فيها العطش والموت الأسود. يضاف إلى ذلك أن الحيوانات التي كانت لا تختلف كثيرًا عن حيوانات عصرنا هذا لم تهاجر نحو الجنوب، فكان منها ما هو منتشر مثل النعامة والغزلان والوعل، وكذلك وحيد القرن والزرافة وحمار الوحش. أما الإنسان فكان يتبع تقهقر المياه وأخذت مساكنه تنكمش



آلات من الظِّرَّان ترجع للعهد الأوريجناسي.

وتنحصر في أماكن خاصة ولاسيما بعد أن أخذ يهجر الأقاليم الشاسعة التي غزاها القحط ولم يعد إليها ثانية.

ولا نعرف إنسان هذا العصر إلا بآثار ضئيلة حفظت لنا في الكهوف التي كان يسكنها، وجنس هذا الإنسان لا ينسب لإنسان Neanderthal[٩] ولا إلى إنسان Cro-Magnon، وعلى

[٩] في عام ١٨٥٦ عثر بالقرب من بلدة «دسلدرف» على قطعة من جمجمة في كهف صغير Neanderthal ولم يعثر معه على بقايا حيوان ولكن في كهف بالقرب منه عثر على عظام ماموت، والظاهر أنها من العصر الجيولوجي الرابع.



ظران من الصناعة السلوترنية.

الرغم من أنه كان ذا ثقافة إلا أنه للأسف لم يترك لنا آثارًا تمكننا من مقارنتها بما تركه لنا معاصره في أوروبا.

ولم نعثر كذلك في الأرض الأفريقية على التقسيم الواضح الذي تركه لنا العصر الحجري القديم الأعلى في الشمال، ولم نلاحظ في الواقع إلا ناحية واحدة خاصة بالصناعة الأوريجناسية وهي التي أخذت آلاتها ترتقي نحو الأشكال المصنوعة من الأحجار المكروليتية والأشكال الهندسية التي كانت على شكل أهلَّة أو شكل منحرف الأضلاع، وهذه ما يطلق عليها الصناعة الكبسية Capsien نسبة إلى بلدة جفسة في تونس.

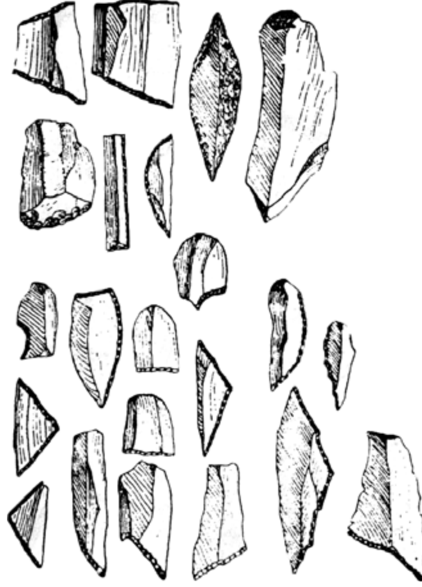
والواقع أن الصناعة الجفسية منتشرة جدًّا في مختلف أصقاع الجزائر وتونس. على أن وجود رواسب في كهوف هذه الجهات على شكل طبقات بعضها فوق بعض يسهِّل لنا تمييز العصور حسب ترتيبها التاريخي، ومن بين هذه المحطات السطحية عدد عظيم يظهر على شكل الأمكنة التي يوجد فيها قواقع «الأسكرجو» وهي عبارة عن تلال ذات أبعاد صغيرة تتكون فيها بقايا المطاهي حول موقد القبيلة، ويشتمل على عدد لا حد له



صور عثر عليها في كهوف من العصر المجدلي.

من محار «الأسكرجو» القابل للالتهاب ومعه شظايا مدببة من الظِّرَّان، كانت تستعمل — بلا شك — لاستخراج محتويات المحار، وأحيانًا كان يوجد في هذه التلال من المحار، وفي محطات أخرى جفسية بيض نعام مهشم استعمله الإنسان آنية له، فكانت تحل محل الفخار الذي لم يكن قد عرف بعد.

على أن هذه الصناعات الخاصة بالعصر الحجري القديم الأعلى لم يوجد ما يشبهها في مصر في هذا العصر، وتلك خاصية امتازت بها صناعات مصر في ذلك العهد، وقد كان العالم «دي مرجان» يظن أن الصناعة الموستيرية التي على شاطئ النيل قد امتدت حتى ظهور العصر الحجري الحديث، ولكن اتضح أن ذلك غير صحيح، وقد كان أول من برهن على ذلك العالم «فينار» إذ وجد أن المحطات التي درسها بالقرب من قرية «السبيل» في حوض «كوم أمبو» يرجع تاريخها بلا شك إلى العصر الحجري القديم الأعلى.



آلات ميكروليتية من الظِّرَّان.

ووقوع المحطة على ارتفاع أعلى من مستوى غرين النيل الحديث شاهد على انخفاض المياه، الذي نعلم أنه كان عامًّا في هذا العصر، وقد سمى «فينار» هذه الصناعة باسم الصناعة السبيلية.

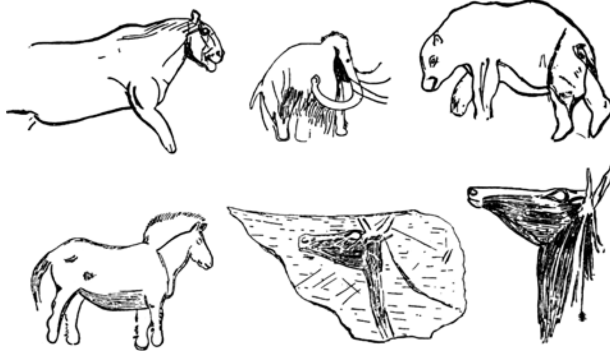
والواقع أن الصناعة الجفسية الحقيقية قد ظهرت في مصر أيضًا؛ إذ إنه من الصعب أن يتصور الإنسان الاختفاء التام في وادي النيل لصناعة عظيمة الانتشار في غربه، ظاهرة في شرقه في فلسطين وسوريا، والحقيقة أنه إذا كانت هذه الصناعة نادرة في وادي النيل نفسه، فإنما يرجع ذلك إلى أن السكان كانوا في ذلك الوقت يقتربون من شاطئ النهر وأن الغرين الحديث قد أخفى في معظم الأحيان صناعتهم في هذه الفترة.

ومع ذلك فإن هذه الآثار تُرى في الجهات التي بقيت بعيدة عن الفيضانات، وأخيرًا عرف أن محطة حلوان المكروليتية وهي التي وجدت فيها آلات على شكل أهلَّة وشظايا صغيرة وسكاكين ضئيلة الحجم تشبه التي عثر عليها في المحطات الأسكرجونية، ليست

من العصر الحجري الحديث، بل من العهد الجفسي الحديث، وعثر كذلك العالم «بوفييه لابيير» منذ بضع سنوات على محطة مماثلة على بعد عدة كيلومترات من شمالي حلوان. وقد وجدت كذلك حديثًا بعض أسلحة صغيرة في وادي «المدمود» بالقرب من الأقصر يظهر أنها من صناعة هذا العصر، ولا نزاع في أن قلة الرواسب من الغرين في الأقاليم القاحلة التي تكتنف وادي النيل تضمن لنا العثور على مثل هذه الصناعات، ولذلك تفتح أمامنا مجاهل الصحراء اللوبية مجالًا للبحث لا حد له، وفعلًا قامت أبحاث كان من نتائجها العثور على مناقش في الفيوم وفي واحة سيوة، وكذلك قام الأمير «كمال الدين حسين» في الأقاليم المجاورة للعيينات برحلة عثر في خلالها على آثار يرجع عهدها إلى الصناعة الجفسية الحقيقية منها آلات على شكل الأَهِلَّة وسكاكين صغيرة تماثل ما وجد في حلوان، وقد عثر عليها في غرب مروج نخيل «مرجا» البعيدة، وكذلك عثر «شويبس» و«منشكوف» وغيرهما في خلال بعثة حديثة العهد على مواقد جفسية تحتوى على قطع من قشر بيض النعام مختلطة بآلات من الظِّرَّان، وهذه المواقد عظيمة الانتشار على الهضبة المترامية الأطراف التي تمتد غرب الواحة البحرية وواحة «الفرافرة»، وكثيرًا ما يعثر على مصانع صغيرة مجتمعة حول نقطة ماء راكدة أو جارية كما هو الحال في منخفض عين «دلا» التي تشرف على الأراضي الصخرية التي كان يعيش فيها الإنسان الموستيري منذ عدة قرون.

ويجب هنا أن نذكر صناعة غريبة في بابها ظهرت في إقليم «كوم أمبو» وذلك أنه قد لوحظ على مدرجات — ذات ارتفاعات مختلفة تنبئ عن مستويات متتابعة لبحيرة قديمة قد جف ماؤها — تطور الآلات الموستيرية نحو الانحطاط مثل الصناعة الجفسية نفسها، فأصبحت أشكالها مكروليتية وهندسية، وقد عثر في الصحراء على صخور منقوش عليها بعض صور بشرية وحيوانات ملونة، وهذه الصخور المكتوبة كما يعبر عنها بين العمال في مصر لا تعرف إذا استطعنا أن نقرِّب بينها وبين تحف الفن المجدلي الجميل التي وجدت على جدران الكهوف، ولنا أن نعدها مظهرًا لفن أقل اتقانًا ينسب للعصر نفسه، والواقع أن عدم وجود آلات من عصر هذه الرسوم الساذجة يجعل تحديد زمنها من الأمور الصعبة جدًّا، ولا شك أن الحيوانات الممثلة على هذه الصخور تشعر بأن هذه الجهات كانت معمورة، ومع كل فإننا نعرف أنها كانت مسكونة في العصر التاريخي. ويلاحظ أن الحيوانات التي وجدت مرسومة على هذه الصخور ينسب بعضها إلى أنواع حيوانات لا تزال تعيش إلى الآن في هذه الجهات مثل الغزال، على حين أن البعض الآخر مثل الفيل

والخرتيت والزرافة والظباء والنعام قد تقهقر نحو خط الاستواء. أما الجاموس فقد اختفى كله. على أن وجود الكبش بين الحيوانات المستأنسة في العصر الحجري الحديث يجعلنا نعتقد أن هذه الرسوم عملت في زمن حديث، وعلى أية حال فإن هذه الرسوم لو درست درسًا علميًّا مستفيضًا لوصلنا إلى ترتيبها حسب نوعها على وجه التقريب.



صور عثر عليها في بعض كهوف من العصر المجدلي.

ولا شك أن بعض هذه الرسوم يرجع إلى العهد الجفسي والبعض الآخر صناعته خشنة ويرجع تاريخه إلى ما بين العصر الحجري القديم وبداية التاريخ، وهناك رسوم أخرى عند محطات عيون الماء يرجع تاريخها إلى العهود الحديثة فمنها ما هو من العصر الفرعوني والعصر الروماني والعصر العربي والوقت الحالي.

(٦-٢) العصر المزيوليتي: الحجري المتوسط

اعتاد بعض علماء علم أصل الشعوب القديمة أن يروا بين الانتقال من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث فترة انتقال مميزة أطلقوا عليها اسم العصر الحجري المتوسط، والواقع أن واضع هذه التسمية هو العالم «دي مرجان»، على أن هناك جمًّا غفيرًا من علماء ما قبل التاريخ لا يعترفون بوجود هذا العصر، بل يعدون العصر الذي يلي العصر الحجري القديم، أو عصر الحجر المهذب هو العصر الحجري الحديث وعصر

الحجر المصقول، والذين يعترفون بوجود هذا العصر ينسبون إليه محطة جديدة كشفت حديثًا على ساحل الدلتا الغربي في بلدة مرمدة أبو غالب، والظاهر من شكل صناعتها المكروليتية أنها تتفق مع العهد الجفسي الحديث غير أن أشكال الآلات فيها ليست واحدة، فلا توجد بينها الآلات التي على شكل أهلة أو سكاكين صغيرة الحجم، بل عثر فيها على أسلحة صغيرة جدًّا مدببة على شكل منحت مرهف.

أما في أوروبا فأهم صناعة تنتسب إلى هذا العصر هي الصناعة الآزيلية نسبة إلى كهف «مادازيل» في مقاطعة «أريج».

وذلك أن العالم «بيت» Piette وجد في هذا الكهف طبقتين إحداهما فوق الأخرى فيهما كل مميزات الصناعة المجدلية، وفوق هاتين الطبقتين بقايا ثقافة سماها هذا العالم العصر الآزيلي، وقد وجد فيها أفرانًا وأكوامًا من بقايا أكسيد الحديد وعددًا عظيمًا من عظام الغزال — وليس من بينها عظام الوعل — كما وجد ظرانًا مهذبًا من العهد المجدلي بكميات وافرة وسكاكين وخطاطيف ومصاقل وعظامًا مهشمة تدل على أنه كان يوجد في هذا الإقليم الوعل، والدب، والخنزير، وكلب البحر، والقط البري … إلخ، وقد عثر كذلك «بيت» Piette على قطع عدة من حجر الشيست عليها علامات باللون الأحمر، وعثر فوق الطبقة الآزيلية على طبقة أثرية أخيرة وفيها آلات مصقولة، ومن ذلك استخلص أن العصر الآزيلي هو الحلقة التي تربط بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث.

(٢-٧) العصر الحجري الحديث

على أن العصر الحجري الحديث نفسه مرتبط تمام الارتباط بالعصر الذي يليه، وهو عصر بداية استعمال المعادن، ولا يتميز العصر الحجري الحديث عن عصر بداية المعادن بوجود معادن مختلفة في كل، فالواقع أن النحاس والذهب كانا موجودين في كليهما غير أنهما كانا يستعملان في العصر الأول أدوات للزينة وبدرجة محدودة. أما في العصر الثاني فكانا يستعملان في أغراض شتى وبدرجة عظيمة وبخاصة النحاس، فإنه كان يستعمل في صنع الآلات بدلًا من الظِّرَّان، ويعد علماء الجيولوجية أن العصر الحجري الحديث يبتدئ في نهاية العهد البلوستسيني وبداية العصر الهيلوسيني؛ أي العصر الرابع في تكوين القشرة الأرضية، وهذا العهد هو في الحقيقة فجر الأزمان الحديثة؛ إذ فيه أخذت أحوال الحياة العامة للإنسان تتغير تدريجًا عن أحوال الحياة التي يخضع لها بنو البشر في أيامنا هذه.

وتتفق بداية العصر الحجري الحديث مع عصر تقهقر الجليد الذي ظل إلى يومنا هذا، ففي أفريقيا الشمالية أخذ الجو يصير أكثر جفافًا وأشد حرارة من العصر السابق، وقد أخذ ذلك يظهر في الهضاب الصحراوية التي بدأت تتكون منذ العصر الحجري القديم الأعلى. والواقع أن قلة الأمطار وشدة التبخر سبَّبَا نقصًا محسوسًا في نظام المياه، ولكن على الرغم من ذلك بقيت بعض جهات الصحاري معمورة، وبخاصة الأماكن التي حول عيون الماء والبحيرات التي تكونت من مجاري مياه ضئيلة. أما باقي الجهات فقد انقلبت فيها الغابات اليانعة التي كانت تسبغ عليها بهجة ورونقًا إلى أرض عشبية لا يستطيع الإنسان أو الحيوان البقاء فيها، وفي خلال هذه المدة أخذ وادي النيل يكوِّن ببطء شكله الحالي، وكذلك بدأ النهر يسير في النظام الذي هو عليه الآن، وقد كان هذا النهر في خلال تكوينه يترك رواسبه في الوادي الذي يغطيه بالمياه، ثم ينكمش تدريجيًّا حتى أصبح على ما هو عليه الآن؛ إذ كان في كل عام يفيض على جانبيه في تاريخ معين لمدة ثلاثة أشهر، ويترك الغرين الذي يجلبه معه من منابعه مما يكسب الوادي خصبًا، وعند انتهاء هذا الفصل ينكمش مجرى النيل، ثم يترك مجموعة من المستنقعات على حافة الصحراء حيث قد خلفت مياهه الجزء الأعظم من الغرين على السهل، وفي هذه المستنقعات كانت تنبت بكثرة النباتات المائية وبخاصة السَّقي «البردي» الذي كانت تأوي إليه الحيوانات الخطرة كجاموس البحر والتمساح، أما باقي السهل فكان يغطى كل عام بنباتات يانعة تنعدم وتزول بسرعة في خلال تسعة الأشهر التي كان الحرُّ فيها مهلكًا، وكانت مخلفات هذه النباتات تئوي الحيوانات والحشرات المؤذية، وقد تكونت في مصب النهر القديم المعروف بالدلتا طبقات غرين وكانت لانخفاضها مؤلفة من مستنقعات عدة مزدحمة بالبردي ولم تكن حدودها معينة، وذلك بسبب البرك التي تغمر معظمها.

أما مساكن الإنسان منذ بداية هذا العصر فإنها تتمشى مع التغيرات الجوية التي سنبينها، فقد هاجر إلى وادي النيل بجوار مجاري المياه الغزيرة التي لا تزال موجودة، كل سكان وديان البيداء وصحراء العرب، وهؤلاء كانوا البقية الباقية من قبائل أخذت تجوب في خلال الأزمان السالفة الجبال والهضاب التي كانت تغطيها الغابات البِكْر. والواقع أن العصر الحجري الحديث هو العصر الحقيقي الذي أهلت فيه مصر بالسكان.

أما القرى فكانت واقعة على المرتفعات البسيطة التي على حافة الوادي، وكان الجزء الخصب منه في هذا الوقت أقل انخفاضًا واتساعًا مما هو عليه الآن بعد أن غمره الغرين مدة اثني عشر ألفًا من السنين تقريبًا، ولا شك في أن هذه القرى قد غطيت الآن بالطبقات

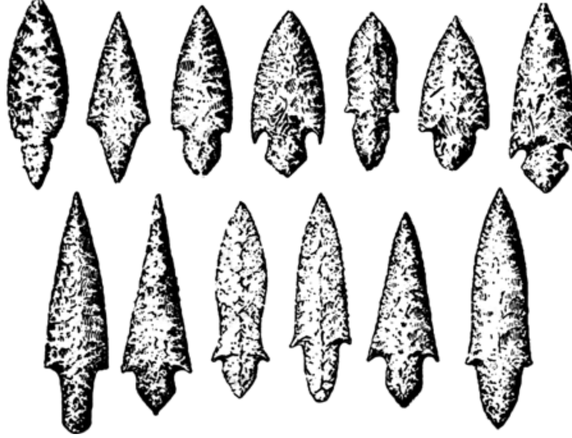
السميكة من الغرين، الذي لا ينفك يزداد من قرن لقرن ويمكن العثور عليها لولا أن ارتفاع منسوب المياه في الطبقات الأرضية، الذي نلاحظه الآن، يحول بيننا وبين الوصول إلى ذلك، وهي موجودة غائرة في سفح التلال أو المرتفعات الصناعية في كل المدن المصرية التي ظهرت في فجر التاريخ، وتقع عادة بعيدة عن النيل وقريبة من الصحراء، ويظهر لنا فيها أسس يرجع عهدها إلى العصر الحجري الحديث، ولحسن الحظ عثر على بعض قرى نيوليتية واقعة في الصحراء أخطأها غرين النيل، ونخص بالذكر قرية العمري، وهي «رأس حوف» القريبة من القاهرة، وقد سميت العمري نسبة إلى الأستاذ العمري الذي عثر عليها حديثًا، وقد مات وهو في ريعان شبابه، وكذلك مرمدة بني سلامة الواقعة على حافة الدلتا الغربية، ثم ديمة، وكوم أوشيم، وقصر الصاغة، والمواقع الأربعة الأخيرة في مديرية الفيوم. أما في الوجه القبلي فقد عثر على مدينة جديدة في بلدة «دير طاسا» وفي طوخ والقطارة والجبلين.

وأهم من هذه البلاد من الوجهة الأثرية المقابر التي من العصر الحجري الحديث فإنها محفوظة وواقعة على حافتي الصحراء على كِلَا جانبي النيل؛ إذ هي بطبيعة الحال بعيدة عن الفيضان، يضاف إلى ذلك ما يعثر عليه مهملًا على سطح الصحراء من بقايا الصناعات بالقرب من القرى والمقابر، مما يدل على الأماكن التي كان لا يزال الإنسان يصنع فيها الظِّرَّان.

ويمتاز العصر الحجري الحديث بأنه عصر نهضة الصناعة، وقد كان ذلك نتيجة تحول الإنسان في ذلك العهد من عيشة الصيد إلى عيشة الرعي وفلاحة الأرض، ولذلك قامت نهضة حقيقية في صناعة الظِّرَّان؛ إذ خلفت الأشكال المكروليتية التي كانت في العصر الجفسي الأسلحة الكبيرة من الظِّرَّان، ويجب أن نشير هنا إلى أطراف الحراب والنصال المهذبة تهذيبًا جميلًا من كِلَا الوجهين، وكذلك سنان السهام المصنوعة برشاقة ودقة.

أما الآلة التي يتميز بها هذا العصر أكثر من غيرها، حتى إن اسمها أصبح أحيانًا يطلق على هذا العصر فهي الفأس المصقولة، وهي قطعة من الظِّرَّان على شكل الكلى المستطيلة وهي منحنية من أحد طرفيها لتصير قاطعة، وقد كان يركب فيها مقبض، ولذلك كانت تستعمل كفأس أو قَدُوم.

وبجانب الظِّرَّان كان يستعمل كذلك العظم في عمل أسنة الخطاطيف، ولعمل آلات كالمنحت أو المنقش والإبر لشغل الجلود، ومن صناعة هذا العصر كذلك النسيج وعمل



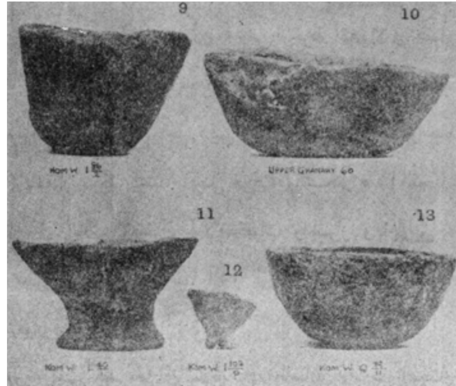
رءوس سهام من جبانة «العرابة».

الحصر والفخار الذي لم يعثر على أي نوع منه قبل هذا العهد، ومن المدهش أنه انتشر في هذا العصر بسرعة، وأصبح استعماله منتشرًا انتشارًا عامًّا، ففي مصر السفلى عثر في مرمدة بني سلامة على أقدم فخار عمله الإنسان دون استعمال أية آلة في صنعه، وأول نوع ظهر لنا كان خشن الصنع وليس عليه أي نوع من الزخرفة، اللهم إلا في القليل النادر، فإنه كان يشاهد على حافة الإناء أو مقبضه شريط محفور بالأصبع، وبجانب هذا الفخار ظهر نوع آخر دقيق الصنع لونه أحيانًا أحمر وأحيانًا أسود، وكان يصقل بكل اعتناء قبل حرقه، وأشكال هذا الفخار متعددة وتشمل كل أنواع الأطباق والأكواب والجرار والأباريق، ويلاحظ أن بعض هذه الأواني لها أزرار بارزة أو ثقوب في جوانبها، وذلك ليعلق فيها خيط تحمل به.

أما في الوجه القبلي فقط ظهر في بلدة «دير طاسا» نوع من الفخار أسود لم يحرق حرقًا محكمًا، غير أنه يمتاز بأنه أول نوع من الفخار ظهرت عليه زخرفة مرسومة بالمعنى الحقيقي، وهذه الرسوم كانت هندسية في شكلها، وقد صنعت بآلات وملئت تجاويفها بمادة بيضاء بمثابة ترصيع، وأظهر هذه الأنواع التي وجدت في «دير طاسا» إناء قعره مستوٍ ومفرطح على شكل السوسنة.



فخار عثر عليه في الفيوم يمثل العصر الحجري الحديث.



مجموعة فخار من العصر الحجري الحديث.

بدأ الإنسان في هذا العصر يعيش عيشة الرعاة والفلاحين، وأخذ يسكن القرى بعد أن كان جائلًا من مكان لآخر، وذلك يرجع لتغير حالة الجو في أفريقيا الشمالية، وقد نشأ عن هذا الجفاف المتوالي في هذه الجهات، بسبب قلة الأمطار أن اختفت النباتات والأشجار التي كانت تنبت على الهضاب المترامية الأطراف تدريجًا، وكذلك أصبحت مناطق الصيد

قليلة، ومن أجل ذلك أخذت القبائل في الأقاليم التي كانت تسكن فيها أو تجول في أنحائها تتنبه إلى خطر الجوع من قلة حيوان الصيد، فبدأت تربي الحيوانات القليلة الخطر كالثور والخروف والماعز والخنزير، لتكون ذخيرة لهم من اللحوم الحية، وكذلك أخذت القبائل تزرع الحبوب المغذية وبخاصة الشعير.

ولما ازداد جفاف تلك الهضبة الشاسعة، ولم تبقَ منابع ماء في صحراء العرب أو في صحراء لوبيا، أخذ أفراد القبائل النيوليتية يجتمعون في قرى في وسط أراضيهم التي يتعيشون منها برعي الماشية أو بالزراعة في وادي النيل، وكانوا لا يزالون يحترفون صيد البر والبحر وذلك اقتصادًا لمواشيهم الأليفة من جهة، وليقضوا على الحيوان البري المفترس، وعلى الحيوانات المائية الضارة مثل جاموس البحر الذي كان يعد خطرًا يهدد حياتهم على الدوام من جهة أخرى، غير أن الصيد لم يكن عندهم من الأمور الحيوية بل كان شيئًا ثانويًّا، والواقع أن هذه القبائل أصبحت أهل فلاحة بالمعنى الحقيقي، وكانت قرى العصر النيوليتي مؤلفة من عدد من العشش المنفصل بعضها عن بعض، ويحتمل أنها كانت مسورة بسياج مؤلف من الأوتاد حماية لها، وقد عثر على قرى من هذا العصر في مرمدة بني سلامة، وهي على نوعين مختلفين تمام الاختلاف، فبعضها يشبه عشش الفلاحين الحاليين التي تقام في وسط المزارع وقت الحصاد، وكانت العشة تتركب من جدران مصنوعة من الغاب يحفظها من التداعي أوتاد مثبتة في الأرض، وإذا كانت العشة مبنية من جهاتها الأربع كانت تأخذ في الغالب شكلًا بيضيًّا منظمًا بعض الشيء، وأحيانًا تكون هذه العشش على شكل ستارة مقوسة المنظر محكمة القفل من الجهة التي يهب منها الريح، وبخاصة الجهة الجنوبية الغربية أو الجهة الشمالية، ولا شك في أن وجود مواقد في هذه العشش وكذلك وجود أوان مصنوعة من الفخار يدل دلالة واضحة على أنها كانت تستعمل سكنًا للإنسان. وقد عثر بالقرب من هذه العشش على أسوار بيضية الشكل لا تزيد مساحتها عن متر في نصف متر تقريبًا، ويحيط بها جدار لا يزيد ارتفاعه عن نصف متر، ويستدل منه على أنه لم يكن فوقه مبنى آخر، ولا يبعد أنه كان يُستعمل مخازن لحفظ الحبوب، وكانت جدران هذه المخازن تقام من طين معجون كتل منه الواحدة فوق الأخرى على غير نظام، أما رقعة العشة فإنها كانت تغطى بطبقة من الطين المعجون، وكانت تحفر بعض الشيء على شكل صحن، وتجهز في الجزء المنخفض منها بإناء مثقب مثبت في الأرض لجمع المياه وتصريفها. أما أساس العشة فكان يثبت في الأرض على عمق لا يزيد عن خمسة وعشرين سنتيمترًا، وكان يوجد في العشش الممتازة قصبة

ساق جاموس البحر مثبتة عموديًّا في الجدار الداخلي، لتكون بمثابة سلم لتسهيل الدخول فيها، وقد وجدت بقايا حصر كانت على أرض سطح العشة، ولا ريب في أن هذه الأكواخ أو العشش كانت تستعمل مأوى لأهالي مرمدة القدماء يحتمون فيها من العواصف والمطر، ويبيتون فيها ليلًا عند اشتداد البرد، ومن المدهش أنه لا يوجد في هذه العشش أي أثر من آثار الإنسان ولا آية آلة من الآلات التي كانت تستعمل في الحياة المنزلية. أما سقف هذه العشش القليلة الارتفاع، فكان يصنع من حصير سميك من الغاب يوضع أفقيًّا، وفي حالة واحدة عثر على مكان عمودين متقابلين في إحدى هذه العشش، ومن المحتمل جدًّا أنهما كانا قد وُضِعَا لأجل أن ينصب عليهما جلد حيوان لتغطية السقف، وربما كان ذلك أول محاولة لعمل خيمة يحمي إنسان هذا العصر فيها نفسه من زمهرير البرد وقيظ الحر.

أما في قرية العمري — السالفة الذكر — فإن عششها وجدت على شكل مستدير وفي وسطها موقد، وعلى مقربة من هذه العشش كانت تقام سلات عظيمة من الحصير المجدول لها غطاء، ومدهوكة بغرين النيل كانت تستعمل مخازن لحفظ الحبوب.

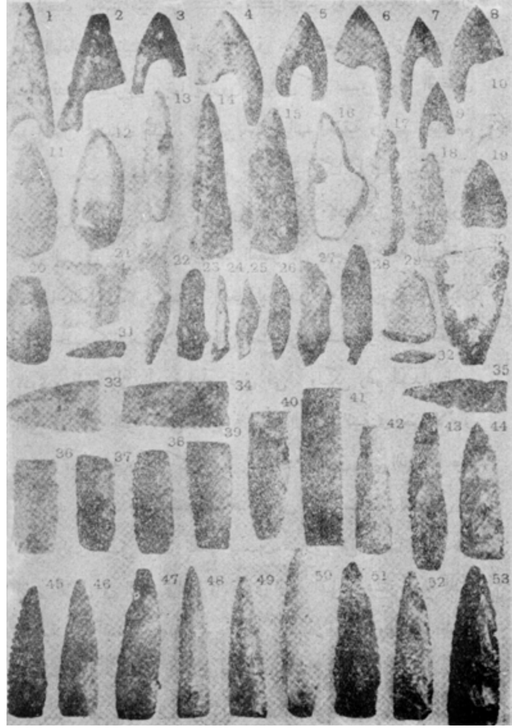
أما المدافن النيوليتية فكانت كالتي في مرمدة تحفر في القرية نفسها على مقربة من الأكواخ، وكانت تحفر كلها في مكان خاص — كما هو الحال في العمري وفي كل الوجه القبلي — بالقرب من القرية على حافة الصحراء بعيدة عن فيضان النيل، وكان كل قبر على شكل حفرة بيضية المنظر كالكوخ نسه، وكانت الجثة توضع راقدة على الجانب الأيمن غالبًا في قرى الوجه القبلي، أما في الوجه البحري فكانت توضع على الجانب الأيمن مثبتة بحيث تضم الركبتان نحو الصدر في معظم الأحيان، أما وجه المتوفى فكان يتجه نحو المساكن، وقد عثر أحيانًا على جثث موضوعة على حصير أو ملفوفة في جلد أو حصير، وقد لوحظ في مرمدة بني سلامة أن يد المتوفى كانت توضع بالقرب من فمه، وأحيانًا شوهد أن إحدى أصابعه كانت في أسنانه، وكذلك لوحظ أن حبوبًا من القمح كانت مبعثرة في يده أو حول رأسه، وفي بعض المقابر عثر ضمن محتوياتها على أوان عادية ولوحة لطحن مادة الزينة وعلى آلات من الظِّرَّان، وهذه المقابر لم تكن فوقها مبان أخرى. هذا خلاف قرية العمري التي كان يعلَّم فيها القبر بعدة أحجار مكومة بعضها فوق بعض، وقد استعمل كثير من هذه المقابر لدفن أكثر من واحد من أفراد الأسرة، وفي هذه الحالة كان يجهز مكان في القبر للقادم الجديد، وذلك بجمع عظام الموتى القدماء ووضعها بعناية في جانب من القبر، وهذه العادات المأتمية التي تدل على أن القوم كانوا يعتقدون بحياة أخرى هي المصدر الوحيد لدينا عن معتقدات العصر النيوليتي، ولا يبعد قط أن تكون هذه العادات

النيوليتية التي عثر عليها في هذه القبور، هي التي نهج على منوالها قدماء المصريين وبقوا يسيرون عليها في كل عصور التاريخ الفرعوني مع إدخال تحسينات عليها. أما من جهة ديانتهم الحقيقية وآلهتهم وعباداتهم فإننا لا نعرف عنها شيئًا قط، وذلك أمر طبيعي؛ لأن الكتابة لم تكن معروفة بعد.

ومن المدهش أن روح الفن في هذا العصر كاد يكون منعدمًا، وربما كان السر في ذلك أن إنسان هذا العصر كان موجهًا كل همه إلى تحقيق الأشياء العملية، فكانوا يصنعون الفخار ليستفيدوا منه لا للزينة، وكذلك كانت حليهم كالقلائد والأساور التي تصنع من العظام أو الطين المحروق نادرة وساذجة، ولا يظهر فيها أي ذوق فني، ولكن رغم انعدام الروح الفني في هؤلاء القوم بالمعنى الحقيقي فإنا نجد الرشاقة الفنية في بعض الأواني وبعض سنان الحراب، مما كان يبشر باستعدادهم للذوق الفني الذي نما فيهم فيما بعد، ومنذ ذلك العصر نشاهد بعض علامات منها نستخلص أن مدنية وادي النيل، كانت تنقسم قسمين متميزين عن بعضهما، وينحصر القسم الأول في الفيوم والدلتا والثاني في الوجه القبلي، وتمتاز مجموعة المدنية الشمالية بأنها أقدم من مدنية الوجه القبلي وأكثر تقدمًا، وهي التي ظهرت فيها سنان الحراب الفاخرة المهذبة على شكل «ورق الغار» الذي ورد ذكره — فيما سبق — وتعد هذه السنان والبلط المصقولة التي توجد في كل مكان الآلات التي يمتاز بها هذا العصر، وقد وجدت أدلة كثيرة في بحوث أخرى تثبت هذه الحقيقة.

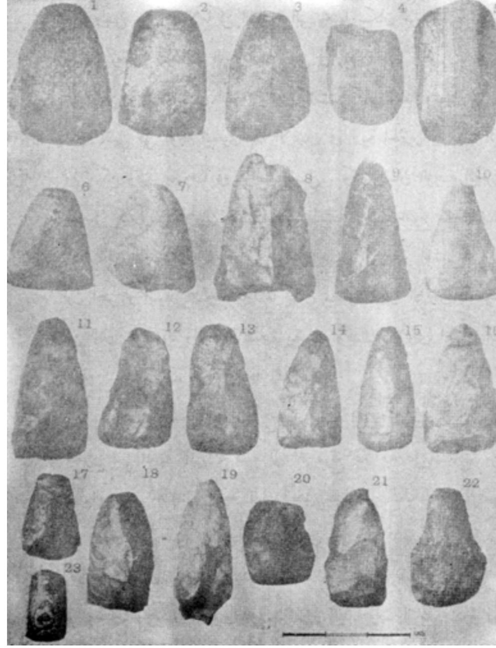
وليس من بين الأماكن الشاسعة التي يحتلها سكان مرمدة بني سلامة ما يمكن مقارنته بمحطات الوجه القبلي حتى في عصر نقادة، وذلك مما يحمل على الظن بأن المدنية في الوجه البحري كانت أكثر تقدمًا ونموًّا منها في الوجه القبلي ففي الوجه البحري بدأ الإنسان في تربية الخنزير وجعله أليفًا ولم يكن وقتئذ معروفًا في الوجه القبلي. وكان إنسان الوجه البحري يستعمل كثيرًا من الأواني ذات الحامل المستدير، وهذا النوع من الفخار كان نادر الوجود في الوجه القبلي، وفي حين أن فخار الدلتا كان ذا لون أحمر أو أسود كله وكثيرًا ما يكون مصقولًا، فإن الأواني المصنوعة من الطين الأسود والمزخرفة بمادة بيضاء وكذلك الأواني الحمراء ذات الحافة السوداء كانت خاصة بالوجه القبلي.

وقد أطلق علماء ما قبل التاريخ على مدنية العصر النيوليتي في الوجه البحري اسم المدنية المرمدية نسبة إلى أهم موقع عثر فيه على صناعات من هذا العصر. أما مدنية الوجه القبلي فيطلق عليها اسم المدنية الطاسية نسبة إلى بلدة «دير طاسا» القريبة من البداري،



مجموعة آلات من الظِّرَّان تمثل العصر الحجري الحديث.

وهي التي وجدت فيها أقدم آثار مصرية إلى الآن من هذا العصر، وهذه البلدة تمتاز بحفائرها، ففي مصانعها وجدت البلطة والقدوم منتشرتين، أما أدوات الزينة فنادرة فيها وينحصر ما وجد في بعض محار وخرز مصنوع من العظام أو من الحجر الجيري الأبيض، ويلاحظ أن بين هاتين المدنيتين مدنية أخرى، وهي التي عثر عليها في الفيوم. وهي في جوهرها تميل إلى مدنية الوجه البحري، غير أن لها بعض مميزات خاصة بها. فمثلًا نجد أن مخازن الغلال تقام على مرتفع بعيدة عن المساكن ومجموعة في مكان واحد، هذا إلى أن مدافن الفيوم لم توجد بالقرية، لأنها كانت مفصولة عنها كما هو الحال في الوجه القبلي.



آلات للطحن وبلط من العصر الحجري الحديث.

(٢-٨) عصر بداية المعادن

يمتاز عصر بداية استعمال المعادن بظهور صناعة جديدة، غطت على صناعة الظِّرَّان، وأعنى بذلك صناعة المعادن؛ إذ وجدت في هذا العصر آلات وحلي من النحاس والذهب في بادئ الأمر، ثم عرف فيما بعد استعمال الشبه «البرنز»، وباستعمال المعادن أخذ الإنسان الأنيوليتي يستغني تدريجًا عن صنع آلاته من الظِّرَّان والأحجار الصلبة الأخرى التي كان يستعملها في العصور السابقة. على أن صناعة الظِّرَّان لم تدرس جملة، بل بقيت بعض الشيء حتى في العصور المصرية التاريخية؛ وذلك لأن المصري كان بطبعه عبدًا للتقاليد والعادات، فكان يستعمل الظِّرَّان في أوج مدنيته سنانًا للسهام وغير ذلك. هذا العصر قد أطلق على العهد الذي سبق بداية التاريخ أي عهد ظهور الكتابة في مصر.

والواقع أننا إلى الآن في كل بحثنا عن مدنية ما قبل التاريخ في العصور القديمة، لم نجد مميزات بارزة يمتاز بها وادي النيل عن باقي ممالك العالم، اللهم إلا بعض خصائص قليلة، ولكن من جهة أخرى لاحظنا على وجه عام أن مدنية الوادي تتفق في مجموعها مع المدنيات الأوروبية في تلك العهود السحيقة في القدم، وكذلك تتمشى بوجه خاص مع عصور ما قبل التاريخ العام في أفريقيا الشمالية.

ومع أن عصر بداية المعادن في أوروبا يتفق مع عصر ظهور المعادن في وادي النيل، إلا أننا نشاهد من جهة أخرى أنه قد ظهرت فيه مميزات خاصة معلمة، أخذت تزداد وضوحًا، حتى إنها صبغت ثقافة هذا العصر بصيغة أصلية، وأعطته لونًا خاصًّا ميزه عن الممالك المجاورة، ويمكن تشبيه هذه المدنية الخاصة بانبثاق غصن ناشئ أينع في أصل شجرة في شيخوختها، فأزهر وأثمر ثمارًا مختلفة أنواعها، وهذه الحياة الجديدة التي انبعثت في البلاد دب دبيبها في كل نواحي الفن والصناعات، كصناعة الفخار، وفي حفر العاج والخشب، وتهذيب الظِّرَّان، وصنعه آلات بلغت الدرجة القصوى في الإتقان.

ويرجع الفضل في إبراز هذه الثقافة المصرية من مكمنها في بدايتها إلى جهود العلماء الذين وقفوا حياتهم عدة أجيال على القيام بالحفائر، التي أنتجت العناصر التي منها تتألف تلك الثقافة، لذلك كان لزامًا علينا قبل أن نبدأ في درس هذه المدنية الأنيوليتية أن نمر سريعًا بكلمة موجزة على أعمال هؤلاء الباحثين في الحفر والتنقيب.

وأول من فتح الطريق في هذا المضمار هو الأستاذ «فلندرز بتري»، وذلك في عام ١٨٨٩ عندما قام بحفائر في اللاهون «كاهون»[١٠] وغيرها عند مدخل الفيوم، ثم تابع أعماله في ميدوم، فطوخ، فالبلاص. وكذلك قام العالم «دي مرجان»، «وأملينو» الفرنسي، ثم «ماك إيفر»، «وجارستانج»، بحفائر في نقادة، و«العرابة»، والكاب، وغيرها من المواقع الأثرية.

أما في بلاد النوبة فقد قام الأستاذ «ريزنر» بحفائر في المواقع التي كان يهددها تعلية خزان أسوان، وقد وصف لنا البحاثة «ستون كار» مصنعًا عظيمًا عثر فيه على سكاكين ذات وجهين فخمة الصنع وذات أحجام خارقة للحد المألوف، ويقع هذا المصنع في «وادي الشيخ» بالقرب من بلدة مغاغة بجوار الآبار القديمة التي كانت تحفر لاستخراج الظِّرَّان.

---

[١٠] تسمية خطأ عند الإفرنج.

وفي عام ١٩٢٤–١٩٢٥ بدأ المستر «برنطون» بعمل حفائر في جبانات بالقرب من بلدة البداري الحالية، وقد أماطت بحوثه اللثام عن صفحة جديدة في تاريخ ما قبل الأسرات في مصر. أما في الدلتا فقد قام «برشيا» العالم الأثري الإيطالي بحفائر في كوم القناطر، وهي أول محطة كشفت من هذا العصر، وقفَا أثره الأستاذ «ينكر» ببحوث في تل اليهودية بالدلتا أيضًا، وحديثًا كشف كل من الأستاذ مصطفى عامر والأستاذ «منجين» عن محطة هامة في العصر الأنيوليتي في المعادي بين القاهرة وحلوان.

أما الصحراء فإن الأبحاث لم تقم فيها على قدم وساق، كما كانت في الوادي نفسه، ومع ذلك فإن البعثات القليلة التي بحثت فيها قد أسفرت عن بعض نتائج، فالبعثة التي قام بها الأمير كمال الدين في الصحراء حتى «جبل عوينات» عثر فيها على محطات مما قبل الأسرات، وجدت فيها أسلحة وسكاكين عظيمة الحجم من الحجر النوبي، وبالقرب منها عثر على أرحاء وأجران مصنوعة من حجارة ضخمة، وذلك برهان جديد على أنه كان يوجد في هذه الجهات واحات، ولكنها طبعًا قد اختفت بجفاف العيون التي كانت تغذيها، ولا مراء في أنها كانت يانعة في هذا العصر، ومن المحتمل جدًّا أنها كانت لا تزال آهلة بالسكان في العهد الفرعوني.

وقد عثر حديثًا العالم «بوفييه لايبير» على جبانة من نوع خاص في صحراء العرب على مسافة قريبة من القاهرة تشبه في أوروبا ما يطلق عليه اسم دلمن Dolmens، وكل واحد من قبورها يتألف من حجر عظيم مستوي السطح موضوع على حجرين عموديين، وهو أول شيء من هذا النوع عثر عليه في مصر، وهذه المقابر قد أقيمت على حافة وادي التيه، ولما كان وجه الشبه بين هذه المقابر ومثيلاتها في أوروبا عظيمًا فقد نسبها الأب «بوفييه» إلى العصر الأنيوليتي، غير أنه يظن كذلك أنها قد تكون صنعت في عصر متأخر عن ذلك.

ولما كانت الكتابة منعدمة في العصر الأنيوليتي حتى ظهور الأسرة الأولى، كان من الصعب على المؤرخ أن يضع تواريخ مؤكدة للمدنيات المتتالية التي مرت فيها مصر في أقدم عهودها، لذلك يجب أن نكتفي الآن بأقل الفروض. إذ الواقع أن بداية هذه المدنية ترجع بنا إلى عهود يكاد مقدار ألف سنة فيها، لا يعد بالشيء الخارق للعادة من حيث الزمن، ومما يؤسف له أن نهاية هذا العصر الذي هو في الواقع بداية العصر التاريخي لم يتفق عليه بصفة قاطعة للآن بين علماء الآثار، بل الأمر تخطى ذلك في النزاع، حتى إن كل تأريخ قبل عام ١٥٨٠ق.م في التواريخ المصرية موضع شك، ولا أدل على ذلك من أن السير

«فلندرز بتري» قدَّر عُمْر المدنية البدارية بنحو ١٠٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، على حين أن أثريين آخرين قدروا عمرها بنحو ٥٠٠٠ سنة. على أن مثل هذه التواريخ لا تخرج عن أنها محض تخمين، ولا ترتكز على أساس علمي ومع أنه كان من المتعذر وضع تاريخ مؤكد لبداية عصر ما قبل الأسرات أو نهايته، فإنه من الممكن أن يقتفي الإنسان تتابع الخطوات المختلفة التي حدثت في خلال هذا العصر، وهذا الإمكان قد نشأ نتيجة للبحوث التي قام بها المستر «فلندرز بتري» في «ديو سبوليس برفا»[١١] لتتابع تاريخي خاص في أنواع الفخار كشفت عنه حفائره، وذلك أنه لاحظ أن نوعًا خاصًّا من أواني الفخار كان يحدث فيه انحطاط منظم، وذلك أن البروز الذي كان في الأصل بمثابة يد الإناء، أخذ في التلاشي تدريجًا حتى أصبح لا يزيد عن خط متموج لا معنى له حول رقبة الإناء، وهذا الانحطاط في يد الإناء صحبه تدهور مشابه له في شكل الإناء العام، ولذلك كان من الممكن أن يضع الإنسان تتابع تاريخيًّا لكل الأواني التي من هذا النوع، وبالوصول لهذا الترتيب كان من السهل أن يجد الإنسان أدوات أخرى من نوع هذه الأواني قد تدرجت في التغير.

وقد اتخذ أساسًا للتغير في هذا النوع من الفخار فترات معينة تبتدئ برقم واحد وتنتهي برقم مائة، وقد ترك الفترة من رقم ١–٢٩ خالية لما عساه أن يكشف من فخار أقدم من الأنواع التي عثر عليها في قبور قديمة. أما الفترة بين ٣٠–١٠٠ فإنها تمثل ما قبل الأسرات وأوائل عصر الأسرات، وقد صار من الممكن إذن أن يضع الإنسان في الفترات المتتابعة مجموعة هذا النوع من الفخار حسب طبقته المختلفة في القدم، فإذا كشف قبر مما قبل الأسرات، ولم يكن من الممكن وضع تأريخ محدد له، فإن مكانته في التأريخ التتابعي يمكن الوصول إليها في الحال، وذلك بمقارنة الفخار الذي عثر عليه فيه بالطبقة المقابلة للفخار الذي اتخذ نوعه أساسًا.

وهذا النظام للتأريخ التابعي، كما يطلق عليه، برهن على أنه أداة قيمة إلى أبعد حد لتحديد الآثار التي وجدت في عصر ما قبل الأسرات، ولا نزاع في أن هذا النوع من التأريخ لا يمكن أن يعطينا فترات متساوية من الزمن في كل طبقة؛ إذ من الجائز أن تكوِّن طبقة أطول أو أقصر جدًّا عن التي تليها مباشرة، ولكن على أية حال يمكننا بوساطة هذا التأريخ أن نحدد ما سبق وما لحق بالنسبة لترتيب الحوادث الحقيقي.

[١١] موقعها الحالي بلدة «هو».

وعلى هذا الأساس ينقسم عصر ما قبل الأسرات إلى ثلاثة عهود:

(١) عهد ما قبل الأسرات القديم وتأريخه التتابعي من ٣٠–٤٠.
(٢) عهد ما قبل الأسرات المتوسط من ٤٠–٦٠.
(٣) عهد ما قبل الأسرات الحديث من ٦٠–٧٨ وعند هذا الرقم يبتدئ العهد الأول للأسرات، وذلك بظهور الأسرة الأولى التي بدأ التأريخ فيها بالكتابة.

وقد عثر حديثًا على مقابر أقدم من التي وجدها «فلندرز بتري»، ونعني بذلك المقابر التي كشفها المستر «برنطون» في البداري، وقد عثر فيها على أنواع جديدة من الفخار، وقد خصص لها «بتري» التأريخ التتابعي من ٢٠–٢٩ وسنشرح ذلك في حينه.

مدنية الوجه البحري: لقد ظلت البحوث العلمية عن عصر ما قبل التاريخ في مصر موقوفة على الوجه القبلي إلى زمن غير بعيد ظنًّا من العلماء أن كل المدنية القديمة أصلها من الوجه القبلي إلى أن أقام الأستاذ «ينكر» ببحوثه المشهورة عن عصر ما قبل التاريخ في جهة مرمدة بني سلامة، وأسفرت بحوثه عن مدنية يرجع عهدها إلى العصر النيوليتي، وقد تكلمنا عن هذه المدنية في حينها، وقد قام بعده الباحثون في هذا الميدان في الوجه البحري، فوفق أخيرًا العالمان مصطفى بك عامر والأستاذ «منجين» إلى كشف محطة جديدة في المعادي يرجع عهدها إلى عصر ما قبل الأسرات الحديث، ومن ذلك يتضح لنا أنه توجد فجوة عميقة بين عصر مرمدة بني سلامة الذي بدأ في أوائل العصر الحجري الحديث وبين عصر المعادي الذي يشرف على حافة التاريخ أو بعبارة أخرى يختم به عصر بداية المعادن، ولا يبعد أن تملأ هذه الفجوة العميقة بكشف جديد في هذا المضمار في السنين المقبلة، وقد كشفت آثار من هذا العصر في الوجه البحري في طرخان، وطرة.

مدنية الوجه القبلي: ومن جهة أخرى نجد أن المدنية الأنيوليتية في الوجه القبلي معروفة بدرجة كبيرة، وتبتدئ بعصر البداري الذي جاء مباشرة بعد عهد «دير طاسا».

والبداري — كما ذكرنا — بلدة تقع بالقرب من «قاو الكبير» في إقليم أسيوط، وقد كشف فيها عن موقع أثري موضعه في التأريخ التتابعي الذي اخترعه «فلندرز بتري» بين ٢٠–٢٩، وهو أقدم تاريخ عرف إلى الآن في عهد ما قبل الأسرات، وقد عثر على الصناعات البدارية في بلاد النوبة.

أما العصر الذي يلي عصر البداري، فيطلق عليه العهد النقادي نسبةً إلى بلدة «نقادة» القريبة من «قوص»، وقد قام بحفائر فيها الأستاذ «بتري» والمستر «كويبل» عام ١٨٩٥، وأهم مواقع ما قبل الأسرات في الوجه القبلي طوخ، وبلاص شمالي الأقصر، ثم «ديوسبوليس برفا» بالقرب من نجع حمادي والعامرة، ونجع الدير والمحاسنة وبيت خلاف، وجرزة، وأبو صير الملق وحرجة عند مدخل الفيوم.

البداري: كان أهل عصر البداري بحكم طبيعة البلاد زراعًا للأرض، وذلك بعد أن انكمش الوادي وأصبح محاطًا بالصحراء على كِلَا حافتيه، وكان إنسان البداري قصير القامة ضئيل الجسم طويل الجمجمة، ويمكن مشاهدة هذه الخواص في المصري الحالي الذي يظن أنه من نسلهم، والظاهر أنه كان يختلط بدمه بعض دم الزنوج.

وقرى هذا العصر كانت مجموعة من الأكواخ البيضية الشكل أو المستديرة، وكانت مصنوعة من مواد خفيفة مثل البوص والأخشاب، ولم نجد بينها المساكن التي تشبه بيوت أهل مرمدة بني سلامة، وهي التي كانت تحتوى على حجرات مقببة مصنوعة من الطين المعجون، وقد استعملها السكان غرفًا للنوم. على أن هذا النقص في البداري قد يكون لمجرد الصدفة، ولكن من المحتمل جدًّا أنه يدل على أن هذا التقدم في بناء المساكن في الدلتا لم يكن قد أدخل على مباني الصعيد إلى هذا الوقت، وكان يوجد في وسط الكوخ حفرة تقوم مقام الموقد. أما المواد الغذائية فكانت تحفظ في سلة. وتدل الآثار التي عثر عليها في هذه الأكواخ على تقدم عظيم في أسباب الراحة، إذ كان أثاث المنزل يحتوي على حصير، بل وعلى أسرَّة من الخشب كانت توضع عليها وسائد من القماش أو من الجلد محشوة بالقش.

وقد أخذت أسباب الراحة في المساكن تزداد في خلال عصر ما قبل الأسرات، فمثلًا في عصر ما قبل الأسرات القديم في بلدة «الحمامية»، كانت الأكواخ المستديرة الشكل لا تزال مستعملة بجانب المساكن البيضية الشكل المقامة من الطين المعجون، وتشبه ما عثر عليه في «مرمدة بني سلامة» وليس بينهما خلاف إلا أن كتل الطين التي بنيت بها مساكن الحمامية، كان لا يوضع بعضها فوق بعض مباشرة، بل كان بين كل صفين من كتل الطين رباطان من البوص، والظاهر أن حوالي التأريخ التتابعي ٤٠ حدث تغيير في شكل الكوخ. إذ نشاهد أن البيت المستدير الشكل قد أهمل وحل محله الشكل المستطيل. وحوالي التأريخ التتابعي ٤٥ لوحظ أن العشش التي كانت تقام من مواد خفيفة، أخذت مكانها العشش التي كانت تصنع من الطين المعجون، ويدل وجود الموقد في أحد الأكواخ في «حمامية» على أن هذا النوع من المساكن قد خلف النوع السابق.

وفي خلال عصر ما قبل الأسرات الحديث ظهر تقدم محسوس في فن البناء عثر عليه في الوجه البحري في محطة المعادي التي كشفها الأستاذ مصطفى عامر بك؛ إذ إن القرية التي أميط اللثام عنها في هذه الجهة تتألف من منازل ذات شكل مستطيل، وقد استعمل في بنائها الطوب المجفف أي اللَّبِن، الذي خلف كتل الطين غير المنتظمة في الشكل، وقد كانت تستعمل دون أن تجفف، وهذا التقدم العظيم في فن المعمار لا بد أنه قد حدث في الدلتا في خلال العصر الطويل الذي يفصل عصر مرمدة عن عصر ما قبل الأسرات الحديث، وهذه الفترة مجهولة لنا تمامًا في تاريخ الدلتا. أما مخازن القوم التي كانت تصنع أوَّلًا من سلات مجدولة تدهك بالطين بعد ذلك، فكان يستعمل بدلًا منها في عهد المعادي أوان عظيمة الحجم مصنوعة من الفخار المحروق.

أما مقابر عصر بداية استعمال المعادن في الوجه القبلي، فأنها كانت تقام على مسافة من القرى كما كان الحال في العصر الحجري الحديث، ففي عهد البداري كان القبر لا يزال حفرة بيضية أو مستديرة الشكل، محفورة في الأرض نفسها على بعد بسيط دون أي كساء أو طلاء من الداخل. أما المتوفى فكان يكفن في حصير أو في جلد ماعز، وعادةً كان يوضع في تابوت ويغطى بالأعشاب، وقد عثر بجانب بعض المتوفين على ملابسهم اليومية وحليهم، وكانت رأس الميت تستند على مخدة كأنما يريد النوم، وقد لوحظ أن وجهه كان متجهًا نحو القرية، وفي أغلب الأحيان كانت يده ترفع نحو فمه. وقد كان يوجد بجانبه إناء وبعض آلات من النحاس ومن الظِّرَّان والعظم، وأحيانًا وجدت لوحة من الأردواز لطحن التوتية مما يدل على أن تجميل العين والوجه كان شائعًا، ووجدت في بعض قبور هذا العصر دمى تمثل سيدات صنعت من العاج أو من الطين، والظاهر أنها كانت تقدم هدية للمتوفى، وقد فسر بعض علماء الآثار وجودها بأنها تمثل إلاهات أو أنها تحل محل زوجة المتوفى في قبره.

والظاهر أن التابوت المصنوع من الخشب أو من الفخار لم يكن معروفًا في مقابر البداري، ولكن من ناحية أخرى عثر على صندوق من القش المجدول مما يدل على أن الإنسان كان قد بدأ يفكر في هذا العصر في محاولة صنع تابوت ما، وتدل بقايا البوص التي عثر عليها في هذه المقابر أنه كان يقام فوق الجثة مبنى من المواد الخفيفة ليحميها من التراب الذي كان يهال على المتوفى بعد الدفن، وليكون له بمثابة غرفة تحت الأرض، وقد لوحظ أن كل قبر كان مستقلًّا عن الذي بجواره، ومن الأشياء الهامة التي عثر عليها في هذه المقابر الأمشاط المصنوعة من العاج، وكانت تزين بزخرفة، وكذلك عثر على دبابيس

من نفس المادة كانت تستعمل لشبك الملابس، وعثر على خرز أنبوبي الشكل مصنوع من النحاس وعلى خرز مطلي بالمينا من حجر الكورتس ومن أحجار أخرى كلها كانت تلبس للزينة، أما أصداف البحر الأحمر فإنها كانت تستعمل في عمل الأحزمة والأسوار والقلائد.

وفي خلال عهد نقادة تقدمت طريقة الدفن بسرعة، فأصبح شكل اللحد سواء أكان بيضيًّا أم مستديرًا يشبه شكل العشة، ولما تغير شكل الكوخ وأصبح مستطيلًا تغير كذلك شكل القبر وأصبح شبه مستطيل، وكان هذا النوع الأخير صغير الحجم في أول الأمر، ولكنه كان يكبر حسب ثراء المتوفى، وقد عثر على مقبرة نموذجية لهذا النوع من الدفن في «العمرة» ومحتوياتها لا تقل عن ٢١ إناءً عظيمًا مصفوفةً على مقاعد على جوانب ثلاثة من حفرة الدفن، وكذلك عثر على قبر لفرد من علية القوم يحتوي على ١٢ إناءً كبيرًا مصفوفةً صفين على أحد جوانب القبر وذلك عدا اثني عشر إناء أخرى أحدها فخار مصقول من طرفيه، وهذا الثري لم توضع جثته في تابوت، بل في شبه التابوت؛ إذ حاول أن يصنع لنفسه صندوقًا مركبًا من ألواح مربوط بعضها ببعض بحبل، وهذا الصندوق يرتفع عن سطح رقعة القبر بنحو ٢٥ بوصة، وكان القبر من جهة أخرى مسقوفًا بعصي دهكت بالطين، وهذا مثل من الأمثلة التي يظهر فيه الفرق بين طبقات الشعب.

أما الخطوة الثانية في شكل إقامة المقابر فنتيجة للرقي الطبيعي الذي ينشأ من الشكل السابق، وذلك أنه لما كثر عدد القربان فإن البروز الذي كانت توضع عليه أواني القربان في القبرين السالفين قد صار رفًّا، أخذ يكبر تدريجًا حتى أصبح صاحب المقبرة يشعر بأنه سيضايقه في مضجعه الأخير، ومن أجل ذلك بدأت المقابر تأخذ شكلًا جديدًا في عهد ما قبل الأسرات الحديث، فصار شكل كل المقابر مستطيلًا، وفي الوقت نفسه أخذ استعمال بناء القبر ينتشر، وذلك لتدعيمه وجعله صلبًا، وبتقدم فن المعمار الأول أدخل بناء الجدران باللَّبِن، وكذلك استعملت القباب في المقابر، وأصبح من السهل عمل التحسينات اللازمة، فأضيفت حجرات مجاورة لحجرة الدفن الأصلية خصصت للمئونة والقربان، هذا إلى أنه صنع في القبر سلم للنزول والصعود بوساطته، وسواء أكان القبر في هذا العهد مسقوفًا أم غير مسقوف، فإنه لم يظهر منه أي جزء على سطح الأرض يعرف بوساطته أين يرقد المتوفى، وربما كان ذلك خشية أن يسطو اللصوص على محتوياته، ومن العادات الغريبة التي ظهرت في أواخر هذا العصر دفن المتوفى تحت إناء عظيم منكس، وقد أخذت عادة لف الجثة في حصير أو جلود تختفي تدريجًا، وأخذ يحل محلها وضع الجثة أوَّلًا في سلة من البوص المجدول، ثم توضع بعد ذلك في تابوت حقيقي مصنوع من

الفخار أحيانًا، وغالبًا يكون مصنوعًا من ألواح كما سبق، وكانت عادة دفن عدد عظيم من الأجسام في حفرة واحدة محصورة في عهد ما قبل الأسرات القديم، وقد لوحظ أحيانًا أن الصياد كان يدفن بجانبه كلاب صيده.

وكان المتوفى سواء أكان غنيًّا أم فقيرًا يوضع في القبر مقرفصًا على جانبه الأيسر، اللهم إلا بعض شواذ — كما شوهد في العمرة — حيث وجدت بعض الأجسام موضوعه على الجانب الأيمن لسبب مجهول، وفي العادة كانت توضع الأجسام متجهة من الشمال إلى الجنوب؛ أي في الجهة الموازية لسير ماء النيل، وفي أغلب الأحيان كانت الرأس توضع في الجهة الجنوبية، وهناك بعض شواذ كثيرة لهذه القاعدة، وقد فسر بعض علماء الآثار سبب وضع الجثة مطوية في القبر بأنها الحالة الطبيعية التي ينام بها الإنسان عادةً، وقد فسرها آخرون بطريقة علمية مقبولة أكثر من السابقة، هي أن الجنين يكون بهذا الوضع في بطن أمه، ولكن الظاهر أن المصري لم يفكر لا في هذا التفسير ولا في ذاك، بل الواقع أن المصري ربما كان قد تعود دفن الجثة من بادئ الأمر في مكان ضيق اقتصادًا، ثم أصبحت عنده عادة دفن الجثة بهذا الشكل، فلم يتخلَّ عنها حتى بعد أن أصبح المكان متسعًا، والمصري في كل أطوار حياته عبدًا لعاداته، وقد لوحظت بعض ظواهر غريبة في بعض المقابر يجدر بنا الإشارة إليها. ومن ذلك عثر على عدد من الأجسام منفصلة عظامها، وليست موضوعة في ترتيبها الطبيعي، مع أن كل الدلائل تدل على أن القبر لم يمس منذ الدفن، وقد فسَّر بعض العلماء ذلك بأن هذه الأجسام مزقت بعد الموت أو قبل الدفن، وقد أنكر بعضهم تلك العادة على المصريين، ولكن من جهة أخرى عثر في «دشاشة» التي يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات الحديث على مقابر سليمة لم تمسها يد إنسان، ووجدت فيها الأجسام منفصلة عظامها عن بعضها ثم لُفَّتْ في الكتان الذي وجد أنه لم يمس بعد في العصور التي تلت، وذلك مما يدل على أن فصل العظام كان شائعًا في عصر ما قبل الأسرات، ومن المستبعد جدًّا أن لحمها كان يأكله الإنسان كما ادعى بعض العلماء.

وربما كان أغرب ما أظهرته لنا مقابر ما قبل الأسرات وجود عدد لا يستهان به من الأجسام، فيها الجزء الأمامي من عظم الساعد مكسور، وقد ذهبت العلماء في تفسير ذلك مذاهب شيء، ولم تقتصر هذه الظاهرة على الرجال، بل وجدت في النساء أيضًا، والتفسير الذي يقبله العقل بعض الشيء أنه ربما كان هناك سبب جنازي يدعو لهذا الكسر الذي كان يحدث بعد الموت بلا شك، أما السبب الذي دعا للكسر فسيبقى بدون تفسير على الأقل الآن.

وتدل نتائج الحفائر التي عملت في عصر بداية المعادن أو عصر ما قبل الأسرات على أن المصري كان قد بلغ شاءوا بعيدًا في المدنية، وأنه قد وصل إلى درجة جعلت بينه وبين عصر الوحشية هوة سحيقة، ومهما نظرنا إلى صناعته في أي عهد من عصر بداية المعادن فإنا نجده قد وصل إلى مستوى يجعله في مصاف المتمدينين، فقد كان في هذا العهد كما كان أجداده في العصور السالفة من أمهر الصناع والفنانين في عمل الظِّرَّان، وقد كان عصر بداية المعادن يمتاز باستعمال الظِّرَّان والنحاس لصنع آلاته وحليه جنبًا إلى جنب، وتدل البحوث على أن صناعة الظِّرَّان كانت سائدة الاستعمال في عصر البداري وفي عهد ما قبل الأسرات القديم أي إلى عهد التتابع التأريخي ٤٠ وأحياء هذه الصناعة التي بدأت في العصر السالف استمر راسخ القدم بظهور السكاكين ذات الوجهين والسكاكين القصيرة ذات الطرف المستدير، هذا إلى ظهور رءوس الحراب ذات اللسانين، وكانت تصنع من شظايا غير منتظمة الشكل ولكن بعناية، وكان النحاس في هذا العهد لا يزال مادة نادرة الوجود، ولا يستعمل إلا في صنع الآلات ذات الحجم الصغير كالدبابيس التي كانت تستعمل لشبك الجلود بعضها ببعض، والإبر والكلاليب، والخطاطيف والمقاشط والمقصات، ولم يكن هذا المعدن يستعمل في حالته النقية بعد، أما الآلات التي كانت تصنع منه فكان يحصل عليها بالطرق.

ومنذ التأريخ التتابعي ٤٠ أخذت صناعة الظِّرَّان تتقهقر أمام صناعة النحاس، التي بدأت تزداد تدريجًا حتى أصبحت معظم الآلات التي يستعملها الإنسان في حياته اليومية تصنع من هذه المادة.

والواقع أن أهم ظاهرة بارزة في مدنية ما قبل الأسرات هي اكتشاف معدن النحاس واستعماله في معدات الإنسان في معظم مرافق الحياة، وذلك على الرغم من وجود الذهب والفضة وإن كانت الأخيرة نادرة، هذا إلى أن الحديد المطروق قد ظهر كذلك في هذا العصر واستعمل في صنع خرز أنبوبي الشكل، ولكنه كان نادرًا أيضًا، ولذلك كانت قيمته عظيمة لدرجة أنه كان ينظم في القلائد الغالية مع حبات الذهب، ولكن النحاس كان في هذا العصر «ملك المعادن»، ولذلك نتساءل من أين أتى هذا المعدن؟ وكيف كشفت مادته أولًا؟ والظاهر أننا مدينون بكشف النحاس واستعماله لأول مرة إلى إنسان مصر في عهد ما قبل الأسرات. على طريق أن طريقة كشفه ليست واضحةً لدينا، ولا ترتكز على أساس تاريخي، والمحتمل جدًّا أنها جاءت بطريق الصدفة المحضة إذا قبلنا إحدى النظريتين اللتين فرضهما كل من الأستاذ «أليت سمث» والأستاذ «برستد»، وقد عزا كل منهما السبب

في كشف معدن النحاس إلى استعمال المصري مادة التوتية «نترات النحاس» — التي سبق أن تكلمنا عنها — وهي مادة كانت توجد في معظم القبور المصرية في هذا العصر، ومعها لوحة من الأردواز لتطحن عليها قطع التوتية، وكان يستعمل لطحنها حصاة كبيرة من الحجر الصلب، وكان الغرض من وجودها مع المتوفى أن تكون مادة للزينة ودواء للعينين لحفظهما من تأثير أشعة الشمس في الصحراء، وقد استعملها الرجل والمرأة على السواء لهذا الغرض.

أما نظرية الأستاذ «برستد» في اكتشاف النحاس فإنه تصور الْمُعَدِّن المصري في شبه جزيرة سينا قد وضع رحله في مكان، واتفق أنه أوقد ناره على قطعة من النحاس الغفل «التوتية» الذي كان مبعثرًا بكثرة هناك، وفي الصباح عندما كان يريد كنس بقايا موقده وقع نظره على قطع صغيرة من مادة لها بريق ولمعان، وبالطبع كانت هذه القطع الصغيرة ما أنتجه اختلاط النار بالمعدن الغفل، ومن هذه اللحظة علم المصري أنه يمكنه الحصول على هذا المعدن بصهر حجر التوتية في النار، وبهذه الكيفية يقول الأستاذ «برستد» إن الإنسان المصري تعلم لأول مرة في حياته كيف يمكنه أن يحصل على معدن أصبح بوساطته يضرب بسهم صائب في الصناعات وفي الهندسة.

أما الأستاذ «أليت سمث» فإنه يعزو هذا الكشف إلى زوج الْمُعَدِّن فيقول: إن الْمُعَدِّن قد جلب معه حجر التوتية من شبه جزيرة سينا إلى بيته، واتفق صدفة أن زوجته كانت تستعمل عجينة من هذا الحجر لتجميل وجهها، ولكن حدث أن سقطت هذه العجينة من يدها وهي أمام الموقد في النار، والظاهر أن ناره كانت متأججة فلم يمكنها إنقاذ عجينتها، وفي اليوم التالي عندما كانت تنظف بقايا نار أمس في الموقد لتجهز الإفطار، وجدت لدهشتها أن قطعة عجينة التوتية التي سقطت منها بالأمس قد اختفت، ولكنها في الوقت نفسه وجدت بعض قطع صغيرة من معدن لونه أحمر جميل، مما جعلها تنسى خسارة أمس، لأنها وجدت بدلًا منها مادة أخرى جديدة تخلفت من حرق التوتية، يمكنها أن تستعملها في صنع أدوات زينة جديدة.

وقد كان من نتائج هذا الكشف العظيم، أن أخذت صناعة الظِّرَّان منذ تأريخ التتابع ٤٠ تتقهقر أمام صناعة النحاس التي أخذت في الانتشار والتحسن السريع، فأصبح يصنع منها معظم الآلات التي كان يستعملها إنسان هذا العصر، ومن المدهش أنه كلما كان يقل استعمال الظِّرَّان في مهام الحياة كلما أخذ الصانع في تحسين الآلات التي كان يستخرجها منه، وربما كان السبب في ذلك أنها كانت تعد في هذا الوقت أدوات زينة وكماليات، وبجانب

هذا الظِّرَّان الفاخر المتقن الصنع، كانت تستعمل حصوات معينة الشكل «الزلط» يهذب أحد طرفي الواحدة منها ويرهف، ولكن في العصر نفسه أخذ النحاس يحل محل الظِّرَّان بكثرة مضطردة في عمل آلات الحرب، ورغم النهب المنظم الذي حدث في مقابر هذا العصر للحصول على المعادن والأشياء الثمينة، فإنه عثر فيها على مقصات، وقُدُم، وأزاميل، وخناجر، وخطاطيف من النحاس، وقد عثر كذلك على فأس ذات وجهين يرجع عهدها إلى الرقم ٨٠ من تأريخ التتابع مما يثبت استعمال المعادن بدرجة عظيمة في هذا الحين.

أما صناعة النسيج التي ظهرت بوادرها في العصر النيوليتي، فإنها أخذت تنمو وتتقدم منذ بداية عصر استعمال المعادن، وبقايا الأقمشة التي عثر عليها في مقابر البداري لا تزال خشنة الصنع ساذجة، ولكنها في الوقت نفسه كانت صلبة منظمة النسج، وهذه الأقمشة كانت تصنع ملابس، هذا إلى أن صناعة الجلود أخذت في التقدم. أما صناعة النجارة الدقيقة في هذا العصر، فلم يبقَ منها إلا بقايا لا تكاد تذكر، ولكن رغم ذلك فإن آثار أخشاب الأسرة التي عثر عليها في البداري، وبقايا توابيت عصر ما قبل الأسرات المتوسط والآلات النحاسية التي ظهرت خلال رقم ٥٥ من التأريخ التتابعي، كل هذه الأشياء تدل على انتشار هذه الصناعة لتزيين مساكن عصر بداية المعادن.

ومن أهم مميزات عصر بداية المعادن صناعة الفخار؛ إذ بلغت قمتها في مصر، ولم يكن هناك منافس للفخار في هذا العهد إلا الأواني التي كانت تصنع من الأحجار الصلبة، غير أنها لم تكن منتشرة، بل في الواقع كانت نادرة؛ وذلك لأنها ثمينة. وفي الحق كان إنسان هذا العصر يصنع أواني من الفخار غاية في الدقة تدل على سلامة الذوق والمهارة الفائقة، وقد كان نمو أشكال هذا الفخار وتعدد زخرفته المتنوعة الأساس دعامة بنى عليها «فلندرز بتري» نظريته التي أطلق عليها التتابع التأريخي — كما أسلفنا — وقد جاء اكتشاف جبانة البداري منذ عهد قريب مكملًا للحلقة الناقصة في هذا التتابع.

ويمتاز فخار البداري الذي حدد «فلندرز بتري» رقم ٢٠–٢٩ بوجود خطيطات متوازية تكون أحيانًا دقيقة الصنع وأحيانًا تكون خشنة، وهذه الخطيطات تغطي سطح الإناء. ومعظم الأواني التي وجدت في هذه الجهة حافتها سوداء، وكان يصنع الإناء باليد من غرين النيل المخلوط بالرمل ثم يوضع منكفئًا على موقد فحم متأجج، فكان الجزء الخارجي من الغطاء المدفون في الفحم المتقد، وكذلك الجزء الداخلي من الإناء يتغير لونهما من فعل غاز الأكسيد إلى أسود لامع جميل، ولم يوجد من فخار البداري أنواع متعددة متنوعة كما وجد في «مرمدة»؛ إذ إن الأنواع التي عثر عليها إلى الآن تنحصر أشكالها في

بعض أقداح طويلة أو قصيرة ذات حافة مستقيمة أو مستديرة أو بيضية، أو ذات قعر مسطح، ويشاهد في بعض الأواني النادرة حزٌ في الحافة يشعر بأن إنسان هذا العصر أخذ يفكر في صنع إناء ذي عروة، وقد استمر استعمال الفخار ذي الحافة السوداء في جهات أخرى غير البداري إلا أنه أخذ في التلاشي، كما أخذت أشكاله تستطيل حتى رقم ٤٠ من التأريخ التتابعي. أما الفخار الجميل ذو اللون الأحمر المصقول الذي أخذ يحل محله، فقد أضاف شكلًا جديدًا إلى سلسلة الأواني، وهو الإناء ذو الرقبة الضيقة والقعر المستوي وهو في شكله يشبه الزجاجة الحالية. وحوالي الرقم ٣٥ من تأريخ التتابع ظهرت الجرة ذات الوسط المفرطح والعروة المتموجة والرقبة ذات الحافة، وهذا النوع من الفخار كان ظهوره بين ٣١–٣٥ من التأريخ التتابعي، ويمتاز بأنه كان يزخرف برسوم ملونة بالأبيض تدل على حلية هندسية الشكل تشبه الفخار الأسود الذي ظهر في عصر «دير طاسا»، ولكن ظهرت عليه بعض أشكال آدمية ساذجة الصنع، وأشكال حيوانات ونباتات، وحوالي الرقم ٤٠ من تأريخ التتابع، ظهر نوع جديد من الفخار يطلق عليه اسم الفخار المزخرف، وكان يصنع من عجينة نقية ذات لون صاف، ويمتاز بفرطحة وسطه وقصر رقبته، وفي معظم الأحيان تكون له حافة. أما قعره فمستوٍ وكانت رقبته مزخرفة بخطوط بنفسجية شديدة السمرة، وكذلك كانت ترسم عليه أشكال حلزونية، ربما كانت تقليدًا للأشكال الطبيعية التي تساعد على الأواني الحجرية الصلبة، وكان يرسم عليها كذلك أشكال شجر، وجماعات من الناس، وحيوانات من ذوات الأربع، وطيور طويلة السيقان، وخطوط متموجة تمثل المياه، وقوارب مجهزة بمجاديف، في وسطها حجرتان عليهما شارة، وهذا النوع من الفخار استمر حتى الرقم ٦٥ من تأريخ التتابع، وباختفائه انتهى عصر الفخار الذي كان يتخذ للزينة وكماليات الحياة في مصر. أما نوع الفخار الذي أعقبه فكان من النوع العادي، ولكنه في الوقت نفسه أخذ في التدهور شيئًا فشيئًا حتى أصبح لا يختلف عن فخار العصر التاريخي العادي الصنع.

أما صناعة المينا الزرقاء والخضراء فترجع إلى أول عصر بداية المعادن.

وكانت تصنع بخليط من البلور الصخري المطحون والجير والبوتاس، وكربونات النحاس، وكانت كل هذه المواد تخلط ببعضها حامية ثم تسحق في الماء وبعد ذلك تصب على القطعة التي يراد طلاؤها، ثم توضع في الفرن، وهذه الطريقة لم تكن مستعملة في عهد البداري إلا لطلاء قطع صغيرة من الخرز المصنوع من البلور الطبعي أو من حجر ستايتيت، وفي عهد ما قبل الأسرات القديم، اخترع للمينا مسند خاص به يمكن الحصول

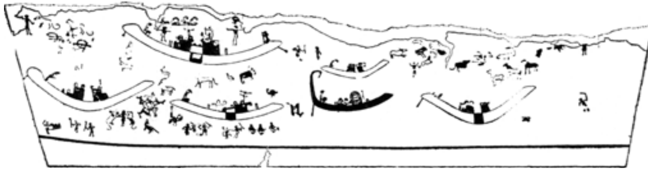


فخار ملون من طوخ «الوجه القبلي».

على ما يطلق عليه خطأ القيشاني المصري «فيينانس»، وذلك بأن يؤتى بكمية فن الصوان والرمل أو الكورتس المطحون طحنًا ناعمًا، ثم تغطى هذه العجينة بطبقة سميكة من المينا، وأقدم قطعة من المينا طليت على طبقة من الرمل عثر عليها في نقادة، ويرجع تاريخها إلى الرقم ٣١–٣٩ من تأريخ التتابع، وهذه القطع عبارة عن خرز وتعاويذ صغيرة الحجم على هيئة طيور، وقد استعملت الطريقتان جنبًا إلى جنب. غير أنهما لم تستعملا في إخراج قطع هامة إلا في العهد الطيني، ولم تستعمل في عصر بداية المعادن إلا في صناعة القطع الصغيرة، أو تزيينها بلصق المينا عليها، وذلك منذ عهد ما قبل الأسرات المتوسط، ولم يكن ذلك قاصرًا على حجر الكورتس، وحجر ستايتيت، ولكن تخطى ذلك

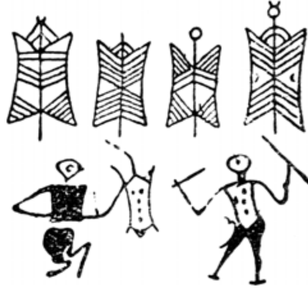


فخار ملون من عصر ما قبل الأسرات.



منظر ملون عثر عليه في الكاب بالوجه القبلي يرجع إلى ما قبل الأسرات.

إلى العاج، والعظم، وحجر الشيست، والحجر الجيري، وعلى العموم كان يستعمل مع كل المواد التي كانت تستخدم في فن النحت.



رسم على فخار ملون يمثل جنودًا بسلاحهم وزردهم من عصر ما قبل الأسرات.



صورة على فخارة ملونة من مقابر ما قبل الأسرات.

ولما كانت المينا من الأشياء الكمالية، لم يستعملها المصري قط في الفخار الذي كان يعد في نظره مادة حقيرة، وقد بقي الحال كذلك حتى عهد الرومان؛ إذ ظهر وقتئذ استعمال المينا مع الفخار.

وكان كشف صناعة المينا الزجاجية أول خطوة نحو صنع الزجاج الذي لم تختلف صناعته عن صناعة المينا إلا بعدم استعمال مسند تصب عليه المينا، والواقع أن المصريين عرفوا الزجاج في العهد الفرعوني، ولكنهم لم يعرفوا قط صناعته إلا في حالة عجينة مطحونة، ولم يعثر على قطع من الزجاج إلا بعض خرزات، وقطعة واحدة مطحونة



إناء من الفخار على شكل حيوان «طير» من عصر ما قبل الأسرات.

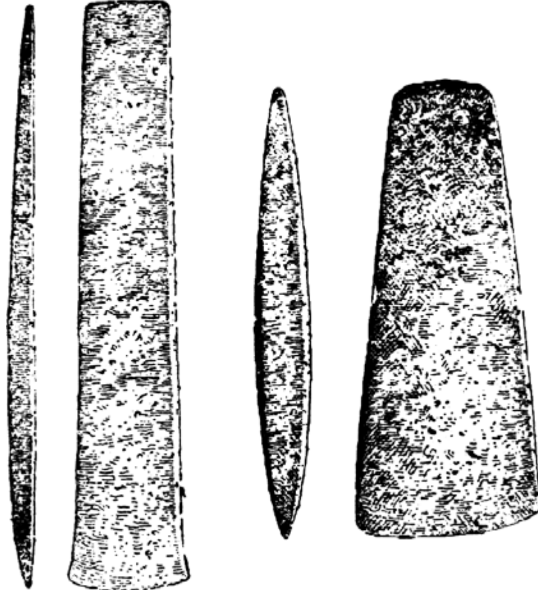


فخارة ملونة رسم عليها مركب وطيور من نقادة بمصر العليا.



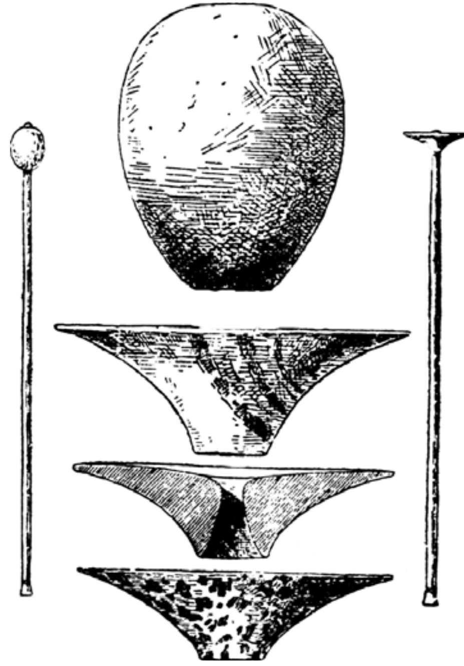
أوان من الحجر عثر عليها في العمرة «الوجه القبلي».

يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات، وهذه القطعة عبارة عن دلَّاية «بندنتيف» زرقاء اللون تشبه اللازورد ويرجع عهدها إلى الرقم ٤١ من تأريخ التتابع.



بلط نحاس من عصر ما قبل الأسرات عثر عليها في مصر.

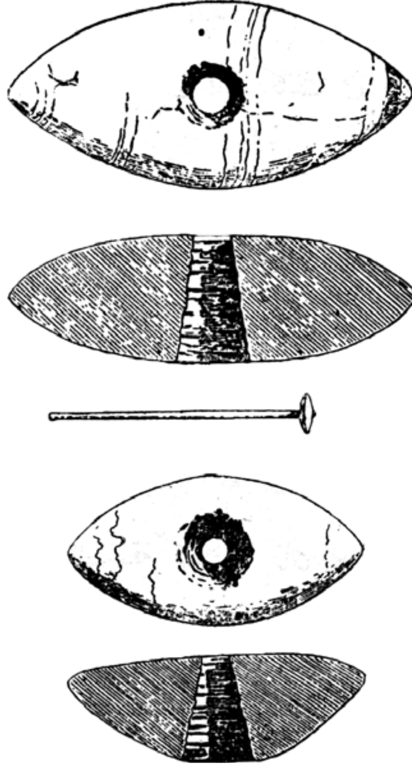
وفي هذا العصر أخذت صناعة الأواني الحجرية تتقدم تقدمًا محسوسًا، وقد عثر في الوجه البحري على أوان من الحجر يرجع عهدها إلى عصر مرمدة بني سلامة بعضها مصنوع من حجر البازلت على هيئة هاون، ولم يعثر على مثلها قط في عصر البداري، ولكنها ظهرت في عهد ما قبل الأسرات القديم، فكشف عن أوان أسطوانية الشكل ذات قعر مستدير، وأوان أنبوبية ذات قعر مستو، وعلى أقداح عظيمة ذات جدران منخفضة مصنوعة من الحجر الجيري اللين ومن المرمر والبازلت والجرانيت الوردي، وهذه الأواني كانت نادرة في عهد ما قبل الأسرات القديم، ولكنها أخذت تزداد في العدد على مر الأيام، وربما كان السبب في ذلك كشف النحاس الذي كانت تعمل منه الآلات اللازمة لتفريغ هذه الأواني.



رءوس دبابيس من الحجر الصلب عثر عليها في العمرة «الوجه القبلي».

ولقد كان الصانع المصري يصنع أوانيه من حجر الديوريت وحجر البرفير، وحجر البريشية التي تعد من أصلب الأحجار وأعصاها بقلبٍ فرح متذوقًا عمله، حتى إنه كان لا يعد للزمن الذي يصرفه في إنجاز عمله حسابًا، ويُظهر من الصبر درجة تضعه في مصاف مهرة العمال، ولقد كانت النتائج التي وصل إليها تضارع المشاق التي تحملها، وكانت أشكال الأواني الحجرية التي أخرجتها يده مقلدة أشكال أواني الفخار المعاصر، ولم تكن الأخيرة بلغت من حسن الشكل والذوق أكثر مما كانت عليه في هذه الفترة، ولم تكن عجلة صانع الفخار معروفة بعد، ولكن مع ذلك كانت الأواني التي تعمل باليد على درجة عظيمة من حسن الشكل والدقة، ولذلك كانت الأواني الحجرية التي نحتت على هيئتها آية في الجمال. هذا إلى أن جمال الحجر الطبعي ولونه، كان يظهر في بهجة خلابة عندما كان الفنان ينجح في صقل سطح الإناء، وعندما كان يرقق جدران الإناء حتى يصبح شفافًا،

وعلى العموم فإن هذه الأواني الحجرية ربما تعد أجمل الأشياء التي بقيت لنا من عصر ما قبل الأسرات، وتعد شاهدًا فصيحًا على المهارة الفنية للجنس الذي أنتجه وعلى ذوقه السليم.



رءوس دبابيس من المرمر، عثر عليها في العمرة «الوجه القبلي».

وفي التأريخ التتابعي ٤٠ ظهرت أشكال جديدة من الأواني الحجرية تقابل أشكال الفخار كالأواني المنبعجة الوسط، والبيضية، والمستديرة، والأقداح العميقة ذات الحافة المنحنية انحناء خفيفًا من أعلى، وهذه الأشكال الجديدة ليس لها حوامل «أرجل»، بل قعرها إما مستدير أو مستو، وقد أخذت صناعة الأواني من الحجر الصلب تزدهر وتتقدم

— كما سبق ذكره — حتى وصلت القمة في عهده الأسرة الأولى، ولم نعثر في القبور التي من قبل الأسرات المزودة بأوان من الحجر على أوان من الفخار، إذ كانت تعد في نظر القوم من الأثاث الرخيص، ومنذ ذلك العهد يمكننا أن نفهم أن تقدم صناعة أواني الحجر، قد قضت على صناعة الفخار المزخرف حوالي نهاية عصر ما قبل الأسرات.

ويتبع صناعة أواني الحجر الصلب رءوس الدبابيس التي كانت تستعمل في الحرب، وكانت كذلك من الحجر الصلب، وهذه الرءوس كانت تثبت في مقابض مصنوعة من قرون الحيوان أو من العاج، وأقدم نوع من هذه الرءوس عثر عليه في الوجه القبلي، وكانت على شكل أقراص، واختفت في عهد الرقم ٤٠ من تأريخ التتابع، ليحل مكانها النوع الجديد الذي جاء على هيئة كمثرى، ولا شك أنه جلب من الوجه البحري؛ إذ كان معروفًا في عصر مرمدة، وبعض هذه الرءوس قد أحكم صنعها فوصلت إلى درجة عظيمة من الإتقان الفني، حتى إنها لم تقم مقام سلاح مفيد فحسب، بل كانت في ذاتها قطعة فنية آية في جمال الصنع.

ديانة عصر بداية المعادن

من العبث أن يحاول المؤرخ رسم صورة صادقة للديانة المصرية في عصر بداية المعادن، والسبب في ذلك يرجع إلى أن المصادر التاريخية الصادقة كانت لا تزال تعوزنا في هذا الوقت، هذا إلى أن ما دُوِّن كتابةً في فجر التاريخ المصري، لم يُشِرْ إلا إشارات خفيفة لتلك الأزمان السحيقة، وأهم مصدر وصل إلينا في هذه الناحية هي متون الأهرام، التي دُوِّنت على جدران أهرام سقارة في خلال الأسرتين الخامسة والسادسة، وذلك في داخل حجرات الدفن للملوك فحسب، ورغم أن هذه المتون تشير إلى ديانة ما قبل الأسرات، غير أنها تنحصر في ديانة الوجه البحري التي ألفت فيها المتون المذكورة، هذا إلى أنها كانت خاصة بالملوك لا بعامة الشعب، وسنتكلم عن ذلك بإسهاب في حينه.

أما المصدر الثاني الهام الذي نرتكز عليه في استنباط ديانة هذا العصر، فهو الكشف الأثري في الوجه القبلي وفي الدلتا، وما كشف من الآثار إلى الآن يدل على أن مدنية الوجه البحري أعرق في القدم من مدنية الوجه القبلي.

وإذا كانت الأمور تقاس بأشباهها، فإن محتويات المقابر التي كشفت في هذا العصر بمقارنتها بما كشف في العصور التاريخية، تدل على أن القوم كانت لهم معتقدات دينية ترتكز على أساس متين، ولا أدلَّ على ذلك مما عثر عليه في جبانة عصر البداري من

الحيوانات التي عُني بدفنها بعد تكفينها، كما كان يحدث في العصر التاريخي، فمثلًا وجدت أولاد آوى، وثيران، وكباش، وغزلان، ملفوفة في حصير أو في نسيج من التيل، مما لا يترك مجالًا للشك في أنها كانت تقدس، وتعبد، وأن أهل هذا العصر قد نقلوا عبادتها إلى العهد التاريخي، وكذلك وجدت في مقابر البداري تعويذات مصنوعة من العظم تمثل رءوس غزلان، وجاموس بحر، كما وجد في عهد نقادة بعض أعلام مرسومة على أواني فخار، ويحمل كل منها صورة حيوان أو شعارًا، كان لا بُدَّ يستعمل بمثابة صورة أو رمز لأله خاص، ومن المحتمل جدًّا أن هذه الرموز الدينية تدل على أقسام سياسية للبلاد في هذا العصر.

ومن أهم الأدلة على اعتقاد القوم في هذه الأزمان السحيقة، بأن الإنسان سيعيش كرَّة أخرى في قبره ما يلاحظ في ترتيب الأدوات التي كانت توضع معه، ويمكننا أن نستنتج أن المواد الغذائية التي كانت توضع بالقرب من الجثة، وكذلك بعض أدوات الزينة وبعض الآلات كان لا بد للمتوفى أن يستعملها في حياته الثانية في القبر، كما كان يستعملها في حياته الدنيا بكل مظاهرها ولوازمها.

وقد ذكرنا فيما سلف أن جثة المتوفى كانت توضع في لحدها ورأسها متجهة نحو كوخ أسرته التي غادرها، وربما كان الباعث على ذلك رغبته حسب اعتقادهم في أن يرى باستمرار أملاكه الدنيوية وأخلافه من بعده، ويعزز هذا الرأي ما نشاهده في قبور العصر التاريخي؛ إذ نجد أن المتوفى في خلال الأسرة السادسة، كان يرسم خارج تابوته الخشبي عينين تدلان على مكان وجود رأسه، وكان في مقدوره أن يرى كل ما يحيط به في العالم الدنيوي بهما.

في خلال هذا العصر عثر كذلك على بعض دمى لنساء وخدم وحراس نصبت خلف جدار القبر، هذا إلى مراكب صغيرة معها شبكها ومعداتها، وحيوانات متوحشة وأليفة. كل هذه الأشياء قد أهديت للمتوفى ووضعت معه في القبر ليستعملها في حياته الآخرة بوساطة رقى سحرية، ولا نزاع في أن إنسان هذا العصر كان يستعين بالسحر لاستخدام هذه التماثيل الصغيرة فيقلبها إلى حقيقتها، وهذا بالضبط ما وجد في العصر التاريخي في معتقدات القوم الجنازية.

على أن هناك عادات في الدفن عثر عليها في عصر ما قبل الأسرات، ولكننا لم نعثر عليها في عادات العصر التاريخي إلى الآن، ولذلك ستظل سرًّا غامضًا إلى أن نعثر على نظائرها، فمنها أنه عثر على هياكل عظمية في مقابر لم تمس بعد، لم تكن مدفونة

بحالتها الطبيعية، وقد ظن بعض العلماء أن الأجسام التي وجدت بهذا الشكل، قد فصل عظام كل منها عن بعضها بعد الموت أو قبل الدفن، حتى إن بعضهم ظن أن لحمها كان يؤكل، ولكن ذلك الرأي لا يخرج عن مرتبة الخرافة المحضة.

وقد عثر في دشاشة في مقابر لم تمس بعد من الأسرات الأولى على بعض أجسام مفصولة عظامها عن بعضها، ثم لفت فيما بعد في نسيج من الكتان، ومن المحتمل جدًّا أن هذه العادة قد ورثها أهل الأسرات من قوم ما قبل الأسرات، ولم يعرف تفسيرها حتى الآن.

على أن أغرب عادة وصلت إلينا من عصر ما قبل الأسرات هي كسر ساعد المتوفى، وقد وجدت هذه الظاهرة في النساء والرجال على السواء، ولا شك أن ذلك يرجع إلى اعتقاد ديني لا نعرفه، ولا ندري ماذا تخبئ لنا أرض مصر في جوفها من مثل هذه العادات والمعتقدات، التي لا يمكن أن نصل إلى حلها إلا بنظائرها في العصر التاريخي.

الفن

من الأمور البديهية في حياة الأمم، أن الفرد يهتم أوَّلًا بالحصول على حاجاته الضرورية، ثم بعد ذلك يتطلع للكماليات واقتنائها، فلا غرابة إذن إذا كنا نجد إنسان العصر الحجري الحديث منصرفًا بكل قواه لإنشاء الصناعات اللازمة لحياته المنزلية، ولم يفكر في التفنن في صنعها، لذلك نجد أن حلي أهل هذا العصر الساذج كانت خالية من كل ذوق فني، ولما دخل في عصر بداية استعمال المعادن، وارتقى في معيشته بعض الشيء، بدأ يتفنن في صنع متاعه وحليه، ولا غرابة في ذلك ما دامت قراه ومدنه التي كانت تزخر بالمعدات، قد أخذت الكماليات تجد محلًّا بين سكانها، ومن هنا نشأ الفن.

ومن المحتمل جدًّا أن تكون أول فكرة فنية قد نبتت في الوجه البحري، وظواهر الأمور تشجع على احتمال هذه النظرية، ولكن للأسف تعوزنا هنا المستندات كلية حتى الآن. أما في الوجه القبلي فالأمر على عكس ذلك؛ إذ أظهرت لنا حفائر البداري حليًّا تدل على بداية ذوق فني أخذ يتحقق على مر الأيام تدريجًا؛ إذ عثر هناك على قلائد منظومة في خيوطها حبات من الفيروز، يتخللها على مسافات متساوية قطع كبيرة من العقيق، وحجر اليشب وحجر الحية، وعثر كذلك على أحزمة مؤلفة من عدة خيوط منظومة فيها حبات زرقاء وأخرى خضراء، ووجدت أسورة ذات حجم عظيم من العاج، وأمشاط للشعر محفورة في رقعة كل منها رءوس طيور. أما أدوات الزينة التي وجدت بجوار جثث سراة القوم

في مقابرهم، فإنها محفورة في العاج ومعظمها نماذج أوان للعطور وملاعق مستديرة أو مستطيلة الشكل ذات أيد أسطوانية، وتنتهي كل يد برأس حيوان أو ما يشبهه، ورغم سذاجة هذه الأدوات وبساطتها فإنها تدل على ذوق حقيقي.

ولم يفكر المصري في عمل التماثيل إلا لضرورة ملحة، وذلك أنه كان يعتقد في حياة ثانية بعد الموت، فكان يحتاج إلى وضع دمى سحرية معه في القبر، وأولى ما عثرنا عليه منها كان في مقابر البداري، وكانت على شكل تماثيل صغيرة لنساء عاريات، فوُجد هناك تمثال صغير من العاج، ودميتان من الطين في قبور فقراء القوم، وهذه الدمى بلا شك خشنة الصنع، وبخاصة أننا وجدنا تمثيل الوجه فيها مختصرًا، فالعين ممثلة مستديرة، أما اليدان والرجلان فإنها صورت ممسوخة مشوهة ليس فيها من الفن شيء، ولكن لوحظ رغم ذلك أن جسم دميتين تدلان على صدق التعبير الفني وعلى المرونة في التصوير، مما لم يفقه أي جسم آخر في خلال عصر بداية استعمال المعادن.

وإذا قارنَّا الدمى المصنوعة من العاج بالدمى المصنوعة من الطين الصلصال، فإنا نجد أن الثانية تقليد للأولى، وكان يستعملها عامة الشعب، ولا نزاع في أن أول من فكر في صنع هذه الأشياء في ذلك العصر هم سراة القوم وعظماؤهم، ومن ذلك نعلم أن الفن بدأ في الطبقة الراقية، ثم قلدهم عامة الشعب، والواقع أن هذا كان طابع الفن المصري في كل عهوده، حتى اندثر، ولذلك نشاهد أن منتجات الفن لم تكن على وتيرة واحدة متساوية في الصنع والقيمة. على أن ذلك لا يعني أن الدمى التي أنتجها الفن المصري في هذا العهد لم تكن في أصلها مشبعة بالروح الشعبية، بل الأمر على عكس ذلك في بعض الدمى المصنوعة من الطين التي يرجع عهدها إلى زمن سحيق، وقد وجدت أمثلة من هذا النوع في العصر التاريخي، ومع ذلك فإن هذه الدمى التي لا تشف عن روح فنية معينة لا تشغل حيزًا في مضمار الفن المصري، اللهم إلا مجرد فكرة، ومن أجل ذلك لا يمكننا أن نعدها من القطع الفنية التي يجدر بنا أن نعيرها اهتمامًا.

وفي الحق يجب على الذي يريد أن يتناول البحث في الفن المصري، أن يبدأ أوَّلًا بفحص الأدوات الكمالية والتحف التي عثر عليها في هذا الوقت؛ إذ هي المظهر الحقيقي الأول للفن المصري، وفي خلال عصر بداية استعمال المعادن كانت المواد التي تصنع منها الأدوات الكمالية وأدوات الزينة منحصرة في العاج والأحجار الصلبة على أن صناعة الأحجار لم تكن بعد منتشرة لصعوبة نحتها، ولذلك كان يقتصر صنعها على الأواني الثمينة جدًّا، ومنذ ظهرت أخذت تؤثر في صناعة الأواني الفخارية التي كانت شائعة الاستعمال في ذلك

العهد، وهذا ينطبق كذلك على الأواني المعدنية، فإنها أثرت على صناعة الأواني الحجرية، بل وعلى الفخار أيضًا.

ومما لا شك فيه أن العاج كان في هذا العصر المادة التي تصنع منها القطع الفنية، ثم تدرج بعد ذلك إلى استعمال العظم في صنع الدمى، وقد عُثر على دمى نساء عاريات، وأذرعهن ملصوقات على طول الجسم أو موضوعة على الصدر تحت الثديين المتدليين، وقد وجدت دمى للرجال عارية إلا من الكيس الذي كان يستر عضو التذكير، وكذلك عثر على أقزام ممسوخة الشكل وعلى ذكور ملفوفين في عباءاتهم ولهم لحى، ومن المحتمل أن الدمى الأخيرة كانت تمثل آلهة أو ملائكة، والظاهر أنها كانت تستعمل غالبًا لزخرفة التعاويذ الكبيرة الحجم التي كانت على شكل قرن.

وقد كشف عن دمى تدل على تقدم فني محسوس وبخاصة صنع العين؛ إذ نجد في النزر اليسير الذي أخطأه التدمير والتلف أن العين بدأت تمثل على شكل اللوزة مما يقرب من الحقيقة، غير أن الجسم الذي كانت توضع فيه كان لا يزال ينقصه مظاهر الذوق الفني؛ إذ كان يصنع على طريقة ثابتة معينة متفق عليها من قبل، لكل الأجسام تقريبًا، وذلك مما يظهر لنا الفارق العظيم بينها وبين دمى العاج التي عثر عليها في البداري، وهي التي يلاحظ فيها الإنسان الروح الفنية، وفي هذا العصر أخرجت صناعة العاج أمشاطًا عظيمة الحجم للزينة لها أسنان طويلة ومحلاة برسوم بارزة تدل على أشباح غزلان وطيور، أو رأس آدمي له لحية، هذا إلى مشابك للشعر رءوسها مزخرفة بصور كالتي سبق ذكرها، وهذه الأمشاط كانت تستعمل خاصة في عهد ما قبل الأسرات القديم، والظاهر أن صنعها انقطع حوالي تأريخ التتابع ٤٤.

وفي هذا العصر كثرت صور الحيوانات، فكانت تمثل بقطيعها في الأرواح الأردوازية الخضراء، وقد ذكرنا أن هذه الألواح كانت تستعمل لطحن الكحل «التوتية» لتجميل العين، وقد حلت مكان الألواح المستطيلة الشكل التي كانت مستعملة في عهد البداري بدون أية زينة.

أما الحيوانات التي كانت تمثل بارزة على هذه الألواح فكانت عديدة مختلفة الأنواع، أهمها الإبل، وجاموس البحر،[١٢] والطيور والسلحفاة والسمك، وكانت الألواح في الغالب يخرم فيها ثقب ليمكن أن تعلق منه، وتدل البحوث الأثرية على أن استعمالها قد بطل في

[١٢] أو فرس البحر، ويسمى كذلك العسنت.

نهاية عصر ما قبل الأسرات القديم، ومن ثم أخذت أشكالها تتغير تدريجًا حتى أصبحت ولا يمكن تعرفها.

ولقد بلغ من غرام فناني هذا العصر بالأشكال الحيوانية أنهم أدخلوها في زخرفة الفخار، وبوساطتها أمكن تحديد عمر سلسلة من الأواني التي على أشكال حيوانات مثل جاموس البحر، والطيور، والأسماك، وقد كان تصوير كل نوع من هذه الحيوانات يمثله وهو في حالته الطبيعية مما أعطى لها رونقًا خاصًّا، غير أنه لا يمكن مقارنتها بالدمى المصنوعة من غرين النيل، التي عثر عليها في المقابر التي كان الغرض منها أن تقوم مقام حظية المتوفى أو خادمته، وهذه كانت توجد بكثرة في هذا العصر غير أنها كانت خشنة الصنع في أحوال كثيرة؛ إذ نجد في معظم الأحيان رأس الدمى تمثل بكتلة من الطين لا شكل لها. على حين أن الأعضاء الأخرى كانت لا تخرج عن كونها إشارات بسيطة تدل على مكانتها في الجسم، ولم نجد الفخذين متصلين ببعضهما، ودمى النساء ذات الأوراك الغليظة والثُّدِيِّ الضخمة كانت تمثل على وتيرة واحدة بطابع واحد في كل الأجسام، ويجب ألا ننظر هنا إلى هذه التماثيل نظرة فنية؛ إذ هي في الواقع تماثيل مأتمية عملت لتسد فراغًا خاصًّا، ولكنها في الوقت نفسه مقدمة لطلائع التماثيل الجنازية التي ستوضع في العصر التاريخي مع المتوفى، وقد وجد من بينها قطع من آيات الفن تزين الآن متاحف العالم، مثل حاملات القرابين، والراقصات وصانعات الجعة في الأواني: وبحارة السفن، وحيوانات القرابين، وأنواع الطيور … إلخ.

وقد عثر في نفس مجموعات هذه القبور على تماثيل حيوانات أرجلها ليست منفصلة عن بعضها، أما جسمها فيرتكز على عمودين من الطين.

وحوالي تأريخ التتابع ٤٠ نلاحظ أن التغير الذي ظهر أثره في كل مرافق الحياة قد أثر على فن النحت في العاج، فنجد مثلًا أن الأمشاط المزخرفة ذات الأسنان الطويلة أخذت تختفي حتى انعدمت جملة، وحل محلها أمشاط للزينة ذات أسنان قصيرة، كان بعضها يثبت في مشبك طويل أسطواني الشكل ليمسك به الشعر، وما ذلك إلا محافظة على التقاليد القديمة في استعمال المشط.

وظهر كذلك نوع جديد من الملاعق، تتكون الواحدة منها من جسم الملعقة نفسها، وكان إما بيضي الشكل أو مستديره، وينتهي بيد بسيطة على شكل عصا، وقصارى القول أن الزخرفة الفنية التي كانت شائعة في العصر السابق أخذت تختفي، ومن الغريب أن هذا العصر الذي قضي فيه على زي الزخرفة، قد اتفق مع الاختفاء الذي يكاد يكون كليًّا

لصناعة دمى العاج ودمى الطين، فلم يبقَ لنا من مخلفات هذا العصر الآدمي إلا الرجل الملتحي أو الملفوف في عباءته، ومع ذلك فإنه كان مصنوعًا صنعًا هندسيًّا مختصرًا، ليس فيه ما يشعر بالذوق الفني، وتدل ظواهر الأمور على أن ما كان شائعًا من المظاهر الأولى في فن عمل التماثيل أصبح لا فائدة منه، وأن تلوين الأواني المزخرفة التي كانت توضع بجوار جثة المتوفى قد ضمن لأصحاب القبور بوساطة السحر الخدم والنساء وحيوان الصيد والقوارب التي كان يصنعها الإنسان إلى هذا العهد على شكل تماثيل بأثمان غالية.

وقد ظهر كذلك إهمال فن الزخرفة بالنحت في ألواح الأردواز التي من عصر ما قبل الأسرات المتوسط، لذلك نجد أن أشكال الحيوانات المرسوم عليها، أخذت في التدهور حتى لم يبقَ منها إلا ظل لا يكاد يميز الإنسان منه حيوانًا معينًا. غير أن نوع الألواح التي كانت على شكل طائر قد أخذت شكلًا جديدًا، فاللوح البيضي الشكل أو الذي يمثل جسم الفأس أصبح يزخرف في الجزء العلوي منه برأس طائرين بشكل جانبي مقطوع في الأردواز، وفي هذا العصر أخذت الرقى التي كادت تكون معدومة في العصر السابق تظهر وتنتشر، وكانت تصنع من الأردواز أو العاج أو العظم، غير أنه كان يظهر في شكلها الطابع المختصر الخاص بكل نحت هذا العصر، أما الأواني التي على شكل حيواني فإنها استمرت في هذا العصر أيضًا، ولكنها كانت خالية من الذوق الفني، ويصعب تمييز بعضها عن بعض.

وبحلول عصر ما قبل الأسرات الحديث قامت نهضة فنية حوالي تأريخ التتابع ٦٠، فنلاحظ تجديدًا في التقاليد الفنية التي كانت مزدهرة في عصر ما قبل الأسرات القديم، وذلك بطرق فنية تتدرج نحو الكمال، حتى إنها أصبحت فيما بعد المنبع الذي نشأ منه الفن الفرعوني. من ذلك أن فن نحت العاج نحتًا بارزًا بقي صاحب المكانة الأولى في التقدم، ففي مصانع العاج ظهرت أشكال الحفر البارز بطريقة متقنة، وعنه أخذت النماذج التي استعملت في مواد أخرى، وفي هذا العصر نجد استعمال نوع دمي لمرأة واقفة عارية الجسم ذراعاها ملصوقان بجسمها، ولكن بجانب هذا النوع الذي كان شائع الاستعمال، ظهر نوع آخر من الدمى للمرأة رشيق ذو ثديين ناهدين، وكذلك ظهر نوع الدمى الذي كان يمثل أمًّا تحمل ولدها على ذراعيها أو في حجرها، وظهرت دمى لشخصيات كانت تمثل متشحة بعباءة، ولكنها كانت تستعمل في تمثيل المرأة.

وفي هذا العصر ظهر كذلك تمثيل الحيوانات العاج وغيره، وبخاصة الأسود التي كانت تستعمل أحجارًا للعب، وتزخرف بها مقابض ملاعق الزينة، وقد ظهر من بين هذه

القطع ما يدل في صناعته على مرونة فنية، ومع أنها ليست عنوانًا للفن المصري الناضج إلا أنها كانت بعيدة عن الخشونة والسذاجة.

ولم يقتصر نحت الأجسام في هذا العصر على العاج كما كان المتبع، بل تخطاه إلى مواد أخرى، ولكن لم تظهر فيها المهارة التي كانت تظهر في العاج؛ وذلك لأن الفنان لم يكن قد تعود استعمالها بعد، أو لصلابة مادتها، فكان يستعمل الأحجار الجيرية أو قطع المينا ذات اللون الأخضر أو الأزرق، وحجر الأردواز والبازلت، وحتى الجرانيت الأسود والأحمر، وقد توغل الفنان في هذا الطريق إلى أن أخذ يجرب عمل التماثيل الكبيرة الحجم، ولكن يظهر أنه لم ينتج إلا قطعًا قليلة العدد حسبما كشف عنه حتى الآن، ومع ذلك فإن الإنتاج في هذه الناحية يدل على الجهل الفني والخشونة في الذوق، ولا أدل على ذلك من تمثال الرجل ذي اللحية الموجود الآن بمتحف أكسفورد، فقد نحت في حجر الأردواز ومثل عاريًا، إلا من الكيس الذي يستر عضو التذكر، وظاهر في شكله الجمود، فلحيته مفرطحة، وذراعاه ملصوقان في جسمه، وكان طوله نحو نصف متر قبل كسر ساقيه.

وفي متحف برلين كذلك يوجد السبع الرابض المصنوع من الجرانيت الأسود، وهو ساذج الصنع جامد الملامح ويزيد طوله على أكثر من ٣٠ سنتيمترًا، وهذه أول محاولات حقيقية عرفها الفن في إبراز التماثيل الكبيرة.

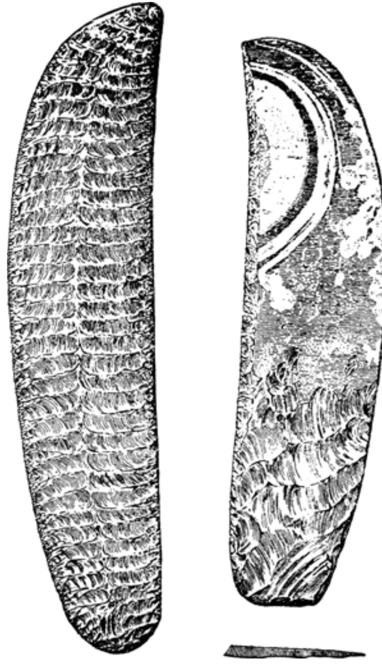
ومن أهم مجددات الفن في هذا العصر النحت الغائر على العاج ثم الأحجار فيما بعد، وقد كان لهذا النوع من الحفر شأن عظيم في تاريخ الفن في مصر القديمة، والظاهر أن فكرة نقش الأشكال غائرة في العاج قد أخذت من رسوم الأشكال التي كانت على الفخار المزخرف الشائع الاستعمال في هذه الفترة؛ أي في عهد ما قبل الأسرات المتوسط، وأكبر دليل على صواب هذه الفكرة أن كل الرسوم التي كانت على الفخار قد نقلت بفصها ونصها، ثمينها وغثها، صوابها وخطئها، وهذه الرسوم قد استعملت في زخرفة الأمشاط أو مقابض السكاكين الفاخرة، وهي التي كان سلاحها لا يزال يصنع من الظِّرَّان الأشقر اللون، وقد جرب الفنان أولا حفر صنف من الحيوانات التي تشاهد على الفخار الملون، والواقع أن أقدم قطعة عثر عليها من هذا النوع زخرفت بهذه الطريقة، أما المثل الأعلى لهذا النوع من الحفر فجاء في الواقع بعد أن قام الفنان بعدة تجارب، هي سكينة جبل العرق المحفوظة الآن بمتحف اللوفر ويرجع عهدها في التأريخ التتابعي إلى رقم ٦٠ على أن نبوغ الفنان في إبراز صور هذه السكينة لا يمكن تقديره إلا عند مقارنته بما أخرجه على حجر الأردواز في نفس العصر. إذ نرى فرقًا شاسعًا في الحفر الغائر في كل منهما، ففي

مقبض السكينة نرى روح الفن ودقة الصنع، وفي الأردواز يلاحظ لأول وهلة السذاجة وعدم المقدرة الفنية.

وربما يرجع السبب في اختيار الفنان حجر الأردواز الأخضر مادة للحفر الغائر، أن هذا النوع من الأحجار يجمع بين الليونة وبين تماسك حباته الدقيقة، لذلك كان يعد من بين الأحجار التي تقارب العاج في سهولة النقش الغائر عليها. على أن الأردواز كان منذ زمن بعيد يستعمل في إخراج ألواح الكحل التي كانت تمثل عليها أشكال حيوانات بالتفريغ، وقد عثر على بعض ألواح من هذا النوع عليها بعض حفر غائر، مما يدل على أن الفنان بدأ في هذه النهضة الجديدة يفكر في اتخاذ هذه المادة أداته في إبراز صناعته الحديثة، ولا يبعد أن يكون هذا هو السر الذي دعا الفنان إلى إخراج نوع جديد من هذه الألواح خاص بالزينة، ولكن بحجم عظيم، ولأجل ألا ينسى استعمالها الأصلي حفر في وسط اللوح حفرة صغيرة تشعر بأصل استعمالها وهو المكان المخصص لوضع الكحل.

وهذا النوع الجديد من الألواح كان في الواقع يستعمل لحفر مناظر جنازية على سطحها لحفظ ذكري الصيد والحروب، وكانت تودع المعابد العتيقة لهذا الغرض، وقد عثر على معظم ما كشف في خرائب هذه المعابد من أول عصر ما قبل الأسرات الحديث حتى فجر التاريخ الفرعوني، ويرجع الفضل إلى هذه الألواح في إمكان تتبع تاريخ النقش الغائر من بدايته حتى الوقت الذي أخذ فيه فن المعمار يرتقي وأصبح يستعمل هذا النقش على جدران المعابد.

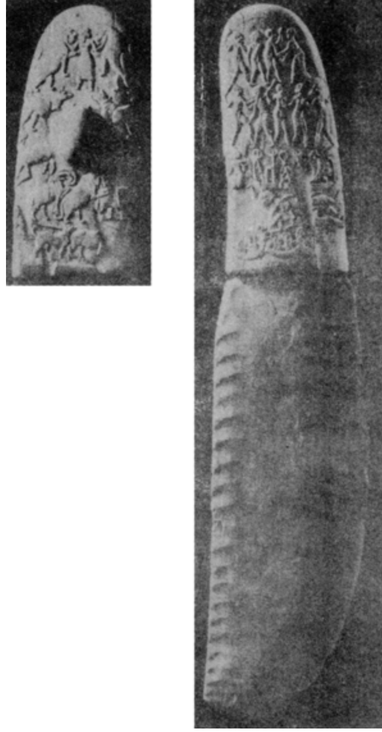
وقد اختفت الرسوم التي كانت تزين الفخار حوالي الرقم ٦٠ من التأريخ التتابعي، وأصبحت الأواني خالية من أية زخرفة، ومن المحتمل جدًّا أن تلوين المقابر وزخرفتها في هذا العصر يدل على أن المتوفى أخذ يحل هذه الزخارف والرسوم محل رسوم الفخار الذي كان يوضع معه في قبره، ومما هو جدير بالملاحظة أنه لم يوجد أي تحسين في زخرفة القبر أكثر مما كان على الفخار. على أن القبر الوحيد الذي عثر عليه من هذا النوع في هذا العصر هو قبر هيراكنبوليس «الكاب» ويرجع تاريخه إلى الرقم التتابعي ٦٣ تقريبًا. وتبلغ مساحته ٤٫٥ في ٢ في ١٫٥ مترٍ، وقد صنع من اللَّبِن ثم كسيت جدرانه بطبقة من غرين النيل ثم غطيت هذه بطبقة ثانية من الطفل الأصفر القاتم يرسم عليها المناظر المراد تمثيلها، ويلاحظ أنه قد حدث بعض تقدم في استعمال الألوان في رسم الأشكال، فبدلًا من لون واحد استعملت ثلاثة وهي الأحمر القاتم، والأسود ثم الأبيض، يضاف إلى ذلك أن عدد الأشكال ازداد وتنوعت موضوعاتها، فمثلا نجد حول القوارب التي نصبت



سلاح من الظِّرَّان على شكل قرن عثر عليه في جبل طريف.

عليها أعلام مناظر صيد، أو حرب بين البحارة، وبعض راقصات، ولكن رغم ذلك نجد عدم الانسجام وقلة الوحدة في تأليف الرسوم لا يزال كما كان على أواني الفخار في عصر ما قبل الأسرات المتوسط، ومع ذلك كله فإن هذا الرسم له أهمية عظيمة في تاريخ فن النقش إذ هو في الواقع المنبع الذي استقى منه فن الفرسكو في العصر التاريخي والحلقة الموصلة بينه وبين الأواني الفخارية التي أسلفنا الكلام عنها.

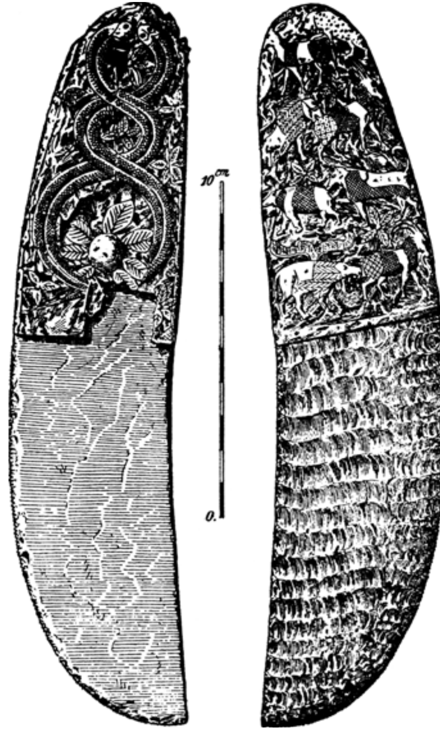
وقد ظهرت ثانية في هذا العصر كذلك الأواني التي على شكل حيوانات، ولكن في ثوب جديد ويمكن تمييزها تمامًا، وهذه الأواني في الواقع كانت بمثابة قطع للزينة نحتت في الحجر الجيري، والأردواز، وحجر البرشية المختلف الألوان، وكذلك أعيد استعمال الدمى من الطين بشكل جديد، ومع أنها كانت نادرة الوجود بالنسبة لما كانت عليه في عهد ما قبل الأسرات القديم، إلا أنها من ناحية أخرى كانت متقنة الصنع، هذا إلى أنها كانت تصنع



سكينة جبل العرق.

من مواد أخرى ثمينة غير الطين، وأهم الأشكال التي كانت تصنع هي القردة، والضفادع مع صغارها.

أما صناعة الظِّرَّان التي كانت آخذة في الاختفاء تدريجًا، فقد كان لها رغم ذلك نصيب من هذا التجديد الذي قام في هذا العصر، فقد صنعت منه أشكال حيوانية وفاقًا للزي الشائع، ونخص بالذكر منها: الغزلان والطيور والتماسيح، وكانت تمثل على شكل دمى مستوية الجسم، ولا يعلم كنه استعمالها إلى الآن، ولكن يدل صنعها على عناية فائقة.



سكينة من الظِّرَّان الفاتح اللون مزينة يدها بورقة من الذهب مطروفة عثر عليها في جبانة ساحل البقلية.

ولا بُدَّ من أن نشير هنا إلى ازدهار صناعة الصباغة وتقدمها، كما يدل على ذلك العدد القليل من القطع التي أخطأها النهب والسلب مما أودى بكل الكنوز التي كانت مودعة مقابر هذا العصر.

ومن أهم القطع التي بقيت لنا دالة على فن هذه الفترة مقبضان لسكينين من الظِّرَّان: واحدة منهما في متحف القاهرة وهي ورقة رقيقة من الذهب منقوش عليها منظر صيد يذكرنا بالمنظر الذي على سكينة جبل العرق، أما الثانية فقد نقش عليها سفينة ومجموعة

شخصيات على نمط ما كان يرسم على أواني الفخار من عصر ما قبل الأسرات المتوسط وهاتان السكينتان يرجع عهدهما إلى العهد الطيني الفرعوني أي عصر التاريخ الحقيقي.

المدينة في عهد بداية استعمال المعادن

تدل الكشوف التي تمت إلى يومنا هذا على أن المدنية في مصر قد بدأت في الوجه البحري في خلال العهد الحجري الحديث، وأنها كانت تفوق المدنية التي ظهرت في الوجه القبلي ثم استمر الحال كذلك بشكل جلي واضح في عصر بداية استعمال المعادن، وأن الحضارة في الوجه البحري كانت تدرج في مراقي التقدم بخطى واسعة، على حين أن المدنية في الوجه القبلي كانت خطاها وئيدة وفي حالة متأخرة.

ولأجل أن نصل إلى سر تفوق الوجه البحري على الصعيد يجب أن نبحث طبيعة أرض كل منهما وموقعه الجغرافي.

الدلتا: تتألف أرض الدلتا من سهل مترامي الأطراف لا يتخلله جبال، وهو منفصل عن الصحراء تمامًا، ولذلك كانت الفرصة سانحة لسكانه الأول ليكونوا أهل حضر، ويمكنهم أن ينموا ويتقدموا وينعموا بحياة العمل في عقر دارهم، دون أن ينتجعوا مكانًا وآخر طلبًا للرزق، وقد ساعدهم على ذلك أن أرض الدلتا، التي تمتاز بخصب تربتها وطيب جوها، هذا إلى أنها تقع على مفترق طرق أفريقيا وآسيا، مما سهل لها الاتصال بالممالك القريبة منها، فتجلب إليها خيراتها الزراعية، وتحف صناعاتها وفنونها، وبذلك تضيف إلى مدنيتها الأصلية مدنية جديدة، ولا غرابة إذن في أن نرى أرض الوجه البحري في كل عصور التاريخ أعرق مدنية من الوجه القبلي وأكثر تقدمًا.

أما الوجه القبلي فهو قطر طويل محصور بين سلسلتين من الجبال القاحلة، وهذا القطر متصل بالصحراء من كل مكان، وفي هذا العهد لم تكن أرض الصحراء غنية بالزراعة، إذا قرناها بأرض الوادي الضيق نفسه، وكل ما نعلمه أن أرض الصحراء الحالية كانت شبه مجدبة، فكانت تعيش فيها الحيوانات الوحشية، وحيوانات الصيد مما جعلها ميدان صيد وقنص لأهل الوادي الذين كانوا يعيشون في مدن وقرى، ولما كان سكان هذه المدن قبل تكوين هذا الوادي يعيشون على الصيد فحسب، فقد بقوا يحترفون الصيد لأن ذلك في طبيعتهم منذ نشأتهم، والواقع أن أهل الصعيد كانوا منفصلين عن باقي العالم بهذه الصحاري المترامية الأطراف، فلم يكن أهله يختلطون إلا بالبقية الباقية من بدو الصحراء الجوالين، وهم قوم لا ثقافة ولا مدنية لهم، يضاف إلى ذلك أن المسافة بينهم

وبين أهل الدلتا كانت بعيدة، فلم يكن في مقدورهم الاختلاط التام بهم، حتى يستفيدوا من مدنيتهم، وكذلك كانت الأراضي الزراعية التي في متناولهم قليلة المساحة بالنسبة إلى الدلتا، فلم يكونوا زراعًا بالمعنى الحقيقي، ولا غرابة إذن، إذا عددناهم جبليين بالنسبة لأهل الدلتا المتحضرين.

وأعظم عمل قام به المصري في بداية استعمال المعادن، سواء أكان في الوجه البحري أم في الوجه القبلي، ينحصر في إعداد أرض وادي النيل الخصبة للزراعة، وقد حدث ذلك في الوقت الذي أخذت فيه أحوال البلاد تتغير من جهة الجو تدريجًا، وقد حدث هذا عندما أخذت القبائل الجوالة التي كانت ترتكن في معظم معيشتها على الصيد والقنص وتربية المواشي تحط رحالها وتسكن القرى والمدن، وإذا كانت الأراضي الخصبة المجاورة للصحراء بما فيها من مراع طبيعية ضئيلة قد كفت لمدة ما في عصر بداية المعادن حاجة الرعاة الذين كانوا يعيشون بجوار مياه الوادي، فإنها بعد فترة أصبحت غير كافية لسد حاجات سيل السكان الذين كانوا يتدفقون من الصحراء القاحلة إلى شواطئ النيل، وقد كان ذلك سببًا في أن حتم على هؤلاء النازحين أن يستغلوا أرض وادي النيل الخصبة الدسمة، ولكن العوائق الطبيعية قامت في وجههم وجعلتهم يفكرون في التغلب عليها لحاجتهم الملحة إلى طلب العيش، وتفسير ذلك أن النيل كان يغمر أرض الوادي الخصبة كل عام بفيضانه المنتظم، ويترك مياهًا راكدة في الأراضي المنخفضة تتألف منها برك ومستنقعات، على حين أن الأراضي المرتفعة كانت تجف مياهها بعد انقضاء بضعة أسابيع من اختفاء الفيضان، فحتمت الحاجة الملحة على إنسان هذا العصر أن يسوى بين عالي هذه الأراضي وسافلها، حتى تصبح في مستوى واحد صالح للزراعة، ثم رأى أنه كان لزامًا عليه بعد ذلك أن ينظم ماء الفيضان نفسه، حتى يمكنه أن ينتفع به وقت التحاريق، فقام بإنشاء الترع والسدود التي كانت بمثابة الخزانات الآن ليصرف منها الماء عند الحاجة حتى لا يحدث قحط، وهذا العمل العظيم يعد أكبر فتح قام به الإنسان الأنيوليتي في وادي النيل أمام الطبيعة العاتية، والواقع أنه ما كاد ينبثق فجر التاريخ حتى كان الإنسان الذي سبق هذا العصر قد تغلب على كل الصعاب التي مهدت السبيل لنمو المدنية المصرية، ولا شك في أن هذا العمل العظيم يعد من أكبر مفاخر الإنسان الأنيوليتي، وستبقى أسماء هؤلاء الذين نفذوا هذه الأعمال العظيمة سرًّا غامضًا أبد الآبدين، والواقع أن مثلهم في هذا الميدان مثل الجندي المجهول في ساحة الوغى، ومن المرجح جدًّا أن أول من فكر في تنظيم مياه النيل وتوزيعها هم أهل الدلتا لأنهم كانوا بطبيعتهم أهل حضر وزراعة. أما أهل الصعيد فإنهم

كانوا أقرب إلى البداوة، ولا يبعد أن تكشف لنا مدنيات جديدة في أرض الدلتا — كما حدث منذ زمن قريب — تثبيت هذه الفكرة، هذا رغم أن معظم مدنيات الوجه البحري قد طغى عليها الماء بارتفاع منسوباته في كل بقاعها، اللهم إلا أجزاء بسيطة لا تكاد تذكر بالنسبة إلى أرض الصعيد التي لم يمسسها في أماكن كثيرة ماء الفيضان وبخاصة على حافة الصحراء التي كانت تتخذ مدافن في كل عصور التاريخ المصري ومنها نستقي معظم ما نعرفه عن المدنية المصرية.

(٣) مراجع فصل ما قبل التاريخ

تنقسم المصادر التي اعتمدنا عليها في تأليف فصل ما قبل التاريخ المصري وما قبل الأسرات، إلى مصادر عامة ومصادر خاصة، أما المصادر العامة فتشمل الكتب التي تبحث عن تاريخ هذا العصر بوجه عام في مصر وغيرها، وهذه الكتب قد تتناول أقسام كل عصر ما قبل التاريخ، أو تتناول فترة طويلة منه، وتبحثها بحثًا مستفيضًا سواء أكان في مصر أم في العالم أجمع. أما المصادر الخاصة فهي التي تبحث في مصر قبل التاريخ فقط أو في عصر معين من تاريخها في هذا الوقت، وبخاصة في عهد ما قبل الأسرات.

وسنذكر هنا أوَّلًا المؤلفات العامة التي تبحث عما قبل التاريخ في كل العالم أو في جزء منه حتى يتسنى للقارئ أو الباحث أن يرجع إليها عندما يريد المزيد في أي موضوع خاص من المواضيع المغلقة الفهم أو عندما يرغب في دراستها وبحثها لغرض معين، وبعد ذلك نذكر المصادر الخاصة بمصر مع شرح بسيط لتعريف كل مصدر، وقد فضلت ذلك عن ذكر كل مصدر في أسفل الصحيفة.

(٣-١) المصادر العامة

(1) J. De Morgan. Prehistoric Man. London. 1925.

هذا المؤلف هو مختصر عصور ما قبل التاريخ الثلاثة في العالم، وقد أشار إلى مصر في نقط عدة، وقد وضع باللغة الإنجليزية رغم أن مؤلفه فرنسي وكتب كل مؤلفاته الأخرى بلغته الأصلية.

(2) La Préhistoire Orientale, 3 Vol, Paris. 1925–1927.

هذا المؤلف كتبه العالم «دي مرجان» كذلك، وقد بحث فيه بحثًا مستفيضًا عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا الشمالية ومصر وآسيا، وذلك نتيجة أبحاثه وحفائره الخاصة. وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه.

(3) Burkett., The Stone Age. London 1933.

وقد بحث فيه مؤلفه تاريخ العصور الحجرية المختلفة بحثًا مختصرًا سهل التناول، ويعتبر من الكتب المدرسية السهلة.

(4) Minghin. Welt Geschechte Der Steinzeit, Wien. 1931.

هذا الكتاب يعد العمدة في بحث عصور ما قبل التاريخ الثلاثة، وقد حلاه بالرسوم والصور المتقنة.

نذكر بعد ذلك الكتب العامة التي بحثت فيما قبل التاريخ المصري خاصة. وأهمها ما يأتي:

(1) J. De Morgan. Recherches sur les Origines de l'Egypte, 2 vol. Paris 1896–7.

وضع العالم «دي مرجان» في هذا الكتاب كل نتائج بحوثه، وبحوث من سبقه في دراسة ما قبل التاريخ في مصر، ولكنه غير كثيرًا من آرائه في كتبه التي ظهرت فيما بعد:

(2) A. Scharff Grundzuge des Agyptischen, Vorgeschichte Leipzig 1926.

هذا المؤلف يعد من أمتن الكتب وأعمقها بحثا في عصور ما قبل التاريخ، وبخاصة عصر ما قبل الأسرات في مصر، وقد شرح الموضوع بطريقة سهلة ظاهرة.

(3) Bovier Lapierre. L'Egypte Préhistorique dans (précis de l'histoire d'Egypte) page 1–56.

يعد هذا العالم «بوفييه لابيير» من أكبر علماء ما قبل التاريخ في مصر، وقد كتب هذا الفصل الممتع، وبحث بحثًا فياضًا كل مسائل ما قبل التاريخ في مصر، وبخاصة في العهدين الحجريين القديم والحديث.

(4) Hermann Junker, Vorlaufigen Bericht Uber die Grabung des Akademie der Wisserschaften in Wien, auf der Neoletiechen Siedlung Von Merimde Benisalama. Anzeigen der Akademie der Wissenschaften in wien, Hist. Klasse, 1929, 1930, 1932, 1933, 1934.

قام الأستاذ «ينكر» العالم الألماني لأول مرة بحفائر منظمة في الوجه البحري في منطقة مرمدة بني سلامة القريبة من وردان للبحث عن عصر ما قبل التاريخ، فعثر على مدنية العصر الحجري الحديث في هذه الجهة، وليس لدينا مصادر أخرى في الدلتا من هذا العصر، وقد كتب عدة تقارير هامة عن نتائج الحفر في أعوام متتابعة.

(5) Flinders Petrie, Prehistoric Egypt, London 1920.

بحث الأستاذ «فلندرز بتري» عن مدنية ما قبل الأسرات في مصر، وقد جمع فيه كل آرائه وبحوثه المبعثرة في تآليفه الأخرى.

(6) Jequier, Histoire de la Civilisation Egyptienne.

كتب المؤلف في كتابه هذا فصلًا عن مصر في عهد العصريين الحجري القديم والحديث وعصر ما قبل الأسرات باختصار، من صفحة ٥٣–٩٤.

(7) Capart. Les débuts de l’Art en Egyte, Buxelles 1904.

وقد بحث المؤلف في كتابه كل الفنون والصناعات، التي كانت متداولة في مصر في عصور ما قبل الأسرات، وزيَّنه بالرسوم الجميلة والصور الواضحة.

كتب بعض علماء ما قبل التاريخ المصري بعض مقالات هامة لبحث نقط غامضة في بعض المجلات نذكر هنا أهمها فيما يأتي:

(1) Stations Humaines. Bovier Lapierre, Les Paléolithique Stratific des environs du Caire. L’Anthropologie. Vol. XXXV 1925.

في هذا المقال بحث هذا العالم عن بقايا الحيوان والصناعة في ضواحي القاهرة في العباسية، وحدد عصور العهد الحجري القديم بوساطة بقايا وجدت في طبقات بعضها فوق بعض، تحدد عمر كل أثر وجد تحديدًا تاريخيًّا.

(2) M. Edmond Vignard. Une Nouvelle Industrie Lithique le Sebilien Bultin l. F. A. O. Vol. XXII. 1923. (P. 1–76).

بحث هذا العالم في مقاله الحضارة التي أطلق عليها السبيلية نسبة إلى بلدة السبيل القريبة من نجع حمادي، وقد درس كل الآلات، وبقايا الحيوان التي ظهرت في المنطقة، وقارنها بمثيلاتها في أوروبا وأفريقيا الشمالية، وترجع إلى العصر الحجري.

(3) Revue Scientifique 1928. Les Gravures rupestres du Djebel Ouenat. Prince Kamal–el–Din.

وهذا المقال ملخص رحلة قام بها الأمير كمال الدين في الصحراء، وقد أحضر معه بعض رسوم من التي على الصخور في وادي عوينات، وكذلك جمع بعض آلات من العصر الحجري القديم.

(4) Bovier Lapierre. Une Nouvelle Station Neolithique (El Omari au Nord de Helouan) Congrés Inter. De Geographie. Le Caire 1925 Tom. IV

يبحث هذا المقال في الظِّرَّان الذي عثر عليه المرحوم الأستاذ العمري في محطة من العصر الحجري الحديث، وقد سماها العلماء باسمه بعد أن مات قبل أن ينشر أبحاثه.

منذ حل رموز اللغة المصرية قام علماء الآثار بحفائر هامة في مختلف عصور التاريخ المصري، وقد قامت حفائر عن عصر ما قبل الأسرات في جهات مختلفة من القطر، ووضعت المؤلفات الخاصة بها، وسنذكر هنا أهم هذه المؤلفات:

(1) Brunton and Caton Thompson, The Badarian Civilisation and Pre–dynastic remains near Badari. London 1928.

وقد شرح المؤلفان في هذا الكتاب نتيجة البحث والحفر في منطقة البداري. وتعتبر أقدم مدنية مصرية عثر عليها للآن في الوجه القبلي بعد المدنية الطاسية، التي عثر عليها في دير طاسة القريبة من البداري.

(2) Chronologie. Petrie Diospolis Parva, The Cem–tries of Abadiyah and Hu 1898–1899, London.

بحث «فلندرز بتري» في هذا الكتاب نظريته عن تاريخ التتابع مستندًا على محتويات المقابر التي وجدها من عصر ما قبل الأسرات وبخاصة الفخار.

(3) Petrie & Quibell. Nagada and Ballas. 1895, London 1896.

وفي هذا الكتاب بحث نتائج الحفائر التي قام بها في هاتين الجهتين من عصر ما قبل التاريخ، وقد ظن أنه عثر على جنس جديد من الناس فيها، والمدنية التي وجدت في هذه الجهة تأتي بعد مدنية البداري في القدم.

(4) Quibell Hierakonpolis Part 1 and II London 1900.

وقد ناقش «كويبل» في مؤلفه هذا كل الآثار التي عثر عليها في هذه المنطقة «الكاب الحديثة والكوم الأحمر»، ومعظمها يرجع إلى عصر ما قبل الأسرات الحديث.

(5) Minghin and Mustapha Bey Amer The Excavations of the Egyptian University in the Neolethic site at Maadi Vol. I.

(6) Mostapha Bey Amer Vol II.

وقد بحث في هذين المؤلفين مدنية هذا الموقع، التي يرجع عهدها من العصر الحجري الحديث إلى عصر ما قبل الأسرات الحديث، وقد عثر في هذا الموقع القريب من المعادي على بعض آلات وأدوات من الفخار والظِّرَّان غريبة في بابها، وهنا عثر على أول مباني باللَّبِن كما شرحنا ذلك في مكانه.

(7) Randal-Macliver and Mace El Amrah and Abydos 1899–1901, London 1902.

وقد بحث في هذا المؤلف النتائج التي وصل إليها هؤلاء الأثريون في هذه المنطقة، التي يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات، كما أشرنا إلى ذلك في حينه.

(8) Hermann Junker Bericht Uber die Grabungen der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften in Wien Auf Dem Friedhof in Turah 1913.

بحث الأستاذ «ينكر» في هذا التقرير نتائج حفائره التي عملها في الموقع الذي حفر فيه بالقرب من طرة، ويرجع إلى عصر ما قبل الأسرات وغيره.

(9) Scharff. Die Archeologischen Ergebinesse des Vorgeschichtlichen Graberfelds Von Abusir-el-Meleq Leipzig 1929.

نتائج أعمال الحفر في منطقة أبو صير الملق، ويرجع عهدها إلى عصر ما قبل الأسرات، وقد عثر فيها على بعض أدوات وأشكال حيوانات غريبة منها تمثال للجمل (؟).

(10) Caton Thompson & Miss Gardner the Desert Fayum 2 Vol. 1926.

وقد بحث في هذا المؤلف مدنية الفيوم من أقدم عصورها، التي ترجع إلى العصر الحجري القديم وعلاقتها بالمدنيات الأخرى التي ظهرت في مصر، وكذلك بحث في هذا الكتاب مسألة بحيرة موريس وأصلها.

ويوجد نوع آخر من المصادر، اعتمدنا عليه في بعض النقط نخص بالذكر منه ما يأتي:

(1) A Study of the Badarian Crania recently excavated by the British school of Archeology in Egypt, Biometrika Vol XIX, (1927 p. 110–150).

بحث في هذا المقال الجماجم التي عثر عليها في حفائر البداري، وقد عزا أصل القوم الذين كانوا في مصر في هذا الوقت إلى الجنس الحامي.

(2) Morant. A Study of the Egyptian Craniology from prehistoric to Roman Times, Biometrika Vol XVII (1925 P, 1–52).

وقد تكلم المؤلف في هذا المقال عن الجماجم التي عثر عليها في الحفائر المختلفة من أول ما قبل التاريخ إلى العصر الروماني.

(3) Geology of Egypt. Hume, Cairo, Vol I 1925 Vol II 1934 Vol III 1937.

تبحث هذه الكتب في جيولوجية مصر، وتركيب قشرتها الأرضية وتكوين نهر النيل، ثم صخورها ومعادنها وأحجارها شبه الكريمة، وغيرها من أنواع أحجار مصر الكثيرة العدد والمختلفة الأنواع، وهذا الكتاب يعد أكبر المصادر التي يعتمد عليها الأثري في بحث تركيب البلاد الطبيعي وصخورها ومعادنها.

وقد اقتصرنا هنا على أهم المصادر الأصلية التي اعتمدنا عليها في تأليف هذا الفصل، تاركين المصادر الثانوية التي أخذت عن المصادر الأصلية التي ذكرناها.

الفصل الثاني

حل رموز اللغة المصرية القديمة

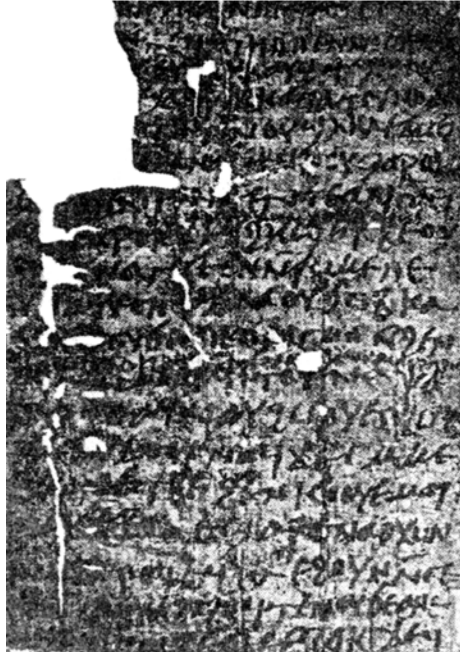


نص هيروغليفي ويقرأ من اليمين إلى اليسار.

بقيت اللغة المصرية القديمة سرًّا من الأسرار نحو ١٤٠٠ عام إلى أن جاء «شمبليون» سنة ١٨٢٢، وكشف عن أسرارها بحل رموز الهيروغليفية، على أن لغة القوم نفسها لم تمح من البلاد خلال تلك المدة، بل بقيت في شكل آخر هو اللغة القبطية، وذلك أن الهيروغليفية منذ فتح الإسكندر الأكبر لمصر أخذت تُكتب علاوة على كتابتها بالإشارات المصرية بحروف إغريقية بعد إضافة سبعة حروف ديموطيقية، لم يكن لها مثيل في اللغة اليونانية، ومنذ ذلك العهد صار يطلق على اللغة المصرية القديمة اللغة القبطية، أي المصرية، وقد كانت الكتابات المتداولة في البلاد على ثلاثة أشكال مختلفة إلى أواخر عهد الرومان في مصر، وهي الكتابة الهيروغليفية؛ أي الكتابة التقليدية للبلاد، ثم الكتابة الإغريقية، ثم الكتابة القبطية، وقد اختفت الكتابة الهيروغليفية في أواخر القرن الرابع الميلاد باختفاء الوثنية من البلاد، ولم تعد كتابة القوم، أما اللغة الإغريقية فقضي على تداولها بعد الفتح العربي مباشرة، بينما بقيت الكتابة القبطية لغة القوم في بعض

أماكن في الوجه القبلي في الصلوات والعبادات والمدارس إلى أواخر القرن السابع عشر، ثم انحصرت بعد ذلك في الصلوات الدينية المحضة إلى يومنا هذا ولا يجيد معرفتها إلا نفر قليل.

ومن ذلك نرى أن اللغة القبطية، وهي لهجة من اللغة المصرية، قد حفظت لنا مكتوبة بحروف يونانية، وتوجد لها أجرومية وقاموس باللغة العربية وباللغة اليونانية، وفي أواسط القرن السابع عشر فهم الأب اليسوعي «كرشر» أن اللغة القبطية تحفظ في ثناياها اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية، وقد أخذ يقوم ببحوث علمية في هذه اللغة، غير أنه لما أراد أن يرجع باللغة القبطية إلى اللغة المصرية لم يفلح قط، وقد تساءل عن اللغة المصرية هل هي حروف، أو أصوات، أو معان؟ وكيف يمكن قراءتها؟



نص مكتوب بالقبطية.

على أنه لم يصلنا من الأقدمين عن اللغة المصرية إلا تعاريف نادرة غامضة، والاسم نفسه «الهيروغليفية» ينبئ عن الغموض؛ إذ معناه «الكتابة المقدسة» كما قال «هيرودوت» و«ديودور».

نص الكتابة الديموطيقية.

وقد ذكر «كليمنت» الإسكندري الذي عاش في أواخر القرن الثاني الميلادي، أنه رأي بعض القوم يتكلمون اللغة المصرية ويكتبونها بالهيروغليفية، وقد أخبرنا «هيرودوت» ومن بعده «ديودور» أنه يوجد في مصر نوعان من الكتابة: أحدهما الكتابة المقدسة ولا يعرفها إلا الكهنة، والثاني الديموطيقية؛ أي لغة عامة الناس، ولكن تفسير هذه الكتابات بقي سرًّا غامضًا إلى أن كشف صدفة أحد جنود «نابليون» حجر رشيد عام ١٧٩٩، وذلك أن الحملة الفرنسية التي قادها «نابليون» إلى وادي النيل لم يكن غرضها الوحيد الاحتلال العسكري، بل كان كذلك لبحوث علمية عن المدنية المصرية، ولذلك جاءت معه طائفة من أهل العلم، وقد ساعدهم الحظ بأن كشف صدفة أحد ضباط المدفعية المسمى «بوشار» في أغسطس ١٧٩٩ أثناء الحفر في قلعة رشيد، قطعة من حجر البازلت منقوشة بثلاث كتابات مختلفة، كانت ثالثتها وهي السفلية بالنسبة للحجر مكتوبة باللغة الإغريقية. وعبارة الكتابة مرسوم ملكي أصدره بطليموس الخامس عام ١٩٦ق.م وقد ذكر في النص الإغريقي أنه نفس المتن المكتوب بالكتابتين الأخريين وهما الهيروغليفية «الكتابة المقدسة» والديموطيقية «كتاب الشعب».



حجر رشيد المكتوب بثلاثة نصوص الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية.

ومن ذلك نرى أن حجر رشيد كان مكتوبًا بكتابتين مصريتين، وبِذَا يحتوي على مفتاح السر للكتابة الهيروغليفية؛ إذ إن معاني كل الكلمات المنقوشة على هذا الحجر موجودة في النص الإغريقي، وأول من حاول فك رموز هذا الحجر هو «سلفستر دي ساسي» عام ١٨٠٢، وكان عالمًا باللغة العربية، وقد كانت محاولته منصبة على القسم الديموطيقي ظنًّا منه لتشابه هذا الخط بالكتابة العربية الرقعة وجود علاقة بينهما. غير أن جهوده هو و«أكربلاد» لم تفلح إلا في معرفة خرطوش «بطليموس».

ومنذ عام ١٨١٤ حاول الدكتور «توماس ينج» الإنجليزي أن يحل رموز هذه اللغة من النص الهيروغليفي، وقد كان يعلم من جهود من سبقه أن الأسماء الملكية مثل بطليموس، لا بُدَّ أن تكون موضوعة داخل خراطيش، وعلى ذلك رتب العلامات التي وجدت في الخرطوش كحروف تمثل لفظة بطليموس، وقد توصل فعلًا لمعرفة مجموعة الحروف التي تكوِّن اسم بطليموس، غير أنه لم يتمكن من معرفة الحروف الصوتية

بالضبط التي تكوِّن هذا الاسم، ولذلك فإنه لما أراد أن يطبق الحروف الأبجدية التي استخلصها خطأً، لم يمكنه أن يصل إلى أية كلمة قبطية لها نطق مماثل.

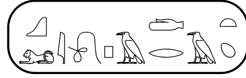


جان فرانسوا شمبليون.

وفي الوقت الذي كان يشتغل فيه الدكتور «توماس ينج» بهذا الموضوع، كان هناك شاب في مقتبل العمر اسمه «جان فرنسوا شمبليون» ١٧٩٠–١٨٣٢ يدرس علم التاريخ في جامعة «جرينوبل»، وقد أخذ على عاتقه حل رموز هذه اللغة، وقد كان مغرمًا منذ نعومة أظفاره بالتاريخ المصري، وقد تعلم كل ما تركه لنا السلف من العصور القديمة عن هذه اللغة واللغة القبطية أيضًا، وقد عرف من أعمال «دي ساسي» والدكتور «ينج» أن أسماء الأعلام الإغريقية يجب أن تكتب بحروف أبجدية مصرية، وعلى هذه القاعدة بنى أساس أبحاثه التي أخذت تسير في طريق النجاح منذ عام ١٨٢١.

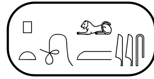
وأول عمل قام به «شمبليون» في هذا الصدد أنه بحث موضوع اختلاف الكتابات المصرية القديمة، وبرهن أن الكتابة الهيراطيقية هي اختصار للكتابة الهيروغليفية، وعلى ذلك تكون الكتابة المصرية القديمة واحدة، غير أنها تكتب بثلاثة أشكال كاللغة العربية مثلًا، فهي تكتب بالرقعة والنسخ والثلث، وعلى ذلك لا بُدَّ أن يوجد في الكتابة الهيروغليفية كما في الديموطيقية إشارات لها قيمة صوتية وأبجدية.

وقد لاحظ «شمبليون» من جهة أخرى عندما كان يحسب الإشارات الهيروغليفية التي على حجر رشيد أنها أكثر في عددها من كلمات المتن الإغريقي المقابل، وعلى ذلك استخلص أن كل إشارة هيروغليفية لا تمثل فكرة ولا تمثل كلمة، وعلى هذا الأساس ابتدأ «شمبليون» في بحث خراطيش حجر رشيد ثانية، وفي عام ١٨٢٢ وصلت إليه نسخة لخرطوشين جديدين قد نقشا على مسلة صغيرة، وجدت في «الفيلة»، وقد كان مكتوبًا على قاعدة هذه المسلة تقدمة باللغة الإغريقية لبطليموس وكليوبترة، وقد برهن «شمبليون» أن الخرطوش الأول من هذين الخرطوشين هو لبطليموس؛ إذ يشبه تمامًا خرطوش حجر رشيد، والثاني يجب أن يقرأ كليوبترة، وذلك أن هناك خمسة حروف مشتركة في كِلَا الاسمين: ب، ت، ل، و، ي.



اسم كليوبترة بالهيروغليفي.

والواقع أن هناك خمس إشارات متشابهة كل من موضعها المنطقي في كِلَا الاسمين الهيروغليفيين، ومن جهة أخرى فإننا لا نجد حرف «س» في اسم الملكة، على حين أنه يوجد فيه إشارات جديدة هي ق، أ، ر، ولا توجد في الملك بطليموس.



اسم بطليموس بالهيروغليفي.

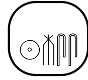
والخلاصة: حيث أن هناك إشارات متشابهة في هذين الاسمين، وتعبر في كل منهما عن نفس الصوت، فلا بد أن تكون حروفًا صوتية محضة، وقد مكث «شمبليون» بضعة أسابيع يطبق الحروف الأبجدية التي وجدها على كل أسماء البطالسة والقياصرة التي كانت موجودة في كتاب «وصف مصر»، الذي وضعته الحملة الفرنسية، فتوصل إلى قراءة ٧٩ خرطوشًا أخرى جديدة وصل في خلال قراءتها إلى معرفة حروف أبجدية جديدة، وبذلك أمكنه أن يعمل جدولًا بالحروف الأبجدية الصوتية.

وقد أثبت هذه النتيجة الباهرة في خطاب أرسله إلى «داسيبه» أمين السر الدائم للمجمع العلمي الفرنسي في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٢٢، وفيه أعلن أنه يمكن قراءة الخراطيش الهيروغليفية.

على أنه إلى هذه اللحظة لم يكن قد تمكن إلا من قراءة أسماء الملوك الإغريق وقياصرة الرومان، والآن كيف يمكنه أن يحل رموز الكتابة في العصر الفرعوني وهي

التي تحتوى على نفس العناصر الصوتية؟ على أنه قد أعلن في خطابه بأنه واثق من نجاحه قريبًا في قراءة خراطيش الفراعنة كما قرأ خراطيش البطالسة والقياصرة.

والواقع أن «شمبليون» قد وصلته نسخة من خراطيش مصدرها معبد أقدم من المعابد الإغريقية، وقد تعرف في أحد الخراطيش في نهاية الاسم على الإشارتين المقوستين، وكل منهما يمثل الحرف الأخير من اسم بطليموس الموجود على حجر رشيد فقرأهما س «س»، وفي أول الخرطوش نشاهد القرص المستدير، وهو الذي كان يرمز به للشمس، ويقرأ في المتون الإغريقية والقبطية بلفظة «رع»، أما الإشارة المتوسطة 𓄟 فقد رآها «شمبليون» على حجر رشيد كما هي مكتوبة هنا ومتبوعة بحرف س، وتقابل في الإغريقية «يوم الولادة» للملك، فاستنتج أن هذه الكلمة التي ليست بحرف أبجدي تقابل الكلمة القبطية «مس»؛ أي يلد أو «مس»؛ أي طفل، فرتب «شمبليون» هذه العناصر مع بعضها، فأصبحت «رع-مس-سس» أي رعمسيس، وقد ذكر هذا الاسم «مانيتون» و«تاسيت» على أنه لم يتمكن من قراءة الاسم فحسب، بل فهم معناه وترجمه، فعلى حسب القبطية معناه: «رع» يلده؛ أي ابن «رع».



خرطوش رعمسيس.

وقد تثبت من طريقته في الحال بقراءة الخرطوش الثاني؛ إذ وجد فيه أن الطائر «إبيس» 𓅞 قد حل محل رع ☉ في بداية الخرطوش السابق، وفيه الإشارتان التاليتان متفقتان في كِلَا الخرطوشين، ونحن نعلم في الإغريقية أن الطائر «إبيس» كان يرمز به للإله «تحوت» وعلى ذلك يجب أن يقرأ الخرطوش الثاني «تحوت-مس-س»، والواقع أن «مانيتون» قد ذكر لنا اسم الفرعون تحوتمس، وعلى حسب القبطية يفسر تحوت يلده أي: «ابن تحوت».



تحوتمس.

ومن ذلك الوقت فطنت عبقرية «شمبليون» إلى أن الكتابة التي على الآثار الفرعونية قبل العصر الإغريقي الروماني لم تكن حروفًا أبجدية محضة كما في خراطيش بطليموس

وكليوبترة، ثم إنها لم تكن إشارات رمزية فحسب، كما كان يعتقد الناس من قبل، بل إنها في الواقع كانت تحتوى على:

(١) إشارات رمزية أو تصويرية مثل «رع» و«تحوت».

(٢) وإشارات صوتية قد تكون أحيانًا مركبة من مقطع مثل «مس»، وأحيانًا من حروف أبجدية مثل حروف «س».

والحقيقة أن الخطأ الذي وقع فيه أسلاف «شمبليون» والذي كان هو نفسه يشاركهم فيه إلى يوم وصوله إلى هذه الحقيقة، هو الاعتقاد بأن الكتابة الهيروغليفية أحيانًا تصويرية بأجمعها أو صوتية بأجمعها، ولكن الواقع أن نظام هذه الكتابة هو — كما شاهدنا — نظام مركب؛ إذ إنها كتابة تصويرية ورمزية وصوتية، ونشاهد ذلك في جملة واحدة، بل في كلمة واحدة كما سبق شرحه.

وبعد ذلك تقدم شمبليون في حل الرموز، فضرب فيها بسهم صائب، ووضع لها قاموسًا وأجرومية، ثم جاء إلى مصر، وقام فيها بسياحة علمية، ووضع مؤلفًا جمع فيه كثيرًا من النقوش المصرية سماه «آثار مصر وبلاد النوبة»، ولما عاد إلى بلاده عين أستاذًا لكرسي الآثار المصرية، وقد أنشئ له خصيصًا في كلية فرنسا، ولكنه كان قد أنهكه النصب في عشرة الأعوام التي قضاها في البحث المضني مما قضى على صحته، فمات في ٤ مارس سنة ١٨٣٢ تاركًا وراءه للخلف من الباحثين أجروميته وقاموسه في اللغة المصرية القديمة.

وبعد أن وضع «شمبليون» النواة الأساسية لحل رموز اللغة، جاء بعده علماء من مختلف الجنسيات تقدموا كثيرًا في دراسة اللغة وعلم الآثار، ولم يقفوا عند حد دراسة الظاهر منها، بل قاموا بحفائر كشفت عن كثير من النقوش والآثار الجنازية، مما ساعد على فهم عصور التاريخ وحضارة المصريين، ولا تزال هذه الجهود رغم مضى أكثر من قرن عليها تتقدم من يوم إلى آخر، وما زالت هذه الحفائر والأبحاث تطالعنا كل يوم بمعلومات جديدة تزيد في معرفتنا عن تاريخ مصر، وتنير الكثير من عصورها الغامضة، كما أنه من شأنها أن تصحح الكثير من الأخطاء والنظريات التي أتى بها العلماء السابقون.

والآن نلقي نظرة سريعة على جهود العلماء من مختلف الجنسيات، الذين كان لأبحاثهم وأعمالهم أثر ممتاز في تقدم علم الآثار المصرية:

أوَّلًا: الفرنسيون: ظهر بعد «شمبليون» العالم «أمانويل دي روجيه»، وقد قام بنقل الكثير من النقوش، وبدأ في وضع بحث منظم عن تاريخ مصر أساسه نقوش آثارها، كما وضع مؤلفًا قيمًا عن جغرافية الوجه البحري، وفي أيامه ظهر العالم العظيم «مارييت» الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس المتحف المصري ومصلحة الآثار المصرية سنة ١٨٥٧، وقد كان أول من قام بحفائر على نمط كبير، وكشف عن المعابد والجبانات، وكان من أهم مراكز أبحاثه منطقة شقارة حيث كان أول مكتشف لمقابر العجل «أبيس» المعروفة بـ «السرابيوم» ولكثير من مقابر الدولة القديمة هناك، وقد كان للعلماء الفرنسيين في هذا الوقت نشاط كبير فظهر منهم الكثيرون، وأسس إلى جانب مصلحة الآثار المصرية المعهد الفرنسي للعاديات الشرقية ومقره القاهرة، وقد قام المعهد منذ إنشائه بطبع الكثير من الأبحاث الثمينة، ونتائج حفائره المستمرة في كثير من جهات القطر. ولعل أبرز هؤلاء العلماء هو المرحوم «جان مسبرو»، الذي تولى إدارة مصلحة الآثار المصرية مرتين، وقد خلف لنا المئات من أبحاثه في اللغة والآثار، وبخاصة في منطقة سقارة حيث فتح بعض أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، ووجد جدران حجرات الدفن فيها مغطاة بنصوص ونقوش دينية، وهي المعروفة لنا تحت اسم «متون الأهرام»، وسيأتي ذكرها في موضع آخر من هذا الكتاب، وجاء بعده الكثير من العلماء الفرنسيين أمثال «لوريه» و«دي مرجان» و«لاكو» و«موريه» و«شاسينا».

ثانيًا: الألمان: أول من ظهر من علماء الألمان، وقام بعمل عظيم هو «ريتشارد لبسيوس»، الذي جاء إلى القطر على رأس بعثة «من عام ١٨٤٢–١٨٤٥» لدراسة آثارها على نفقة ملك بروسيا في ذلك الوقت، وقد قامت هذه البعثة بدراسة آثار مصر والنوبة دراسة علمية منظمة، ولم تكتف بنقل النقوش فقط، بل استلزمت أبحاثها عمل الكثير من الحفائر في مصر والنوبة، وقد ظهرت نتيجة أبحاثها في المؤلف الخالد المعروف باسم «لبسيوس دنكميلر»، وقد طبع عام ١٨٤٩ في اثني عشر جزءًا، وما زال إلى الآن مرجع كل مشتغل بالآثار. بعد لبسيوس تألق نجم عالم آخر هو «هنري بروكش» الذي نجح عام ١٨٤٩ في قراءة الكتابة الديموطيقية، وقد فاق معظم العلماء في ذكائه ونشاطه، ويستحق أن يوضع في صف «شمبليون» في مقدار إنتاجه، وقد وضع قاموسًا في اللغة

المصرية القديمة، وقاموسًا آخر لجغرافية مصر وأجرومية للديموطيقية. ثم جاء بعده سنة ١٨٧٨ العالم «أدولف أرمن» وكان أكبر عمل له أن وضع أجرومية للغة المصرية القديمة، وكذلك لكل ما أمكن من المتون المصرية القديمة، واستعان ببعض تلاميذه في ترجمتها، واستخلص منها قاموسًا للغة المصرية، وكذلك كتاب مؤلفًا قيمًا عن الحياة المصرية، يعد من أحسن ما أخرج للناس في هذا الموضوع.

وقد تخرج على يده عدد من العلماء لهم شهرة عالمية، نخص بالذكر منهم الأستاذ «شتيندورف» الذي وضع أجرومية اللغة القبطية، والأستاذ «زيته» الذي جمع متون الأهرام وترجمها، وأصبح بذلك العمدة الوحيد في كل العالم في تفسيرها، والأستاذ «ينكر» الذي يمتاز بمعرفة المتون المصرية في كل عصورها معرفة لا يضارعه فيها أحد، واختص في عصر البطالسة حتى أصبح المرجع الوحيد فيه، والأستاذ «شبيجلبرج» الذي اختص بالديموطيقية والأستاذ «شيفر»، وهو من أحسن العلماء في علم الآثار والفن المصري.

ثالثًا: الإنجليز: وقد قام علماء الإنجليز بقسط وافر في النهوض باللغة المصرية القديمة وآثارها، ونخص بالذكر منهم العالم «برش» و«ولكنسون» صاحب كتاب العادات والأخلاق في مصر القديمة، ثم الأستاذ «جرفث» صاحب التآليف العدة في الديموطيقية وتراجم المتون المصرية، والأستاذ «جردنر» الذي وضع كتابًا في أجرومية اللغة المصرية، ويعد أكبر عمدة الآن في هذا الباب، وكذلك ساعد بأبحاثه العدة على تقدم قراءة الخط الهيراطيقي، والأستاذ «جن» الذي وضع كتابًا قيمًا في إعراب اللغة المصرية، وأخيرًا الأستاذ «نيوبري» وله أبحاث دقيقة في علم الآثار.

وبجانب هؤلاء العلماء ظهر علماء آخرون من جنسيات أخرى، ساعدوا على النهوض بهذه اللغة، ونخص بالذكر منهم الأستاذ «جولنشيف» الروسي صاحب الأبحاث العدة في اللغة، وقد ترجم كثيرًا من المتون المصرية، والأستاذ «ريزنر» الأمريكي الذي قام بحفائر منظمة في مصر وبلاد النوبة منذ ١٩٠٣، ولا يزال إلى الآن ينقب في منطقة الجيزة غربي الهرم الأكبر، ومن أهم مؤلفاته كتابه عن «منكاورع» باني الهرم الثالث.

أما أكبر عالم خدم التاريخ المصري القديم فهو الأستاذ «برستد»، الذي جمع كل المتون التاريخية، واستخلص منها تاريخًا لمصر، يعتبر رغم قدمه من أكبر المراجع في التاريخ المصري القديم إلى الفتح الفارسي.

أما المصريون فلم يقوموا بدراسة لغة بلادهم وآثارها إلا منذ عهد قريب وعلى رأسهم المرحوم أحمد كمال باشا الذي ألف عدة كتب بالفرنسية والعربية، ثم جاءت

النهضة المصرية الحديثة، وقام بعض أبنائها بالحفر والتنقيب ووضع بعض الكتب، وقد أسس في مصر معهدًا لدراسة الآثار المصرية بالجامعة منذ عدة سنوات، وينتظر منه خير كثير، وكذلك أرسلت البعثات لدراسة اللغة المصرية، والأمل كله معقود على هؤلاء الشبان المصريين في النهوض بآثار بلادهم، وإخراج المؤلفات عنها، وإظهار عظمة مصر ومجدها القديم، وهم أولى الناس بهذا الشرف العظيم.

الفصل الثالث

مصر وأصل المصريين

مصر وطننا العزيز، تعد بلا نزاع أقدم أمم العالم، وهي تكوِّن الجزء السفلي لوادي النيل، وتحد بالشلال الأول جنوبًا، والبحر الأبيض المتوسط شمالًا، والصحراء العربية شرقًا، وصحراء لوبيا غربًا، وقد كان يطلق عليها قديمًا اسم «كمي» وقد بقي محفوظًا إلى أن جاء الإغريق فأسموها «أجبتيوس»، ولم يفسر أصل اشتقاق هذا الاسم تفسيرًا شافيًا إلى الآن، وأفضل هذه التفاسير «حا-كا-بتاح» أي مكان نفس الإله بتاح. الذي كان يعبد في بلدة منف عاصمة الديار المصرية في عهد الدولة القديمة، ولفظة «كمي» معناها الأرض السوداء، وكانت تطلق على الوادي الخصب المنزرع، أما الأرض التي كانت تحيط به من الشرق والغرب فكانت تسمى «تا-دشر»، وتعني بالمصرية البلاد الحمراء أي الصحراء، ولا شك أن مصر مدينة بحياتها لنهر النيل، وقد أصاب المؤرخ «هيرودوت» عندما قال — نقلًا عن المؤرخ «هيكاته» الذي عاش في عهد بطليموس الأول: «إن مصر[١] منحة النيل.» والواقع أن هذا النهر العظيم يفيض على البلاد بخيره العميم طول العام؛ إذ إن الرشح الذي يتسبب من مائه يمد الطبقة المائية التي تحت الأرض وهي التي لا مندوحة عنها لنمو النبات وتغذيته أثناء التحاريق. أما فيضان النيل السنوي فإنه يكسب الأرض خصبًا ونماء بالغرين الذي يجلبه معه كل عام، ويتركه على سطح الأراضي المنزرعة لنمو الأشجار والنباتات والحيوان، ومن ذلك نرى أن البلاد المصرية بدون نهر النيل تصبح صحراء قاحلة، والحياة فيها مستحيلة، وبخاصة عندما نعلم أن الطبيعة قد حرمتها ماء الأمطار تقريبًا، وجعلتها ترزح تحت عبء شمس محرقة مدة طويلة من السنة.

[١] في النص الإغريقي أريد بمصر «الدلتا» فقط.

ولذلك فإن القوم البائسين الذين يسكنون الجهات القاحلة (أي الأرض الحمراء) كانوا يعيشون في شظف من العيش فيتصيدون حياتهم مما تنتجه الأمطار الضئيلة التي كانت تجود بها السماء من وقت لآخر، ومن بعض الآبار القليلة المبعثرة في أنحاء تلك الصحاري المجدبة، وعلى ذلك كان المصريون الذين يعيشون في رغد من العيش في وادي النيل اليانع ينظرون إلى هؤلاء القوم نظرة ازدراء، ويعدونهم همجًا.

ولما كان المصريون القدماء يعتقدون أن النيل يستمد ماءه من صخور الشلال الأول عند أسوان و«الفنتين»، فإنهم كانوا يعدون كل البلاد الواقعة جنوبي هذه الصخور بلادًا أجنبية عن مصر تمامًا، وقد كانت مصر مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامي يقال إنه نشأ من البلاد نفسها أي أفريقي الأصل، وينسب إلى لوبيى أفريقيا الشمالية المسمين الآن بالبربر، وإلى السكان الحاميين من أفريقيا الشمالية الشرقية «الصوماليين» ولا مراء في أن الحاميين المصريين يمثلون أقدم مدنية معروفة في وادي النيل، وعلى ذلك تكون مصر جزءًا من مجموعة المدنيات الحامية الأفريقية الأخرى، غير أنه عند نهاية عصر ما قبل الأسرات نجد بعض التغير أخذ يدخل على هذا الشعب الحامي الجنس الناشئ من طبيعة البلاد نفسها، والظاهر أن هذا التغير جاء عن طريق الهجرة. وأهم العناصر الجديدة التي دخلت البلاد يظهر أنها من أصل آسيوي، وكانت لها مميزات خاصة تختلف اختلافًا بيِّنًا عن الشعب الأصلي، وهؤلاء الآسيويون قد اختلطوا شيئًا فشيئًا بالسكان الأصليين واندمجوا فيهم.

أما موضوع دخول هذه القبائل الآسيوية إلى مصر والجهة التي دخلوا منها البلاد واستولوا عليها والعصر الذي دخلوا فيه بالتحديد، فإنها أشياء لم يجمع فيها العلماء على رأي قاطع، فمن قائل إن المهاجرين أو الفاتحين جاءوا إلى مصر من شبه جزيرة بلاد العرب ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة «قفط»، أو عن طريق أعالي وادي النيل. ومن قائل إن الغزاة أتوا من سوريا، ودخلوا مصر عن طريق فلسطين فسينا فشرقي الدلتا، ومن ثم انتشروا في الدلتا الغربية ثم الوجه القبلي، ومن هنا تظهر أمامنا مشكلة عويصة لم يمكن حلها إلى الآن، وهي هل المدنية المصرية الفرعونية نبتت في الشمال أم في الجنوب؟ أي هل الحضارة المصرية بدأت في الدلتا أم في الصعيد؟

والواقع أن هناك حججًا تعزز كلًّا من النظريتين، فإن الذين يميلون إلى الرأي القائل بأن القوم النازحين أتوا من الجنوب، فذلك لأن كل معلوماتنا عن هذا العصر السحيق مستمدة فقط من بعض حفائر عملت في الوجه القبلي، مع أن هناك مناطق أثرية أقدم

من تلك واقعة في الدلتا، ولم يكشف علميًّا إلا عن بعضها منذ زمن قريب جدًّا كمنطقة المرمدة، ولم تعطنا كل المعلومات التي يجب أن نستند عليها في تكوين رأي قاطع.

وكذلك نجد أن عبادة الإله «حور» الذي كان يعد من أقدم المعبودات المصرية، قد دخلت مصر من الجنوب عن طريق بلاد النوبة، أو أعالي وادي النيل أو بطريق وادي حمامات عقب غزو القوم المسمين على الآثار «أتباع حور» كما يزعم بعض المؤرخين، على أننا من جهة أخرى نجد أن بعض المميزات البارزة في تكوين الديانة المصرية ونموها قد ظهرت في الوجه البحري، فمثلًا نرى أن أشهر العبادات التي انتشرت في طول البلاد وعرضها تدريجًا هي عبادة الإله «أوزير»، ويرجع أصلها إلى بلدة «أبو صير» القريبة من سمنود وعبادة إله الشمس «رع» ويرجع أصلها إلى بلدة عين شمس القريبة من القاهرة. يضاف إلى ذلك أن كثيرًا من بلاد الوجه القبلي كانت تسمى بأسماء مدن مأخوذة من الدلتا أقدم منها، وعلى ذلك يكون من المحتمل جدًّا أن الجنس الجديد قد زحف على البلاد من شمالي سوريا عن طريق فلسطين وسينا، وأحضر معه مدنية أرقى من مدنية الجنس الأصلي الحامي الذي لم يعرف إلا الآلات والأواني الحجرية. أما الغزاة أو النازحون، فيقال إنهم أدخلوا في البلاد معرفة المعادن وبخاصة النحاس، وأدخلوا كذلك عبادتهم للأموات وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية، ولا شك في أن دخول هذا الجنس إلى البلاد قد أتى تدريجًا من غير عنف، ومهما تكن الحقيقة في أمر هذا الجنس الجديد فإن هناك أمرًا ثابتًا، ذلك أن النزلاء قد توصلوا إلى الاستيلاء بنجاح على البلاد شيئًا فشيئًا، وأهم الوثائق التاريخية التي وصلت إلينا من هذا العهد هي الألواح الإردوازية المنقوشة، وقد وصلت إلينا هذه النقوش على أشكال مختلفة، ومن الصعب الاهتداء إلى حلها، على أنها هي الذكرى الوحيدة لدينا لهذا الفتح الطويل، الذي كانت نهايته على ما يظهر اتحاد كل البلاد من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط تحت صولجان ملك واحد، وقد اتفقت كل المصادر التاريخية على أنه هو الملك مينا.

ومما لا جدال فيه أن العلاقة بين مصر في أقدم عهودها وبين آسيا كانت موجودة، غير أنه لا يلزمنا أن نبالغ في أهمية انتشار الجنسية الآسيوية في مصر؛ إذ الواقع أن حضارة البلاد من أساسها أفريقيا، ولذلك نرى أن الجنس المهاجر اندمج على مضي الزمن في أهالي البلاد، وبذلك نجد اللغة والزراعة والديانة التي نمت وترعرعت في البلاد مصبوغة بصبغة أهلها الأصليين منذ أقدم عهودهم، ولم يؤثر النازحون في تغيير شيء كبير منها، بل كان كل تأثيرهم سطحيًّا، ومع ذلك فإن ما لدينا من المعلومات عن هذا

العصر لا يسمح لنا بأن نجزم بشيء، هذا ويجب أن نتخيل أن النازحين لم يكونوا إلا عددًا ضئيلًا بالنسبة إلى السكان الأصليين؛ إذ الواقع أن الفئات النازحة المسيطرة كانت تلبس المدنية التي وجدتها زاهرة في البلاد مع إدخال بعض إصلاحات وتحسينات عليها بقدر الإمكان.

على أنه ليس لدينا من المعلومات ما يثبت لنا إذا كانت المدنية المصرية مدينة للآسيويين الفاتحين بإحضار الحيوانات المنزلية كالثور والخنزير والحمار والماعز، وكذلك باستحضار أقدم الحبوب مثل الشعير والقمح، أو أنه بالعكس كانت هذه الحيوانات والحبوب قد وجدت في وادي النيل منذ وجد الجنس الأفريقي الأصلي، وكذلك لا نعرف إذا كانت لغة القبائل النازحة قد أثرت في اللغة المصرية القديمة ومسحتها بمسحة آسيوية، وهي التي نجد ظواهرها في عدة ألفاظ في لغة القوم، ومنذ بداية العصر التاريخي نجد الاندماج بين الجنسين المكون منهما السكان عظيمًا جدًّا، حتى إنه أصبح من الصعوبة بمكان أن نعرف بشيء من الدقة الفوارق بينهما.

الفصل الرابع

نحو توحيد البلاد

لا ريب في أن الشكل الذي وجدنا عليه اندماج الجنسين بعضهما ببعض كما نشاهده في عصر «مينا»، وهو العصر الذي ظهرت فيه الكتابة المصرية، يحتم علينا بأن نحكم بأن الجنسين قد عاشا معًا زمنًا طويلًا قبل أن يحدث هذا الاندماج الكلي. هذا على أننا نجهل تقريبًا كل الأمور التي تمر ببطء في النمو الاجتماعي والتي تبتدئ بالمعيشة الطبيعية، ثم تكوين الجماعات إلى قبائل تحت حماية معبود في شكل وثن ويحكمها مجلس مكون من شيوخها، ثم الملكية المحلية، ثم اتحاد المقاطعات معًا، وفي النهاية الملكية الفرعونية المطلقة.

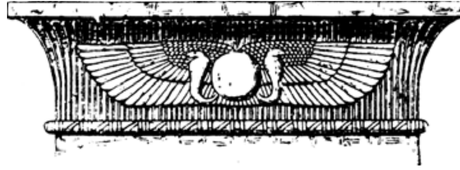
والواقع أننا في هذه الحالة ليس أمامنا إلا الفروض المحضة، وسنستعرض ببعض الإيضاح التقلبات التي مرت على العصر الذي يسميه المؤرخون عصر ما قبل الأسرات؛ أي قبل ظهور الكتابة إلى أن اتحدت البلاد تحت حكم «مينا»، وسنتتبع في ذلك أحدث النظريات.

كانت الجماعات في البداية في وادي النيل مثلها في البلاد الأخرى على حالتها الفطرية؛ إذ كانت الجماعة أو القبيلة في حالتها الساذجة تلتف حول صورة حيوان أو نبات سواء أكان حقيقيًّا أم رمزيًّا، وكانت تتخذ ذلك لها بمثابة إله أو وثن تعبده، وبعد ذلك أخذت القبائل تتجمع وكونت مدنًا لكل منها حكومتها، أما شارات هذه المدن الأولى سواء أكانت وثنًا أم حيوانًا فأصبحت كآلهة تحمي هذه المدن، وبعد ذلك تكونت مديريات من هذه المدن مع القبائل التي تعترف بسلطان إله المدينة ومما يجاورها من الأقاليم، وكانت تعرف كل من هذه المديريات باسم المقاطعة، وهذه المقاطعات كانت في بادئ الأمر مستقلة، وإن كان حكامها لم يطلق عليهم الملوك، والظاهر أن عدد هذه المقاطعات كاد يكون متساويًا في الوجهين القبلي والبحري، وبعد مضي زمن قامت حركة اتحاد في البلاد،

وذلك حينما تجمعت مقاطعات الوجه البحري إلى مملكتين الأولى في الغرب وعاصمتها «بحدت»، وربما كانت دمنهور الحالية، والثانية في الشرق وعاصمتها «بوصير» بالقرب من سمنود الحالية، وكان إله المملكة الأولى «حور» وإله الثانية «غيزتي» وقد صار «أوزير» فيما بعد، وبعد فترة من الزمن اندمجت هاتان المملكتان في مملكة واحدة أطلق عليها: الوجه البحري، وكانت العاصمة لتلك المملكة الجديدة في بادئ الأمر «سايس» صا الحجر الحالية في الغربية مركز كفر الزيات، وكانت الإلهة الرسمية «نيت»، ثم أصبحت العاصمة فيما بعد «بحدت» دمنهور، وكان الإله الرسمي فيها «حور». وفي الوقت الذي اتحدت فيه الدلتا إلى مملكة واحدة تكونت مملكة أخرى في الوجه القبلي مؤلفة من اتحاد عدة مقاطعات عاصمتها بلدة «نقادة» على مسافة قريبة من شمالي الأقصر، وكان الإله المعترف به هو «ست» مناهض الإله «حور».

والظاهر أن الدلتا كانت أقوى من الصعيد، ولذلك كان ملوك الدلتا أول من فكر في اتحاد كل مصر تحت سيطرة حاكم واحد، على أن حاضرة المملكة المتحدة الجديدة لم تكن بلدة «حور» (دمنهور)، ولكن بلدة «بوصير»، وهي بلدة إله شرقي الدلتا المسمى «أوزير عنزتى»، وتدل شواهد الأحوال على أن الثورات المتوالية قد قامت في الوجه القبلي في نقادة وأمبوس «البلاص الحالية» احتجاجًا على تسلط الدلتا، وكانت النتيجة أن تفرق شمل البلاد وانفصم عري اتحادها، وانفصل شطراها عن بعضهما، فأصبح الوجه البحري للإله «حور»، والوجه القبلي للإله «ست» وبذلك هدمت مملكة «أوزير»، ولم تعد «بوصير» عاصمة للوجه البحري، بل انتقلت العاصمة إلى دمنهور التي كانت حاضرة البلاد القديمة، وبعد ذلك أصبحت مملكة «حور» أكثر بطشًا من مملكة «أوزير» حتى إنها توصلت إلى إخضاع مملكة «ست» في الوجه القبلي، وقامت بتنظيم وحدة البلاد متخذة عين شمس عاصمة للملك، ولا شك في أن مركز العاصمة الجديدة، كان اختياره موفقًا؛ إذ كانت واقعة على حدود القطرين حتى يمكنها الإشراف على كل منهما، ومن المحتمل أن حدود هذه المملكة المتحدة الجديدة كان جبل السلسلة أي بين إدفو وكوم أمبو، وكانت شارتها الجديدة قرص الشمس ناشرًا جناحيه اللذين يمثلان نصفي مصر — الوجه البحري والوجه القبلي — وهو رمز إله الشمس الذي كان مركز عبادته عين شمس، وهذا الرمز يشاهد كذلك كثيرًا على الآثار المصرية، ولا بُدَّ أن في وقت هذا التغيير كان بعض الآلهة في الوجه البحري مثل «أوزير» و«حور»، قد انتقلوا حاملين معهم اسم محل عبادتهم إلى الوجه القبلي، ولذلك نجد اسم المدينة مكررًا في القطرين، فنجد مثلًا

بلدة عين شمس في الوجه البحري «هليوبوليس» وبلدة عين شمس أخرى في الوجه القبلي «أرمنت» وهكذا.



قرص الشمس ذو الجناحين.

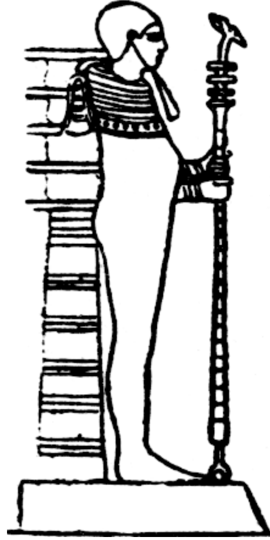
ويظهر أن في هذا الوقت قد ظهر حساب السنة المصرية أيضًا.

ثم قامت عين شمس بدورها لتطفئ نار ثورة دينية قامت في الأشمونين في مصر الوسطى، وقد كان الغرض من هذه الثورة أن تحل عبادة إلهها محل عبادة الشمس. ثم ظهرت مملكتان مستقلتان من جديد في البلاد، الأولى في الوجه البحري وعاصمتها «بوتو» المعروفة الآن بتل الفراعين في شمال دسوق، والثانية في الوجه القبلي وعاصمتها «قفط» ثم «نخن»، وهي المعروفة الآن بالكوم الأحمر تجاه الكاب «المحاميد» غير أن «حور» بن «أوزير» وهو الذي أخضع نهائيًّا الوجه القبلي متغلبًا على «ست» أصبح الإله الرسمي لكل من هاتين المملكتين.

وقد وحدت البلاد من جديد للمرة الثالثة والأخيرة تحت سلطان عظيم من عظماء أهالي «طينة» بالقرب من «العرابة» المدفونة مركز البلينا، وقد جاء ذكر هذا العظيم في جدول الملوك الذي كتب في عهد الدولة الحديثة باسم «مينا»، وقد أطلق عليه اليونان لفظة «مينيس» والأرجح أنه إما الملك «عحا» (المحارب) أو أنه الملك «نعرمر»، وقد وجد كل منهما منقوشًا على الآثار، ولكننا لا نعلم إذا كان توحيد القطرين قد حدث بطريق السلم — إذ المحتمل أن «مينا» ملك الجنوب قد ورث عرش الشمال عن أمه — أم بطريق الحرب.

وعلى أية حال فإن التقاليد تنسب إلى موحد القطرين بناء عاصمة جديدة على مقربة من عين شمس العاصمة القديمة، وقد سماها «من-نفر» (الميناء الجميلة) وهي التي أطلق عليها اليونان اسم «منفيس» (البدرشين وميت رهينة)، ولما تولى «أتوثيس»

زر (؟) بن «مينا» الحكم حصَّن هذه الحاضرة، فأقام قلعة ضخمة سماها الجدران البيضاء، وهذه الحاضرة الجديدة، بقيت نحو عشرة قرون نامية زاهرة خلال حكم الأسرات الثمانية الأولى، أما الإله الرسمي الجديد فلم يكن أحد آلهة الدولة السابقين مثل «أوزير» و«حور» و«رع» ولكنه كان الإله المحلي للعاصمة الجديدة واسمه الإله «بتاح».



فتاح.

أما الملوك الذين سبقوا «مينا» وحكموا البلاد فإن المصريين يعدونهم أشباه الآلهة الذين أتوا بعد أسرات آلهة لم نعرف عنهم شيئًا، ولم يذكر المصريون إلا أن ملوك الوجه القبلي كانت عاصمتهم في «نخن» (الكوم الأحمر)، وعاصمة ملوك الوجه البحري كانت «بوتو» ويعرفون كذلك أن ملك الوجه القبلي كان يلبس التاج الأبيض وكانت تحميه الإلهة «النسر» «نخبت» وملك الوجه البحري كان يلبس التاج الأحمر وتحميه الإلهة «الصل» «وزيت» أي الثعبان، وقد حفظت لنا الآثار أسماء تسعة الملوك الذين

سبقوا «مينا» في الدلتا، وقد وجدت أسماؤهم محفورة على قطعة من حجر يرجع تاريخه إلى الأسرة الخامسة، ويحتمل في عهد الملك «نوسر رع» وهذا الحجر يعرف بحجر «بلرم»؛ وذلك لأنه محفوظ في بلرمو عاصمة صقلية، وقد عثر على أربع قطع أخرى منه موجودة الآن بالمتحف المصري.



جزء من حجر «بلرم».

وعلى هذا الحجر دونت أسماء الملوك منذ عصر ما قبل الأسرة الأولى، وذكر ملخص أهم الحوادث في عهد كل ملك، وأحيانًا الأعمال العظيمة التي قام بها، ولو أن هذا الحجر وصل إلينا كاملًا لعرفنا ملخص تاريخ مصر من أقدم العهود إلى الأسرة الخامسة، كما رواه المصريون أنفسهم.

الفصل الخامس

تنظيم نتيجة السنة الشمسية

عمد علماء الآثار المصرية والمؤرخون المختصون في علم الفلك والتاريخ إلى إيجاد طرق حسابية غاية في الحذق للوصول إلى تحديد العصر الذي ابتدأ فيه التاريخ بالسنة الشمسية،[١] فابتدءوا بسنة ١٣٩م، ونحن نعرف بالضبط أول يوم في السنة الشمسية اتفق تمامًا مع اليوم الذي ظهر فيه نجم الشعرى اليمانية «سوتيس»، وهو اليوم الذي بدأ فيه فيضان النيل، وقد اتخذوا هذا التاريخ نقطة ثابتة، ورجعوا إلى الوراء به مدة ثلاث مرات يتفق فيها ظهور الشمس والشعرى اليمانية «سبد» بالمصرية في ساعة واحدة، ويحدث هذا مرة كل ١٤٦٠ سنة بحساب فلكي ثابت، وبذلك ظنوا أنه يمكنهم أن يحددوا سنة ٤٢٤١ق.م بالسنة التي ابتدأ فيها المصريون يحسبون بحساب السنة المصرية الشمسية، وقد قال بعض المؤرخين إن هذا التاريخ هو أقدم عهد في تاريخ العالم.

وقد استنتج هؤلاء المؤرخون من هذا التاريخ السحيق في القدم نتائج هامة، فمنه عرفوا مقدار تقدم المصريين في الحضارة في هذا العصر العتيق؛ إذ كان في مقدور المصري أن يلاحظ ظهور النجوم، ويتمكن من تحديد مدة السنة الشمسية، ومن جهة أخرى

[١] وقد كتب الأستاذ نوي جبور Neugebauer مقالًا ممتعًا في مجلة Acta Crientalia Vol XVII Paris III 1938. P. P. 169–195 تحت عنوان Die Bedeutungslosigkeit ber Sotisperiode, Fur die alteste ægyptische Chronologie وقد دحض فيه نظرية الأستاذ «أدورد مير» في استنتاج تواريخ محددة لمعرفة بداية التاريخ المصري قائلًا: إن كل نظريته لا ترتكز على أساس علمي، وأن نظرية الحساب بواسطة ظهور النجم «سبد» عند الصباح فهذا لا علاقة له بالحساب المصري، بل خاص بالفلك الإغريقي، ولذلك يحتاج الموضوع إلى بحث جديد.

استنتجوا الأنظمة التي كانت عليها البلاد في ذلك العصر، غير أن هذه الاستنتاجات لا ترتكز على حقائق ثابتة في التاريخ، وإن كان ما يكشف من الآثار ينبئ بتأصل المصريين في المدنية الموغلة في القدم.

ومهما يكن من الأمر فإن إنشاء السنة الشمسية قد ظهر في عصر قديم، وأنه كان من الأشياء الضرورية القصوى لسكان وادي النيل؛ وذلك لأن السنة القمرية بشهورها المختلفة في الطول بين ٢٩ و٣٠ يومًا لم تكن بالشيء الدقيق للمصريين الذين خلقوا بطبيعتهم زراعًا للأرض. هذا على خلاف السنة الشمسية التي تبتدئ في وقت حادثة معينة للفلاح المصري، وهو فيضان النيل المنظم العظيم لحياة الفلاح المصري، ولما كان المصري لا يلتجئ قط لإضافة ربع يوم «السنة الشمسية بالضبط ٣٦٥ ١/٤ يوم» أي بإضافة يوم واحد كل أربعة أعوام ليجعل عامه يتفق مع العام الشمسي، فإنه استعمل في الواقع طوال مدة تاريخه سنتين مختلفتين: الأولى السنة المدنية، والثانية السنة الثابتة أي الشعرى اليمانية، وهاتان السنتان لا تبدءان معًا في يوم واحد إلا كل ١٤٦٠ (٣٦٥ في ٤) سنة شمسية، أو كل ١٤٦١ (٣٦٥ ١/٤ في ٤) سنة مدنية.

الفصل السادس

مينا وتوحيد البلاد

اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي بدأ فيها «مينا» حكم مصر المتحدة فمنهم من يرجع بنا إلى سنة ٤٣٢٦ق.م، ومنهم من يذهب إلى أبعد من ذلك، ويضع تاريخ هذا الحادث في نحو سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد، وهناك مؤرخون من جهة أخرى يميلون إلى التاريخ القصير ويؤرخون هذا الحادث بعام ٢٩٠٠ق.م، أو عام ٢٧٠٤ق.م غير أن الآراء أصبحت الآن متفقة على اتخاذ طريق وسط بين هذين الحدين فجعل ٣٢٠٠ق.م، وهذا التاريخ الذي بدأ فيه ملوك مصر المتحدة يحكمون البلاد يعرف ببداية التاريخ المصري عند «مانيتون».

والظاهر أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية لم يتخذوا «منف» عاصمة لملكهم، ولم يفكروا قط في نقل مقر ملكهم إليها، وإذن يحتمل أن منف لم تكن يومًا من الأيام عاصمة المملكة المتحدة، والظاهر أن الدور الذي لعبته في تاريخ البلاد كان أقل من ذلك أهمية، فلم تتعد كونها معقلا للبلاد في الجهة الشمالية؛ أي إنها كانت قلعة حصينة، أما الملوك فإنهم استمروا في إقامتهم في الجنوب الأقصى متخذين بلدة «نخن» مقرًّا لهم، ولذلك كانت أهمية منف الإشراف على بلاد الدلتا التي فتحت حديثًا وضمت إلى ملك الصعيد، وقد كان لقرب منف من هذه البلاد التي ضمت حديثًا أهمية أخرى؛ إذ جعلتها مركزًا سهلًا لإدارتها، ولا شك في أن منف كانت لـ «مينا» وأخلافه مركزًا حربيًّا هامًّا لصد غارات اللوبيين الزاحفين من الجهة الغربية من الدلتا، وهؤلاء اللوبيون قد خضعوا بعد أن هزموا هزيمة منكرة، غير أن توحيد البلاد لم يكن قد تم إلا بعد أن توصل أحد أخلاف مينا إلى التغلب على الجزء الجنوبي الأقصى من بلاد النوبة، وهو الواقع بين السلسلة والشلال الأول، ويطلق عليه «تاستي»، وقد كان هذا الإقليم خارجًا عن حدود المملكة المصرية «الوجه القبلي» طوال مدة عصر ما قبل الأسرات، ولم يكن مسكونًا بالجنس

الأسود كما هو الآن، بل كان يقطنه فرع من الجنس الحامي سكان البلاد الأصليين، والظاهر أن السود الذين يسكنون نوبيا العليا والسودان لم يظهروا في مصر إلا بعد عدة قرون؛ أي في عهد الأسرة الثالثة وبخاصة في نهاية الدولة القديمة، وذلك بعد التدهور الذي لحق البلاد بعد الأسرة السادسة.

ولقد حافظت مصر المتحدة في كل عهودها منذ حكم «مينا» على ذكرى انقسامها إلى مملكتين، ولم يكن في وسع إحداهما على مر الزمن أن تهضم الأخرى، بل بقيتا على قدم المساواة، ولذلك نجد أن ملك مصر المتحدة لا يحمل لقب ملك مصر، بل ملك الوجه القبلي وملك الوجه البحري، وكذلك كان يحمل لقب «رب الأرضين» وسيد «نسر» الجنوب وسيد «صل» الشمال، وكان في أول الأمر يحمل التاج الأبيض الخاص بالجنوب والتاج الأحمر الخاص بالشمال، ولم يحمل التاج المزدوج إلا في أواسط حكم الأسرة الأولى، وكذا نشاهد هذا التمييز في المصالح الحكومية، فمثلًا نجد أن الخزينة مزدوجة؛ أي خزينة الوجه القبلي وخزينة الوجه البحري وهكذا.



ظهر لوحة «نعرمر».



وجه لوحة «نعرمر».

ومما يؤيد ما ذكره «مانيتون» من أن «مينا» هو أول ملك وحَّد الأرضين ما جاء على الآثار المعاصرة لهذا الملك وبخاصة لوحته التذكارية الإردوازية، التي وجدت في «هيرا كنبوليس» بالقرب من «العرابة»، وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري. «هذا إذا سلمنا بأن «نعرمر» هو مينا»، ولهذه اللوحة وجهان محفوران حفرًا بارزًا يشهد لصانعها بالدقة والمقدرة، والجزء الأعلى من كِلَا الوجهين يحمل اسم «نعرمر» (مينا) مكتوبًا بالهيروغليفية بين رأسي بقرتين تمثلان الإلهة حتحور، وأحد الوجهين يشمل منظرين، أما الوجه الآخر فيحوي ثلاثة مناظر، فالمنظر العلوي على الوجه الأول يمثل الملك لابسًا التاج الأبيض «تاج الوجه القبلي» متبوعًا بحامل نعليه وقابضًا بيده اليمنى على دبوس له رأس على شكل كمثري يضرب به عدوه الراكع أمامه، بينما أمسكت يده اليسرى شعر هذا العدو المسمى «واش»، وقد ذكر فوقه ما يعني أن «حور» قد أحضر للملك أسرى من الدلتا «أرض نبات البردي»، والمنظر السفلي يمثل عدوين عاريين فارين. أما الوجه الثاني فالمنظر العلوي منه يمثل الملك لابسًا التاج الأحمر «تاج الوجه البحري» متبوعًا بحامل نعليه ومسبوقًا بأربعة من حملة الأعلام ثم بوزيره أيضًا، وأمام هؤلاء

عشرة أسرى قطعت رءوسهم ووضعت بين أقدامهم، وقد كتب فوقهم أسماء البلدان التي فتحها «مينا»، أما المنظر الثاني فيمثل حيوانين عجيبين بينما يمثل المنظر السفلي ثورًا ينطح قلعة، وهذا كناية عن انتصار الملك على أعدائه.

الفصل السابع

مصادر التاريخ المصري القديم

الواقع أنه لم يصلنا أي كتاب خاص كتبه المصريون أنفسهم عن تاريخ بلادهم، فكل ما نعتمد عليه في تأليف تاريخ مصر هي النقوش التي وجدت على الآثار، وهذه تنحصر فيما يلي:

أوَّلًا: أخبار الحروب التي قام بها الملوك، ثم النقوش الدالة على تاريخ أفراد عظماء القوم وترجمة حياتهم، ثم المراسيم الملكية التي كانت تنتشر في طول البلاد وعرضها من عدة نسخ، وكانت تكتب على الحجر في معظم الأحيان وتوضع في المعابد والمدن.

ثانيًا: الأوراق البردية التي كانت تحتوى على موضوعات إدارية أو قضائية أو أدبية، وخلافًا لهذه المصادر فإن كل ما عثرنا عليه متشابه وعلى وتيرة واحدة، وأعنى بذلك النقوش التي عثرنا عليها في المقابر والمعابد، وكانت ترمي إلى غرض شخصي، فمثلًا لم يكتب الملك على جدران معابده انتصاراته على أعدائه في حروبه إلا ليظهر قوته وسلطانه، ولم ينقش معاهدة صلح إلا ليظهر ما كسبه من أعدائه ونفوذه عليهم، وكذلك لم يسرد فرد من عظما القوم تاريخ حياته إلا ليظهر ما ناله من الحظوة عند مليكه لما قام به من الأعمال الجليلة له. أما باقي النقوش التي عثرنا عليها وهي الجزء الأكبر فكلها دينية محضة، وذلك لأنه لم يصلنا شيء من الكتابات الدنيوية إلا النزر اليسير، وسبب ذلك أن المصريين قد أقاموا في «الوجه القبلي» مقابرهم ومعابدهم في الجبال وعلى حافة الصحراء، وشيدوها من الحجر الصلد أو نحتوها في الصخر فبقيت لنا إلى الآن بما فيها من نقوش، أما مدنهم التي كانت تقام في الوادي المنزرع، والتي كانت تبنى باللَّبِن فإنها قد محيت آثارها إلا بقايا قليلة جدًّا، وانمحى معها كل ما خلفوه من الكتابات التي كانت تدون على البردي إلا بعض أوراق نعثر عليها من وقت لآخر.

ومن بين الوثائق الهامة في التاريخ المصري التي عثرنا عليها قوائم أسماء الملوك ويرجع معظمها إلى عهد الدولة الحديثة، وأقدم هذه القوائم يرجع عهدها إلى حكم الملك «تحتمس الثالث»، وقد عثر عليها في المبني العظيم الذي أقامه بالكرنك في مدينة الأقصر ويطلق عليه اسم «قاعة الأعياد»، وهذه القائمة مكتوبة على جدران حجرة يطلق عليها الآن حجرة الأجداد، وأحجار هذه القاعة محفوظة الآن في متحف اللوفر، وقد وجدت فيها أسماء ملوك لم تظهر على القوائم التي عثرنا عليها في عهد الأسرة التاسعة عشرة، على أن قائمة «تحتمس الثالث» لم تكن أقدم وثيقة، بل نعلم أن هنالك قوائم أخرى مشابهة لها، وهناك تواريخ أخرى أقدم، وهذه التواريخ قد كتبت على لوحات من الحجر ونصبت في أماكن عامة وبخاصة في المعابد، وقد حفظ لنا جزء من لوحة من هذه الآثار، وهي تعرف بحجر بلرم، ويرجع تاريخها إلى الأسرة الخامسة كما أسلفنا.

وأهم من قائمة تحتمس الثالث قائمتا «العرابة» المدفونة «أبيدوس» وسقارة، ويرجع تاريخ الأولى إلى عهد «سيتي الأول»؛ أي في أوائل الأسرة التاسعة عشرة، والثانية من عهد «رعمسيس الثاني».

وقد أراد سيتي الأول أن يخلد ذكرى أجداده في إحدى قاعات معبده الذي شيده في «العرابة» المدفونة — وهو لا يزال حافظًا لجزء عظيم من رونقه القديم — فبنى حجرة خاصة كتب على جدرانها قائمة بأسماء الملوك، وفي هذه القائمة تنتظم أهم ملوك مصر مبتدئة بالفرعون «مينا»، ويلاحظ في هذه القائمة أن في أسماء الملوك الذين ذكروا فيها قبل الأسرة الرابعة بعض الأخطاء، ولكن من بداية الأسرة الرابعة نجد الأسماء المذكورة على القائمة متفقة تمام الاتفاق مع الأسماء التي ذكرت في القوائم الأخرى. أما قائمة سقارة الملكية المحفوظة الآن بمتحف القاهرة، فإنها أقيمت في قبر الكاتب الملكي «تونوري»، وهذه القائمة لا تبتدئ باسم «مينا»، بل باسم خامس أخلافه «مربابا» أو «مربابن»، وهو الذي يطلق عليه اليونان اسم «ميبيس» في كتاب «مانيتون»، وهذه القائمة قد نقلت عن ورقة بردية، غير أنه لم يراعَ فيها الترتيب التاريخي لكثير من الأسرة المالكة.

وبجانب هذه القوائم المكتوبة على الأحجار، قد وصلت إلينا وثيقة أخرى يطلق عليها اسم ورقة «تورين»، وهي من عهد الأسرة التاسعة عشرة، ولم يكتف فيها كاتبها بذكر أسماء الملوك، بل ذكر السنين والشهور والأيام التي حكمها كل ملك، على أنه مما يؤسف له أن هذه الوثيقة لم تصل إلينا سالمة، ولو أنها وصلت كذلك لكانت تعد أهم وثيقة

وصلت إلينا في هذه الناحية. بل حدث أنها مزقت إلى قطع عدة، ولم يتمكن العلماء إلى الآن من وضع كثير من قطعها في مكانها الأصلي من الورقة، وبرغم الفجوات التي نجدها في ورقة «تورين» فإنه قد ذكر فيها عدد عظيم من الملوك النكرات، لم يهتد العلماء إلى وضعهم في مكانهم التاريخي، وبخاصة الملوك الذين جاء ذكرهم في هذه الورقة بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة، ومن الأسف أن القوائم الأخرى قد ذكرتهم بطريقة مختصرة، ومهما يكن من شيء فإن أمثال هذه الورقة وغيرها من القوائم هي التي استعملها «مانيتون» السمنودي في القرن الثالث قبل الميلاد، وكذلك «أرستوستين».

وهنالك مصدر آخر وهو ما عثر عليه من آثار في الممالك المجاورة لمصر سواء أكانت هذه الآثار مصرية الأصل نقلت إلى هذه البلدان، أم كانت آثارًا خاصة بالبلاد التي وجدت فيها، وذكر فيها شيء عن مصر والمصريين، مثال ذلك: التي وجدت في جزيرة كريت من الأسرة الثانية عشرة، وكذلك الآثار التي عثر عليها في فلسطين، وسوريا من أوائل الدولة القديمة أو في بلاد ما بين النهرين وما وراءها من عهد الأسرة الثامنة عشرة، وسنشير إلى ذلك في موضعه.

بقيت المصادر التي يعتمد عليها في تدوين تاريخ مصر منحصرة فيما نقله لنا الكتاب الإغريق والرومان وغيرهم، إلى أن كشف «شمبليون» عن أسرار اللغة المصرية القديمة من النقوش التي على حجر رشيد عام ١٨٢٢، ومن ثم أخذ العلماء يستقون مصادرهم عن تاريخ مصر من النقوش مباشرة، وقد تكلمنا عنها سالفًا، والآن نتناول باختصار أهم هؤلاء الكتاب الذين زاروا مصر وكتبوا عنها، فأول مؤرخ إغريقي كتب عن مصر هو «هيكاته الملاطي» الذي عاش حوالي عام ٥٥٠ق.م وقد زار وادي النيل وتباحث مع الكهنة المصريين في «طيبة» عندما كان يضع شجرة الأنساب وتاريخه للوبيا.

وجاء من بعده «هيرودوت» حوالي عام ٤٥٠ق.م وقد خصص الجزء الثاني من تاريخه العام لوصف مصر وتاريخها، وقد بدأ بزيارة الدلتا ومكث في منف وعين شمس مدة، ثم صعد في النيل إلى أن وصل إلى أسوان «الفنتين» وفي عودته عرج على الفيوم، وزار الدلتا ثانية ثم غادر البلاد من القزم، وأهم الأسئلة التي وضعها للكهنة كانت منصبة على أصل خرافة الآلهة وعلى التاريخ، وقد أخبره الكهنة أن «مينا» هو أول ملوك مصر، ثم عددوا له نقلًا عن كتاب لديهم أسماء ٣٤٠ ملكًا، وقالوا له إن ما بين أول ملك وآخر ملك ٣٤١ جيلا من الناس، وإن كان ثلاثة أجيال تعادل مائة عام؛ أي إن تاريخ البشر عندهم يبلغ نحو ١١٣٤٠ عامًا، وقبل هؤلاء الملوك كان يحكم الآلهة مصر، وقد

أضاف «هيرودوت» إلى ما سمعه ما شاهده بنفسه، والواقع أن وصفه جاء صورة حية للحياة الاجتماعية والآثار التي شاهدها، ويمكن الاعتماد عليها في معظم الأحيان، وفي أوائل عهد البطالسة ظهر المؤرخ «هيكاته الأبدري» في بلاد بطليموس الأول ووضع كتابًا غير أنه لم يصلنا منه غير مقتطفات قصيرة أشار إليها «ديدور» في كتاباته.

وفي هذا العصر كان يعيش كذلك «مانيتون» السمنودي، وهو أهم المؤرخين الذين كتبوا عن مصر، وقد أخبرنا المؤرخ اليهودي يوسف «جوزيف» أن «مانيتون» كان مصري الجنس، وكان كاهنًا عظيمًا وكاتبًا في المعابد وماهرًا في لغة بلاده، وفي اللغة الإغريقية أيضًا، وقد أمره بطليموس فيلادولف «الثاني» أن يضع مؤلفًا عن مصر، فقام «مانيتون» بذلك، وحاول أن يضع أمام الإغريق صورة حقيقية عن تاريخ مصر منقولة عن النقوش المصرية، ويرجع عهد كتابة هذا التاريخ إلى ما قبل عام ٢٧٠ق.م ومما يؤسف له أن هذا التاريخ قد وصلت لنا منه أجزاء مختصرة عن طريق المؤلف يوسف اليهودي «جوزيف» الذي ولد عام ٣٧م، فقد ألف مقالًا للرد على «أبيون» النحوي الإسكندري الذي كان يبغض اليهود من أعماق قلبه، وهو الذي ينسبهم إلى أنهم من أصل أبرص ومن منشأ دنس نجس، وقد طردهم المصريون من بلادهم مع موسى عليه السلام، فرد عليه يوسف بأن هؤلاء الدنسين هم الهكسوس الذين هم من نسل يعقوب ويوسف، وقد دخلوا مصر فاتحين وليسوا عبيدًا، ولكي يؤيد رأيه نقل حرفيًّا بعض المقتطفات عن «مانيتون» في الفصل الخاص بالهكسوس وطردهم من مصر على يد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وشفع ذلك بجدول يحوي أسماء الملوك من عهد تحتمس الأول إلى عهد رعمسيس الرابع وعددهم ٢١ أسمًا مع ذكر سني حكمهم والشهر الذي حكم كل منهم فيه، ومن المحتمل جدًّا أن يوسف لم ينقل ذلك مباشرة عن «مانيتون» نفسه، بل يحتمل أنه نقله عن المختصر الذي وضعه المؤرخون نقلًا عن «مانيتون». على أن هذا المختصر أخبرنا على الأقل أن «مانيتون» قد وضع جدولًا تامًّا لأسماء ملوك مصر من أول «مينا» إلى عهد البطالسة، مع ذكر تواريخ مضبوطة لحكم كل منهم، ولذلك بقي مختصر «مانيتون» — وهو لا يزيد عن جدول بأسماء الملوك والأسرات مع ذلك بعض حقائق مختصرة — المصدر الأصلي لكتَّاب العصر المسيحي عن تاريخ مصر إلى أن كشف عن أسرار اللغة المصرية، وأهم هؤلاء الكتَّاب «سكستس جوليوس أبريكانوس» sextus Julius Africanus، وقد نقل المختصر في كتابه التاريخي الذي وضعه حوالي عام ٢٢٠م، ويأتي بعده «يوزيب» Eusebe (٢٧٠–٣٤٠)، وله كتاب تاريخ محفوظ باللغة الإغريقية والأرمنية، وقد نقل

عن المختصر من بداية الأسرة السابعة عشرة، ولكن من نسخة أخرى تختلف عن تلك التي نقل عنها سكستس الأفريقي.

وحوالي أوائل القرن التاسع الميلادي ألف «جورج» المسمى «سينسل» كاتم أسرار بطريق الإسكندرية تاريخًا نقله عن مختصر «يوزيب»، و«سكستس» الأفريقي، وقد رأى هذا المؤلف أن كتاب «مانيتون» ينقسم ثلاثة أقسام وأن الملوك كانوا مقسمين إلى ٣١ أسرة كل منها تنسب إلى جهة معينة في البلاد حسب أصل كل منها: الأسر الطينية والمنفية والألفنتية والإهناسية والطيبية … إلخ، والمتن الأصلي يعطينا السنين والأشهر والأيام التي حكمها كل ملك ولا يذكر المختصر إلا الملوك المشهورين، وقد بقي ترتيب الأسرات الذي وضعه «مانيتون» الأساس الذي يعتمد عليه كل مؤرخ حديث في الكتابة عن مصر رغم الكشوف الحديثة، ويأتي بعد «مانيتون» مؤرخ عظيم اسمه «ديدور الصقلي» الذي ألف كتابًا عن مصر لم تمتد إليه يد الضَّياع، وقد وضع تاريخًا عامًّا، وعند كتابته عن أصل العالم قاده البحث إلى مصر التي تعد مهدًا للآلهة؛ لأن المصريين يقولون: إن بلادهم هي مهد بني الإنسان. على أننا نجد في كتاباته روح «هيكاته الأبدري» و«هيرودوت» يضاف إلى ذلك أنه زار وادي النيل حوالي عام ٦٠ق.م مما جعل مؤلفه ذا قيمة، ويلاحظ في كتاباته ميله إلى الأفكار الفلسفية والدينية، وقد جاء إلى مصر كثير من الجغرافيين الإغريق وبحثوا في بلاد النيل في عهد البطالسة، ومن هؤلاء «أرستوستين السيريني» الذي كان يعيش في الإسكندرية (٢٧٥–١٩٤ق.م).

والظاهر أنه وصل غليه من محفوظات كهنة طيبة قائمة بأسماء ٣٨ ملكًا من ملوكهم ترجمها من المصرية القديمة إلى الإغريقية، وحفظها لنا جورج سنسل، وهذه القائمة تشتمل على أسماء ملوك من الأسرة الأولى إلى الأسرة العشرين، غير أن هذه القائمة لها ميزة خاصة؛ إذ إنها تضيف إلى كل اسم علم جملة تدل على معناه.

وفي عام ٢٧م زار «استرابون» مصر ووصل إلى الشلال الأول، وقد وصف في الفصل السابع عشر من جغرافيته هذه الزيارة وصفًا ممتعًا، غير أن ما كتبه عن التاريخ لا يتخطى عصر البطالسة إلا نادرًا، وكثيرًا ما كان ينقل عمن سبقه من المؤرخين وينسب لنفسه مشاهدة ذلك.

أما المؤرخ «بلوتارخ» ١٢٠م فإنه كتب عن مصر كتاب «إزيس وأوزير»، وهو الكتاب الوحيد الذي وضع أمامنا بحثًا منظمًا عن الديانة المصرية، وبخاصة عن إزيس وأوزير ومعناهما الحقيقي، والواقع أن معلوماته كانت مستقاة من مصادر جديرة بالاحترام، إذ أنها تطابق في معظم الأحوال ما دوِّن على النقوش المصرية القديمة.

الفصل الثامن

الألقاب الرسمية للفرعون

كان من نتائج توحيد البلاد وجمع السلطان في يد حاكم واحد أن صار للملك مجموعة ألقاب وأسماء رسمية تطلق عليه بمجرد اعتلائه عرش الملك، وقد اكتمل تكوين هذه الأسماء والألقاب في أواخر عهد الأسرة الرابعة، وقد حفظتها التقاليد إلى عصر البطالسة والقياصرة الرومان، وكانت هذه الألقاب لا تتجاوز الثلاثة في العهد الطيني، أي في الأسرتين الأوليين وهذه هي الألقاب:

(١) لقب «حور»: ومعناه أن الملك بمجرد اعتلائه عرش الملك كان يلقب باسم «حور»؛ أي إنه صورة حية من هذا الإله تعيش على الأرض، وهذا اللقب كان ينقش داخل مستطيل يمثل واجهة القصر الملكي، وعلى قمته صورة صقر وهو الطائر الذي يرمز به للإله «حور»، وفي خلال حكم الأسرتين الأوليين كنا نجد أحيانًا الإله «ست» وهو الملك القديم للوجه القبلي يذكر بجانب «حور». على أننا نجد بعض الملوك مثل «مربابن» (ميبيس) أحد ملوك الأسرة الأولى، وكذلك «خعسخموي» آخر ملوك الأسرة الثانية قد مثل كل منهما بصقرين أي إن أحدهما يمثل «حور» والثاني «ست».



اللقب الحوري.

(٢) وهناك لقب آخر يمثل «نسرا» و«صلا» كل منهما يرتكز على سلة رمزًا للملكية، وهذان الحيوانان هما رمزان لمعبودي مدينة «نخب» في الوجه القبلي و«بوتو» في الوجه البحري وقد أصبحا فيما بعد الإلهتين اللتين تعبدان في عاصمتي الوجه القبلي والبحري «نخبت ووازيت»، ف «نسر» الجنوب و«صل» الشمال هما السيدتان «نبتي» أي التاجان الأبيض والأحمر.



لقب الصل والعقاب.

(٣) ويأتي بعد ذلك لقب للملك يمثل بنبات ونحلة ويسميان «نيسوت-بيتي»، أي صاحب النبات «سوت» (نوع من السقي ربما كان البوص)، وصاحب النحلة، ويدل ذلك على ملك الوجه القبلي وملك الوجه البحري، وهذا اللقب كان يطلق فيما بعد على الملك في اليوم الذي يتوج فيه على مصر بصفته الاسم الرسمي. ونشاهد أن ملوك «طينة» كانوا ينعتون باسم حور فقط وفي أحوال نادرة باسم «بيتي» أو باسم «نيسوت-بيتي». ويلاحظ أن الخرطوش الذي كان يكتب في داخله اسم نيسوت بيتي كان في بادئ الأمر مستديرًا، غير أن هذه الدائرة التي ظهرت منذ الأسرة الأولى، كان لا بُدَّ من تغييرها إلى شكل أسطواني يكبر طوله كلما كثر عدد الإشارات التي يتكون منها اسم الملك في داخلها. وقد أخذ هذا الخرطوش شكله الذي نراه عليه في عهد الملك «سنفرو» هكذا:



لقب النحلة والنبات.



خرطوش فارغ.

(٤) وكذلك في عهد الملك «سنفرو» ظهر لقب جديد للملك، وهو لقب «حور القاهر» (حور-نب)، وذلك إشارة إلى أن حور تغلب شجاره المعروف على عدوه «ست» الذي كان يقطن بلدة أمبوس، وهي بلدة البلاص الحالية، وقد وضع هذا اللقب بين الأسماء الرسمية الملكية في المنزلة الثالثة، وبذلك جعل لقب «نيسوت بيتي» في المنزلة الرابعة.

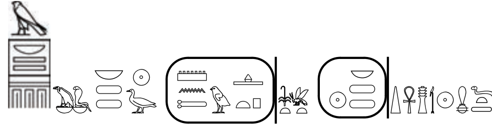


اللقب «حور-نب».

(٥) وأخيرًا في عهد حكم الملك «منكاورع» أي في أواخر الأسرة الرابعة. قد تمت الألقاب الملكية الرسمية، وبقيت كذلك إلى أواخر عهد الحكم الروماني، وذلك بعد أن أضيف لقب خامس «ابن الشمس» وكان يوضع في خرطوش مثل لقب «نيسوت بيتي» وهذا اللقب كان يحمله الملك منذ ولادته، وكان يلقب به وهو أمير كما كان يلقب به وهو ملك.



لقب ابن الشمس.



اسم الملك «منتوحتب» مكتوبًا بجميع ألقابه الخمسة.

الفصل التاسع

مقاطعات القطر المصري منذ أقدم العهود

في عصور ما قبل التاريخ لم تدلنا الآثار دلالةً واضحةً على أن القطر المصري كان مقسمًا إلى قبائل متميز بعضها عن بعض، ولكنا نشاهد من ناحية أخرى عند انبثاق فجر التاريخ وظهور الكتابة ما يدل على أن القطر المصري كان مقسمًا إلى مقاطعات معلمة، وبقيت على حالتها الأولى، لم يدخل عليها تغيير جوهري منذ بدء نشأتها، اللهم إلا من العصور المتأخرة والعهد الإغريقي الروماني فقد حدثت تغييرات محسوسة.

وكان المصريون يسمون المقاطعة في لغتهم «سبات»، وهذه اللفظة مشتقة من فعل «سب» أي يقسم، وهذا الاسم المصري يقابله لفظة «نوم» التي أطلقها اليونان على المقاطعة، ومن ذلك يتضح أن كلمة مقاطعة معناها في الأصل «قسم»، وهو في الواقع إقليم من الأرض مستطيل الشكل، ويعبر عنه في اللغة المصرية بشكل مستطيل مقسم بخطوط متقاطعة تكون زوايا مستقيمة هكذا ▦.

ومما يدهش في التاريخ المصري أننا نرى نظام القبائل غير موجود عند انبثاق فجر التاريخ في الوقت الذي يسود فيه نظام المقاطعات في البلاد، وهنا يجب أن نميز بين القبيلة والمقاطعة، فالقبيلة مجموعة من الناس تربطهم صلة القرابة وتمجيد الجد الأصلي، ثم السيد والرمز الديني، وأفراد القبيلة قد يكونون من البدو الرحل أو من أهل الحضر، وليس من الضروري أن يكون ساكن الإقليم منتسبًا إلى قبيلة ما في نفس هذا الإقليم. أما المقاطعة فعلى العكس من ذلك مساحة معينة محدودة من الأرض، وليست مجموعة من السكان، وكثيرًا ما يكون سكانها خليطًا من الناس، ومنذ ظهر تقسيم البلاد المصرية إلى مقاطعات لم نجد فيها أثرًا ظاهرًا لنظام القبائل الذي كان بطبيعة الحال سائدًا أنحاء القطر، ومنذ بداية التاريخ نجد أن كل طائفة من السكان كانت تجتمع على رقعة من البلاد لتستثمرها، فكان لزامًا أن يقسم الوادي إلى مناطق استغلال

آلت فيما بعد إلى نظام المقاطعات، وقد أصبحت المقاطعة — أو بعبارة أخرى المكان المعين الذي يستغل — مقدمة عند السكان على أي اعتبار آخر من عصبية أو نسب أو غير ذلك، ولا شك أن السبب في تلاشي نظام القبائل في البلاد يرجع إلى النزاع الذي كان قائمًا بين الوجهين القبلي والبحري، وهو الذي نشأت من أجله حروب طاحنة اشتعلت نارها مئات السنين وانتهت أخيرًا بتوحيد القطرين تحت سلطان ملك واحد، وكان في ذلك القضاء المبرم على نظام القبائل وتلاشيها، وإن كان بعض آثارها الطفيفة لا يزال باقيًا على نحو ما في المقاطعات كما سنفسر ذلك في حينه، وتحتوى كل مقاطعة على إقليم من الأرض له حاضرته، ولم تكن الحواضر وقتئذ تمتاز عن البوادي، فلا تخرج عن كونها مكانًا مخصبًا يسكنه الفلاحون والرعاة والصيادون الذين يعيشون على ما تخرجه الأرض، ويقضون سحابة يومهم في الحقول، ثم يعودون كل مساء إلى منازلهم، كما يسكنها الصناع والتجار وأصحاب الحرف ورجال الإدارة والموظفون والحكام على اختلاف أنواعهم.

وكانت المدينة «نوت» في عرفهم في ذلك الوقت تتألف من مبان تقام عند ملتقى الطرق، كما تشير إلى ذلك العلامة التي يرمز بها للمدينة في لغة القوم، وتحوَّط بسياج مستدير وتتألف من عدة أكواخ من الطين واللَّبِن، يأوي إليها الحراثون والرعاة والمسافرون في المساء خوفًا من مباغتات أهل البادية الرحل الذين احترفوا هذا العمل واتخذوه مهنتهم طول حياتهم، وكانت تقام في المدينة مخازن عظيمة الحجم للغلال، وأخرى تحفظ فيها الآلات الزراعية وحظائر للماشية، ومصانع لأصحاب الحرف والصناعات، وكذلك كانت تبنى فيها حوانيت للتجارة حول ميدان عام لتكون بمثابة سوق يعرض فيه التجار ما لديهم من السلع والمحاصيل والمأكولات التي تنتجها الأرض.

وفي المدينة يشيد مبنى عظيم شامخ الجدران يشرف على ما حوله، ذلك هو قصر الإله «حت نتر» وهو ما يسمى بالمعبد، وكان يقام خاصة لآلهة المقاطعة، ويشمل داخله الرحب المخازن المقدسة ومساكن رجال الدين، وهناك قصر آخر فسيح الأرجاء شامخ البناء بالنسبة لما حوله من بيوت عامة الشعب، أقيم خاصة للفرعون أو لحاكم المقاطعة وذلك حسب العصور التاريخية. يضاف إلى هذا دور حكومة الفرعون، أو حاكم المقاطعة الذي نصب للفصل في أمور الناس ولمراقبة الضرائب وشئون الزراعة، ومخازن الحكومة وخزانتها، والسجون وغير ذلك، فكانت تقام في جهات مختلفة في المدينة حسبما تقضي به الحال.

وكان الفرعون أو الحاكم عندما يريد تأسيس مدينة جديدة يفصلها عن جارتها، ويضع لكلٍّ حدودها بإقامة لوحة ثابتة كالسماء، كما يعبر عن ذلك المصري نفسه، وكذلك يحدد مياه كل حسبما جاء في كلامهم، ويقسم المياه والحقول والغابات والرمال حتى حدود الصحراء، وكلما ازداد عدد السكان في هذا الإقليم وامتدت فيه الأراضي الزراعية كلما فكر العمال في إقامة مدن صغيرة ثانوية أو قرى تقام فيها قصور وتنصب عليها حكام يدينون بالطاعة لحاكم المقاطعة، ومن مجموع هذه الأراضي والقرى والبلدان والعاصمة كانت تتألف المقاطعة.

ولم تكن مساحة المقاطعة في الواقع كبيرة؛ إذ كانت تتراوح بين ٣٠ و٤٠ ميلًا في الطول، أما عرضها فكان يتوقف على البقعة التي تقع فيها بالنسبة للوادي وخصبه، فإذا كان ضيقًا فإن المقاطعة تمتد على كل شاطئ النيل من صحراء العرب إلى صحراء لوبيا، أما إذا كان الوادي متسعًا فإن المقاطعة تنحصر في شاطئ واحد ويكون آخر حدودها مجرى النهر نفسه، وكانت لذلك تحد بخط وهمي يمر وسط مجرى النيل.

أما معلوماتنا عن أسماء المقاطعات، فمستقاة من قوائم أسماء المقاطعات التي عثرنا عليها في معابد البطالسة والرمان في مصر، وهذه بلا شك قد نقلت عن أصول قديمة، ومنها نعلم أن البلاد كانت مقسمة إلى مقاطعات محدودة لا تختلف كثيرًا عن القوائم التي عثرنا عليها، ومن هذه القوائم والتفسيرات الملحقة بها يمكننا أن نستخلص معلومات طريفة في بابها عن النظم الإدارية في المقاطعة، وعن الإقليم نفسه، فمن الوجهة الإدارية نعرف أوَّلًا: الاسم الرسمي للمقاطعة، ثانيًا: اسم العاصمة، ثالثًا: اسم الإله الذي يسكن معبد المقاطعة. ثم نقف بعد ذلك على معلومات عن معبدها الرئيسي ولقب الكاهن الأعظم، والكهنة الآخرين، واسم سفينة الإله، واسم الشجرة المقدسة التي كانت تقدس في المدينة، وقائمة بأسماء الأعياد المحلية، واسم كل ما حرم عمله، ثم اسم الثعبان المقدس الخاص بكل مقاطعة.

أما عن طبيعة المقاطعة نفسها، فتتذكر لنا القوائم؛ أوَّلًا: اسم القناة أو الترعة التي تروى المقاطعة، ثانيًا: الإقليم الذي يشتمل على: (أ) المنطقة الزراعية «وو»، وتتألف من حقول وكروم تزرع، وهي أراض تروى، بعضها مرتفع وبعضها منخفض، حسب موقعها من النيل. (ب) الأراضي الواقعة على حدود المقاطعة عند حافة الصحراء، وتشتمل على مناطق للرعي ولصيد البر ولصيد الأسماك، لأنها غالبًا تكون مستنقعات، وهذه التقاسيم الرسمية تمكننا من فهم ما يعني به المصري من لفظة مقاطعة؛ إذ هي

في الواقع منطقة تستغل زراعيًّا من جهة، ومن جهة أخرى تصرف منها الأمور الإدارية حيث كانت السلطة التقليدية في يد إله العاصمة، ويحمل لقب «رب» (نب) المدينة، ويدير شئون حكومة هذا الإله الفرعون أو حاكم المقاطعة حسب الأحوال السياسية في البلاد، والواقع أن السلطة كانت في جوهرها دينية، وكان الإنسان في هذه الحالة يمثل سلطة الإله، وقد يخيل للإنسان أن هذه الفكرة الخاصة بالإدارة كانت وقفًا على العصر المتأخر، ولكن الحقيقة أنها ترجع إلى عهد الفراعنة الأقدمين؛ إذ دلتنا النقوش منذ عهد الأسرة المنفية على أن استثمار الأراضي الزراعية كان بنفس الطريقة التي وجدناها في العصور المتأخرة. وكذلك الآلهة كان يطلق عليها «أرباب» المدن في النقوش العريقة في القدم، وعلى هذا يمكننا أن نقرر أن النظام الزراعي والديني في المقاطعات يرجع عهده إلى الأزمان الموغلة في القدم، وظل ثابتًا في مصر إلى نهاية العصر الروماني.

(١) تقسيم البلاد إلى أربعة أقاليم

والآن بعد أن استعرضنا هذه التعاريف يمكننا الحكم بأن البلاد كانت في بادئ الأمر مؤلفة من قبائل ثم مقاطعات، وانمحت الأولى وبقيت الثانية في العصور التاريخية، وقبل أن نتكلم عن رمز المقاطعات وآلهتها، رأينا أن نستعرض رأي الأستاذ «لوريه» في أصل تقسيم البلاد المصرية إلى أربعة أقاليم معينة، يعتقد أنها هي الأساس الذي تألفت منه البلاد منذ أقدم العهود، والواقع أن نظريته في ظاهرها خلابة، ويظهر في عرضها أنها قد تكون صحيحة في جملتها؛ إذ يرى أنه أتت قبائل وشعوب من بلاد لوبيا، ومن آسيا الصغرى، ومن جنوب مصر، واختلط بعضهم ببعض، وتحاربوا وأخذت الواحدة منهم تحل مكان الأخرى، ثم تحالفوا فيما بينهم، وانتهى الأمر بأن تألفت منهم أربع طوائف عظيمة: «النحلة» و«البوصة» و«الثعبان» و«النسر»، ثم تألفت من النحلة والبوصة مملكة، ومن الثعبان والنسر مملكة أخرى. وفيما بعد وفد على البلاد قوم من آسيا من طريق بلاد العرب والصومال، ونزلوا نحو الشمال وتوغلوا في البلاد حتى الوجه القبلي، وهذا الجنس الجديد ذو المواهب العظيمة، تأصل في البلاد، وكوَّن مملكة ثالثة، مملكة «الصقر»، بعد قرون عدة انقضت في حروب ومحالفات متتالية بين تلك الممالك الثلاثة، تغلبت في النهاية مملكة «الصقر»، ومن ذلك العهد أصبحت تلك الممالك الثلاثة موحدة تحت سلطان صولجان واحد، وقد أصبحت المملكة الفرعونية منظمة تحت سلطان ملك واحد وهو «بر إبسن» آخر ملوك الأسرة الثانية.

وهذه الحقائق مستقاة من دراسات دقيقة للآثار العتيقة، ومن العناصر المختلفة التي تتألف منها ألقاب الفراعنة، التي منها لقب «حور»، و«نبتي» (نسوت بيتي)، ويعتقد الأستاذ «لوريه» أنها شارات رمزية يقصد منها أوَّلًا طوائف القبائل الأولية، وفيما بعد رؤساء هذه الطوائف.

النحلة، وهي حسب رأي لوريه رمز النسب للوجه البحري، وهي الرمز الهام للقبائل الذين يسكنون الدلتا، وهذا هو السبب الذي من أجله قد انتخبت هذه الحشرة لتدل على كل إقليم الوجه البحري.

وبيت النحلة هو المعبد الرئيسي لمدينة «سايس»، ويذكرنا اسمه بالدور الذي لعبته شارة النحلة في عاصمة مملكة الدلتا.

البوصة وهي حسب رأي «لوريه» الشارة التي تدل على طائفة من القبائل تسكن مصر الوسطى، ويقصد بذلك الوادي من بداية بحر يوسف إلى بداية فرعي الدلتا، وعاصمة هذا الإقليم «هراكليوبوليس» (إهناس المدينة)، ويكتب اسمها على حجر «بلرم»، ومعناه أطفال البوصة، يضاف إلى ذلك أن الإله المحلي «حرشف» لقبه الرئيسي ومعناه بوصة الأرضين، وكاهنه الأكبر يسمى البوصة، أما الثعبان الرمزي فهو ليس «وزيت» بلدة «بوتو»، ولا يدل كما هو المشاع على الوجه البحري، بل هو «وزيت» ثعبان المقاطعة العاشرة من الوجه القبلي وعاصمتها «أفروديتو بوليس» وهي اليوم «كوم إشقاو» وأخيرًا النسر «نخبيت»، ويدل على الرمز أولًا، ثم على الإلهة لبلدة «الكاب» الحالية، وعلى ذلك يظهر حسب رأي «لوريه»، أن النسر والثعبان لعبا دورًا بالنسبة لملوك «الكاب» و«أفردويتو بوليس»، كما لعب الصقر «حور» بالنسبة للملوك الحوريين، أو بعبارة أخرى أن شكل رمز القبيلة قد استعمل في الحالات الثلاث ليدل على رئيس القبيلة نفسها، فكما يقرن لقب «نسوت بيتي» (ملك الوجه القبلي والبحري) بلقب «نوبتي» فإنه يستعمل، كما يدل الأخير للدلالة على السيطرة على طائفتين، وهما في الواقع «هبتا نوميا» أي (مصر الوسطى) والدلتا، ويجب أن نلاحظ هنا كذلك في ترتيب الألقاب الملكية. أن الممالك القديمة، كانت مؤلفة من مجموعتين، النسر والثعبان من جهة، والبوصة والنحلة من جهة أخرى؛ أي إنها كانت مرتبة ترتيبًا جغرافيًّا، مبتدئة من الجنوب إلى الشمال، ومن المحتمل جدًّا أن فتح البلاد قد تم على

هذا الترتيب؛ أي إن النسر انتصر على الثعبان، والبوصة انتصرت على النحلة. أما اللقب «حور» الذي يأتي على رأس كل هذه الألقاب، فيدل على أن حور أو بعبارة أدق القبيلة الحورية، قد انتصرت على أعدائها، بأن بدأت من الجنوب حتى الشمال، وهذه هي النظرية التي اتبعت في العهد المتأخر في أسطورة «حور»، على معبد إدفو. على أننا نجد آثار تقسيم البلاد إلى ثلاثة أقسام: النسر، والثعبان، والبوصة، في تقسيم الوجه القبلي إلى ثلاثة أقاليم وهي الإقليم الطيبي الأعلى، ثم الإقليم الطيبي الأسفل، ثم إقليم «هبتا نوميا». وفي الواقع نرى أن الوزير «رخمارع» في عهد «تحتمس الثالث» كان يمتد نفوذه على الوجه القبلي الأعلى. مبتدئًا من الشلال إلى نهاية أسيوط، ولكن ذلك كان مقسمًا إلى قسمين: واحد منها جنوبي قفط، والثاني شمالها.

وفي العهد العربي كانت مصر العليا مقسمة إلى ثلاثة أقاليم، كان الجنوب منها يمتد من أسوان إلى قفط، وبالاختصار كانت مصر العليا منذ الأسر الأولى تنقسم إلى ثلاثة أقاليم طبيعية:

(١) إقليم النسر: ويبتدي من الحدود إلى قفط، وعاصمته «أليتيا» (الكاب الحالية).
(٢) إقليم الثعبان: من قفط إلى أسيوط، وعاصمته «أفروديتو بوليس» (كوم إشقاو).
(٣) إقليم البوصة: من أسيوط إلى بداية تفرع الدلتا، وعاصمته «هراكليو بوليس».

ومن ذلك يتضح أن تسع المقاطعات التي ذكرت في نقوش «ني عنخ بيبي» مدير الرسائل في عهد أحد ملوك الأسرة السادسة، تنطبق تمام الانطباق على قسم البوصة «مصر الوسطى»، وإنه لمن المدهش أن نجد مذكورًا في الأسرة السادسة[١] أحد الأقسام الأربعة، التي كانت تنقسم إليها البلاد منذ القدم، والظاهر أن هذا التقسيم لم ينسه المصريون طوال تاريخهم حتى في عصرنا هذا.

---

[١] Alexandre Varille, Memoire De L'instit. Fraçais Tome LXX (La Tombe de "Ni-Ankh-Pepi" á Zaouyet El Mayetin P. 35–38).

(٢) رموز المقاطعات وآلهتها

وأول قائمة وصلت إلينا بأسماء مقاطعات من العصور القديمة يرجع عهدها إلى الأسرة الثامنة حوالي ٢٤٠٠ق.م وذلك نقلا عن مرسوم ملكي أصدره أحد فراعنة الأسرة الثامنة إلى وزيره، وقد قرر فيه أن يتولى إدارة الاثنتين والعشرين مقاطعة التي كان يتألف منها الوجه القبلي وقد ذكر أسماء هذه المقاطعات حسب ترتيبها الجغرافي الذي نعرفه فيما بعد. يضاف إلى ذلك أننا وجدنا على جدران أهرام الأسرة السادسة، وعلى جدران بعض مقابر العهد المنفي أسماء بعض مقاطعات متفرقة. أما مقاطعات الوجه البحري فليست لدينا قوائم رسمية بأسمائها ولكنا نجد بعض الأسماء مذكورة على الجدران الداخلية لأهرام سقارة أو على جدران مقابر العصر نفسه.

وأقدم المصادر التي استقينا منها أسماء مقاطعات ينسب إلى العهد الطيني، ومن المحتمل أن الوجه القبلي والوجه البحري كانا قد قسما إلى مقاطعات منذ أكثر من ٣٢٠٠ق.م وكان عدد المقاطعات في كل منهما متقاربًا، فكان الوجه القبلي يتألف من اثنتين وعشرين مقاطعة والوجه البحري من عشرين مقاطعة، وفي كل هذه المتون كانت تعرف المقاطعة وتكتب بإشارتها أو رمزها الخاص، وكان هذا الرمز حيوانًا أو شجرة أو شيئًا موضوعًا على حامل مثبت على الإشارة التي تدل على معنى كلمة مقاطعة.

وكان كل من هذه الأشكال الرمزية يطلق اسمه على المقاطعة التي يسيطر عليها. وهذه الرموز كانت في الواقع تدل على آلهة المقاطعات، وقد استمرت حتى انقراض المدنية الفرعونية، وبعض هذه الأشكال استعملت رموزًا مرفوعة فوق القبائل التي كانت قبل التاريخ كأنها أعلام خفاقة. على أن كل هذه الرموز لم تبقَ بعد في أماكنها الأصلية، فمثلًا نجد أن قرص الشمس، والوجه الإنساني، والعقرب، والفيل، وبعض نباتات قد اختفت من المقاطعات التي كانت رمزًا لها، ونجد من جهة أخرى في الوجه القبلي صقرًا يظهر رمزًا لمقاطعة غير مقاطعته ورأس الثور، وهي أصل الصاجات المصنوعة على شكل رأس بقرة موجودة في المقاطعة السابعة، والصاعقة ترمز للمقاطعة التاسعة، والصقر المحلق يرمز للمقاطعة الثامنة عشرة، وقد عثر على بعض فخار العصر «النيوليتي»، قد رسم عليه بعض أشجار ترمز لبعض القبائل فيحتمل مثلًا أن شجرة «البطم» التي على هذا الفخار ترمز للمقاطعة الثالثة عشرة وشجرة النخيل قد تكون رمزًا للمقاطعة العشرين.

أما في الوجه البحري فنجد الصقر يظهر كشارة للمقاطعة الثالثة، والسهمين المثبتين على جلد حيوان في هيئة صليب يرمزان للمقاطعة الرابعة، وقد حفظ الخطاف

في المقاطعة السابعة رمزًا لها، والجبال ذات القمم الثلاثة رمزًا للمقاطعة السادسة، ولا يمكننا تفسير هذه الرموز إلا بأنها شارات ترمز لقبائل جائلة ثم أصبحت فيما بعد رموز المقاطعات عندما استقر بها المقام.

ولا يبعد أن يكون ملوك الأسرة الأولى الطينية قد أحضروا معهم عند غزوهم للقطر بعض قبائل جديدة كل منها تحمل رمزها الخاص بها، فمثلًا الحيوان الدال على الإله «ست» والذئب، والطائر «إبيس»، صقر الشرق، وسبيكة (وهي رمز الشرق)، وقطعة لحم، كل هذه قد أصبحت رموزًا أو آلهة لمقاطعات، ومن ذلك نعلم أن عددًا محددًا من هذه الرموز التي يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ، أو إلى عصر المملكة الطينية قد بقي إلى ما بعد هذه العهود، حينما استقر المقام بالقبائل وأصبحت متوطنة في الحدود الإقليمية والإدارية، ورغم أن الوثائق التاريخية لا تزال تعوزنا من هذه الناحية، فإنه في استطاعتنا أن نصرح بأن نصف مجموع مقاطعات القطر عامة قد اشتقت أشكال رموزها وآلهتها من القبائل القديمة التي كانت تسكن وادي النيل الخصيب، ومن المحتمل أن رموزًا أخرى يرجع أصلها إلى قبائل عاشت في عصر ما قبل التاريخ وبخاصة في الأحوال التي لا يمكن إرجاعها إلى اشتقاق تاريخي.

ومن جهة أخرى توجد آلهة في كل عاصمة من المقاطعات، يرجع عهدها إلى العصور التاريخية، ولكن بعضها لا يظهر إلا في عاصمة مقاطعة واحدة، وبعضها مثل الإله «حور» والإلهة «حتحور» والإله «خنوم» والإله «أوزير» والإله «تحوت» يظهر في عدة عواصم يعبد فيها، والآن نتساءل: ما العلاقة التي تربط آلهة العواصم برموز المقاطعات؟ والإجابة على ذلك تنحصر في أمرين.

الأمر الأول: أننا نجد إله العاصمة يمتزج برمز المقاطعة، أو تكون له علاقة ما به لا تقبل الجدل، فمثلًا في المقاطعة الثانية من الوجه القبلي نلاحظ أن الصقر يحكم الإقليم بصفته الإله «حور»، وفي الوقت نفسه نجد معنى رمز المقاطعة «عرش حور» والإلهة «حتحور» تسيطر على المقاطعة السابعة، ورمزها رأس البقرة، والإله «مين» يقطن المقاطعة التاسعة، وبينما تدل الصاعقة على هذا الإله فإنه يرمز بها في نفس الوقت للمقاطعة.

وفي المقاطعة السابعة عشرة نجد «ابن آوى» يرمز به في آن واحد للإله «أنوب» وللعاصمة أيضًا، وفي الوجه البحري نشاهد أن السهمين المتقاطعين يرمزان للإلهة «نيت» في «سايس» بلدتها، ويستعملان كذلك رمز للمقاطعتين الرابعة والخامسة،

والطائر «إبيس» الإله «تحوت» إله المقاطعة الخامسة عشرة ورمزها في نفس الوقت، ففي كل هذه الأحوال نشاهد أن رمز المقاطعة قد بقي لنا منذ الأزمان التي قبل التاريخ أو العصر الطيني.

وقد حفظ لنا نظام مدن المقاطعات في الأماكن التي سردناها الإله الذي انتخبته الجماعة الأكثر قدمًا، أما رمز القبيلة فبقي رمز إله المدينة، وقد أخذ الرمز في وظيفته الجديدة يظهر في هيئة آدمية، فكان المعبود في العادة يأخذ شكلًا آدميًّا، وهذا المظهر الجديد يمكن رؤيته بشكل مادي على بعض الآثار الطينية، فنشاهد الحيوان الذي يمثل الإله «ست» والذي منح اسم «عش» وقد تحول إلى رجل برأس حيوان يشبه الكلب السلوقي (؟) ونرى الحية «وزيت» قد صارت صلا برأس إنسان، وفي ذلك ما يشير إلى أصل هذه الأشكال غير الطبيعية التي تمثل لنا الإله في شكل إنساني مستخلص من الحيوان القديم الذي كان يعد رمزًا للمقاطعة. ولكن هذا الحيوان يكوِّن جزءًا من الإله؛ أي إن هذا الإله يُمَثَّل: إما بجسم إنسان ورأس حيوان أو بالعكس، وقد بقيت أشكال هذه الآلهة تمثل بهذا الوضع حتى انقرضت الديانة المصرية القديمة من البلاد جملة.[٢] فمثلا نجد «الصقر» مع أنه يمثل وحده الإله «حور» للمقاطعة الثانية، فإنه غالبًا يمثل على شكل إنسان برأس صقر.

ولكنه في رمز المقاطعة بقي صقرًا فحسب، وكذلك الطائر «إبيس» تحوت إله المقاطعة الخامسة عشرة فإنه يرسم على شكل إنسان برأس الطائر «إبيس»، وعندما يراد به رمز المقاطعة لا يرسم إلا «إبيس» فقط، ونجد في المقاطعة الخامسة الإلهة «نيت»، وترسم على شكل امرأة إلهية قابضة في يدها على سهمين في هيئة الصليب، وهما الرمز القديم للمقاطعة، والأولى أن نفرض أن هذه الحيوانات وهذه الأشياء قد فقدت مدلولاتها الأصلية في أعين عامة الشعب، ولذلك نرى من الصعب جدًّا أن يتصور دهماء الناس أن الصقر أو الطائر «إبيس»، الذي يرمز به لهذه المقاطعة أو تلك هو جد القبيلة، أو سيدها، أو رمزها، ولكنهم في الوقت عينه لا يمكنهم أن يعتبروه رمزًا معنويًّا، بل يعدونه الصورة الحية على الأرض للإله أي الحيوان الذي تقمص فيه الإله كذا، وكذلك السهمان المتقاطعان فإنهما يمثلان معبودًا، أو صورة

[٢] لا نزاع في أن تمثيل الإله بهذا الشكل من اختراع الكهنة حتى يسهل على الإله أن يتسلم من الملك القرابين أو يسلم عليه؛ أي إن هذا الشكل للإله قد اخترع للتقريب بين الإنسان ومعبوده بطريقة عملية.

ظاهرة تتقمص فيها الإلهة أو شكل آخر مادي، ومنذ عهد الأسرة الثانية الطينية حوالي (٣٢٠٠–٣٠٠٠ق.م) نرى الأشكال الإلهية المركبة «رأس حيوان وجسم إنسان أو بالعكس» تفسر لنا بجلاء ووضوح انتقال الرمز إلى إله يعبد، ولا يبعد أن يكون هذا التحول نتيجة تغير القبيلة إلى مقاطعة، وكذلك للسبب الذي ذكرناه آنفًا.

الأمر الثاني: نشاهد إله العاصمة متميزًا عن رمز المقاطعة.

وقد ذكرنا فيما سلف أن بعض الرموز سواء أكانت من عصر ما قبل التاريخ أم من العهد الطيني، لا توجد في المقاطعات، ومن جهة أخرى نرى هنا متناقضات صارخة، فمثلًا في الوجه القبلي نشاهد أن الصقرين (رمز المقاطعة الخامسة) هما للإله «مين» الذي لا يمثل بطائر، بل يمثل بإنسان ويرمز له برسم صاعقة، وكذلك المقاطعة السادسة ويرمز لها بالتمساح فإنها مقاطعة الإلهة «حتحور» (البقرة) ثم المقاطعة الخامسة عشرة ويرمز لها بالأرنب البري مع أنها مقاطعة «إبيس» الإله «تحوت»، وكذلك نلاحظ أن المقاطعتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة يرمز لها بشجرة «البطم» على أن إله أولاهما هو الذئب «وبوات» وإلهة الثانية البقرة «حتحور»، أما المقاطعتان العشرون والحادية والعشرون، فيرمز لكل منهما بالنخلة مع أن إله الأولى الكبش «حرشف» وإله الثانية الإله «حور» والكبش «خنوم»، وظاهر جدًّا من كل هذه الأمثلة أنه ليس هناك ارتباط بين رمز المقاطعة وإلهها وبمعنى أوضح (الرمز لا يدل على الشكل الظاهر للمعبود)، يضاف إلى ذلك أن كلًّا من الرمز والإله يكتب بشكل مخالف للآخر، وهذا التضارب الصارخ نجده بين رموز المقاطعات وبين الإلهة في الوجه البحري أيضًا، وعلى هذه الحال نشاهد فيما يقرب من نصف مقاطعات القطر إلهين في مقاطعة واحدة أقدمهما يحتمل أن يكون الرمز القديم المحلي وقد فقد مكانته، ولكنه رغم ذلك بقي رمزًا للمقاطعة تقديرًا له واحترامًا لمكانته، وأصبح يقدس كأنه حيوان إلهي أو صنم، وقد استمر تقديسه من قبيل التقليد والتمسك بأهداب القديم. أما الإله الجديد الذي كان رب العاصمة وسيدها، فإنه يظهر على شكل حيوان أو صنم على شكله البشري، وهذان الصنفان من الآلهة يعيشان على وئام جنبًا لجنب رغم أن كلًّا منهما بقي منعزلًا عن صاحبه ومميزًا عنه تمام التمييز، ومتون الأهرام تفصل بجلاء بين كل آلهة المقاطعات وكل آلهة المدن.

والواقع أنه عندما يختلف إله المقاطعة عن إله العاصمة فإن ذلك في غالب الأحيان يكون نتيجة تخلي جد أو إله مهزوم عن سيادة الإقليم الفعلية لخلف له، أو أن الإله

الجديد جاء إثر حدوث انقلاب اجتماعي أو سياسي، فحل محل إله العاصمة، ولكن ذلك في الوقت نفسه لم يقض على عبادة الأخير جملة.

وهذه السيادة التي يتمتع بها إله العاصمة على المقاطعة قد توطدت باسم العاصمة، وتفسير ذلك أن كل مدينة عظيمة كان لها اسم متداول لم يكن مدلوله محدودًا بشكل قاطع على الأقل لنا، والأمثلة على ذلك لا تعوزنا، مثال ذلك: «طينة»، و«زبتي»، وساشحتب (شطب الحالية) وأسيوط … إلخ، وإن كان بعض العلماء قد وضع لها تفسيرًا على وجه التقريب، وهذه الأسماء قد حلت محلها سلسلة أسماء مقدسة، وذلك بعد أن استقر في كل مدينة آلهة تاريخية. فكانت العاصمة تُسمى: البيت «بر» أو القصر «حت» أو المدينة «نوت» أو الهيكل «زبات» أو المحراب «سخم» أو العمود «إيون» أو الصولجان «واست» للإله كذا، وبخاصة نجد أن اسم المعبد الكبير للمدينة يتغلب ويطلق على المدينة كلها فيصبح علمًا عليها. على أن العواصم في القطر تنعت بـ «بيت» الإله كذا، مثال ذلك: «بوزريس» معناها «بيت أوزير» (أبو صير الحالية) وبوباسطة (تل بسطة الحالي) معناها بيت الإلهة «باست» القطة … إلخ، وهذه الأسماء المقدسة أخذت تطغى شيئًا فشيئًا على الأسماء الأخرى، وكذلك أسماء المقاطعات، ولذلك نرى في عصور مختلفة أن القوم يسمون المقاطعة كلها باسم عاصمتها؛ أي باسم المعبد، وهذه الطريقة أصبحت شائعة الاستعمال بعد احتلال الإغريق لمصر، ولا يبعد أن يكون القوم الفاتحون من الإغريق قد اتخذوا هذه الطريقة نقلًا عمن قبلهم من المصريين؛ أي إن هذه الطريقة كانت قد أدخلت في التقاليد الإدارية فتطلق على الأقاليم أسماء الحواضر بصفتها ممتلكات للآلهة المصرية، وقد بحث الإغريق عما يقابل لهذه الأسماء في علم الخرافات الإغريقية، وأطلقوها على أسماء المقاطعات، فمثلًا المقاطعة الثانية للإله «حور» أطلق عليها صاحبة مدينة «أبولون» (الأبولونيتي)، وكذلك سميت المقاطعات «ديوسبوليت»، و«أفرديتوبوليت»، و«هرموبوليت» نسبة إلى مدينة الإله «زيوس» (آمون طيبة) والإلهة «أفرديتي» (حتحور دندرة) و«هرمس» (تحوت في الأشمونين)، وهكذا كان آخر حد في الطغيان الدنيوي لآلهة المدن على معبودات المقاطعات.

وتوجد مدن قد نشأت على أرض بكر، خلفها تقهقر النيل، ولم تكن قد استعمرت بقبيلة قديمة، أو لم يقطنها «أتباع» الإله، فمثلًا نجد عند بداية الدلتا أرضًا كانت مغمورة في الأزمان السالفة بمياه النيل، ولكن استردت من النهر بإقامة سد ضخم، فعلى هذه

البقعة يقال إن «مينا» أسس المدينة المسماة «الجدار الأبيض» (أنب-حز)، وهي التي أصبحت فيما بعد «منف» أو «من-نفر» قد أطلق على الإقليم المجاور اسم المدينة ودوِّن مثل «الجدار الأبيض» على رأس مقاطعات الوجه البحري.

على أن الإله «فتاح» الذي كان يسيطر على مقربة من هذه المدينة لم يطلق اسمه لا على المدينة ولا على المقاطعة، بل على العكس عندما انضم هذا الإله إلى منف، وصار يعبد فيها أصبح يوصف هكذا «فتاح في جنوب جداره»؛ أي الإله «فتاح» الذي يوجد معبده خارج جدران المدينة «منف».

والظاهر أن الحال كانت كذلك بالنسبة للمقاطعة الرابعة في الوجه القبلي، وذلك أن مدينة «الصولجان»، «واست»، (وهي طيبة فيما بعد) قد أطلقت اسمها على مقاطعتها ثم إلهها «منتو» (إله الحرب) على مدينة مجاورة وهي «هرمنتس» (بيت الإله منتو) أرمنت الحالية.

وفي أحوال أخرى تكون المقاطعة قد وجدت لأسباب إدارية، ولكن كان من الواجب على الإنسان في هذه الحالة أن يحسب حساب التقاليد الدينية التي كانت مرعية في البلاد منذ الأجيال المتعاقبة: فمثلًا تدل الظواهر على أن المقاطعة الأولى من مقاطعات الوجه القبلي لم تكن في حيز الوجود قبل الأسرات المنفية، فلما أنشئت هذه المقاطعة لأسباب إدارية محضة أطلق عليها اسم «تاستت» أي أرض الإلهة «ستت»، وذلك على الرغم من أن مركز هذه الإلهة الأصلي كان في جزيرة «سهيل» الواقعة في جنوب المقاطعة، والخلاصة أنه كان لا بُدَّ من نسبة المقاطعة الجديدة إلى معبود ما بأي شكل كان محافظة على التقاليد. أما عاصمة هذه المقاطعة فكانت في «آبو» أي مدينة الفيل (الفنتين الإغريق)، وربما قد حفظ في ثنايا هذا الاسم ذكري قبيلة يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ، وهي التي نعرف رمزها الحيوان «الفيل»، أما الإله الذي أدخل في «آبو» فكان الكبش «خنوم» الذي اتخذ «ساتيت» في جزيرة سهيل إلهة خليلة، وهذا الترتيب الذي نشاهده في المقاطعة الأولى نفهم من تغييراته ثلاثة عناصر مميزة، ويحتمل أن تكون ثلاث مراحل في تكوين المقاطعة وتاريخها كما ذكرنا.

الفصل العاشر

آلهة المقاطعات

تكلمنا في الفصل السابق عن أصل منشأ المقاطعات وكيفية تدرجها ورقيها من الوجهة الإدارية، وكذلك تكلمنا عن أصل العبادات فيها وتقلباتها في كل مقاطعة. والآن سنتحدث عن آلهة هذه المقاطعات وعن الأسباب التي أدت إلى تقديس هذه المعبودات على اختلاف أنواعها بقدر ما تسمح به الأحوال.

وسنبدأ بآلهة الوجه البحري متتبعين مواقع نفوذ كل إله أو إلهة حسب طبيعة الإقليم الذي نشأت فيه تلك العبادات، والحقيقة التي لا مراء فيها أن الفكرة الدينية الأساسية كانت واحدة في كل أنحاء القطر، ولكن الخلاف في كيفية عبادة كل إله في كل مقاطعة، ولذلك لا نكون مغالين إذا قلنا إنه يوجد في مصر على وجه عام ديانات بقدر عدد المقاطعات.

ويجب أن نقرر هنا في بادئ الأمر أنه يكاد يكون من ضروب المستحيل أن يكون اعترافنا بتقسيم الوجه القبلي إلى ٢٢ مقاطعة والوجه البحري إلى ٢٠ مقاطعة، كما وصل إلينا من القوائم القديمة المختلفة، دالًّا على أنه كان في مصر في تلك العصور ٤٢ حكومة مستقلة، بل الواقع أن كثيرًا من هذه المقاطعات قد نشأ لأسباب إدارية، هذا إلى أن حدود هذه المقاطعات كانت تتغير حسب العصور، ولا يمكننا الآن أن نبحث في أصل كل مقاطعة وكيفية نشأتها، والوثائق لا تعوزنا لهذه البحوث في الوجه القبلي، ولكنها قليلة هزيلة وغامضة أحيانًا بالنسبة للوجه البحري، ولذلك سنقتصر في بحثنا في ديانة مقاطعات الوجه البحري على ما تسمح به الوثائق التي بين أيدينا.

وأهم المعبودات التي ذاعت عبادتها في غربي الدلتا الإلهة «نيت» إذ كانت تقدس في المقاطعتين الرابعة والخامسة، وكان مقر عبادتها بلدة «سايس» (صا الحجر الحالية)، وهي عاصمة المقاطعة الخامسة، وقد انتشرت عبادة «نيت» في كل البلاد المصرية منذ



الإلهة «نيت» سيدة «سايس».

بداية الأسرة الأولى، وكانت الإلهات في ذلك الوقت لهن الحق في وراثة الملك كما كان للمرأة في الشرائع الدنيوية، وقد جاء في النصوص القديمة عن هذه الإلهة ما يأتي:

«نيت» الأم العظيمة للإله «رع» وقد ولدت في الأول، في الوقت الذي لم يكن قد ولد فيه أحد، وقد أصبحت فيما بعد على رأس الثالوث الذي كان يتألف من «أوزير» الزوج في «منديس» (تل الربع)، ومن ابنيهما «أرى-حس-نفر» الذي كان يمثل على شكل أسد وديع.

وقد قامت بأدوار أخرى سنتكلم عنها في حينها، وفي شمال هاتين المقاطعتين توجد مقاطعة الخطاف[١] الغربية «المقاطعة السادسة»[٢] وتشمل بحيرة البرلس، وسكانها يمتهنون صيد الأسماك وعاصمتها بوتو «بر-وزيت» (إبطو الحالية)، وموقعها الحالي تل الفراعين، حيث كانت تعبد إلهة تتقمص ثعبانًا سامًّا يطلق عليه اسم «وزيت»، وفي الجهة الغربية نجد المقاطعة السادسة عشرة وعاصمتها بلدة «منديس» (تل الربع)، وكانت تسمى بالمصرية «بر-با-نب-زد». أي بيت روح سيد «زد»، وهي مقر عبادة إله على شكل تيس يعبد باسم «خنوم» (غنم) ثم جاء في العصور المصرية فيما بعد أن الإله «أوزير» كان يتقمص هذا التيس، ومن ثم أصبح يطلق عليه روح سيد «زد»، وكذلك يقال إن مومياه كانت مدفونة في هذه البلدة، ومما يلاحظ أن هذا الإله لم يصور قط على شكل آدمي، بل بجسم بشري ورأس تيس، وربما كان ذلك دليلًا على أن عُبَّادَه لم يمكنهم أن يتخلصوا من الفكرة الأولى التي عبدوا بمقتضاها هذا الإله، ومما هو جدير بالملاحظة في هذه المقاطعة أنه كان يرمز لها باسم إلهة على شكل سمكة الدرفيل «حات-محيت»، وتقديس هذه السمكة في تلك الجهة دليل على أنها كانت تدرج في النيل إلى هذه النقطة؛ أي إن الماء الملح الذي تعيش فيه هذه السمكة كان يصل إلى هذه الجهة، وتوجد في دمياط إلى يومنا هذا، وجنوب هذه المقاطعة نجد بلدة «زدو» (أبو صير)، وهي عاصمة المقاطعة التاسعة، وهي مسقط رأس إله النباتات العظيم «أوزير» الذي حل محل إله قديم يدعى «عنزتى»، كما تنبئنا متون الأهرام، والإله «أوزير» هذا هو بكر

---

[١] وهناك «بوتو» أخرى «في الجهة الشرقية» من الدلتا موقعها الحالي «تل نبيشة» القريبة من القنطرة وجنوبي تانيس «وهي عاصمة مقاطعة الخطاف الشرقية التاسعة عشرة»، حسب رأي الأستاذ «زيته»، على أن هناك بعض المؤرخين يجعل مقاطعة الخطاف الشرقية هي هرونبوليس وعاصمتها بتوم «تل المسخوطة الحالي» ومقاطعة الخطاف الغربية هي ميتليس، ولكن يرجح رأي الأستاذ «زيته»، وقد دلت الكشوف الحديثة على أن مقاطعة هرونبوليس لا بُدَّ أن يكون موقعها بجوار منطقة أبو الهول الحالية؛ إذ كان يعبد فيها الإله «حورون» الذي كان يمثل أبا الهول في عهد الدولة الحديثة وهو إله فلسطيني على شكل صقر، وقد اختلط بأبي الهول لأنه كان يمثل في عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها بالإله «حور أختي» أو «حر مخيس» وهو الاسم الذي عرف به أبو الهول وتوارثه القوم حتى العصر الإغريقي في مصر، وقد عثر على اسم مدينة «حورن» في منطقة أبي الهول.

[٢] ويغلب على الظن أن مقاطعتي الخطاب الشرقية والغربية قد سميتا بهذا الاسم، لأنهما في مواقع يكثر فيها صيد الأسماك، الأولى بجوار بحيرة المنزلة والثانية بجوار بحيرة البرلس.

إله الأرض «جب»، ويسكن في أعماق الخصب، فيخرج الزرع والأشجار وكل الثمرات المختلفة الألوان، وهذا هو المظهر الذي تتمثل به روحه على سطح الأرض. أما الرمز الذي تتقمصه روحه في هذه البلدة فهو جذع شجرة قد شذبت فروعه، فأصبح على هيئة وتد [انظر «ددو» رمز الإله «أوزير» بملابس الاحتفال الديني]، ويرى علماء اللاهوت في هذا الرمز أنه يمثل العمود الفقري لهذا الإله، ومن أجل ذلك كان رجال الدين يحتفلون سنويًّا بعيد عظيم لإقامة هذا الرمز وجعله منتصبًا في المعبد، إذ يرون في ذلك ضمانًا للثبات الأبدي للعالم.



«ددو» رمز الإله «أوزير» بملابس الاحتفال الديني.

ولهذا السبب يرمز هذا الرسم في المتون والتعاويذ التي تعمل على شكله إلى معنى الثبات، وعندما كان يفيض ماء النهر ويطفو على الأراضي ويغطيها، كان ذلك يسبب غرق الإله الذي يسكن الأعماق، ولكن زوجتيه الإلهة «إزيس» والإلهة «نفتيس» كانتا تخلصان جثته من الغرق كما تقول الأساطير، وبذلك ينتعش «أوزير» ويحيا حياة جديدة بمفعول السحر من جهة، ولأن والده إله الأرض «جب»، قد أمر بذلك من جهة أخرى، ومنذ ذلك العهد كان «أوزير» عاملًا فعالًا في نمو النباتات وجعلها مثمرة يانعة



دد رمز الثبات.

وهو مع ذلك في أعماق قبره، ولذلك يعتبر إله النيل كما جاء في متون الأهرام، وهذه الأطوار في حياة «أوزير» كانت تمثل في احتفال ديني عظيم يفرد لهذا الغرض، فيحتفل فيه بذكرى وفاته وعودته للحياة ثانية، وكان يقام في بلدة «العرابة» المدفونة حيث يقال إن رأسه كان مدفونًا هناك.

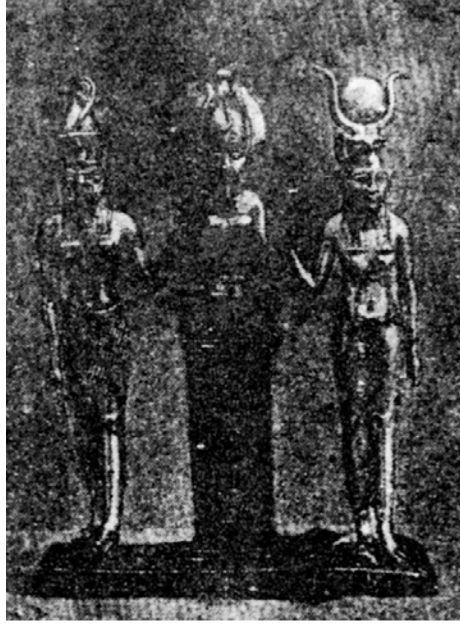
وقد جاء في الأساطير أن «أوزير» حكم في سالف الزمان على الأرض، ونشر في أرجائها أعماله الطيبة، ولكن أخاه «ست» الشرير اغتال حياته خلسة في مؤامرة دبرها له هو وأتباعه، ومنذ ذلك العهد أصبح مقره الأبدي القبر بعد أن جمعت أختاه «إزيس» و«نفتيس» أشلاءه من الأمكنة التي وجدت فيها، ورغم ذلك فإن هذا الإله الميت، أو كما يعبر عن ذلك المصريون «الذي لا يدق قلبه» يمكن أن يعود إلى الحياة ثانية ويمنح قوة التناسل بمفعول السحر، وقد نتج عن عودته للحياة ثانية أن ولدت له إلهة السماء «إزيس» ابنة «حور»، ولكن أمه قد هربت به خوفًا من اضطهاد عمه وشروره فذهبت إلى المناقع التي في غرب الدلتا بالقرب من «بوتو». ولما اكتملت رجولة «حور» انتقم لوالده وفتح ثانية مملكته.

وذلك بفضل مساعدة جده «جب» إله الأرض الذي نصبه وارثًا على ملك والده، ولقد كان من نتائج هذا أن أصبح «حور» يعبد في بلدة «بوتو» التي كانت تعد مسقط رأسه، وكذلك انتشرت عبادته في مواطن أخرى كثيرة في الدلتا، فكان يعبد في «بوتو» بصفته



الإلهة «نفتيس».

حور الطفل «حوربوخراد» وفي جنوبي تشعب النيل في بلدة «ليتوبوليس» المقاطعة الثانية «أوسيم» كان يعبد بصفته كهلًا «حور الكبير»، وكان يعد في هذه الجهة كأنه أخ للإله «أوزير» وللإله «ست»، وفي المقاطعة العشرين «الغرب» عند الحدود الشرقية في منطقة فاقوس (صفت الحنا) امتزج الإله «حور» في العصور المتأخرة بالإله المحلي «سبد» سيد الشعوب الأجنبية الشرقية وحاميها، وأصبح يعبد هناك على هيئة صقر جاثم على سرير، وهناك آلهة أخرى كثيرة غير من ذكرنا يرجع منشؤها إلى بلاد الدلتا، وقد لعبت دورًا هامًّا في تاريخ ديانة القوم فمنها الإله «تحوت» «هرمس»، وكان مقر عبادته بلدة «هرموبوليس» (بحدت) عاصمة المقاطعة الثالثة، وهي (دمنهور الحالية) ويرى الأستاذ «إدوردمير» أن هناك مقاطعتين باسم «هرموبوليس» واحدة منها في الشمال الغربي والثانية في الشمال الشرقي من الدلتا.



الثالوث حوريس وأوزير وإزيس.

ويعتبر الأستاذ «زيته» أن الأولى هي المقاطعة الخامسة عشرة، أما الثانية فهي المقاطعة الثالثة ومقرها «بحدت» (دمنهور الحالية). على أن هناك بعض العلماء يظن أن مقاطعة العجل «أبيس» هي المقاطعة الثالثة ويجعل عاصمتها «أمو» أو «بر-نب-أمو» (بيت سيد الأمو) وهذه المقاطعة على الحدود اللوبية[٣] وهي أقدم من «هرموبوليس» التي في الصعيد (الأشمونين)، وكذلك الإله «سبك» (التمساح) الذي كان يعبد في مناقع غربي الدلتا في بلدة «سايس»، وكان يطلق عليه ابن الإلهة «نيت» كما ورد في متون أهرام الملك «وناس» آخر ملوك الأسرة الخامسة، وقد بقي اسم هذا الإله محفوظًا إلى الآن في أسماء بعض القرى المصرية في الدلتا إلى يومنا هذا، مثال ذلك: «سبك الأحد» و«سبك الثلاث»،

[٣] انظر Pirenne, p. 40.



الإله «حور» بن «إزيس».

وكان الاعتقاد السائد في هذه الجهات أن هذا الإله يساعد على نمو النبات على كلتا ضفتي النيل، ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن التمساح يُرى ملقى على شاطئ النهر وينسب إليه خصب الشاطئين. يضاف إلى ذلك أنه باعتباره ابن الإلهة «نيت» التي كانت تعد إلهة مائية أيضًا، كان يضحك عندما يحل ماء الفيضان، ومن أجل ذلك كان لا حرج في أن تمثل هذه الإلهة وهي تعطي ثدييها إلى تمساحين دفعة واحدة.

ومن الحيوانات التي شاعت عبادتها في الدلتا البقرات والثيران، وهذا أمر طبيعي؛ لأن طبيعة أرض هذا الإقليم وخصبه تستدعي وجود هذه الحيوانات لحاجة الفلاح لها، فكان الثور يعبد في المقاطعة الحادية عشرة وعاصمتها «شدنو» (هربيط الحالية) وكان يطلق عليه اسم «ثور شدنو العظيم»، وقد كشف حديثًا له عن مدافن في جبانة عظيمة موقعها «تل أبو يسن الحالي» وتدل الآثار التي كشفت على أن هذا المكان كان مدفنًا

للعجول والطيور التي كانت تقدس في هذه الجهة، وبخاصة الصقر الذي وجد منه عدد عظيم محنط ومدفون في مكان خاص بعناية زائدة وكثرة عظيمة، وربما كان من آثار عبادة الصقر في هذه الجهة بقاء ذكراه في بلدة «كفر صقر» القريبة من قرية أبو يسن هذه، وتدل مدافن هذا النوع من العجول على أنه كان معتنى به كثيرًا في العصور المتأخرة حوالي الأسرة الثلاثين، والنقوش التي وجدت على توابيت هذه العجول ليس لها مثيل في تاريخ الديانة المصرية وخاصة أنها تكشف لنا عن صفحة جديدة في منازل القمر وأوجهه وعبادته في هذا العصر، أما في المقاطعة العاشرة فكان الثور يعبد فيها قديمًا على ما يظهر باسم الثور الأسود. وقد بقي الثور رمزًا على اسم المقاطعة وعاصمتها «أتريب» (تل أتريب) وهو بنها الحالية.[٤] أما في منطقة منف، فكان يعبد بصفته العجل «حابي» أي «أبيس»، والظاهر أن تقديسه كان قديمًا ولكن عبادته لم تتم إلا فيما بعد.

أما البقرات فكانت تعبد في منطقة «منف» (البدرشين)، وتقمصت روحها شجرة الجميز.

وكانت الجميزة في هذه الجهة تسمى شجرة جميزة الجنوب، وكان يعتقد أنها جسم الإلهة «حتحور» (البقرة) الحي على الأرض، وكانت الإلهة نفسها تسمى سيدة شجرة الجميز الجنوبية، وكثيرًا ما يشاهد على الآثار المصرية رسم شجرة الجميز والإلهة مطلة من بين أغصانها على شكل امرأة، وبيدها أبريق تصب منه الماء للسابلة والأموات في وسط الجبانة، وقد بقي احترام الجميزة باقيًا للآن؛ إذ تزرع بجوار المقابر يستظل بفيئها وتروى ظمأ الأموات كما هو الاعتقاد السائد الآن بين عامة الشعب، ويعد قطعها من الأمور المحرمة، أما في المقاطعة الثانية عشرة وعاصمتها «زبات-نثر» (سمنود الحالية)، ومعناها معبد الإله فكان يعبد فيها الإله «أونوريس» (أنحور) فكان يمثل إله الشمس في شكل إنساني «أوزير» محنطًا، ويقال في الأساطير إنه هو الذي أحضر عين الشمس من بلاد النوبة، وقد حل محل الإله «شو» إله الهواء في أماكن مختلفة، والظاهر أن عبادته كانت حديثة في هذه الجهة.

---

[٤] وكان يعبد فيها الإله «حور» وينعت «حور خنتي-خت»؛ أي حور الذي يشرف على الجسم «الإلهي»، والظاهر أنه كان يعبد في هذه الجهة «ثالوث» يتكون من الثور الأسود بصفته الأب والبقرة السوداء الأم والابن هو «حور خنتي خاتي».



المتوفى وزوجه أمام شجرة الجميز ووسطها الإلهة «نوت» يتقبلان الخبز والماء للحياة الأخرى.

أما أعظم الآلهة المحلية التي كانت تعبد في الدلتا فهو الإله «آتوم» الإله المحلي للمقاطعة الثالثة عشرة ومقرها عين شمس، والواقع أننا لا نعرف شيئًا عن أصل نشأة هذا الإله؛ لأن الكهنة وحدوه مع الإله «رع» ملك الكون، وكان يمثل «آتوم» أو «تم» في شكل حيوان يشبه «فار فرعون» الحالي، لأنه كما جاء في الأساطير كان يبتلع الثعبان الذي يريد أن ينقض على «آتوم» (الشمس عند الغروب) ويبتلعه عند غروب الشمس، والحقيقة أن هذا الحيوان لا يظهر إلا عند الغروب ويسطو على الثعابين، وكذلك كان يمثل على شكل رجل متوج يحمل شارات الملك؛ وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أنه ملك الآلهة — أما عندما كانوا يمثلون «رع» إله الشمس، فكانوا يرون فيه قرص الشمس الأحمر الذي يسبح في السماء في سفينته، وقد كان الخيال المصري أحيانًا يصوره في صورة غريبة، فكان في إحدى الجهات يمثل إله الشمس على هيئة «جعل» تلك الحشرة التي تدحرج أمامها قرص الشمس في أنحاء السماء، كما يدحرج الجعل الأرضي «كور الروث» التي تشتمل على بويضاته، وتلد نفسها بنفسها دون أن تحتاج إلى أنثى، وفي جهة أخرى تمثل الشمس على هيئة عجل من الذهب ولدته إلهة السماء، وفي خلال النهار يكبر ويصبح ثورًا ويسمى «كاموتف»؛ أي ثور أمه، لأنه يلقح البقرة لأجل أن تضع شمسًا جديدة لليوم التالي.



مزارع يقدم القربان إلى شجرة الجميز.

أما إذا مثل الإنسان السماء على هيئة امرأة، فإنها تلد الشمس على هيئة طفل يكبر كذلك خلال النهار ليغيب في السماء، كرجل مسن في عالم الآخرة، وتمثيل الشمس على هيئة رجل مسن كان يعبد بصفته «آتوم» في عين شمس. أما الجعل «خبرى» فكان يعتبر شمس الضحى، وهكذا كان يفرق القوم بين مظاهر الشمس الثلاثة: «خبرى» في الصباح و«رع» وقت الظهيرة و«آتوم» عند الغروب، على أن هذا الترتيب لم يكن متبعًا بصفة قاطعة في كل الجهات.

وعندما نترك الدلتا صاعدين في النيل فأول ما يواجهنا منطقة «منف».

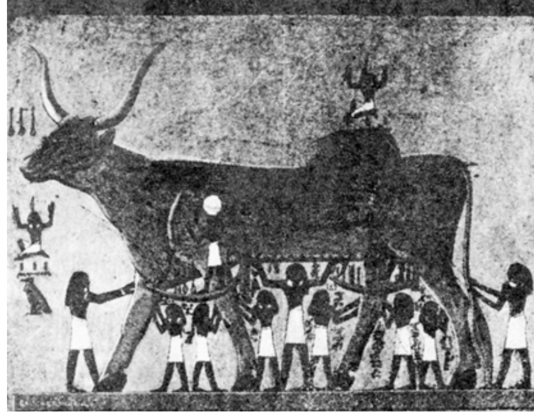
أي في المقاطعة الأولى للوجه البحري، ونجد فيها عدة آلهة تعبد جنبًا لجنب ونخص بالذكر منها: أوَّلًا الإله «سقر» ومنه اشتق اسم بلدة «سقارة»، وهو إله كان يمثل على شكل إنسان يحمل رأس صقر، ويعد إلهًا للموتى؛ وذلك لأن اسم المنطقة أو الجبانة التي كان يسيطر عليها، كانت تعتبر في نظر المصريين الباب الذي يؤدي إلى الآخرة «روستاو». ثانيًا: الإله «تاتننت» ومعناه (الأرض التي ترفع) ويعد مظهرًا من صور الإله «فتاح»، الذي كان يعتبر من أهم معبودات هذه الجهة أيضًا، وكان يمثل على هيئة رجل مزمل في اللفائف، كأنه مومياء برأس صلعاء عارية عن كل لباس، وليس في حالته وشكله ما



مركب الشمس في طريقها إلى الغرب.

يشير إلى وظيفته أو هو في الحقيقة يمثل إله الفن والنحت، وإليه ينسب خلق العالم، وكان ينعت «فتاح» بصاحب الوجه الجميل. ثالثًا: العجل «أبيس» كما ذكرنا كان يعبد في هذه الجهة، ولكن أهميته لم تصبح ذات شأن إلا عندما صارت «منف» عاصمة الدولة، ومن المدهش أن هذا العجل كان يحفظ في معبد الإله فتاح مع أنه ليس هناك أية علاقة تربطهما، اللهم إلا في عهد الدولة الحديثة إذ كان القوم وقتئذ يعتقدون أن روح الإله فتاح قد تقمصته.

وأول ما يواجهنا في طريقنا من مقاطعات الوجه القبلي المقاطعة الثانية والعشرون وعاصمتها «بر-حمت» (بيت البقرة) وموقعها إطفيح الحالية، وقد أطلق عليها اليونان «أفروديتو بوليس» الشمال، وكانت البقرة تعبد في هذه الجهة بصفتها إلهة السماء، وعلى الضفة اليسرى توجد مقاطعة النخيل العليا، وهي المقاطعة العشرون وعاصمتها «هراكليو بوليس» (إهناس المدينة الحالية)، وفيها معبد للإله «حرشف» (الذي على بحيرته) وتتقمص روحه كبشا، وكان عباده يعتقدون فيه أنه إله عالمي، وأن عينيه هما الشمس والقمر، ومن أنفه يخرج الهواء، أما اسمه الذي على بحيرته فتفسيره أن معبده يوجد عند مدخل الفيوم حيث توجد بحيرة. أما المقاطعة الحادية والعشرون، وتسمى



الإلهة «نوت» تمثل السماء برفعها الإله «شو».

مقاطعة «النخيل السفلي» فهي واحة الفيوم نفسها التي سكنها المصريون منذ فجر التاريخ، وعاصمتها «شدت» (الفيوم الحالية)، وكان يعبد فيها الإله «سبك» الذي يمثل على شكل تمساح، وقد أقيم له معبد آخر عظيم في بلدة «أمبوس» (كوم أمبو الحالية)، وفي هذه الجهة كان يحتفل كل عام بفيضان النيل وهو في الواقع إله الماء، وهذا هو السبب الذي من أجله قد مثل في لوحة نائمًا على قضيب من الرمل في مقصورة صغيرة شأن كل الآلهة المقدسة التي يجب أن تحترم في كل مكان على النيل، ولقد بلغ من احترام هذا الإله عند أتباعه أن وصفوه بـ «جميل الوجه»، على أن الدافع الحقيقي لعبادة هذا الإله في الأصل هو الخوف أو الفزع مما عساه أن يحدثه هذا الحيوان الجبار من الضرر بالإنسان، وبعد إقليم الفيوم جنوبًا يواجه الإنسان إقليما عظيمًا يمتد من الوادي إلى سفح الجبل الشرقي المتاخم للنهر، ويشمل ثلاث مقاطعات: الأولى: مقاطعة «سبا» وهي الثامنة عشرة. والثانية: مقاطعة «كينوبوليس» وهي المقاطعة السابعة عشرة. أما المقاطعة الثالثة: فيطلق عليها جبل الثعبان وهي المقاطعة الثانية عشرة، وعاصمتها «هيراكنبوليس» (بلدة الإله حور)، ثم «أنتيوبوليس»، وموقعها «قاو الكبيرة» الحالية، وفي هذه المنطقة تسود عبادة الإله «أنوبيس» وبخاصة في المقاطعة السابعة عشرة، وفي

مقاطعة جبل الثعبان ١٢ كان يعبد الإله «حور» وإلهة على هيئة لبؤة تسمى «ميتيت»، وهي أم الإله «حور»؛ أي إنها هنا تمثل الإلهة «إزيس».



الإله «أنوبيس» يشرف على تحنيط جثة «أوزير».

وكانت عبادة الإله «أنوبيس» الذي يمثل على شكل ابن آوى عظيمة في هذه المنطقة، وذلك لأنه في بادئ الأمر كان يعبد رهبة وخوفًا منه؛ إذ إن هذا الحيوان كان بطبعه يحوم ليلًا على حافة الصحراء بالقرب من الجبانات، فكان القوم يخافون منه على أجسام موتاهم، ولكن الكهنة فيما بعد ألبسوا عبادته ثوبًا آخر، وأصبح يعبد بصفته حامي الموتى والمشرف على تحنيطهم وإعداد جنازهم، ومن المحتمل أنه أخذ هذا المركز في العبادة بسبب الدور الذي لعبه في أسطورة الإله «أوزير» إذ هو الذي قام بتحنيطه وإقامة شعائره الدينية وبخاصة عند تمثيل عيد إحيائه، وبين المقاطعتين السابعة عشرة والثانية عشرة على الضفة اليسرى للنيل المقاطعة السادسة عشرة «مقاطعة المهى» وعاصمتها «حبنو» (زاوية الميتين الحالية)، والمقاطعة الخامسة عشرة ويطلق عليها

اسم «هرموبوليس» وعاصمتها «الأشمونين الحالية»، وكان يعبد في المقاطعة الأولى الإله «حور» قاهر «ست» ولذلك كان يمثل «حور» ممتطيًا ظهر غزال وهو الحيوان الذي كان يتقمصه الإله «ست»، وكذلك كانت تعبد آلهة أخرى في هذه المقاطعة منها الإله «خنوم» وكان يمثل على هيئة كبش، والإلهة «حكت» (الضفدعة) والإلهة «حتحور» والإلهة «باخت»، وكانت تمثل على شكل لبؤة مفترسة. أما المقاطعة الخامسة عشرة فكان يعبد الإله «تحوت» الذي كان يمثل على شكل الطائر «إبيس»، وهو إله العلم والمواقيت ... إلخ، وقبالة المقاطعة الثانية عشرة مقاطعتا «شجرة البطم»[5] وهما الثالثة عشرة «ليكوبوليس» وعاصمتها «أسيوط الحالية»، والرابعة عشرة وعاصمتها «جسا» وهي «قوص الحالية»، وكانت عاصمة المقاطعة الثالثة عشرة موطن عبادة الإله المحارب «وبوات» ويتقمص حيوانًا أصبح من المحقق أنه الذئب. ومعنى «وبوات» فاتح الطريق، وهذا الإله يعبد كذلك في «العرابة» المدفونة في مقاطعة «طينة» الثامنة وقد لعب هذا الإله دورًا في أسطورة «أوزير» في الحرب التي شنها على خصمه «ست»، ويلاحظ عند تصوير هذا الإله على الآثار أنه يرسم مزدوجًا؛ أي إن صورته كانت ترسم مرتين كل منهما مواجهة للأخرى، وكان يمثل كل منهما ومعه دبوس حرب وقوس، وكانا ينعتان بأنهما مسلحان بسهام ... وأعظم انتصارًا وأشد قوة من الآلهة، وقد أطلق على هذا الإله فاتح مصر المنتصر، ولهذا السبب كان يُحمل أمام الملك علم عليه صورة الإله «وبوات» ليفتح له الطريق في وسط الأعداء، ولا نزاع في أن قرب الإله «أنوبيس» والإله «وبوات» من بعضهما في المكان والعصبية لدليل ظاهر على وحدة هذه المقاطعات في الأزمان السالفة، ولا غرابة في ذلك، فإن كلًّا منهما كان لا حمي في الحقيقة الأحياء من أهل المقاطعة التي يعيش فيها معهم فحسب، بل كان يحمي الأموات أيضًا، فنجد أن «وبوات» يفتح الطريق في دنيا الأرواح كما أن «أنوبيس» يمنحهم جنازًا فخمًا وحياة سعيدة في عالم الغرب «الأموات»، ومما سبق يمكننا أن نلاحظ بكل وضوح الفكرة الأولى عن عالم الآخرة عند المصريين، وهي أنه بعد أن يموت الإنسان تذهب روحه لتنضم إلى الآلهة الذين كانوا حماته على الأرض، وأن هذه الأرواح كانت متقمصة شكلًا حيوانيًّا يظهر الآلهة في هيئته للناس ويعيشون متقمصيها في وسطهم.

[5] الشجر الذي يستخرج منه زيت النفض.



الإله «تحوت» يعد سني حياة الملك رعمسيس الثاني.

على أننا نجد مثالًا مشابهًا لما ذكرنا في الإقليم الذي يضم المقاطعة التاسعة وعاصمتها «أبو» (إخميم الحالية) والمقاطعة الخامسة الملاصقة لها وعاصمتها «قفط»، ففي هاتين المقاطعتين كان يعبد الإله «مين» رب القوة التناسلية والخصب في مصر، ويرمز له برسم الصاعقة، وقد عثر منذ أزمان سحيقة على صور لهذا الإله من الحجر في «قفط»، وهو ممثل على شكل صنم ضخم له رأس ملتحية وقناة تناسلية قد استقامت كأنها تلقح، ثم مثل فيما بعد على شكل إنسان يلوح في يده اليمنى زخمة ويلبس على رأسه ريشتين عظيمتين، وبجوار هذا الإله كان يعبد الإله «آمون» في بلدة طيبة في المقاطعة الرابعة، وقد عثر له على أشكال عدة ممثلًا بعضو التذكير المستقيم، وكان كذلك يعبد على شكل كبش في كثير من معابد القطر، كما كان يمثل على شكل إنسان يحمل ريشتين عظيمتين، ولا شك في أنه كانت توجد عصبية بين هذين الإلهين لما بينهما من أوجه الشبه العدة.



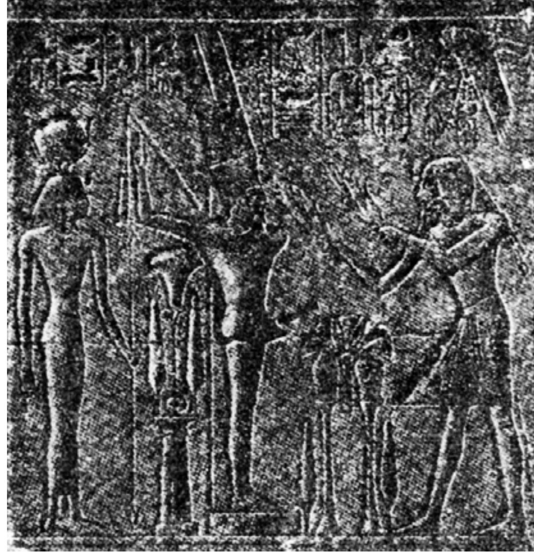
الإلهة «باخت».

أما على الشاطئ الأيسر للنيل في المنطقة الواقعة بين قفط و«العرابة» فكانت تقع المقاطعتان السادسة والسابعة، وكانت العبادة السائدة فيهما لإلهة عظيمة تتقمص بقرة يطلق عليها اسم «حتحور» (دندرة) وتعتبر إلهة السماء، والواقع أن إلهة السماء كانت «نوت» ولم تكن عبادتها منتشرة تمامًا. أما عبادة «حتحور» (بيت حور) فكانت على العكس ذات أهمية عظمى، ولا نزاع في أن اسمها يشير إلى الفكرة القديمة، وهي أنها مسكن «حور» صقر السماء، على حين أن صورتها تحمل من البقرة قرنيها وأذنيها، وأحيانًا ترسم رأسها على هيئة رأس بقرة حقيقية، وتنتسب للبقرة السماوية، والواقع أن «حتحور» قد فقدت صفتها الأصلية تدريجًا. إذ لم نفهم على وجه التحقيق الشيء الذي تحمله البقرة بين قرنيها. هل هو الشمس أو كما يعبر عنه المصريون أنفسهم عين الشمس؟ على أن المصريين كانوا يسمونها عين الشمس، وهو الوصف المعتاد الذي كانت توصف به، وكذلك نجد أنها قد تخلت دائمًا عن مرتبتها الأولى بين الإلهات، وقد



الإله «ست».

أصبحت فيما بعد تسمى إلهة الغرب؛ وذلك لأنه كان يعتقد أنها تقف بجانب الجبل الغربي وتسمح للشمس وللأموات عند الغروب بأن يدخلوا في الأقاليم السفلية «عالم الأموات»، وكذلك أصبحت تدعى إلهة الحب والآلهة المرحة الطروب بين النساء، ومن أجل ذلك كن يسمينها «الذهبية»، ولم يخطئ اليونان عندما سموها باسم إلهتهم «أفروديت»، ومن أجل ذلك نجد أن النسوة كن يخدمنها ويحتفلن بها بإقامة حفلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشخشخة بقلائدهن، وبالعزف على الدفوف، ولها أدوار أخرى سيأتي ذكرها عند المناسبات، وفي المقاطعة الثالثة «هيراكنبوليس» وعاصمتها «نخب» (الكاب) الحالية، ثم إسنا فيما بعد، كانت تعبد إلهة على هيئة أنثى نسر ضخم تسمى «نخبت»، والحقيقة أن اسم هذه الإلهة ليس «نخبت»، بل اسمها نسبة من البلد الذي عبدت فيه «نخب»، وهي العاصمة القديمة للوجه القبلي، وكانت الحامية لرب هذه الجهة وتحلق فوق رأسه، ولذلك كان يوضع رسمها على تاج الملوك والملكات.



الإله «آمون رع» ممثل على شكل الإله «مين» معبود «قفط».

أما في المقاطعة الأولى «الفنتين» (أسوان الحالية) الواقعة عند الحدود الجنوبية للقطر المصري، فكان يعبد فيها غير الإله «سبك» سيد «أمبوس» إله آخر يدعى «خنوم» كان يتقمص كبشًا في معابد الفنتين، وكان يعبد بجانبه كذلك الإلهتان «ساتيت»[٦] و«عنقت» في جزر الشلال، وكان يتكون من الثلاث ثالوث هذه الجهة غير أنه في هذه الحالة كان الإله خنوم متزوجًا من اثنتين بدلًا من الأب والأم والابن.

وكان الإله «خنوم» يعد أنه الإله الذي يخلق الإنسان ويصوره كالإله فتاح في منف، وكان يسوي المخلوقات على عجلة كصانع الفخار، فكان كل طفل يولد من صنع يده

[٦] وهذه الإلهة «ساتيت» كانت تعرف باسم «حكات»، وهي الضفدعة التي يعتقد المصريون أنها تخلق من طين النيل الذي تركه الفيضان، ولذلك كانت رمزًا للبعث، وقد نقلت هذه الفكرة إلى معتقدات مسيحيي مصر، ولهذا السبب نجدها كثيرًا ممثلة على مصابيحهم.



البقرة «حتحور» سيدة السماء.

وإليه ينسب حسن تركيب أجسام المواليد، وكان يعرف كذلك بأنه رب الماء العذب[7] الذي ينبع من هذه البقعة، وكان يعتقد المصريون أن حدود بلادهم جنوبًا تنتهي عند هذه النقطة، بل والعالم كله كذلك، ولذلك ظنوا أن النيل ينبع من هذه البقعة.

ومما يسترعي النظر من بين معابد هذه الآلهة المنتشرة في الوجه القبلي معابد الإلهين «حور» و«ست»؛ إذ كانت لها أهمية عظيمة في طول البلاد وعرضها، وهنا يجب

[7] والعلاقة بين جهتي «خنوم» التي تمثله إحداهما صانعًا الخلق من طين مثل صانع الفخار، وتمثله الأخرى ربًّا للماء. إن صانع الفخار لا يستطيع أن يقوم بمهمته إلا في الأماكن التي يفيض فيها الماء على الأرض، ويترك الطينة لينة قابلة للتشكل والتصوير وبذلك يمكن أن تثمر صناعته، وتكثر — وبخاصة — في إقليم فيه طين النيل والطفل كثير لصنع كل أنواع الفخار الجميل.



الإلهة «عنقت».

أن ننبه الأذهان إلى أن هذين الإلهين لم تكن لهما علاقة في الأصل بالإله أوزير أو الإله «ست» بل في الحقيقة كانا أخوين متخاصمين، فكان «ست» يمثل الظلمة الدامسة والهلاك، على حين أن الإله «حور» كان يمثل النور الذي يسطع بين نجوم السماء، ويحلق في الفضاء على هيئة صقر عيناه الشمس والقمر، وهو يقوم بحرب أبدية على الإله «ست» دون أن تسفر انتصاراته المتوالية عن القضاء على خصمه، وعندما يحدث خسوف القمر يرى المصريون في ذلك أن الإله «ست» قد اقتلع عين «حور»، غير أن الأخير ينتقم لنفسه بانتزاع خصيتي عدوه، ثم ينزل الإله «حور» بعدوه «ست» هزائم دموية، ثم تطالعنا الأساطير بعد ذلك بأن الإله «تحوت» إله الأشمونين (هرمس) يظهر في هذه الآونة على المسرح ممثلًا إله القمر ويشفي جروح المتخاصمين، ومن ثم يذهب كل منهما ليحكم في ملكه فيقسم وادي النيل بينهما، فيكون الوادي الخصيب من نصيب الإله «حور»،



الإلهة «ساتت» تقدم الفرعون أمينوفيس الثالث إلى الإله «خنوم».

أما الصحراء القاحلة (الأرض الحمراء) فتقع من نصيب الإله «ست»، ويتصل بهذه الأساطير التي نجدها مذكورة بصور مختلفة في تاريخ الديانة حسب المذاهب، بعض نقط ترجع بها إلى العبادات المحلية كما سبق وأشرنا إليه في أساطير الدلتا وبخاصة ما يشير منها إلى الإله «حور» الذي نشأ في مناقع الوجه البحري، وتدل الأحوال على أنه كان في الأصل صقرًا، ولا نزاع في أن مثل هذه الأمور العرضية التي تظهر في ديانة المقاطعات، نلاحظ أن صبغة الأسطورة العالمية تنمحي تمامًا أمام ما ينسب إلى الآلهة المحلية في هذه المقاطعة أو تلك؛ لأن القوم كانوا فيها يعتبرون إلههم المحلي أعظم الآلهة.

على أن هناك حقيقة يمكن استخلاصها بكل جلاء ووضوح، وهي أن الإله «ست» منذ فجر التاريخ كان يعد بين الآلهة الرئيسية التي كانت تقدس في الصعيد، وكانت عاصمته بوجه خاص هي بلدة «أمبوس» الواقعة قبالة قفط، بين جبانة نقادة القديمة وقرية البلاص الحالية؛ أي إنها كانت واقعة في قلب أقدم مدنية مصرية، وكان يلقب في هذه الجهة رب البلاد الجنوبية ويعبد على هيئة حيوان خرافي لا وجود له في مصر، ويحتمل أنه هو العقاب الذي عثر عليه في أعالي نهر الكنغو، ولا يبعد أنه كان من حيوانات مصر في ذلك العهد ثم تقهقر، وكذلك كانت عبادته منتشرة في المقاطعتين الحادية عشرة والتاسعة عشرة، وعاصمة الأولى «سشحتب» (شطب الحالية) والثانية مقاطعة «أكسرنكس» (البهنسة) جنوبي مقاطعة «إهناس»، وكان الحيوان المقدس في هذه الجهة سمكة ذات فم مدبب «القنومة».

أما الإله «حور» فكان مقره إدفو عاصمة المقاطعة الثانية، وكان الصقر يمثل إله الشمس وصار يرمز له بقرص الشمس ذات الجناحين القويين، ويتدلى من كِلَا جانبيه «صل» (ثعبان) وكان القوم يعتقدون أنه يولد كل يوم في الأفق، ثم يتوالد بنفسه من جديد في رحم أخته وزوجته «بقرة دندرة» التي تحولت إلى إلهة السماء، ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم «حتحور» ومعناه بيت الإله «حور» أي الشمس، ولذلك كان يرسم قرص الشمس ناشرًا جناحين عظيمين تذكرة لأصل الفكرة. على أن انتشار عبادة «حور» لم تقف عند هذا الحد، بل كانت أعظم شأنًا من ذلك. إذ نجدها سائدة في المدينة التي ستصير فيما بعد العاصمة الملكية «نخن» (الكوم الأحمر)، وتقع على الضفة الغربية من النيل قبالة مدينة الكاب (نخب)، بل وفي المقاطعة الخامسة التي عاصمتها «قفط» وقد رمز لها بصقرين، وكذلك في مقاطعة المهى «السادسة عشرة» وفي مقاطعة جبل «الثعبان» ١٢، ولا جدال في أن نفوذ هذا الإله قد امتد إلى هذه الدرجة لأسباب سياسية؛ إذ الحقيقة أن الإله «حور» مدين بانتشار عبادته في الوجه القبلي لغزو هذه البلاد وفتحها على يد أتباع «حور»، وتدل الأحوال على أن مقر هذا الإله الأصلي بلدة «بوتو» إبطو «تل الفراعين الحالية» وأطلالها بالوجه البحري بالقرب من دسوق، ومن المحتمل أن عبادته قد نقلت في هذه الفترة إلى الوجه القبلي، وذلك لأن «حور» كان إله الدولة، ثم توحد فيما بعد مع الإله المحلي لإدفو واسمه «حور» أيضًا، وقد تكلمنا عنه من قبل، وقد حدثت تغيرات وحوادث مثل هذه في أمر انتشار عبادة الإله «ست» في الوجه القبلي، غير أن المصادر تعوزنا للوقوف على حقيقتها. ولا شك في أن كيفية عبادة هذين الإلهين قد

حدث فيها تغيير وتحوير، وذلك يرجع إلى أن عباد «حور» قد انقسموا في الوجهين القبلي والبحري، ومنذ ذلك العهد أخذت الأساطير الشكل الذي عرفناه فيما بعد، ومن المحتمل كذلك أن يكون قد حدث مثل هذه الحال في أمر الإله «ست»، فتكون عبادته قد نقلت إلى الدلتا، ولم يكن معروفًا من قبل فيها إلا بالدور الذي لعبه في قصة «أوزير»، ولم تكن له في الدلتا أية عبادة خاصة قائمة بذاتها، وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن الإله «ست» كان يعبد في الدلتا منذ الأسرة الرابعة، ولا يبعد أنه كان يعبد فيها من قبل في نفس الإقليم الذي يحمل في ثناياه اسمه «سوتريت» وموقعه الآن بالقرب من بلدة «تانيس» (صان الحالية).

الفصل الحادي عشر

نظرة إجمالية في أصول الديانة المصرية

تكلمنا فيما سبق عن أصل المقاطعات، وكذلك بحثنا في موضوع بعض الآلهة التي كانت تعبد فيها ببعض الاختصار، والآن نعود فنتكلم عن الديانة المصرية عامة وعلاقتها بعبادة آلهة المقاطعات؛ إذ في الواقع نجد أن ديانة القوم أساسها ديانات المقاطعات المختلفة، وذلك أمر بديهي لأن القطر كان يتألف من وحداتها، ولا جدال في أن كل إله كانت له منطقة نفوذ ثابتة محدودة في بادئ الأمر، وكان سلطانه فيها هو السائد، وكان كل إله مقاطعة يطلق عليه في معبده أو مدينته اسم رب المعبد أو رب المدينة حسب الأحوال، ومن ذلك يتضح لنا أنه لم تكن المنطقة التي يسيطر عليها الإله تتألف من قبيلة ذات عصبية واحدة، بل من أهل المنطقة التي كان يوجد فيها هذا الإله وممن يحتمون في سلطانه، وبجانب هذه الآلهة الرئيسية عدد عظيم في كل مكان من الآلهة الأخرى ذات الأهمية النسبية، غير أنها كانت تشاطر الإله الأعظم العبادة بصفتها إما زوجة له أو ابنًا، وأحيانًا كان لها عبادة مستقلة وسلطان، وسنذكر هنا بعض الأمثلة مؤثرين أكثرها أهمية وأرفعها مقامًا، ففي منطقة «العرابة» مثلًا نجد الإلهة «حكت» التي كانت تتقمص ضفدعة لها أهمية عظيمة بصفتها آلهة السحر وإلهة الولادة والبعث.

إذ كان يعتقد أنها تحضر ولادة الشمس كل يوم على رأي أحد المذاهب الدينية، وفي المقاطعة الثانية عشرة كان يعبد الطائر مالك الحزين الذي سماه اليونان «الفنكس» واسمه بالمصرية «بنو»، وكان مقر عبادته وتقديسه «عين شمس» وكهنة هذه الجهة كانوا يرون فيه إما الإله «أوزير» أو «روح» الإله «رع»، والفكرة الأخيرة كانت السائدة في عين شمس، وما معلمه عن هذا الإله على وجه التحقيق أنه يلد على شجرة في معبد عين شمس، ومن المحتمل أنها الشجرة القديمة المقدسة التي كان الآلهة يكتبون على أوراقها أسماء الملوك تخليدًا لذكراهم ويقال إن الشجرة التي تزار الآن بجهة «عين شمس» هي

من نسل هذه الشجرة المقدسة، وكذلك نجد في طيبة الإلهة العظيمة «موت ورت» أي الأم العظيمة وتقدس بصفتها زوجة للإله آمون، وكذلك نجد «خنسو» (القمر وهو ابن موت وآمون)، ومنهم جميعًا تألف ثالوث طيبة يضاف إلى هذا إله الحرب «منتو»، وكان يعبد في هذه الجهة، وأصبح له شأن عظيم في التاريخ المصري، وكان في هذه الجهة كذلك إلهة على هيئة جاموس البحر «توريس». ويعتقد أنها الإلهة التي تساعد الحامل على الوضع، وربما كان هذا هو السبب في تصويرها بهيئة تشعر بذلك، وفي أماكن أخرى نجد الإلهة «سكلت» التي كان من وظائفها المحافظة على أحشاء المتوفى، وترسم على شكل امرأة برأس عقرب، وقد جاء ذكرها على مقابر أشراف الأسرة الرابعة في منطقة الأهرام.

على أن وجود هذه الآلهة وتأثيرها في الديانة كان ينحصر في معابدها وفي شكل عبادتها، ومن ذلك يمكننا أن نحدد ماهية كل إله، ولا نزاع في أن أهم عمل كان يقوم به الإله نحو أتباعه هو أن يمنحهم أو يحرمهم الأشياء الضرورية للحياة العامة، أما الملوك فكانوا يتطلبون منه الحياة والصحة والثبات والنصر والسعادة، والواقع أن كل الآلهة نشأت من طينة واحدة، ولا يختلف بعضها عن بعض إلا بمعابدها وبالرمز الذي كان يخصص لكلٍّ وبالرسميات التي كانت تعمل لكلٍّ عند إقامة الشعائر الدينية، وبالأعياد التي كان يحتفل بها، وفي النهاية بالأسماء والألقاب التي تميز كل إله عن غيره، على أنه يلاحظ أن أسماء الآلهة كانت في الواقع تعد شيئًا ثانويًّا؛ إذ كثيرًا ما يكون اسم الإله مشتقًّا من صفات الإله أو منسوبًا للمدينة التي يعبد فيها، وقد وجدنا من بين آلهة المصريين آلهة لم يصل المصري إلى وضع أعلام لها قائمة بذاتها، ولذلك كان ينسبها كما ذكرنا إلى المكان الذي كانت تعبد فيه، فيقال مثلًا «التابع لتاتننت» وهذا اسم إله بالقرب من منف، ويعد مظهرًا من مظاهر الإله «فتاح» ويقال: تيس «زدد» وهو إله يعبد في بلدة منديس «تل الربع الحالية»، ويرسم على شكل تيس كما ذكرنا آنفا، وكذلك يقال للإله «حرشف»: (الذي على بحيرته) وللإله «أوزير»: الذي في «زيتونته». كما يقال لإله الموتى «خنتي أمنتي»؛ أي الأول بين الذين في الغرب (وهو إله من فصيلة الكلب بينه وبين الإله أنوبيس قرابة عظيمة)، وأخيرًا الإله العظيم «في الغرب»، وهذان الإلهان الأخيران قد وحدا فيما بعد مع الإله «أوزير».

وكذلك الإله «وبوات» (فاتح الطرق) فإنه اسمه ليس باسم علم حقيقي؛ لأن واحدًا من هذه الآلهة التي على شكل الذئب كان يطلق عليه اسم «ست» ولكنه اختفى منذ الأزمان الأولى من بين حيوانات القطر.

والآلهة عند قدماء المصريين كائنات معينة معروفة اتخذ كل منها شكلًا ثابتًا باقيًا لا يتغير، وقد انفصلت هذه الآلهة عن عالم الأشباح أو الأرواح التي يخطئها العد، وهذه الأرواح أو الأشباح (الجن) تلعب دورًا هامًّا عظيمًا في مظاهر الديانة المصرية، وتبرز بدورها الهام في السحر الذي كان له تأثير خطير جدًّا في العقائد الدينية في كل عصور التاريخ في البلاد، ومن بين المظاهر العدة المحسوسة التي تتجلى فيها هذه الأرواح أو الأشباح المقدسة الحيوانات، وهي إما منزلية أليفة تعيش مع الإنسان، وتقوم له بخدمات عظيمة لا تنقطع، أو متوحشة ضارية تفتك به فيخاف شرها وبأسها، وأهم حيوانات النوع الأول وأجدرها بالذكر الثور، والبقرة، والتيس، والكبش. والظاهر أن الإله كان في العادة ينتخب ذكر هذه الحيوانات ليتقمصه، وأحيانًا كان الإله يتقمص بعض الطيور كالإوزة، كما نشاهد في حالة «جب» إله الأرض، فإن روحه تقمصت إوزة، أما أهم حيوانات النوع الثاني فهو الأسد، والتمساح، وجاموس البحر، والثعبان السام، والأفعى، وكان الإنسان يسعى لاتقاء خطر هذه الحيوانات والحشرات التي كان يقع بصره عليها في البر والبحر، والظاهر أنه كان يرجع سبب قوتها وفتكها بجنسه إلى أن الإله قد حل فيها، وأنه إذا استعطفها وقدم خضوعه وقرب إليها القربان نجا من مخالبها وشرورها، فمثلًا نرى الذئب يعبد لأنه كان يسكن البقاع الجبلية القريبة من الجبانة، وكان يعيش على نبش القبور، فإذا قرب له الإنسان القرابين عدل عن أكل موتاه، وأكبر جبانة من هذا النوع جبانة أسيوط، كما كان يعبد ويقرب له القربان لسبب آخر هو ألا يسطو على غنم القوم، وهكذا كان الحال مع ابن آوى الذي كان يعبد باسم الإله «أنوبيس»، على حين أن الكلب يعد حارسًا للماشية، ولذلك كان يقدس، وكان هناك صنف آخر من الحيوان مثل القطط وغيرها، كان لا يضر، ولكنه كان يعبد؛ لأن فيه قوة سحرية خاصة وسرية. وأهم هذه الحيوانات القردة والأسماك والطيور، ونخص بالذكر منها الطائر «إبيس» «أبو منجل» ومالك الحزين «الفنكس»، والصقر والنسر والضفدعة والجعل … إلخ، وسيأتي الكلام عن كل في حينه.

على أن عبادة الأشجار لم تكن نادرة في مصر، فمثلًا نجد شجرة الجميز كانت مأوى للإلهتين «نوت» و«حتحور»، وكذلك شجرة السروكان يحل فيها روح الإله «مين»،[١] وقد

[١] الشجرة التي توجد مرسومة مع الإله مين هي الخس، وتعتبر رمزًا لنماء القوة الحيوية التناسلية عند هذا الإله.

كان وجود أي شجرة من هذه الأشجار في مكان ما يجعلها موضع تقديس، لأن روح الإله الذي هي رمز له كانت تسكن فيها.

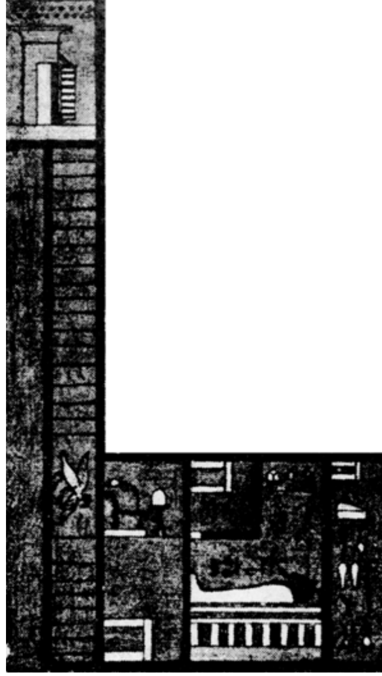
وهكذا كان الحال مع كل أنواع الحيوانات أو الحشرات التي كانت تملؤها الروح المقدسة، وكان على الإنسان أن ينتخب واحدًا من نوع خاص مميز ويضعه في المعبد حيث يُعنى به ويُخدم بصفته الحيوان الحقيقي الذي تقمصه الإله، وهذا ما نشاهده بين بني الإنسان. إذ عندنا يتوفى الملك كان القوم يقدسون إنسانًا آخر معينًا مكانه، وبذلك يصبح مهبط تلك القوة المقدسة التي تعيش في البلاد وتحكمها مهما كانت صفاته، ولا غرابة إذا كانت هذه الطريقة بعينها متبعة في الحيوانات المقدسة، فكان عندما يفنى واحد منها تنتقل الروح الإلهية إلى حيوان آخر يتعرفه الإنسان من بين حيوانات هذه الفصيلة بعلامات وإشارات خاصة ويقاد إلى المعبد، أما موضوع تقديس فصيلة الحيوان الذي كان ينتخب منه الإله أو تقديس البعض منه فإن هذا يتوقف على أحوال الحياة وضروراتها التي كان لا مناص منها. غير أن علماء اللاهوت المصري قد وصلوا إلى حل هذا المشكل بطرق مختلفة، ففي كثير من الأحوال، وبخاصة في العصر المتأخر من التاريخ المصري، كان يعتبر مثلًا قتل أي حيوان من النوع المقدس ضربًا من الفسوق والعصيان والكفر بالإله، ويعاقب المجرم بالقتل، وكذلك كان ينطبق هذا الحكم على أكلة لحوم هذه الحيوانات، فمثلا كان مُحرَّمًا أكل لحم القطط أو الكلاب، ولكنا من جهة أخرى نجد أن القوم كانوا يذبحون الخراف والماعز والثيران. أما البقرة التي كانت تدر اللبن فكان محرمًا ذبحها، وهذه الطريقة متبعة في الهند. يضاف إلى ذلك أننا لم نسمع عن تمساح قتل في الأماكن التي كان يقدس فيها هذا الحيوان، وبخاصة في العصور المتأخرة. على حين أننا من جهة أخرى نعرف أن التمساح كان صيده محببًا للأهلين، فكانوا يطاردونه بكل شغف وحماس في المقاطعات التي كان لا يقدس فيها، ومن المدهش أن الأسد رغم تقديسه في بعض جهات القطر كان يصاد من غير تحرج في طول البلاد وعرضها.

ولكن الآلهة كانت لا تتقيد قط بهيئة واحدة من أشكال الطبيعة، بل كانت في الحقيقة كالإنسان لكل منها روح مثله على هيئة طائر «با»، وهو عنصر حي يسكن الجسم مدى الحياة، وكذلك كان له قرين «كا» يمثله المصريون على هيئة ذراعين مرفوعين، وكانت وظيفة هذا «القرين» أن يمد الجسم المادي بالحياة والقوة، ويقف خلفه ليحميه بعد الموت، وكان من الضروري وجوده مع الإنسان في قبره وإلا مات أبديًّا، ويمكننا هنا أن نميز بين القرين «كا» وبين الروح «با»، فالأول يسكن مع الجسم في

القبر، ويمنحه الحياة بالقرابين التي يقدمها أهل المتوفى له على مائدة قربانه بوساطة كهنة تسمى خدام القرين، وقد كانت تحبس عليهم الأوقاف الشاسعة من أجل ذلك. أما «البا» فهو الروح الذي يصعد إلى السماء بعد وفاة الإنسان، ومن ذلك يمكننا أن نستخلص أن الإنسان كان له روح مادية «كا» تسكن معه في القبر وروح نورانية تصعد إلى السماء وهي «با»، غير أن الآلهة كانت تختلف في ذلك عن بني الإنسان، وذلك أن الإله يمكنه في كل لحظة أن يترك الجسم الذي يسكن فيه، وينتقل إلى جسم آخر كما يريد، لأنه لم يكن عرضة للموت (يستثنى من ذلك الإله أوزير) وفي إمكان الإله أن يوجد في كل مكان يريد أن يشعر فيه بقربه أو بقوته، ولذلك يمكنه أن يتقمص أشياء مختلفة جدًّا في وقت واحد، فيسكن الحيوانات والأحجار والأوتاد من الخشب، والأمثلة لدينا كثيرة، ونكتفي منها بذكر الإله «مين» والإله «أوزير»، ويرجع السبب في ذلك أن الإله حسب قول المصريين له عدد عظيم من القرائن «كاو» وعدد عظيم من الأرواح «باو» تروح وتغدو حرة طليقة حتى عندما يكون الإله متقمصًا صنمه أو تمثاله الأعظم، ورغم هذا كان من المستطاع أن يسحر الإله ويقتنص في شيء محسوس بوساطة التعاويذ، وبذلك يصبح ولا قوة له ولا حول، وذلك هو السر في أننا نجد في كل معبد مصري غير الحيوانات المقدسة شيئًا سِرِّيًّا يحفظ في صندوق يكون في معظم الأحيان تمثالًا صغيرًا من الحجر أو الفخار، ويعتبر هذا الصندوق المكان الحقيقي للإله، وبعبارة أفصح المسكن الذي حبس فيه الإله بقوة السحر في الزمن القديم أيام تكريس المعبد.

ومن جهة أخرى نجد صورًا عدة لشكل الإله الذي يتقمص الحيوان، وكذلك للشكل الذي تظهر به روحه، فكان يمثل أحيانا بجسم إنسان يعلوه رأس حيوان وأحيانًا بالعكس، وهذه الصور والتماثيل الإلهية كانت تعتبر كأنها ملوك مرتدون ملابسهم ومعطرون ومُحَلَّوْنَ بعدد عظيم من التعاويذ، وكانت تطلع في الأعياد العظيمة على الشعب — وبخاصة صندوق الإله السري — وتوضع في سفينة تبنى خصيصًا لسياحتها، ويحملها خدامها من طائفة الكهنة على أعناقهم، وكانت هذه الأعياد والاحتفالات تنمو وترتقي في الطقوس والعدد كلما تقدمت المراسيم الدينية في البلاد وتنوعت شعائرها، وذلك حسب ثراء البلاد وعظم فتوحها في عصور التاريخ المصري.

أما الرموز الإلهية المقدسة التي كنا نجدها بجانب رموز المقاطعات فلا يمكننا أن نعتبرها عريقة في القدم؛ وذلك لأنها تحمل صورة الحيوان المقدس أو إشارة مقدسة أخرى، وتتقدم القوم في المواكب في ساحات القتال.



الروح ممثلة بطائر «با» تنزل إلى غرفة دفن المتوفى لتزور جسمه ثم تصعد ثانية إلى السماء.

وكان الإله يظهر عظمته وبطشه وجبروته في كل أمور الحياة الظاهرة التي لم يكن في مقدور الإنسان أن يتغلب عليها، ولذلك كانت الآلهة تعمل كأنها رؤساء أو ملوك في آن واحد، وذلك حسب أهوائهم ومزاجهم، ولكن ذلك كان لا يمكنهم من الخروج عن اتباع قوانين الطبيعة وسننها، ولذلك نجد أنه كان للآلهة المصريين طبيعتان، فكانوا من جهة يظهرون بأنهم إرادة حرة خالدة، ومن جهة أخرى كانوا قوى طبيعية خاضعة لدورة الفلك وظواهره، وعلى ذلك كانوا في الوقت عينه قوة إيجابية وسلبية، فكانت الحياة تسير في دائرتها حسب قوانينها الطبيعية، مثال ذلك: تلقيح الخصب بماء النهر وطلوع النباتات ونضوجها وموتها ثم البذر والحياة التناسلية، وتلقيح الحيوان والإنسان، أو كما في حالة الإلهين «حور» و«ست» وهما اللذان يتعاقب منهما النور والظلام وكذلك

تقلبات النجوم المنيرة، وأخيرًا بوجه خاص الحرب بين القوة المعمرة والقوى الشريرة المخربة، ومن كل هذا نجد أن حياة الآلهة تمر في سلسلة متصلة الحلقات من الصراع والتغيرات التي تحدث بنظام عام بعد عام، ومن أجل ذلك نشاهد أن القوم كانوا يهتمون بحظ هؤلاء الآلهة المتقلب؛ إذ عليه مدار حياتهم وسعادتهم، فكانوا يسعون لمساعدتهم بقدر ما في وسعهم، وذلك هو السر في الاحتفال بالأعياد التي كان يحتفل بها القوم في كل مقاطعة في مواقيت ثابتة بحكم التقاليد الموروثة، فكان يعتقد أن هذا الإله أو تلك الآلهة قد ولدت في يوم خاص من السنة، ولذلك كان يحتفل به، فمثلًا نجد أن أعياد الآلهة «أنوبيس» و«وبوات» و«تحوت» و«مين» وغيرهم قد لعبت دورًا هامًّا بإثباتها على آثار الأسرة الأولى. يضاف إلى ذلك أنه كان هناك أعياد أخرى تقام احتفالًا بانتصار الإله على أعدائه أو قهرهم، وأنه وصل بعد ذلك إلى الملك ليطلع مشعًّا بكل بهائه أمام الشعب محمولًا على أعناق الكهنة في سفينته المقدسة، وقد مقل الإله «سوكر» في عهد الأسر الأولى بهذه الكيفية، وكذلك الآلهة الأخرى نجد لها صورًا تدل على نفس الفكرة.

أما الإله «أوزير» الذي كان يسكن في جوف الأرض منذ وفاته، والذي كان يعيش ويحيا هناك رغم موته بقوة سحر قرينته «كا» التي تتقمص أجسام الموتى، فإن حادث وفاته كان له أكبر أهمية، لأنه منه نشأت قوته وسلطانه، ولذلك كانت تقام له محافل عظيمة تمثل كل أطواره في بلدة «العرابة» المدفونة.

وعند الاحتفال بأعياد الآلهة المحلية يسير سكان المقاطعة صفًّا صفًّا خُشَّعًا في موكب يرأسه حاكم المقاطعة أو الملك حسب الأحوال، وبصحبته الذين يعرفون الطقوس وخدام الإله، الذين يحيون طلعته ويقدمون له الخشوع والخضوع، وعند نشوب صراع بين الآلهة كان أتباعه يحاربون من أجل إلههم بالأسلحة والعصي، وينتحبون عند هزيمته وموته، ويمثلون عين «حور» بالقرابين، ويحيون ظهور الإله ثانية أو ميلاده، ويجلسون تمثاله على العرش أو ينصبون عمود «أوزير»، أو يقودون الإله عندما يتزوج بإلهة مجاورة أو يحضرون له امرأة إلى المعبد.

ورغم هذه التغييرات الخطيرة والحوادث المتعاقبة بنظام فإن الآلهة مع ذلك كانت تمثل في نظرهم قوى أبدية باقية دائمًا وعاملة سواء أخضعت هذه القوى أو ماتت، أو دبت فيها الحياة من جديد وولدت ثانية، على أنه لا توجد لحظة يمكن الإنسان أن يستغني فيها عن حماية الآلهة؛ إذ إنهم كانوا يقفون على الدوام بالقرب من أتباعهم متمتعين بكل سلطانهم وقوتهم، ولذلك كان في مقدور الإنسان أن يدعوهم لمساعدته،

ويلتمس عطفهم ورضاهم. على أن الاعتقاد الديني لم يؤثر على التناقض بين هاتين الفكرتين؛ لأن العقيدة دائمًا مرتبطة بوقت الحاجة الملحة التي تخلقها الظروف دون البحث في أي تناقض أو تضارب، على أن هذا الاختلاف يؤدي رغم ذلك إلى النتيجة الآتية:

وهي أن الحوادث التي لها ارتباط بالأعياد سببها في الواقع الظواهر الطبيعية التي تضعها أمامنا الطبيعة، ولكن خيال المصري كان يرجع بها إلى أزمان سحيقة ويعزوها إلى ظهور الإله لأول مرة وأخذه الشكل الذي ظل باقيًا عليه فيما بعد، ومن ثم تحولت هذه الحوادث التي وقعت في أزمان معينة إلى أعياد تشيد بذكرى الأعمال العظيمة أو الآلام الشديدة التي تحملها الإله لصلاح المجتمع الإنساني ورفاهيته، والتي يتوقف عليها نظام الكون وشعائر هذه الأعياد التي يصحبها كثير من الآلات والطقوس المقدسة، والرموز المختلفة تحتاج كذلك إلى تفسير، فهذه الحوادث تكون وليدة اللحظة التي وقعت فيها تحدث غالبًا عند ظهور أمور خارقة للعادة، فتبقى عليها الطقوس الدينية من غير ما تبصر ولا روية، حتى بعد أن يتضح أنها غامضة لا تفهم، ومن ثم تأخذ صبغة سرية غامضة لها مفعول عظيم وتحاط بشيء من الرهبة والتقديس، ومن مثل هذه الأمور جاءت الضرورة لخلق الأساطير الدينية التي يدعي رجال الدين أنها تفسر هذه الأشياء الخارقة للعادة، وكذلك تفسر لنا صور الآلهة وأخلاقهم بحوادث وقعت في الأزمان السحيقة في القدم، ثم تناقلها عباد الإله كأنها أسرار مقدسة، ومن ثم أخذ الإنسان يشترك فيها بإقامة الشعائر واتباع الطقوس الدينية اللازمة لذلك، وبخاصة مراعاة قواعد النظافة وطهور الجسم والأطعمة المنصوص عنها كما فرضتها الشريعة عندهم، وكذلك يراعى اجتناب كل رجس مثل النجاسة التي تحدث من اختلاط الجنسين، وأن يكون الشخص مختونًا، وذلك كله كان من أقدس شعائر الدين عند المصريين.

وكان من يعرف هذه الأساطير والمعلومات التي لها مساس بالآلهة وطبائعهم يصبح وفي يده قوة سحرية تمكنه من أن يجعل الآلهة تحت سلطانه، ويجبرهم على خدمته لقضاء أغراضه السحرية، ولا شك أن الأساطير تمدنا بمعلومات أبعد عمقًا عن الآلهة أكثر مما نعلمه عن شكلها الظاهري، وكذلك عن الحيوانات المقدسة التي تتقمصها وعن الأعياد الخاصة بها، وكان كل إله يتمتع بين طائفة عبادة بنفوذ عام، ولكنه مع ذلك كانت له مناطق نفوذ محدودة حيث كانت تظهر فيها آثار أعماله بكل قوة وسلطان، وهذه المناطق كانت وقفًا عليه وحده، وذلك هو السبب الذي من أجله نجد أن ديانة كل مقاطعة بقيت مختلفة عن ديانة المقاطعة المجاورة لها، فمثلًا نجد الإله «مين» (أو آمون)

هو الإله الخاص بالتناسل، والخصب، والإلهتان «حتحور» و«باستت» إلهتا حياة «الحب والغزل»، والإلهان «وبوات» و«نيت» إلهَا الحرب، والإله «أنوبيس» إله الجناز والتحنيط وحارس الجبانة، والإله «تحوت» الذي يمثل القمر كان إله العلم والمواقيت «العلم نور»، والإله «حور» مظهر إله الشمس، وهكذا. على أن هناك صنفًا آخر من الآلهة له عمل محدود معين في نطاق خاص، مثال ذلك: الإلهة «رننوت» وهي إلهة الحصاد خاصة، والإله «خنتي أمنتي» الذي يحكم في عالم الأموات «صورة من الإله أوزير».



الإلهة «باستت» برأس قطة.

ومن كل ما تقدم ترسم أمامنا صورة تخطيطية لعلم اللاهوت المصري؛ إذ نجد بجانب الآلهة المحلية أرباب المقاطعات آلهة أخرى يمكن أن تقوم بأعمال خاصة في أزمان وأحوال معينة. وهذه الآلهة قد تكون أحيانًا خاضعة للآلهة المحلية، ومن هنا نشأ

تأليف مجاميع كاملة من الآلهة تتكون في أغلب الأحيان من تسعة آلهة (يستثنى من ذلك مجموعة آلهة الأشمونين التي تتألف من ثمانية) وعلى رأسهم إله المقاطعة الأعظم، وفي بعض الأحيان نشاهد أن هذه الآلهة تعمل مستقلة عن آلهة المقاطعات، وهذا هو السبب الذي جعل السبيل سهلًا لآلهة المقاطعات لتمد سلطانها إلى جهات بعيدة جدًّا خارجة عن منطقة نفوذها الأصلي، ويرجع الفضل في ذلك أحيانًا إلى حوادث سياسية أو إلى قيام فروع عبادة لهذه الآلهة في مناطق غريبة عن دائرة نفوذها، وهناك عامل قوى ساعد على نشاط هذا التقدم والرقي الديني، وهو أن المصريين قد اعترفوا إلى جانب آلهتهم المحلية بسلطان القوى الطبيعية العظيمة التي تعمل بطرق منظمة في كل الكون، وتشمل كل الكواكب وعلى رأسها إله الشمس «رع» ثم إله القمر «أعح»، ويعرف في مدينة طيبة باسم «خنسو» (أي السائح) ثم النجوم، ونخص بالذكر منها «نجم الأبرق» من مجموعة الشعرى اليمانية «سبد» ثم نجم الصبح «ساحو»، وعندما كان يظهر نجم الأبرق في الفجر في نهاية شهر يوليو، كان ذلك بشيرًا بوصول ماء الفيضان، وكذلك كان ظهور نفس النجم يعد بشيرًا بالسنة الجديدة، ويحمل معه النباتات الجديدة.

أما مجموعة نجوم الجوزاء التي كان أظهر نجم فيها نجم الصباح «ساحو» فكان يلعب دورًا مماثلًا لسابقه؛ إذ يبشر بفصل جمع الكروم الذي يحل في شهر يوليو أيضًا، وبقدومه تحل السنة الجديدة، ولهذا السبب يعد كل منها كائنًا مقدسًا، وقد أصبحا فيما بعد إلهين عظيمين، وذلك عندما تخيل المصري وجود مملكة للموتى في السموات العلى، فكان المتوفى ترتفع روحه إلى السماء، وتعيش بين جيش النجوم، وهم الأموات السعداء الذين يسهرون خلال الليل بالقرب من مصابيحهم، على أن نجم «ساحو» الجوزاء قد أصبح إله الموتى «أوزير». أما الشعرى اليمانية «سبد» التي كانت بجانب أوزير فقد أصبحت زوجه «إزيس» وابنها هو «حور» وقد اتخذا مكانًا في السماء بالقرب من الرب الأكبر، وتتألف مجموعة أخرى إلهية من الأجرام الكونية من السماء والأرض، فكان إله الأرض «جب» في عرف المصريين يعد مذكرًا، أما إله السماء فيعتبر مؤنثًا ويسمى الإلهة «نوت»، وعلى العكس من ذلك نجد أن الماء الأزلي «نون» الذي خرجت منه آلهة القبة الزرقاء مذكرًا، وقد وضع إله الأرض «جب» بذرته في أخته «نوت» ويعد «جب» أمير الآلهة، ولكن منذ ذلك العهد اضطجع «جب»؛ أي الأرض تحت قدمي «نوت»؛ وذلك لأن الإله «شو» إله الهواء فتقهما عن بعضهما بعد أن كانا رتقا، ووضع نفسه بينهما ورفع السماء بلا عمد، وصارت ترتكز على ذراعيه (كانتا رتقا ففتقناهما)، وهذه الفكرة بعينها

نجدها مفصلة في أسطورة إله النبات «أوزير» وزوجته آلهة السماء «إزيس» وهما ابنا الإله «جب» والإلهة «نوت»، وقد أعقبا بدورهما الإله «حور» الذي يطلق عليه غالبا اسم «حور أختي» أي «حور» الأفق، وهناك أساطير تفسر لنا كيف اتحدت السماء مع إله الشمس، فيقال إن السماء ولدت الشمس من بطن «نوت» كما جاء ذكر ذلك في متون الأهرام، فيخرج «رع» ماشيًا، ثم تلد «رع» كل يوم، ولكن بعد ذلك يرتفع إلى الشمس في جلاله وعظمته، ويلقح إلهة السماء فينتج نفسه في فرج أمه، وكثيرًا ما تخيله المصري كذلك على هيئة «جُعْل» (خبرر)، وكانت هذه الحشرة كما يعتقد المصري تفقس صغارها دون أن تحتاج إلى أنثى، ويحدث هذا بوساطة كرة الروث التي نشاهدها تدحرجها أمامها كما يدحرج الإله بيضته؛ أي الشمس أمامه في السماء، وقد ظهرت نفس الفكرة كذلك في الأسماء التي تعبر عن إلهات السماء كـ «حتحور» (بيت الإله حور)، و«إزيس» ومعناها مقعد إله الشمس. وهناك ما يحكى عن الإله «رع»، كان الإله «رع» بن «نون» المحيط السماوي، قد ظهر أوَّلًا في «هيراكليوبوليس» (إهناس المدينة)، وفي رواية أخرى في «هرموبوليس» (الأشمونين) على ربوة من الغرين ارتفعت من الماء الأولى، وقام بحرب ضد أعدائه، وبخاصة ضد ثعبان مارد يطلق عليه اسم «أبوبي»، وأهلك في إهناس القوم العصاة بمساعدة الإلهة «سخمت» (على هيئة امرأة برأس لبؤة).

ثم أعاد الخلق من جديد، وتقص الأسطورة علينا بعد ذلك أن عينه أصبحت بعد ذلك الحادث إلهة مستقلة موهوبة بقوة سحرية، وقد وحدها الكهنة فيما بعد بالإلهة «حتحور» والإلهة «تفنوت» إلخ، وقد ذهبت إلى بلاد النوبة وتوجه الإله «رع» إلى هذه البلاد ليبحث عنها ويحضرها، وأخيرًا حكم «رع» الأرض سنين طويلة حتى أصبح طاعنًا في السن وعندئذ طلب إلى ابنه «شو» أن يرفعه في الهواء على ظهر البقرة السماوية العظيمة، وبذلك أصبح يسبح في الفضاء كل يوم في سفينته، وسنعود إلى هذه الأسطورة مرة ثانية في مناسبتها، وقد ألف كهنة «هرموبوليس» خرافة أخرى لم نفهم كنهها للآن، وذلك أنهم تصوروا أن العالم قد خلقته ثماني قوى إلهية على شكل قردة، وقد عدهم الكهنة زوجًا زوجًا وكل زوج من أنثى وذكر، واعتبروها كأنها قوى طبيعية معنوية لا تحس، وهي الماء الأولى، والأبدية، والظلام، والقوى، ومن مجموع هذه الأزواج الإلهية الأربعة اشتق اسم مدينة «خنمو» (الأشمونين الحالية، ومعناها مدينة الثمانية)، وعلى رأس هذه المجموعة الإلهية وضع إله المقاطعة «تحوت» وهو إله القمر الذي أنشأ مقاييس الزمن وإليه ينسب كل المقاييس والأنظمة، وكذلك اخترع اللغة والكتابة والرسم،

والتلوين، ووضع القوانين وطبقها، وكذلك كان يعرف بأنه وزير الإله «رع» وزوج الإلهة «معات» (العدل)، ومن آلهة الطبيعة كذلك «حعبي»؛ أي إله النيل، ويمثل على هيئة رجل ممتلئ الجسم ذي لحية وثديين عظيمين ومتوج بالأزهار وحول وسطه حزام يشبه ما كان يلبس في عصور ما قبل التاريخ، وربما كان تمثيل النيل برجل عامل دليلًا على اعتقادهم في أن النيل خطط طرقه وجسوره كأنه مهندس ماهر رسم لنفسه ما يكفل لمصر وأهلها وأراضيها الخير الكثير في العهد الفرعوني فقط، ولا يبعد أن يكون السبب في عدم قيام عبادة منظمة له وحبس الأوقاف عليها يرجع إلى أن القوم كانوا لا يعبدونه أوَّلًا؛ إذ كانوا لا يستفيدون منه، ولكنه عندما نظمت مياهه أخذ القوم في عبادته، غير أن الآلهة الأخرى قد أخذت المحل الأولى في المقاطعات، ولذلك لم تؤسس له المعابد من أول الأمر، ومع كل ذلك فإن المصريين فيما بعد قدسوه وتمدحوا بخيراته في قصيدة عظمية ربما يرجع تاريخ إنشائها إلى عهد الهكسوس.



الإله «شو» يفصل بين إلهة السماء «نوت» وإله الأرض «جب».

وهناك عقيدة دينية نبتت من طائفة لاهوتية أخرى تقول بأن الآلهة وبخاصة «رع» و«إزيس»، قد جعلوا ماء النيل ينبع من منبعه السري عند دوامات الشلال الأول، ويأتون بماء الفيضان في ميقاته.

وإذا كانت الآلهة في اعتقاد المصريين لم يخلقوا العالم؛ لأن المادة كانت دائمًا موجودة وليست من صنع قدرة إلهية فإنهم من جهة أخرى على الأقل هيئوا فصول

السنة ونظموها، وكذلك رتبوا سير الفلك وحياة النبات وبني الإنسان، واتخذوا مصر مركزًا عامًّا للعالم، لأنها كانت المسرح الذي يمثلون عليه أدوارهم العظيمة الأثر، وحوطوها بالصحراء التي يسكنها أقوام من الهمج، وبالبحر الذي يحدق بكل العالم، وكان يرتبط بهؤلاء الآلهة القائمين على نظام الدنيا — وهم الآلهة العظام أجداد الأسرة الإلهية — الجم العفير من الآلهة الذين يُعبدون في طول البلاد وعرضها، وكذلك الأساطير التي أوجدوها، ولما كان النور يأتي من الجهة الشرقية فقد أعتقد القوم أنها موطن الآلهة ومسكنهم، على حين أنهم اعتبروا الغرب وهو مملكة الظلام موطن «أوزير» ومقر أرواح الموتى، على أن هذه العقائد تتناقض دائمًا مع العقائد الأخرى القائلة بأن وادي النيل نفسه كان دائمًا المسرح الذي تمثل عليه حياة الآلهة وهو موطن نفوذهم.

على أن آلهة الطبيعة العظام مهما كان تأثيرهم على حياة الإنسان، لم يكونوا في يوم من الأيام موضع عبادة نامية لا في مصر ولا في غيرها، ويرجع ذلك إلى أن أعمالهم لها صبغة عملية منظمة لا فردية محدودة، ولا يستثنى من ذلك إلا الظواهر الطبيعية التي تعترض سير نظام الكون من وقت لآخر وتظهر بأنها تعرضه للخطر.

ومن ذلك خسوف القمر، أو تلك الظواهر التي تكون عودتها قياسية، ولكن يحدث من جرائها تغير الإله أو تألمه، ويكون من نتائج ذلك أن يحتاج الإله إلى أن يمد له الإنسان يد المساعدة بإقامة الأعياد وتقديم القربان، وهذا ما يحدث بالضبط في أعياد أوجه القمر، إذ يقام عيد لأول الشهر وآخر في ربع الشهر وثالث في منتصف الشهر، ولهذا السبب يلتجئ القوم إلى الأعمال السحرية. على أنه لا يفوتنا ملاحظة أن هناك آلهة محلية منذ القدم قد صبغوا بصبغة القوى العالمية مثل الإله «أوزير» رب النبات، والنيل وهو يسكن في معبده المقدس في بلدة أبو صير، أو الإله «مين» في الوجه القبلي وهو رب التناسل، وهذه الآلهة كان لا يمكن أن تقوم لها عبادة خاصة إلا إذا أصبحوا آلهة مقاطعات، ومثل هذه العبادة كانت ممكنة عند اليونان وغيرهم من الشعوب، وبخاصة عبادة الشمس (إله السماء)؛ وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن هذا الإله والد «قبائل» أو طوائف من دم واحد وقد بقي على صلة مباشرة مع نسلهم. وكانوا في الوقت نفسه يعتقدون أن مقره بعض أماكن معينة وبخاصة قلل الجبال العالية. أما عند المصريين فكان الأمر على العكس من ذلك؛ إذ كان الإله المحلي هو الذي يرفع إلى مرتبة القوى العالمية ويمتزج بها ويصير موحدًا معها، ولقد لاحظنا منذ القدم أن الآلهة المحلية كانت فيها نزعة باطنية للتحول إلى قوى عالمية لأنها كانت ترى أن دائرة نفوذها في نظر

أتباعها غير محدودة، وأن مواقيت أعيادها والأساطير التي تتصل بها مرتبطة بمواقيت الفصول الطبيعية، ولذلك أصبح الإله «تحوت» رب «هرموبوليس» المحلي منذ القدم، إله القمر، وبذلك يمثل بقوة عالمية، وكذلك الحال مع الإلهة «نبت» ربة «سايس» والإلهة «حتحور» إلهة دندرة فهما إلهتان تتقمصان الأشجار «شجرة الجميز» ثم أصبحتا فيما بعد إلهتين للسماء.

أما في حالة الآلهة الأخرى وبخاصة الإلهين «حور» و«ست» فإنه لا يمكن أن نحدد بالضبط مدى أصل مركزهما في العبادات المختلفة سواء أكانوا آلهة تقمصوا حيوانات أو آلهة يمثلون قوى عالمية، ولا نعرف كذلك إذا كانت أسماؤهم المستعارة من علم الأساطير الدينية العالمية لم تكن منسوبة إلى آلهة محلية أوَّلًا قبل أن يسموا بها أو أنها أطلقت عليهم من بادئ الأمر.

وهناك مذهب حاسم اعتنقه كهنة عين شمس فيما بعد لترقية الفكرة الدينية في مصر، وذلك أنهم أعلنوا أن إلههم المحلي «آتوم» لم يكن إلا مظهرًا من مظاهر إله الشمس «رع»، ولذلك عبدوه باسم «آتوم-رع»، ونسبوا إليه كل الأساطير التي تعزى إلى «رع»، ولا غرابة في ذلك، فإن الاعتقاد بأن «رع» هو المسيطر على العالم يرجع إلى أقدم عصور التاريخ، والبراهين على ذلك توجد في متون الأهرام، هذا إلى أن اسمه يوجد في تركيب أسماء الفراعنة منذ الأسرة الثانية، مثال ذلك: «نب رع» أحد ملوك الأسرة الثانية، ولكن لم توجد لـ «رع» عبادة خاصة، اللهم إلا عبادته المحلية باسم «آتوم-رع» قبل أن يصير إله الدولة في الأسرة الخامسة كما سنفصله بعد، وكذلك لم تكن في مصر عبادة خاصة للإله «نون» المحيط الأزلي أو للإلهة «نوت» أو لإله النيل «حعبي» أو لإله القمر، اللهم إلا في الأعياد التي كانت تنسب للأخير كعيد أول الشهر، إلخ، أو عندما كان يعبد باسم «تحوت» أو «خنسو»، وهذه كانت عبادة محلية، يضاف إلى ذلك إله الأرض «جب» إذ لا نعرف لها عبادة خاصة، وأغرب من كل هذا الإلهة «إزيس» فإنها رغم ما لها من القوة والبطش والأدوار العظيمة في تاريخ الديانة المصرية وما ذكر عنها في الأساطير، لم تعبد حتى جاء العصر المتأخر وأخذت عبادتها تنتشر. أما أختها «نفتيس» فلا تعرف لها أية عبادة خاصة في كل عصور الديانة المصرية مطلقًا حتى الآن.

وقد خلقت إقامة الشعائر والطقوس الدينية صلة لا يمكن فصم عراها بين الإله المعبود، والإنسان العابد، وذلك بأن فرضت على كل منهما واجبات متساوية عليها يتوقف كيان كل منهما، فالإله يتطلب من أتباعه المخلصين كل ما هو ضروري له من خبز ولحم

ولبن ونبيذ وملابس وأدوات زينة وحلي وأزهار وبخور، أو كما يقال في الصيغ الدينية للقربان كل الأشياء الطيبة الطاهرة التي توضع على مائدة القربان والتي يعيش منها الإله، يضاف إلى ذلك الأعياد التي كانت تقام له والعناية بمعبده، وكذلك تقديم شطر عظيم من الغنائم التي يغنمها أتباعه بمساعدة الإله، كل هذا كان يعمل للإله في مقابل ما يمنحه عباده من حمايتهم والمحافظة عليهم، وكان من البديهي أن تراعى الدقة في الاحتفالات والأعياد التي كانت تقام للآلهة، كما كانت تراعى في الاحتفالات الفرعونية؛ إذ هناك أمور كثيرة تشمئز منها الآلهة وبخاصة أكل لحم بعض الحيوانات، وكذلك كان لزامًا على المتعبد أن يكون طاهرًا عندما يقترب من الإله، ولذلك كان من الواجب عليه أن يكون بعيدًا عن كل ما هو نجس وبخاصة ملامسة النساء وغشيانهن قبل دخول بيت الإله، وأن يكون قد ختن. على أن كل ما يتطلبه الإله يفهمه الرجل الذي يعرف إقامة الشعائر والطقوس بالإشارات التي يوحي بها إلهه، ومعرفة هذه الطقوس التي كانت تزداد كل يوم على مر الأزمان، يحفظها خدام الإله (الكهنة) عن ظهر قلب. وقد نصبهم القوم لينهضوا بخدمات بيت الإله، ولإطعام تمثاله وإلباسه، وللعناية بالحيوانات المقدسة، ولإقامة الأعياد والمواكب. هذا إلى أنهم كانوا يعرفون فن تخمين ما يريده الإله، وينتزعون منه بوساطة الوحي نبوءات عن المستقبل، وأحكامًا فاصلة في قضايا، وحقائق تتعلق بالمخاصمات.

وبجانب هؤلاء الكهنة ومساعديهم كانت توجد طائفة أخرى عظيمة من «المطهرين» في معزل عن عامة الشعب، وأفراد هذه الطائفة كانوا ينادون بهذا الاسم نسبة إلى التطهير بالماء الذي كان يصب عليهم كما يدل على ذلك تصوير اسمهم باللغة المصرية.

وتنقسم هذه الطائفة أربع فرق، كل فرقة تقوم بخدمة الإله بالتناوب طوال أشهر العام. فكانوا بذلك يشاركون الكهنة في أعمالهم، كما كانوا يشاطرونهم دخل المعبد وخيراته التي توقف عليه، وقد كان هذا النظام قائمًا منذ الدولة القديمة، ومن المحتمل، بل من المرجح أنه يرجع إلى عصور أقدم من ذلك، ولا يبعد أنه كان في الأصل لكل فرد من سكان المقاطعة الحق في التقرب من الإله، وأن يكون له نصيب من القربان الذي يقرب له، وكذلك من الممتلكات الأخرى الخاصة بالإله، ولكن على كر الأيام أصبح هذا الحق وقفًا على سكان المكان الذي يقطن فيه الإله، ثم تدرج الأمر بعد ذلك فأصبحت هذه الحقوق وقفًا على طائفة مميزة، ومن ثم أصبح وراثيًّا فيها، وبذلك أصبح من واجب عامة الشعب الذي يريدون أن يتقربوا من إلههم أن يلجئوا إلى طائفة الكهنة ليصلوا إلى

ربهم في بيته المقدس، ومن المحتمل كذلك أنه كان في استطاعة الأفراد الذين ليسوا من طائفة الكهنة، ويرغبون في الانخراط في سلك هذه الطائفة أن يصلوا إلى بغيتهم هذه، إذا توفرت فيهم شرائط خاصة، وقد يجوز أن يصدر الملك مراسيم ملكية بذلك، ولا شك أن هذا هو السبب الذي من أجله لم تصبح وظيفة الكهنة طائفية؛ أي إنها لم تصبح وقفًا على أسرهم دون سواها كما كان الحال في الهند وفي بلاد فارس وعند بني إسرائيل.

وكان جُلُّ هَمِّ المصري في الحقيقة أن يعمل جهد الطاقة ليصل إلى السبيل التي تنتهي به إلى إرضاء الإله، وكسب عطفه مهما كلفه ذلك، ولو ضحى بأخيه الإنسان، وأعنى بذلك تقديم ضحايا بشرية، ولقد تضاربت الأقوال والآراء في هذه المسألة، ولكن يظهر أن التضحية البشرية أمرًا واقعًا في الأزمان السحيقة من عصور ما قبل التاريخ، فيقال إن المصري كان يقرب أخاه الإنسان قربانًا لإلهه عند اشتداد حنقه، أو عندما كان القوم يبغون مساعدته في مُدْلَهِمِّ الأمور العويصة، ولكن كل ذلك كان يحدث في أزمان بعيدة جدًّا، وكانت هذه الضحايا تقدم عند قيام حروب بين الآلهة أو في مواقيت الأعياد الجنازية، وسنرى فيما بعد أن الذين كانوا يناصبون الآلهة العداء كانوا يقتلون بضربه عصا، أما شركاؤهم في ذلك سواء أكانوا رجالًا أم نساءً فكانوا يضربون حتى تدمى أجسامهم، وربما كان هذا يحدث في الأصل للبشر في العبادات المأتمية الخاصة، ولا شك في أن ختم حيوانات الضحية بختم مثِّل عليه رجل موثوق في وتد التعذيب، وعلى رقبته سكين لذكرى تشعر بأن الإنسان كان يقدم يومًا ما ضحية في الأزمان الغابرة. يضاف إلى ذلك أننا نجد على جدران المعابد المصرية حتى نهاية العصور المتأخرة جدًّا صورًا لم يتغير شكلها، تمثل الملك وهو يقتل الأسرى الذين جيء بهم أمامه مكبلين في السلاسل والأغلال أمام إلهه، هذا إلى أننا نشاهد صور أبي الهول التي تمثل الملوك، وصور الحيوانات الخرافية، تلقي بالأعداء على الأرض وتمزقهم كل ممزق، ثم نشاهد كذلك صورًا رمزية ممثلًا فيها الفرعون قابضًا على نواصي طائفة من الأعداء، يضربهم برأس دبوسه أو بخنجره المعقوف.

كل هذه المناظر والصور والذكريات تشعرنا بأن القوم كانوا متعودين ذبح الأسرى من الأعداء تكريمًا لإلههم، والواقع أننا نجد على أقدم الآثار مناظر عدة ممثلة عليها هذه الذبائح، ويشاهد عليها كذلك جثث الأسرى مكدسة، وقد ذكرنا في الفصل السابق أن الدمى كانت توضع في المقابر مع الموتى لتحل محل زوجاتهم أو خدمهم الذي كان يظن أنهم يذبحون ويوضعون بجانب جثث سادتهم في الأزمان السحيقة. هذا وتدل الوثائق



صور بعض الحيوانات الخرافية.

التي في متناولنا على أنه عندما كان الإله يغض الطرف عن رهطه عند حلول أية كارثة أو نزول أي وباء، فإن القوم كانوا يلتجئون خوفًا من استمرار شرور هذه المصائب إلى الحيوان الذي تتقمصه روح هذا الإله، ويقودونه في صمت إلى الظلام الدامس بطريقة سرية، ويعملون على تخويفه وإرهابه بالتهديد أولًا، فإذا فشلوا في قضاء بغيهم عمدوا إلى عقابه بالإنذار ثم بالذبح.

على أن السحر لم يعدم القيام بدور هام في تاريخ الديانة؛ إذ كان القوم يستعينون به على قضاء حاجاتهم، سواء أكان ذلك تجيزه الشرائع أم تحرمه، وكان السحر في نظر عامة الشعب لا يتصل بالأشباح العدة التي تسكن في دنيا الأرواح فحسب، بل كان كذلك متصلًا بالمعبودات المحلية وبخاصة الآلهة العظام؛ لأن الفضل في وصولهم إلى السلطان والنصر على الأعداء يرجع إلى فنونهم السحرية، وكان في ركاب هؤلاء الآلهة عدد عظيم من الخدم لا يختلفون في شيء عن الأشباح المخيفة لا في طبيعتهم ولا في أسمائهم ولا في شكلهم الظاهري؛ إذ هم في الواقع كانوا مجموعة من الحيوانات المختلفة الأنواع والأشكال إلى حد بعيد، وكانت معرفة صفاتها الخاصة وأسمائها وأساطيرها السلاح الرئيسي في علم السحر؛ إذ به يمكن الإنسان أن يجبرها ويقهرها على خدمته، وتأتي بنتائج لحسابه الخاص لها نفس التأثير الذي كان يصل إليه الإله بنفس الطرق، وقد بقي تراث هذه الاعتقادات في مصر إلى يومنا هذا في استخدام الجن وخدامها.

ويرى المطلع على تاريخ الديانة المصرية أنها كانت في بدايتها مصطبغة بصبغة مظلمة قاتمة؛ إذ نجد معظم الآلهة تتألف من كائنات خبيثة مؤذية تبعث دائمًا على الخوف والقلق، فنشاهد بجانب الحيوانات الأليفة مثل الثور والكبش حيوانات أخرى متوحشة مؤذية، وهي التي كانت تعبد بكل إخلاص وتفانٍ، كالثعبان والذئب وغيره،

ولا غرابة إذا كنا نجد في صلوات الأموات ودعائهم، وكذلك في التعاويذ السحرية التي تستعمل في الحياة العامة أن دنيا بني الإنسان وكذلك عالم الأرواح كانت آهلة بالقوى الشريرة، وهذا الاعتقاد نجده نافذًا إلى كل أساطير الآلهة. إذ الحقيقة أن تلك القوى مشبعة بحب الدم وأعمال العنف والشدة، وقد لعب الإله «رع» نفسه دورًا عظيمًا في أعمال القسوة؛ إذ أهلك بني الإنسان في سالف الأزمان بوساطة الإلهة «سخمت» التي هي على شكل امرأة برأس لبؤة، والأسطورة التي حفظت لنا يقال إنها تمثل عين «رع» وإنها نفس الإلهة «حتحور»، وهذه الأسطورة هي أحدث الأساطير التي كتبت عن الإله «رع»، وتظهر فيها الناحية الإنسانية بشكل جلي، ولذلك نقشت على كثير من مقابر الملوك، وتتلخص فيما يأتي:

«كان «رع» في سالف الزمان يحكم الآلهة والناس على السواء، ولكن على مر الأيام طعن في السن، وكانت عظامه من فضة وأعضاؤه من ذهب وشعره من اللازورد الحقيقي، ولكن الناس لاحظوا ذلك وتآمروا عليه، غير أن الإله عرف نواياهم وقال لأحد أتباعه: ناد عيني، وشو، وتفنت، وجب، ونوت، وكذلك الآباء والأمهات الذين كانوا معي وقت أن كنت في ماء المحيط «نون»، وكذلك ناد الإله «نون» … واجعلهم يأتون خفية حتى لا يراهم الناس، وحتى لا يستولي على قلبهم الفزع، وعليك أن تحضر مع هؤلاء الآلهة إلى القصر ليعرضوا وجهة نظرهم، فحضر هؤلاء الآلهة وسجدوا على بطونهم أمام جلالته، وقالوا: تكلم إلينا حتى نسمع ما ستقوله لنا، وعندئذ قال «رع» إلى «نون» أنت أيها الإله أقدم الكل والذي منه ولدت، وأنتم أيها الأجداد المقدسون انظروا إلى بني البشر الذين خلقوا من عيني لقد تآمروا ضدي، قولوا لي ما الذي تصنعونه ضد هذا العمل، ولن أقتلهم قبل أن أسمع ما تريدون أن تقولوه، فقال جلالة الإله «نون»: يا بني «رع» أنت الإله الذي يفوق والده وكل مخلوقاته في العظم، ابقَ على عرشك فإن الخوف الذي تنشره عظيم إذا صوبت عينك ضد المتآمرين.

وعندما صوب الإله «رع» عينه عليهم هربوا إلى الصحراء؛ لأن قلوبهم استولى عليها الهلع مما قاله، ومع ذلك فإن الآلهة نصحوا إليه أيضًا أن يرسل عينه لتقتفي أثر المتآمرين لتضربهم، فأرسل «رع» عينه التي نزلت إلى الأرض بصفتها الإلهة «حتحور»، ولكن هذه الإلهة عادت بعد أن قتلت الناس في الصحراء، وعندئذ قال جلالة الإله: أهلًا بقدومك يا «حتحور» … فأجابته هذه الإلهة: بحياتك، لقد كنت شديدة البأس بين الناس، وقد سر ذلك قلبي.

ولكن «رع» خاف أن تهلك «حتحور» الناس عن بكرة أبيهم في الغد، وقال: ائْتِ إليّ على وجه السرعة برسل سريعين يعدون مثل الظل، فأحضر إليه رسل من هذا النوع على وجه السرعة، وقال لهم جلالته: اعْدُوا إلى الفنتين، وأحضروا إليَّ مقدارًا عظيمًا من مادة «ديدى»، وأعطيت هذه المادة لحامل الخصلة في عين شمس، فطحنها هذا الملاك في حين كان الخدم يحضرون الجعة بالشعير، وبعد ذلك صبت هذه المادة «ديدى» في الجعة، فأصبح لونها كلون الدم … وشربت منها «حتحور» حتى ثملت وبذلك كفت عن فناء العالم، ولكن الإله «رع» المسن بعد أن خلَّص البشر من الفناء التام، لم يعد يرغب في الاستمرار في حكم هؤلاء المخلوقات الذين لا وفاء لهم، وقال: بحياتي، إن قلبي قد مل البقاء معهم، وعندئذ يدخل الإله «نون» ونادى بقربه بنته «نوت» التي على شكل بقرة، فاعتلى ظهرها الإله «رع» ورفعته إلى السموات العلى، وصارت منذ ذلك الوقت هي السماء، ولكن عندما طلَّت «نوت» من أعلى ارتجفت أعضاؤها بسبب ارتفاعها، ولكن «رع» نادى الإله «شو» وقال له: يا بني «شو» ضع نفسك تحت بنتي «نوت» واحملها على رأسك ففعل «شو» ما أمر به، ومنذ ذلك العهد كان يحمل البقرة السماوية التي على بطنها تسطع النجوم وتسبح الشمس في سفينة [انظر الفصل العاشر: آلهة المقاطعات].

ومنذ ذلك العهد كان يحمل «رع» على جبهته الثعبان السام، وهو الصل المخيف الذي ينفث النار في وجه الأعداء. كل هذه المظاهر تشعرنا بأن الديانة في بدايتها كانت قاتمة مظلمة، ولذلك يدهش الإنسان للخطوات الواسعة التي خطتها المدنية المصرية نحو الرقي الفكري عندما نقرأ تاريخهم في عهد الدولة القديمة، ولكن الواقع أن هذه الحقائق تحبذ الرأي القائل، بأنه قد مر على مصر عصر طويل من الثقافة، كان لا بد أن تمر به البلاد أوَّلًا لتصل إلى ما وصلت إليه في نواحي الحياة الأخرى التي ضربت فيها بسهم صائب، وكان لها أحسن تأثير في رقيها الفكري والأدبي والمادي، فمن ذلك أن تربية الماشية وزراعة الحقول وتنمية التجارة التي نتجت عن هذا الرقي والتقدم، أثَّر تأثيرًا حسنًا في أنظمة الحكومة وفي إقامة العدل وهذَّب أخلاق القوم، ومما جعلهم يتركون ظهريًّا كل الشعائر والطقوس الوحشية في كل مكان، حتى إنه لم يبقَ منها إلا رموزها، ولا أدل على ذلك من أنه منذ عصر ما قبل التاريخ قد اختفت الضحايا البشرية التي كانت تقرب في الطقوس الدينية، ولم يبقَ دليل على وجودها في سالف الأزمان إلا الدمى التي كانت توضع مع المتوفى في قبره، أو عادة دفن المقربين من الفرعون معه في القبر، أو ما نشاهد في عهد الدولة المنفية من بناء العظماء مقابرهم حول هرم مليكهم.»

ويدل تقريب الضحايا في مصر القديمة من بعيد على أن الآلهة كانوا في الأزمان السحيقة يحبون دماء الضحايا، وهذا يلاحظ من وضع طعام الضحية بعد ذبح الحيوان أمام المعبد على مائدة القربان أمام الإله، وهذه الأطعمة كانت تشتمل على لحوم ومشروبات، وفطائر وأزهار وغيرها، ولكن أهم شيء كان يقدم هو البخور، وكان يتمتع بكل هذه الأشياء الكهنة المطهرون والكهنة خدام القرين «الروح المادية».

ورغم ما وصل إليه المصري من المدنية والرقي فإنه استمر محافظًا على قصص الأساطير العتيقة المهوشة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المصري بطبعه كان محافظًا لا ينسى، فكان يحافظ على التقاليد القديمة مهما كانت سخيفة غير معقولة، وكان يستعملها في أغلب الأحيان في أمور السحر الذي كان من أهم ضروريات الحياة للمصري، ولا يهمه ما دام يصل إلى أغراضه أن يتبع كل الطرق السحرية سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، ولكن رغم هذه الأساطير كانت عند المصري فكرة نقية صافية عن الإله مما جعل العلاقة بين الناس يسودها وازع خلقي، سُدَاه العدل ولُحْمَتُه النظام المستتب، وهذه كانت منحة من الآلهة أيضًا، لأنهم وإن لم يكونوا أنفسهم مثلًا عليا للأخلاق، فإنهم رغم ذلك حماة النظام الخلقي، فيعاقبون من يهتك حرمة هذا النظام، كما يعاقبون من يتعدى حدود تعاليم الطهارة الجسمانية.

وقد مثل المصري العدالة التي تقوم على مبادئها كل المدنية المصرية وحسن سير الجماعة، منذ فجر التاريخ في هيئة إلهة (امرأة) حسناء تحمل فوق رأسها ريشة أو في صورة ريشة فحسب، وأطلق عليها اسم «معات» ونسبتها بنت الإله «رع» إله الكون وزوجها الإله «تحوت» المنشئ لكل مدنية العالم.

والواقع أن نشأة المدنية المصرية التي قوامها العلم والعدل والإدارة الحسنة في نظام الحكم، يرجع إلى أصل ديني، أو اجتهد المصري أن يعزوه إلى أصل ديني؛ وذلك لأن الدين كان متغلغلًا في كل مرافق حياته، ولذلك رمز لكل منها بصورة ملموسة أمام المجتمع يهتدي بهديها، فمثل إله العلم «تحوت» مثل بالطائر «إبيس» أو القمر وفي يده قلم وقرطاس،[٢] ومثل إلهة العدل بامرأة تحمل ريشة فوق رأسها رمز الدقة والعدالة، أما الإدارة ونظام الحكم فكان ممثلًا في الإلهة «سشات»، ومعناها «التي تكتب»، وتمثل

[٢] شبه منقار الطائر «إيبيس» (أبو منجل) بالقلم؛ إذ ينقر به (أي يكتب)، ولذلك سمى إله الكتابة والنقش.

على شكل امرأة جالسة على كرسيها وبيدها قلم وقرطاس تكتب فيه، وكانت تعد سيدة بيت الكتب، وتعتبر أول إلهة نقشت (أي كتبت)، وكانت وظيفتها أن تدون كل الأعمال الجليلة التي يقوم بها الملوك، وكانت تنقش أسماءهم على شجرة في معبد عين شمس، وهي والإلهة «معات» من رفاق الإله تحوت.

الفصل الثاني عشر

مصادر المقاطعات في العهد الفرعوني وما بعده

من المحتمل جدًّا أن يكون تقسيم البلاد إلى مقاطعات منذ أقدم عصور التاريخ المصري هو النظام الإداري السائد في بلاد الوجه القبلي، ويظهر أن علماء الجغرافية الذي اهتموا بجغرافية مصر القديمة يعتقدون أن عدد المقاطعات في البلاد قد بقي على ما هو عليه منذ الدولة القديمة، وبخاصة في الوجه القبلي ما بين «منف» إلى الألفنتين، وقد حدد هذا العدد باثنتين وعشرين مقاطعة، كما ذكرنا آنفًا [انظر الفصل التاسع: مقاطعات القطر المصري منذ أقدم العهود]، أما في الدلتا فيعتقدون أن العدد كان يتغير حسب الأحوال، ولكنه كان على أية حال ٢٠ مقاطعة منذ أقدم العهود، ولذلك يقول الأستاذ «إرمن»: إن تأليف البلاد من اثنتين وأربعين مقاطعة يحتمل رجوعه إلى عهد توحيد الصعيد والدلتا، وقد يجوز أنه تغير فيما بعد، إلا أن التقسيم القديم بقي تقليدًا متبعًا حتى العهد الروماني، ويظهر ذلك جليًّا في الاثنين والأربعين قاضيًا الذين كان يتألف منهم قضاة محكمة «أوزير» لمحاكمة المتوفى؛ أي إن كل قاض كان يمثل مقاطعة.

ولكن يظهر أن الأبحاث الحديثة بعضها يخالف هذا التقسيم وبخاصة في الدلتا، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أنه رغم تحديد عدد مقاطعات الوجه القبلي باثنتين وعشرين مقاطعة منذ الدولة القديمة، فإن المقاطعتين الحادية عشرة والتاسعة عشرة كانتا غالبًا تحذفان من قوائم المقاطعات لأسباب دينية؛ وذلك لأنهما يمثلان إله الشر «ست».

أما نظام عدد مقاطعات الدلتا فإنه لم يتم إلا تدريجًا، إذا صدقنا ما وجد على نقوش الدولة الوسطى. إذ لم نعثر في معبد الملك «سنوسرت الأول»، الذي كشف عن حجارته مستعملة ثانية في معبد الكرنك إلا على ست عشرة مقاطعة.

والواقع أن عدد المقاطعات لم يظهر أمامنا بصفة قاطعة مشتملًا على الاثنتين والأربعين مقاطعة، إلا على معابد الأسرة التاسعة عشرة، وبقي هذا تقليدًا حتى عهد البطالسة، ومن ثم أخذ يحدث تغيير وتبديل في أسماء المقاطعات وعددها كما سنشرح هنا.

وأهم المصادر التي استقينا منها معلوماتنا عن المقاطعات هي القوائم التي في المعابد وما كتبه الكتاب الإغريق واليونان.

وقد بدأ البحث في جغرافية مصر منذ أواسط القرن الثامن عشر.

وسنذكر هنا أهم المؤلفات التي عني فيها بالمقاطعات المصرية منذ القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا:

(1) Bourguignon d'Anville. Mémoires sur l'Egypte Ancienne et Moderne et une carte intitulée Ægyptus Antiqua, 1765 Paris.

دوَّن المؤلف في خريطته قائمة بالمقاطعات القديمة وعددها ٥٣، منها تسع وعشرون مقاطعة في الدلتا وعشرة في مصر الوسطى «هبتو مانا» بما فيها واحات صحراء لوبيا، و١٤ مقاطعة في مصر العليا، وقد ذكر في الفصل الخامس من هذا الكتاب الذي وضعه بعنوان وصف مصر مقسمة إلى مديريات، المصادر التي استقى منها معلوماته وهي ما كتبه «ديدور الصقلي»، و«استرابون» و«بليني» و«بطليموس»، ثم Deys le periegite, La notitia dignitatum, et synecdemos d'Hieroclés.

(2) Description de l'Egypte.

وهو الكتاب الذي ألفته البعثة العلمية التي أتت مع نابليون إلى مصر، وقد جاء فيه في الجزء الخامس «اللوحة الثامنة والخمسون» قائمة ناقصة بأسماء المقاطعات نقلًا عن النقود الرومانية.

(3) Quartremere, Mémcires géographiques et historiques sur l'Egypte 2 vol. Paris 1811.

وقد تكلم المؤلف في كتابه هذا عن المدن والقرى المصرية، ولكنه لم يتعرض للمقاطعات.

(4) J. Fr. Champollion; l'Egypte sous les Pharaons, ou recherches sur la religion et l'histoire de l'Egypte avant l'invasion de Cambyse. 2 vol. Paris 1814.

وقد لاحظ شمبليون في مؤلفه هذا تغيير المقاطعات في العصور المختلفة حسب ازدياد عدد المقاطعات في العهد الإغريقي الروماني، ولم يكن وقتئذ قد حل رموز اللغة المصرية. غير أنه قال: إن البلاد كانت مقسمة إلى ٣٦ مقاطعة، عشر منها خاص بقسم طيبة، و١٦ بمصر الوسطى، وعشر بمصر السفلى، وهذا العدد قليل جدًّا بالنسبة للعدد الذي ذكره أنفيل Anville ولكنه مساوٍ للعدد الذي ذكره «ديدور» و«استرابون».

(5) Tochon; Recherches sur les Médailles des nomes ou prefèctures de l'Egypte; Paris 1822. (P. 10–15).

وقد ساعد هذا المؤلف على تكملة المعلومات التي استقيناها من الكتَّاب الإغريق والرومان عن المقاطعات، ويرجع الفضل له في أنه أظهر لنا أن أسماء هذه المديريات قد نقلها الكتَّاب القدماء مختلفة، وأن المقاطعات التي ذكرها هيرودوت واستربون لم تكن كلها هي نفس التي ذكرها بليني وبطليموس، وأن النقود قد ظهر على أسماء أربع مقاطعات لم تكن معروفة للكتَّاب الأقدمين الذين ذكرناهم.

(6) J. Franz. Corpus inscriptionum, græcarum, 1853 (P. 282–284).

وقد خصص المؤلف في مقدمة كتابه فصلًا للمقاطعات التي ذكرها «هيرودوت» و«استرابون» و«بطليموس».

(7) G. Parthy. Zur Erkunde des Alten, Ægypten 1859. (P. 509–538).

قدم الأستاذ برتي مؤلفه هذا إلى أكاديمية برلين، وقد وضحه بست عشرة خريطة، الخمس الأولى منها خصصها للمقاطعات، التي ذكرها «هيرودوت» و«استرابون» وبليني وبطليموس، والنقود. أما الخريطة الباقية فمستقاة من الوثائق الحكومية للعهد الروماني.

(8) (a) Dumichen, Geographie Inschriften 2 vol.
(b) Dumichen, Geschicte des Alten Ægypten, Berlin, 1879.

ولم يذكر لنا المؤلف تفصيلًا في كتبه عن المقاطعات، وكل ما أشار إليه أن المقاطعات كان عددها في مصر يتراوح بين ٣٥ و٤٧ مقاطعة (انظر ص٣٠ من تاريخ هذا المؤلف) وذلك حسب ما جاء في النصوص المصرية.

(9) Brugsch.; Dictionnaire Géographique de l'ancienne Egypte 1879. Leipzig.

ويعتبر الأستاذ بركش المؤسس الأول في وضع مؤلف شامل لجغرافية مصر القديمة، ولم يبحث في كتابه موضوع المقاطعات إلا حسب ما جاء في القوائم المصرية القديمة، ويجد القارئ في أول هذا المؤلف قوائم بأسماء مقاطعات الوجه القبلي ومقاطعات الوجه البحري، وما يقابلها في الأطلال الباقية الآن في البلاد وكذلك أسماء الآلهة التي كانت تعبد في كل مقاطعة.

(10) Sayce. The Ancient Empires of the East. 1883. (Herodotus I–III).

ذكر لنا الأستاذ «سايس» أن المقاطعات كان يختلف عددها حسب العصور.

وقد وضع قائمة بالاثنتين والأربعين مقاطعة التي ذكرت في النقوش المصرية؛ ٢٢ للوجه القبلي و٢٠ للوجه البحري، ودوَّن اسم كل مقاطعة بالمصرية واسم عاصمتها، وكذلك بالإغريقية والعربية. هذا إلى أنه ذكر لنا بعض معلومات عن كيفية الحكم فيها منذ أقدم العصور الفرعونية حتى عصر البطالسة.

(11) J. De Rougé, Géographie de la Basse–Egypte et memoires des Nomes.

ويعد هذا المؤلف أحسن ما كتب عن جغرافية الوجه البحري، وقد كشف عن كثير من الموضوعات الغامضة. ثم تلاه الأستاذ درسي Daressy وكتب عدة مقالات ممتعة عن جغرافية مصر السفلى في عدة مجلات وبخاصة مجلة المتحف المصري، وقد جمع أخيرًا «ليبوفتش» فهرسًا بكل كتاباته في هذا الموضوع وغيره.

(12) Annales du Service “t XXIX P. 18–41”.
(13) Wiedmann. Herodots zweites Buch p. 442–574.

ولم يذكر لنا في كتابه هذا إلا أن عدد المقاطعات كان يختلف، فيقول إن كلًّا من ديدور واسترابون ذكر ٢٦ مقاطعة، وذكر بليني ٤٨، أما بطليموس فذكر ٤٧، وجاء على الآثار ٤٤ مقاطعة.

(14) Muller, Geographie de CI. Ptolomie Paris 1883–1890. Und Atlas.

وفي هذا المؤلف نجد قائمة جديدة عن مقاطعات الوجه البحري.

(15) A. Simaika. Essai sur la province romaine d’Egypte, Paris,1892.

وقد بين لنا الأستاذ سميكة المصري الجنس لأول مرة الأسباب التي أدت إلى الاختلافات في قوائم المقاطعات؛ إذ يقول (١) إن مدنا جديدة قد حلت محل مدن قديمة،

ومن أجل ذلك كانت العاصمة تتغير أحيانًا. (٢) كان يحدث أن تقسم مقاطعة عظيمة المساحة إلى مقاطعتين أو أكثر. (٣) كان العكس يحدث أن تضم مقاطعتان أو أكثر تحت سيطرة حاكم واحد، وذلك إما لصغرهما أو لقلة عدد السكان فيهما، وقد دوَّن المؤلف كذلك قائمة بأسماء المقاطعات.

(16) Steindorff. Die Ægyptische gau und ihre politische entwecklung, 1909 Leipzig.

فحص الأستاذ «شتيندورف» التغيرات التي طرأت على قوائم المقاطعات منذ العصر الصاوي حتى العصر الروماني، وبين أن القوائم التقليدية المنقوشة على معابد البطالسة لا توافق التقسيم المصري الحقيقي القائم في البلاد في عهد البطالسة، فمثلًا لم نجد بينها إحدى المقاطعات الهامة جدًّا وهي مقاطعة الفيوم الحالية؛ إذ بقيت على قوائم المعابد تكون جزءًا من المقاطعة الواحدة والعشرين في الوجه القبلي.

(17) Maspero, The Dawn of Civilization, London 1910.

كتب العالم العظيم مسبرو في كتابه هذا بعض معلومات قيمة عن المقاطعات من (٧٠–٧٨) ورسم خريطة للوجه القبلي وأخرى للوجه البحري، وبين عليهما كل المواقع القديمة وأسماء المقاطعات وما يقابلها في الأسماء العربية الآن.

(18) Ed. Meyer; Histoire de L'antiquite T. Il. L'Egypte jusqu'à LEpoque des Hyksos. Trad. Monet. 1914 Paris.

وقد أفرد هذا المؤلف العظيم فصلًا في كتابه هذا عن المقاطعات وآلهتها وقسم القطر إلى ٤٢ مقاطعة (ص٧٤–٨٦).

(19) (a) Petrie Historical studies vol 11 p. 22–29. The nomes of Egypt London 1911.
(b) etrie, Social Life in Ancient Egypt (46–47) London 1923.

درس الأستاذ بتري في كتابه المطالعات التاريخية نشأة المدن المصرية والمقاطعات، ثم وضع نتائج فحصه في قوائم منقولة عن قائمة من القوائم المدونة في معبد «سيتي الأول» بـ «العرابة»، وكذلك عن القائمتين الموجودتين في البردية المالية التي من عهد البطالسة، وعن قوائم استرابون وبليني وبطليموس والنقود الرومانية، ولم ينقل شيئًا قط عن قائمة هيرودوت.

أما في مقاله في كتاب «الحياة الاجتماعية عند المصريين»، فقد ذكر لنا أن سبب ازدياد عدد المقاطعات يعزى إلى ازدياد عدد السكان، وبذلك — حسب رأيه — أصبحت الست عشرة عاصمة التي كانت في القطر منذ أقدم عصور ما قبل الأسرات ١٧، ثم ازدادت إلى ٢٥ في عهد الدولة القديمة، ثم إلى ٤١ في عهد الدولة الوسطى، ثم ٦٧ في عهد الدولة الحديثة. أما عدد المقاطعات فإنه نزل من ٦٧ إلى ٥٧ في العهد الروماني؛ أي أصبح ٢٢ في الوجه القبلي و٣٥ في الدلتا. غير أن معظم هذه الأرقام لا ترتكز على حقائق علمية ثابتة، ولذلك لا تحتمل النقد.

(20) Hohlwein, L'Egypte Romaine Bruxelles; 1912.

وقد جمع المؤلف في كتابه هذا كل النتائج التي وصل إليها أسلافه عن المقاطعات، ثم قال: إن كتابات العصر الروماني وجد فيها ٧٦ اسمًا لمقاطعات، ولم يذكر لنا المقاطعات التي حلت محل مقاطعات أخرى.

(21) Budge. From Fetish to God in Ancient Egypt, London 1934.

وتكلم لنا الأستاذ بدج في كتابه هذا عن الأوثان التي كانت تعبد في المقاطعات.

(22) H. Dessau; Geschichte des Romischen Kaiserzeit II Band 2 Abteilung. Berlin 1930.

ويرى هذا المؤلف (ص٦٨٨) أن عدد مقاطعات القطر لا بُدَّ أنه كان في العهد الروماني أقل مما كان عليه في العهود التي قبله.

(23) Gauthieire; Dictionnaire des noms Géographiques contenus dans les Textes Hiéroglyphiques, 6 vol. Le Caire 1924.

وهذا القاموس يشمل كل الأسماء التي ورد ذكرها في النقوش المصرية سواء أكانت في مصر أم فيما جاورها من البلاد، وقد تكلم عن المقاطعات كل في مكانها حسب الحروف الأبجدية كما جاءت في النقوش المصرية.

(24) A. Moret; Le Nil et la civilisation Egyptienne, Paris 1926 (P. 47–80).

كتب الأستاذ «موريه» فصلًا هامًّا عن المقاطعات، وقسم القطر إلى ٤٢ مقاطعة حسبما جاء في النقوش المصرية، وتكلم عن نظام المقاطعة من الوجهة الإدارية والدينية،

وكذلك عن كيفية تكوينها بصورة واضحة جلية، ثم وضع قوائم بأسماء المقاطعات وعواصمها ورموزها وآلهتها، ورسم خريطة لكل من الوجه القبلي والوجه البحري.

(25) Budge; Egyptian Hieroglyph Dictionnary. 2 vol. 1920.

وقد خصص الأستاذ بدج فصلًا خاصًّا لكل الأسماء المصرية الجغرافية والمقاطعات المصرية التي جاءت في النصوص المصرية.

(26) Sethe; Urgieschichte und Alteste Religion Der Agypter. 1930.

أفرد الأستاذ «زيته» في كتابه هذا فصلًا عن مقاطعات مصر وشرحها شرحًا علميًّا من الوجهة الدينية والاجتماعية، ووضع في نهاية كتابه خريطة للوجه القبلي وأخرى للوجه البحري وبيَّن فيها المقاطعات.

(27) Jacques Pirenne. Histoire des Institutions et du Droit Prive de J'ancienne Egypte. Bruxelles 1932.

وقد أفرد في الجزء الأول من مؤلفه هذا فصلًا عن المقاطعات حسب التقسيم التقليدي، أي ٤٢ مقاطعة، ووضع خريطة لكل من الدلتا والوجه القبلي.

(28) Gauthier, Les Nomes d'Egypte depuis Hérodote jusqu'à la Conquête Arabe. Le Caire 1935.

وهذا المؤلف يعد أحسن ما كتب في الموضوع، لأنه جمع آراء كل من سبقه وناقشها وتكلم عن كل مقاطعة منذ نشأتها حتى النهاية، وكذلك قد وضع الأستاذ جوتيه فهرسًا ممتعًا لكل ما كتب عن جغرافية مصر في كتاب سماه:

(29) Bibliographie des études de Géographie historique Egyptienne 1920, dans Bull. de la Soc. Sultanieh de Géographie d'Egypte t. IX

(١) مصادر فصل الديانة

إن كل ما وصل إلينا من النقوش والكتابات المصرية القديمة يكاد يكون في معظمه دينيًّا أو له علاقة بالشعائر الدينية، ولا غرابة في ذلك؛ إذ إن ما بقي لنا من تراث القوم قد عثر عليه في المقابر أو المعابد لغرض ديني، ولذلك لا نكون مغالين إذا قررنا هنا أن كل نقش أو كتابة على البردي عثر عليه حتى الآن، ولو كان في ظاهره خاصًّا بالتاريخ أو

الطب أو الاجتماع، فإنه وضع في الأصل لقصد ديني أو له مساس بالدين، من أجل ذلك سنكتفي هنا بذكر أهم المصادر الأصلية التي لها علاقة مباشرة بالدين، ثم نذكر الكتب التي وضعها علماء الآثار عن الديانة المصرية منوهين بقدر ما تسمح به الأحوال عن مضمون كل مؤلف ونظريته في الديانة المصرية، وكذلك سنذكر هنا بعض المؤلفات التي كتبها العلماء عن بعض الآلهة المصرية سواء أكانت في كتب منفردة أو مقالات في مجلات علمية.

(١-١) أهم المصادر الأصلية

(1) Le Livre des Pyramides, par Maspero. 1882–1892, Rec. Tr. 4–14.

متون الأهرام: وهي النقوش التي وجدها العالم مسبرو منقوشة على جدران أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة في سقارة عام ١٨٨١, وتعد أقدم مجموعة من التعاويذ الدينية التي وصلت إلينا من أقدم العصور، وقد ترجمها الأستاذ مسبرو بسرعة.

(2) Die Altagyptischen Pyramiden texte. 4 Vol. Leipzig. 1908–1922.

متون الأهرام: جاء بعد مسبرو العالم الألماني «زيته» وطبع متون الأهرام كرة أخرى بعد أن راجعها ونقحها وكتب شروحًا عليها، ثم أخذ يعد في ترجمة لها ولكن وافاه القدر قبل أن يتم عمله، وبعد موته نشر الأستاذ «جربوف» العالم الألماني ما تركه «زيته» مترجمًا في أجزاء ظهر منها أربعة باسم.

(3) Sethe; Ubersetzung Und Kommentar zu den altagyptischen Pyramiden texte; Gluckstadt und Hamburg. 1939.

(4) Speelers, Comment faut-il lire les textes des Pyramides Egyptiennes? Bruxelles 1934.

هذا الكتاب محاولة من مؤلفه لترجمة متون الأهرام بالفرنسية ولكن الفرق عظيم بينه وبين ترجمة الأستاذ «زيته» الذي خصص حياته لدرس هذا الموضوع.

(5) Textes Religieux par Pierre LACAU. (Rec. de Travaux) Vol. 26–31 et Tirage â part, Paris 1910.

هذه النقوش أكبر مصدر لنا عن الديانة في عهد الدولة الوسطى، وهي مكتوبة على جدران التوابيت الخشبية لهذا العصر.

والواقع أن توابيت الدولة الوسطى منبع فياض من المعلومات عن المتون الجنازية فالتوابيت التي تم نقشها من الداخل في هذا العصر تحتوي على سلسلة فصول وضعت تحت تصرف المتوفى، وقد كتبت بالخط الهيراطيقي، وتشغل في العادة النصف الأسفل من جهات التابوت الأربع، وأحيانًا تشغل كل قعر التابوت والغطاء، وهي تكون جزءًا هامًّا أساسيًّا من تصميم التابوت، وهذه المتون في الواقع منقولة عن متون الأهرام التي كتبت على جدران حجرة الدفن فيها، وبعد ذلك كتبت على جدران المقابر في عهد الأسرة الحادية عشرة، ثم بعد ذلك كتبت في داخل التابوت عندما اعتقد المصري أنه أصبح مختصرًا لحجرة الدفن، وقد صارت القاعدة بعد ذلك في الدولة الوسطى، ولكن فيهما بعد عندما أصبح التابوت يُعمل على شكل آدمي — كتبت هذه النقوش على ورق البردي ووضعت بجوار المومياء، ومجموع هذه الفصول أطلق عليها علماء الآثار «كتاب الموتى».

ومتون الأهرام وكتاب الموتى ليس فيهما إلا فصول قليلة مشتركة، والظاهر أن كلًّا منهما منفصل عن الآخر، ولكن متون توابيت الدولة الوسطى تشتمل على عدد يكاد يكون متساويًا من فصول متون الأهرام ومن كتاب الموتى، فهي في الواقع همزة الوصل بين الاثنين، وتبين بوضوح أن كلًّا من المتنين يشترك في غرض واحد، وكل محتويات هذه المتون هي تعاويذ من نوع واحد تضمن لمن يعرفها من المتوفين الخلود في الأحوال المختلفة في الحياة الآخرة في القبر.

يضاف إلى ذلك أن توابيت الدولة الوسطى تحتوى على عدد عظيم من الفصول لم نجدها لا في متون الأهرام ولا في كتاب الموتى، وبذلك تزيد في معلوماتنا عن الديانة المصرية. والحقيقة أن الإنسان ليدهش من تدرج المعتقدات الدينية. إذ نجد أن كتاب الموتى يضم أحيانًا نحو ١٨٠ فصلا التي لا يشك في أنها مختصر لمجموعة عظيمة جدًّا من الفصول الدينية، أما متون الأهرام فقد عثرنا دفعة واحدة على ٤٥٣ فصلًا، ولا تزال الفصول الدينية التي من عهد الدولة المتوسطة تزداد بازدياد الكشوف، وقد قام أخيرًا المرحوم الأستاذ «برستد» بالإشراف على طبع كل هذه المتون بمقارنة بعضها ببعض ووكل أمر ذلك للعالم الهولندي «دي بك».

(6) De Buck. The Egyptian Coffin Textes, Chicago, 1935.

وقد ظهر منه للآن جزءان.

أما كتاب الموتى الذي أشرنا إليه فقد طبعه أوَّلًا.

(7) Naville, Das Ægyptische Todtenbuch der XVIII bis XX Dynastie Berlin 1886.

وهذا الكتاب يعرف عند الأثريين خطأً بكتاب الموتى، والواقع أن يحتوي على عدة فصول وتعاويذ تساعد المتوفى في آخرته وتعاونه على الحساب أمام الإله الأكبر «أوزير»، وكذلك لخروجه ودخوله في القبر وسياحته إلى عالم الآخرة، وهذه الفصول وجدت مكتوبة على بردي موضوعة مع المتوفى في تابوته منذ الأسرة الثامنة عشرة، وتعتبر هذه التعاويذ المرحلة الثالثة في نمو الأدب الديني عند المصريين، ومعظمها يرتكن على السحر، وقد ترجم كتاب الموتى هذا عدة علماء، ولكن أحسن مرجع يمكن الاعتماد عليه مؤقتًا هو:

(8) Le Page Renouf. The Lifework of Sir Peter Le Page Renouf, IV Vol. Paris 1907.

(9) Le livre des morts, dans la Revue de l'histoire des Religions XV.

(10) Grapow. Religiose Urkunden 3 Bande, Leipzig 1915–1917.

وقد ناقش المؤلف في هذا الكتاب بعض فصول كتاب الموتى وترجمها.

(11) Schott. Urkunden Mythologyschen inhalts. Leipzig 1929.

ويمتاز هذا الكتاب بأنه يحتوي على متون دينية من العصر المتأخر ولكنها مترجمة.

ننتقل بعد ذلك إلى ما كتبه علماء الآثار من الكتب عن الديانة المصرية القديمة، وأهمها ما يأتي:

(1) ERMANN, Die Religion der Ægypter. Berlin 1934.

يعد الأستاذ إرمن من أكبر علماء الآثار واللغة المصرية، وقد بحث في كتابه هذا الديانة المصرية واستعرض فيه الآلهة المصرية والمعتقدات المتضاربة التي وجدها في ديانة القوم، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية.

(2) Wild; La religion des Egyptiens, Paris 1937.

(3) Breasted; Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. New York. 1912.

يعد هذا الكتاب من أمتع الكتب التي كتبها الأستاذ «برستد» عن ديانة المصريين، وقد بنى كل استنتاجاته على متون الأهرام، وشرح فيه بوجه خاص الفرق بين عبادة الشمس وعبادة «أوزير».

(4) Roeder. Urkunden zur Religion des Alten Æegypter, lena 1915.

جمع الأستاذ ريدر في هذا الكتاب عدة متون دينية من كل العصور وترجمها.

وكتب لها مقدمة ممتعة لمن يريد البحث في تاريخ الديانة المصرية وتطوراتها ويظن أنها ديانة وحدانية.

(5) Maspero. Etudes de Mythologie et Archéologie Egyptienne 8 vol. Paris. 1893–1916

ويجد القارئ في هذه المجلدات أبحاثًا عدة في نقط عويصة في الديانة المصرية القديمة تناولها بمهارته وإلهامه وعلمه المشهور، ويلاحظ في كتابة الأستاذ مسبرو أنه يعتقد أن الديانة المصرية القديمة هي عبارة عن ديانة شرك فيها متناقضات كثيرة، إذ نجد عند القوم في عهد واحد الوثنية، والشرك، والتوحيد، هذا هو رأي الأستاذ أرمن كما ذكرنا آنفًا.

(6) Sayce. Religion of Ancient Egypt. Edinburgh. 1913.

ويقول المؤلف إن الغرض من كتابه هذا عن الديانة المصرية أن يفسر القدسية بين المصريين القدماء وأن الديانة المصرية تفسر قول الإنجيل: «إن نور الله ينير لكل من أتى على الأرض.»

(7) Steindorff. The Religion of the Ancient Egyptian.

هذا الكتاب يحتوي على سلسلة محاضرات ألقاها الأستاذ ستيندورف عن الديانة المصرية وشرح نواحيها وأظهر أنها بشير تقدم الديانة الموسوية والديانة المسيحية، وقد ترجم إلى اللغة العربية وطبع بمطبعة المعارف.

(8) Max Muller, Egyptian mythology, Boston 1923.

طبع هذا الكتاب بعد وفاة صاحبه، ويحتوي على كل الأساطير التي جاءت في كتب الديانة والآلهة عند قدماء المصريين.

(9) MORET. Le Rituel divin journalier en Egypte, Paris 1902.

وقد بحث في هذا الكتاب الطقوس والشعائر الدينية التي تؤدى في المعابد المصرية.

(10) PETRIE; Religious life in Ancient Egypt 1924.

وقد تكلم الأستاذ بتري في هذا الكتاب عن الحياة الدينية في مصر، وشرح ديانة الحكومة وديانة الشعب حسبما يرى هو.

(11) Reisner. The Egytian conception of Immortality, 1912.

بحث الأستاذ ريزنر في هذا المؤلف عقيدة المصري عن الحياة الآخرة بعد الموت، وتكلم عن معنى «كا» ومعنى «با»، وعن الاستعدادات التي كان يتخذها المصري ليحيا في قبره.

(12) Budge. From Fetish to God in Ancient Egypt. Oxford 1934.

ضمن الأستاذ «بدج» في هذا الكتاب كل آرائه وانتهى إلى أن المصري يعتقد في إله واحد، وأن الآلهة الأخرى ما هي إلا من خلق هذا الإله الأكبر.

(13) Wiedemann, the religion of the ancient Egyptian, London 1897.

بحث في هذا المؤلف الأستاذ «فيدمان» موضوع ديانة المصريين القدماء بطريقة خاصة. ويرى في كتبه أن المصري كان لا يفهم الديانة بالمعنى الذي نحن نفهمه؛ أي إنها مجموع عقائد، بل يعتقد أن المصري كان عنده أفكار دينية فحسب، أما الديانة كما نفهمها فلم تخطر بباله، وقد جاراه في ذلك الأستاذ نافيل في كتابه.

(14) Naville, la religion des Egyptiens, Paris 1906.
(15) Loret, L'Egypte au temps du totémisme. Paris 1906.

وفي هذا المؤلف يبدي رأيه الأستاذ «لوريه» بأن الديانة المصرية القديمة يرجع أصلها إلى عبادة الرمز.

ويجب أن نشرح في كلمات مختصرة الفرق بين لفظة Totémisme ولفظة Fétichisme.

فالرمز هو الجد المشترك للحيوانات الحية فعلًا من نفس جنس الحيوان المقدس، وقد يكون إنسانًا، وفي هذه الحالة يكون رب القبيلة التي هو منها.

ويمتاز الرمز «التوتم» عن الوثن، أن الأول ليس فيه أية قوة سحرية، وأنه إله عادي لا يمثل أية قوة طبيعية، ولذلك أمكن اعتبار عبادة بعض الحيوانات في مصر أنها ترجع في أصلها إلى رموز كالثور والثعبان والتمساح.

أما الوثن أو الوثنية فهي في أصلها الاعتقاد بأن تملك شيء خاص يمكن أن يمنح مالكه المساعدة أو الحماية التي توجد في الروح أو القوة الكائنة في هذا الشيء.

وهناك طائفة من العلماء يعتقدون أن الوثنية هي الفترة الأصلية للفكرة الدينية، على أن ما يميز الوثنية عن عبادة الأصنام، أن الأصنام في نظر المستنيرين من عبادها تمثل الإله فحسب، أي إنها رمز يرفرف فوق الروح الإلهية.

(16) A. Moret; Le Nil et la civilisation Egytienne Paris 1926.

وقد وضع فيه الأستاذ موريه كل نتائج أبحاثه في التاريخ والديانة المصرية، وهي في الواقع ملخص كل كتبه التي كتبها طوال حياته عن مصر، ويعتقد أن الديانة المصرية مبنية على السحر وقوته في كل كتبه.

(17) Le Page Renouf; Lectures on the origin and growth of Religion London 1880.

يرى المؤلف في كتابه هذا أن الدين المصري القديم يكون وحدة.

(18) Brugsch, Religion und mythologie der Alter Ægypten.

ويعتقد الأستاذ «بركش» أن الديانة المصرية مادية أكثر منها روحية.

كتب عدد عظيم من علماء الآثار كتبًا خاصة ببعض الآلهة المصريين أو أفردوا لها مقالات ممتعة في بعض المجلات العالمية المشهورة وسنورد هنا أهمها:

(1) Mallet; le culte de Neit A Sais Paris, 1888.

بحث فيه المؤلف عبادة هذه الآلهة من البداية حتى آخر الكشوف التي عملت في عهده ولكن ظهرت آراء جديدة بعد ذلك.

(2) Junker, Die onurislegende, Vienne 1917.

وقد كتب الأستاذ «ينكر» هذا المؤلف القيم ردًّا على مقال كتبه الأستاذ «زيته» عن «عين الشمس»، ويعد هذا الكتاب من أمتع ما كتب في الديانة المصرية.

(3) W. Budge. Osiris the Egyptian Resurrection 2 vol. 1911

وقد شرح في مقدمته آراء العلماء في الديانة المصرية، ثم ختمها بقوله: إن المصريين يعتقدون في إله واحد وإن الآلهة الأخرى من مخلوقاته، ثم قال: إن الإله «أوزير» تقمص إنسانًا ليكون محسوسًا عند المصريين، وكذلك نسب الديانة المصرية إلى أصل أفريقي وأنها لا تختلف عن ديانة أهل السودان.

(4) Boylan. Thot, the Hermes of Egypt. London 1922.

تكلم الأستاذ بيلان في كتابه هذا عن علاقة هذا الإله بالإله «أوزير» والإله «رع». وكذلك شرح وظيفته باعتباره إله القمر وبين مكانته في تاسوع عين شمس، ثم شرح مكانته بصفته المؤسس للنظام الاجتماعي والشعائر المقدسة وموقفه من الآلهة الثمانية في الأشمونين.

(5) “SET”. E. Meyer. “Set–Typhon” Leipzig 1875.

ورغم أن هذا المؤلف قديم فإنه لا يزال أهم مصدر لمعرفة عبادة الإله «ست».

(6) Sethe; Amon und die acht Urgôtter von Hermopolis. Berlin 1929.

بحث الأستاذ «زيته» في كتابه هذا منشأ عبادة الإله «آمون» وعبادته المحلية ثم تدرجه إلهًا للدولة، ثم علاقته بالآلهة الثمانية التي تعبد في «هرموبوليس» (الأشمونين الحالية)، وهذا الجزء الأخير من الكتاب غامض، وقد كتب الأستاذ «ينكر» مقالًا انتقد فيه مؤلف الكتاب في بعض النقط، وبخاصة أنه أثبت أن «زيته» قد أخطأ في قوله: إن الإله «آمون» هو إله الهواء.

(7) “NUT”. BUSCH, Die Entwicklung der Himmelgôtten, Nut zur einer Totengotheit. Leipzig 1922. A. Z. 67. 1931 P. 52

شرح في مقاله هذا موقف الإلهة «نوت» إلهة السماء وعلاقتها بالآلهة الأخرى.

وقد كتب الأستاذ «جربوف» مقالًا آخر عن هذه الإلهة تحت عنوان:

(8) Die Himmels gôtter Nut als Mutterschwein’in A. Z. 71 (1935 P. 45–47).

(9) Wiedemann. Maâ, déesse de la verite et son rôle dans le pantheon Egyptien, Paris 1887.

تكلم في هذا الكتاب عن العدالة والصدق ومعنى كل منهما عند المصري، وموقف الإلهة معات من العدالة في مصر.

(10) Isis et Osiris par Plutarque

ويعد هذا الكتاب المصدر الذي عرفت منه قصة «أوزير» قبل كشف اللغة المصرية، ولا يزال من أحسن المصادر التي يعتمد عليها رغم الشذوذ أحيانًا في بعض نواحيه.

(11) Le febure; Le mythe Osirien, Paris 1874–1875.
(12) Sethe, "ATOM" als Ichneumon in A. Z. 63. 1928 P. 50–53.
(13) Roeder, Das Ichneumon in der Aegyptische Religion und. Kunst. In Egyptian Religion. IV, 1936. P. I–48.

وقد عثر الأستاذ «زيته» على بعض نقوش ورسوم تثبت أن النمس أو فار فرعون، كان يمثل الإله آتوم في عين شمس ويسمى بالمصرية «عز»، وأنه يبتلع الثعبان عدو الشمس عند الغروب.

(14) Hopfner; Fontes Historae. Religionis ægyptiacae. Bonn. 1923–1925.

جمع الأستاذ هبفنر كل ما كتبه كتَّاب اليونان الذين زاروا مصر عن الديانة وعمل له فهرسًا ممتعًا.

(15) Wiedemann, Der Tierkult der alter Ægypter, Leipzig 1912.
(16) Theodor Hopfner. Der Tierkult Der alten Ægypter Wien 1913.

أول من كتب عن الحيوانات التي تعبد في مصر القديمة هو الأستاذ فيدمان، ولكن أتى بعده الأستاذ تيودور هبفنر بعشرين عامًا وتناول الموضوع من كل نواحيه، فكتب عن كل إله منذ ظهوره حتى العصر الإغريقي الروماني، وتكلم بإسهاب عن الحيوان الذي يعبد في كل مقاطعة.

(17) Sethe, Dramatische Texte zur Alteaegyptischen mysterien spielen Leipzig 1928.

وقد أظهر في هذا المتن أن فكرة التوحيد كانت موجودة عند قدماء المصريين منذ الأسرة الأولى، وهذا المتن في أصله يرجع إلى عبادة إله واحد في منف وهو الإله فتاح، ولكن الأستاذ «برستد» يقول إنه في الأصل كان للإله رع إله الشمس ثم نسب للإله فتاح رب منف فيما بعد.

الفصل الثالث عشر

الدول القديمة

الأسرتان الأوليان

يعد المؤرخون «مينا» أول ملك أسس الوحدة المصرية، وقد كانت له مهابة في قلوب الفراعنة الذين خلفوه، حتى إنهم ألَّهوه بعد موته، وبقيت عبادته زمنًا طويلًا، حتى إننا بعد مضي عشرين قرنًا على وفاته وجدنا تمثاله يحمل في مقدمة كل تماثيل الملوك الآخرين في احتفال ديني في عهد رعمسيس الثالث في معبده المعروف بمدينة هابو في الجهة الغربية من طيبة.

والظاهر أن الملوك الذين حكموا في خلال الأسرة الأولى يبلغ عددهم سبعة، واستمروا نحو ٢٠٠ سنة (٣٢٠٠–٣٠٠٠ق.م) وكذلك يمكننا أن نقول بأن الأسرة الثانية حكمت ما يقرب من ٢٠٠ سنة أيضًا (٣٠٠٠–٢٧٨٠ق.م) نشاهد من ناحية أخرى عند انبثاق فجروسنرى منذ هذا العصر السحيق أن النظام الحكومي والإداري الذي كانت تسير عليه البلاد كان على أسس متينة، حتى إنه بقي نحو ٣٠٠٠ سنة لم يطرأ عليه تغيير هام إلا في فترات قصيرة جاءت عرضًا، وسنتكلم على هذا النظام بشيء من الإيجاز الآن.

كانت كل القوة مجتمعة في يد الملك، وكان يعهد بتنفيذها إلى كبار رجال دولته، الذين كانوا ينوبون عنه، ومن المحتمل أن هؤلاء العظماء كانوا من الجنس المغير كالملك نفسه، وقد كانت الملكية قبل توحيد البلاد وبعده وراثية، وكان للمرأة حق وراثة العرش، وكانت حاشية الملك تؤلف من العظماء في عهده وأفراد أسرته، ولم تكن منف مركزهم، بل من المحتمل جدًّا أن يكون مركزهم «نخن» (الكوم الأحمر)، وقد نعت «مانيتون» ملوك الأسرتين الأوليين بالطينيين، ولكن ذلك لا يعني أن الملوك كانوا من بلدة «طينة»

القريبة من جرجا، ولا أن عاصمتهم كانت في هذه البلدة، بل جاء هذا النعت من أن ملوك هاتين الأسرتين قد شيدوا مقابرهم بالقرب من «طينة» المجاورة للعرابة المدفونة وهي التي شيد فيها قبر «أوزير» في المرتفع المسمى «أم القعاب»، والواقع أن أول من اتخذ «منف» عاصمة للملك هم ملوك الأسرة الثالثة والأسر التي أتت بعدها، وقد دفنوا في جبانتها بسقارة والجيزة، ولهذا السبب المزدوج قد سماهم «مانيتون» بالأسر المنفية.

وقد شوهد منذ أول الأمر أن الحاشية الفرعونية قد خلفت حولها جوًّا صالحًا من المدنية لا بأس به، شجع الفنون والصناعات المختلفة، فلم يكتف الأهلون كما كان الحال في عصر ما قبل الأسرات بصناعة الآلات والأواني من الحجر والعظم والعاج والفخار والخشب بدقتهم المعروفة، بل تخطوا ذلك إلى صناعة آلاتهم من المعادن والأحجار الكريمة وشبه الكريمة بمهارة فائقة، وكذلك نجد أن أعمال النقش والنحت التلوين والنسيج والنجارة الدقيقة وصناعة العاج والمجوهرات أخذت تتنوع وتكثر بدرجة عظيمة، ونشاهد منذ بداية هذا العصر التاريخي ظهور فن الطب وجمع المتون الدينية وتأليفها. وكان أعظم من ضرب بسهم وافر في الفنون هم المهندسون المعماريون الذين أظهروا براعتهم في تشييد المقابر الملكية، فكانت مقابرهم في بادئ الأمر حجرات بسيطة من اللَّبِن كافية فقط لأن تضم جثة الملك وأثاثه المأتمي المتواضع، ولكننا بعد ذلك نشاهد أنها أخذت تنمو وتتسع حتى أصبحت ضخمة متعددة الحجرات. ثم أخذت الأحجار الجيرية والجرانيتية تستعمل في بنائها شيئًا فشيئًا إلى أن بلغت مكانة هامة في تكوينها، وقد كان يقام حول هذا القبر الضخم مقابر أصغر حجمًا للأمراء والعظماء من رجال الحاشية وأسرة الملك نفسه، وكذلك نشاهد مقابر أصغر حجمًا من السابقة لعبيد الملك وخدمه الذين يعطف عليهم ويجعلهم يدفنون بجواره في دار الآخرة، ويجوز أنه كان يعتقد أنهم سيخدمونه في آخرته، وسنتكلم عن ذلك بإسهاب في حينه.

(١) ملوك الأسرة الأولى

أهمهم الملك مينا ويسمى أيضًا «نعرمر» وكذلك «عجا»، وقد تكلمنا عنه فيما سبق ثم الملك «زر» و«زت» فالملك «دن حسبتى»، «ودمو» ثم «عزايب» و«سمرخت سمنبتاح» (سمبس) والملك «قع». وسنذكر هنا ما نعرفه عن هؤلاء الملوك بقدر ما تسمح به معلوماتنا الضئيلة عن هذا العصر.

وأول ملك له أهمية عثر عليه بعد الفرعون مينا هو «زر» ويقرأ اسمه «خنت» أيضًا، وقد عثر على قبره في «العرابة» المدفونة بالقرب من باقي مقابر ملوك الأسرة الأولى، وقد ظن الأثري «أملينو» في بادئ الأمر أنه قبر الإله «أوزير»، ولكن هذا الخطأ قد استدرك عندما وجدت آثار عدة باسم الفرعون «زر»، ونرى منها أن الفن قد تقدم في هذا العهد، وقد وصل إلينا عن طريق الرواية أن هذا الفرعون كتب سفرًا في علم التشريح وأنه هو المؤسس لمدينة «منف»، ولكن هذا الزعم الأخير مشكوك فيه؛ إذ من المحتمل جدًّا أن «منف» لم تكن موجودة في عهده.

أما الملك «زت» (الملك الثعبان) فيمتاز عصره بالتقدم الفني الذي نشاهده في الأشياء التي عثر عليها في حكمه، وبخاصة اللوحة التي باسمه، وهي الآن في متحف اللوفر، وتدل على دقة الصنع بالنسبة لهذا العهد السحيق في القدم، ومن المدهش أنه عثر على اسم هذا الفرعون منقوشًا على صخرة في الصحراء الغربية بالقرب من مدينة إدفو، ولا نزاع في أن الذي نقش اسم هذا الفرعون هو رئيس إحدى الكتائب التي كانت ترسل إلى جهات البحر الأحمر، وقد كان الطريق من وادي النيل إلى البحر الأحمر يروده البدو الرحل منذ أقدم العهود، وقد كان يظن أنه وقف عليهم، ولكن هذا النقش قد برهن على أن المصريين كانوا منذ العهد الطيني يرسلون البعوث إلى الصحراء الغربية لاستغلال المحاجر والمناجم التي فيها، ولا يبعد أنهم وصلوا في سيرهم إلى شواطئ البحر الأحمر نفسه.

وقد كشفت حديثًا مقبرة في نزلة البطران يظن أنها لهذا الفرعون، وذلك لوجود بعض آثار باسمه فيها، غير أن ذلك لا يعد دليلًا قاطعًا على أنها مقبرته، وهذه الحالة تماثل القبر الضخم الذي عثر عليه حديثًا في سقارة، ووجدت فيه بقايا أوان كثيرة باسم الملك «حور عحا»، وليس هذا دليلا كافيًا أن هذا قبر «عحا»، وبخاصة إذا علمنا أنه كشف له عن مقبرة أخرى بالقرب من «العرابة» المدفونة، ووجد فيها آثار كثيرة باسمه.

وبعد هذا الفرعون يأتي الملك «ودمو» الذي كان يسمى أيضًا «دن»، وهو الذي قام بحملة ضد القبائل الرحل في شبه جزيرة سينا لمعاقبة قطاع الطرق الذين كانوا يغيرون على سكان الدلتا الغربية، والظاهر أنه أول ملك فكر في تنظيم مياه النيل وفيضانه في منطقة الفيوم، وقد فتح أبواب حدود بلاده للتجارة الخارجية بشكل عظيم، وحصن المدن ونمَّى موارد البلاد. وكان أول من حبس الأوقاف على المعابد، وبعد أن حكم مدة ثلاثين سنة كلها جهاد في خدمة البلاد دفن في مقبرة عظيمة في «العرابة» المدفونة، وهذه

المقبرة وجدت أرضيتها مكسوة بقطع من الجرانيت، وهذه الظاهرة تعد فريدة في بابها؛ إذ إن استعمال الجرانيت لم ينتشر إلا بعد زمن من عهد هذا الملك، وقد بقيت ذكراه حية في نفوس الأجيال التي تلت، مثل «مينا» نفسه. وقد عُزي إليه بعد موته بأجيال أنه ألف فصلا عن كتاب الموتى، ومما يجدر ذكره أنه أول ملك ذكر قبل اسمه لقب «نيسوت-بيتي» ويعني بذلك ملك الوجه القبلي والبحري.

وقد عثر لهذا الفرعون على لوحة من العاج مثل عليها احتفال تتويج الملك، وقد جاء ذكر هذا الاحتفال مرات عدة في حجر «بلرم»، وفي هذه اللوحة يشاهد الفرعون ممثلًا وهو لابس التاج الأبيض للوجه القبلي والتاج الأحمر للوجه البحري، وهذا رمز لتوحيد القطرين، وقد مثل كذلك مرة وهو جالس على كرسي الملك فوق مقعد، ومثل مرة أخرى وهو يجري بين ست علامات موزعة ثلاثة ثلاثة في صفين عموديين، وذلك بلا شك إشارة إلى الطواف الذي كان يقوم به الفرعون حول جدار رمزي (كما يُفعل حول الكعبة الآن)، وهذا الاحتفال كان من الطقوس التي كان لزامًا على الملك أن يقوم بها عند تتويجه.

وفي عهد «ودمو» يشاهد كذلك لأول مرة الاحتفال بعيد «سد» الذي كان يحتفل به عادة بعد انقضاء ثلاثين عامًا على تولية الفرعون الحكم، ولا نزاع في أن هذا العيد يرجع تاريخه إلى عهد بعيد جدًّا قبل «ودمو».

وقد عثر على مقبرة ضخمة لزوجته «مرت نيت» (محبوبة الإلهة نيت) معبودة صا الحجر في الوجه البحري، ووجدت أمامها لوحة مأتمية جميلة الصنع، ويعتقد بعض المؤرخين أن ملوك مصر في هذا العهد كانوا يتخذون زوجاتهم من الدلتا لتوطيد العلاقات بين القطرين.

وقد كشف حديثًا في منطقة سقارة عن مصطبة لأحد الإشراف الذين عاشوا في عهد هذا الملك ويسمى «حماكا»، وهذه المصطبة كبيرة الحجم؛ إذ يبلغ طولها نحو ٥٧ مترًا وعرضها ٢٦ مترًا وارتفاعها الحالي نحو ثلاثة أمتار ونصف متر، وهي مقسمة إلى ٤٥ مخزنًا تحوي الكثير من المخلفات الرائعة التي تدل على مبلغ ما وصل إليه الفن من الدقة والإتقان في ذلك الوقت، إذ وجد فيها مجموعة كبيرة من الأسلحة الصوانية لعلها أكبر مجموعة وجدت من عهد واحد، كما وجد كذلك أقراص من الحجر والنحاس والخشب والعاج تختلف شكلًا وحجمًا وسمكًا، وهي محلاة بمناظر بديعة وبعضها مطعم بقطع من المرمر، ولم يعرف بالضبط إلى الآن الغرض منها، ووجد غير ذلك عدد كبير من الأدوات الخشبية من فئوس ومناجل، وبعض لوحات منقوشة من العاج والخشب، منها

لوحة من الأبنوس من عهد الملك «زر» من ملوك الأسرة الأولى، وكذلك بعض صناديق خشبية وأكياس من الجلد داخلها أسلحة وألواح خشبية، وقد وجد على سدادة كيس منها ختم الملك «دن»، وفضلًا عن كل هذا فقد عثر على قطع من النسيج وسهام من الأبنوس والعاج لها أسنة من العظم والعقيق، كما وجدت أنواع مختلفة من الأواني الفخارية مقفلة بسدادات من الطين ختمت بأختام الملك «دن» و«حماكا» معًا، وكذلك وجدت مجموعة كبيرة من الأواني الحجرية ذات أشكال مختلفة.

كما أنه قد عثر في سقارة على جبانة لبعض العمال من طبقة الشعب من عصر هذا الملك، وهي تبين بوضوح الاتصال الفني بين ما وجد في مقبرة هذا الملك ومقابر الأشراف في عهده وبين مقابر هؤلاء العمال، وقد استدل على هذه النظرية من مجموعة الأواني الحجرية التي وجدت في مقابر العمال مماثلة لما وجد منها في مقبرة الملك «دن» ومقبرة وزيره «حماكا» في سقارة. وكذلك الأسلحة المصنوعة من الحجر الصوان ورءوس السهام وأدوات الزينة الأخرى التي وجدت في هذه المقابر، فنرى من ذلك أن الديموقراطية في ذلك العصر وصلت إلى الصناعة، فسوت بين ما يصنع للملوك والوزراء وأفراد الشعب مع الفارق في القلة والكثرة وبعض الفوارق في الدقة.

وتولى عرش الملك بعد «ودمو» ابنه «عزايب» من زوجته «مرت نيت»، ولسنا نعرف السبب الذي من أجله محا الفرعون «سمرخت» اسميهما حيثما وجدا، وقد ظن البعض أنه كان مغتصبًا للملك، ولكنا من جهة أخرى وجدنا أن اسم «سمرخت» نفسه قد محاه خلفه الفرعون «قع» وفي الوقت نفسه احترم اسم «عزايب» ولم يمحه، ولذلك يرجح أن «سمرخت» كان هو المغتصب، ولهذا السبب قد أغفل اسمه في قائمة ملوك سقارة.

ولما كانت معظم آثار الفرعون «عزايب» قد محيت، فإن معظم تاريخه بقي مجهولًا لنا تقريبًا، اللهم إلا بعض نتف حفظها لنا حجر بلرم، أهمها انتصاراته على قوم يسمون «أيونتيو» ومن المحتمل أنهم كانوا السكان الأصليين الأقدمين لمصر.

ولما كان هؤلاء القوم قد هزموا منذ حكم أتباع «حور» وشتت شملهم، وتفرقوا ثلاث فرق: واحدة منهم استوطنت شبه جزيرة سينا، والثانية في الواحات، والثالثة في بلاد النوبة، فإنهم بقوا جيرانا معادين لمصر يغيرون عليها كلما سنحت الفرصة، ولا شك في أن الحملة التي قام بها «عزايب» كانت لصد غارات هؤلاء القوم وتأديبهم وذلك حسب رواية حجر بلرم. وفي حكم هذا الفرعون قد نفذت لأول مرة عملية الإحصاء في التاريخ المصري.

أما الملك «سمرخت» فأهم ما نعرفه عنه أنه احتفل بالعيد «سد» الثلاثيني، وقام بحملة إلى وادي مغارة في شبه جزيرة سينا، وقد بقيت ذكرى هذه البعثة محفوظة إلى الآن في النقوش التي تركها هذا الفرعون في هذه الجهة وتعد أقدم نقش في هذه المنطقة، وفيها نرى الفرعون ممثلًا في ثلاثة مناظر: واحد منها وهو لابس التاج الأبيض ذابحًا الأعداء، وفي منظر آخر نراه يمشى لابسًا التاج الأحمر والتاج الأبيض وأمامه قائده، مما يدل على أن هذه البعثات كانت تأخذ صفة حربية في هذا لعصر.

وآخر ملوك هذه الأسرة الفرعون «قع» ولا نعرف عنه شيئًا سوى أنه احتفل بالعيد الثلاثيني لحكمه.

(٢) ملوك الأسرة الثانية

أول ملوك هذه الأسرة هو الملك «حتب سخموي»، وقد عثر له على تمثال راكع من الجرانيت مكتوب على كتفه أسماء ثلاثة ملوك، وفي عهده حدث انفجار أرضي في جهة تل بسطة مات بسببه خلق كثير، ومن المحتمل أنه زلزال وقع هناك لقرب المكان من منطقة أبي زعبل البركانية.

وخلفه على العرش الملك «نب–رع (كاكاو)»، والظاهر أنه دفن في سقارة؛ إذ عثر على أختام له تشير إلى ذلك، وقد ذكر المؤرخ المصري «مانيتون» أن «كاكاو» هذا قد دعا إلى عبادة العجل «أبيس» في منف والعجل «منفيس» في عين شمس، وعبادة الكبش في منديس، وذلك مما يدل على أن هذه الأسرة كانت متصلة بالسكان الأصليين، ويحتمل أنها أعادت عبادة الحيوان التي كانت في البلاد قديمًا، وقد عثر على إناء باسم هذا الملك في معبد «منكاورع» من ملوك الأسرة الرابعة.

وخلف هذا الملك على عرش مصر الفرعون «نتر–إن»، وقد عثر لهذا الفرعون على بعض آثار قليلة منها إناء للملك «نب–رع» أخذه «نتر–إن» لنفسه لغسيله اليومي، وقد عثر في منطقة الجيزة على مقبرة كبيرة وجد فيها خمسة أنواع مختلفة من الأختام لهذا الملك، وفي عام ١٩٣٨ عثرت مصلحة الآثار على جبانة تحت الأرض في سقارة يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية، وقد عثر فيها على بعض أوان عليها سدادات مختومة باسم هذا الملك، وقد ذكر اسمه كذلك على حجر بلرم، ونستخلص من النقوش أنه حكم أكثر من ٣٥ عامًا من غير شك، وقد ذكر أنه بنى قصرًا وأحضر عجل «أبيس» في العام السادس من حكمه، وآخر في العام الرابع عشر، وقد ذكر «مانيتون» أن هذا الفرعون

أمر بأن الملك يمكن أن تتولاه أنثى، وربما كان ذلك من العادات التي كانت مندثرة ثم أعيدت ثانية.

وكذلك نشاهد في عهده انتظام الاحتفال بالأعياد وبخاصة عيد «حور» الذي كان يعد الإله الحامي للمملكة، وعيد «سوكر» لأنه إله جبانة منف. هذا إلى أن عملية الإحصاء قد أخذت صبغة منظمة فكانت تعمل كل عامين.

وفي عهد خلفه «بر-إب-سن» حدث انقلاب عظيم، وذلك أنه أعاد عاصمة الملك ثانية إلى «العرابة»، وغير اسمه الحوري الذي كان يعد أقدم لقب للفرعون، إلى اسم الإله «ست»، وهذا الحادث فريد في التاريخ المصري.

ولا بُدَّ أن الملك كان قصده في ذلك كما ظهر على خاتم أحد موظفيه أن إله أمبوس قد أعطى حكم القطرين إلى ابنه «بر-إب-سن». أي إن الإله «ست» الذي حكم الوجه القبلي قبل أتباع «حور» هو الذي ولاه على البلاد وليس الإله «حور»، كما تؤكد ذلك التقاليد الفرعونية في مصر، وقد دفن الفرعون «بر-إب-سن» في «العرابة»، وقد بقيت عبادته محفوظة في سقارة إلى الأسرة الرابعة بجانب الفرعون «سنزي» الذي لا نعرف عنه شيئًا.

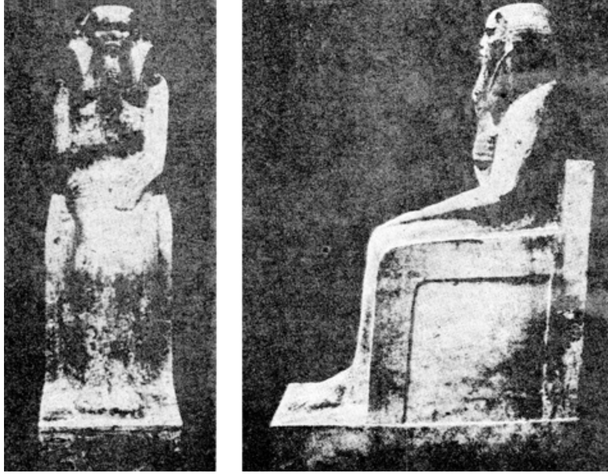
وقد ختمت هذه الأسرة بالملك «خع-سخموي» ولم يبقَ من آثاره إلا بعض أختام، وهي التي بها أمكننا أن نعرف سياسته الدينية، ومعنى اسمه (الاثنان القويان)؛ أي الإله «حور» والإله «ست» (رمز لتاج مصر المزدوج) ولكن الألقاب التي وجدت على هذه الأختام قد جاءت برهانًا ساطعًا على المقصود من انتخابه هذا الاسم، وتفسير ذلك أن الفرعون «بر-إب-سن» قد غير اسمه الحوري باسم «ست» ولكن الفرعون «خع-سخموي»، رجع إلى السياسة الحورية دون أن يتخلى عن سياسة «ست» فجعل لقبه الحوري الذي كان يوضع على وجهة القصر يجمع بين «حور» و«ست» معًا. غير أننا لا نعرف نتيجة هذه السياسة لقلة المصادر لدينا.

الفصل الرابع عشر

الأسرة الثالثة

وقد مكث حكم «خع سخموي» ١٥ سنة على أقل تقدير، ثم خلفه على العرش في منف الملك «نترخت-زوسر» ومن المحتمل جدًّا أنه كان أخاه الأصغر لا ابنه، ويعد المؤسس للأسرة الثالثة، وقد دام حكمه نحو ٢٩ سنة، وكان من أهم ملوك هذا العصر السحيق، ويعد إلى الآن أول ملك بنى لنفسه مقبرتين: واحدة منهما بصفته ملكًا للوجه القبلي وكانت على شكل مصطبة ضخمة من اللَّبِن مجهزة بمنحدر عميق وتتبعها عدة حجرات تحت الأرض وهي واقعة في شمال «العرابة» المدفونة في بيت خلاف، والمقبرة الثانية قد شيدت له باعتباره ملكًا للوجه البحري، وهي واقعة على الهضبة التي فيها جبانة «منف» وهي المعروفة الآن بسقارة، وهذه المقبرة تعد أقدم هرم عرف إلى الآن في التاريخ، ويقول بعض علماء الآثار: إن هذا البناء هو الحلقة المتوسطة بين المصطبة والهرم الحقيقي، ويعرف الآن بالهرم المدرج، والمهندس الذي وضع تصميم هذا البناء الغريب الذي يعتبر أضخم بناء من الحجر في عصره في وادي النيل هو «أمحوتب» الذي كان زيادة على نبوغه في الهندسة ملمًّا بعلم الطب وراسخ القدم في الإدارة، وقد كانت له شهرة عظيمة في عصره وما بعده، حتى إنه اعتبر كإله للطب، وقد بقي اسمه مخلدًا حتى عصر اليونان ولكنه حُرِّف إلى «أموتس» ومثلوه بحكيمهم المشهور «أسكليبوس».

وقد عثر أخيرًا على تمثال جميل للملك زوسر سردابه، وكذلك كشف عن عدة مبان له وبخاصة معبده الجنازي ومقبرتي ابنتيه، وهذه المباني تضع المهندس الذي وضع تصميمها في أعلى مرتبة من الشرف والعلم، وكذلك تشهد للعمال الذين كانوا يقومون بتنفيذها بالمهارة. والواقع أننا أمام هذه المباني نشاهد أول خطوة انتقال في تاريخ فن المعمار في تعميم البناء بالأحجار في وادي النيل؛ إذ نرى عمدها مضلعة تشبه العمد الدوريكية في الفن الإغريقي ومزخرفة بزخرف نباتي، ولكننا نشك في أن روح تلك المباني



تمثال الملك «زوسر».

الحجرية منقولة بذاتها عن المباني التي أقيمت بالخشب واللَّبِن في عهد الأسرتين الأولى والثانية، وهذا المعمار الذي يعتبر كأنه نوع من النجارة الدقيقة هو الحد الفاصل بين البناء الأولي باللَّبِن والبناء بالأحجار الضخمة التي ساد استعمالها وبلغت قمتها في الأسرة الرابعة في بناء الأهرام والمصاطب، وقد أرسل «زوسر» حملات إلى المحاجر والمناجم في شبه جزيرة سينا لإحضار النحاس والفيروز.

ويعد «زوسر» أول ملك توغل في نوبيا السفلى فيما وراء الشلال إلى المحرقة في منتصف الطريق إلى الشلال الثاني، وهو الذي ينسب إليه اليونان فتح الإقليم المعروف باسم «دوديكاشين» أي المنطقة التي يبلغ طولها نحو ١٤٣ كيلومترًا من الفنتين فصاعدًا.

وقد عثر أخيرًا في دهاليز هرمه المدرج على أوان من الأحجار الصلبة من المرمر والجرانيت والديوريت والإردواز وغيرها من أنواع الأحجار الصلبة النادرة ويبلغ عددها أكثر من ثلاثين ألفًا غير أن معظمها وجد مهشما، وربما يرجع ذلك إلى زلزال أرضي أو إلى أنها قد كسرت عمدًا لأسباب جنائزية، وقد وجد من بين هذه الأواني أشكال تنم عن منتهى الرقي في دقة الفن وحسن الذوق والأناقة والتنسيق إلى حد يعجز القلم عن وصفه، وقد وجد على بعضها أسماء الأشخاص الذين أهدوها إلى الملك مكتوبة بالمداد



الهرم المدرج.

الأسود، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن قطع الحجر اللازم لصنع بعض الأواني الكبيرة وتنسيقها ربما استغرق عامًا كاملًا من مجهود صانع واحد، وقد كان لهذا الكشف أثر عظيم في تحويل آراء علماء الآثار إلى الأهرام الكبيرة وعما عساه أن يوجد فيها من المخلفات.

وقد خلف «زوسر» بعض ملوك لا يزال تاريخهم غامضًا أولهم «سانخت» وكل ما نعرفه عن «سانخت» هذا أنه بنى لنفسه مقبرة في بيت خلاف بالقرب من مقبرة «زوسر»، ولم يعثر له على مقبرة أخرى في سقارة كما كان المنتظر، والظاهر أن هذا الفرعون حكم كل مصر؛ إذ وجدنا اسمه منقوشًا على صخور وادي مغارة في شبه جزيرة سينا.

وتولى العرش بعده ملك يدعى «حابا» ثم الفرعون «نفركا»، ولا نعرف عنهما شيئًا.

أما آخر ملوك هذه الأسرة فهو الفرعون «حو» ويدعى «حوني» أيضًا ومعناه «الضارب»، وقد أقام لنفسه هرمًا في دهشور في جنوب سقارة، وهو الحلقة الموصلة بين



معبد الهرم المدرج بسقارة.

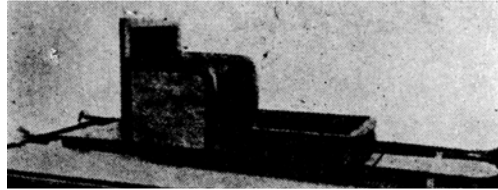
الهرم المدرج والهرم الكامل، وقد جاء ذكره في ورقة عثر عليها من عهد الدولة الوسطى تنص على أن «حوني» هذا هو السلف المباشر للفرعون «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة.

الفصل الخامس عشر

الأسرة الرابعة

عصر بناة الأهرام

لقد بقي تاريخ الأسرة الرابعة محاطًا بشيء كبير من الغموض رغم ظهور آثار ملوكهم للعيان، وشهرتها في كل العالم، وقد ظل الحال كذلك إلى أن قامت الحفائر العلمية في منطقة أهرام الجيزة على الهضبة التي أقيمت عليها الأهرام المعروف بأهرام الجيزة، فكان من أهم الكشوف إماطة اللثام عن مقبرة الملكة «حتب-حرس الأولى» أم الملك خوفو، وهي بنت «حوني» وقد تزوجت «حتب حرس» هذه من الملك «سنفرو» أول ملوك الأسرة الرابعة، ورزق منها بالملك «خوفو» ثاني ملوك هذه الأسرة.



كرسي من آثار الملكة «حتب حرس» موجود بالمتحف المصري.

(١) الملك سنفرو

هو أول ملوك الأسرة الرابعة، وقد أراد أن يقلد جده العظيم «زوسر»، فبنى لنفسه مقبرتين متقاربتين، وكلتاهما على شكل هرمي، وهما لا تزالان باقيتين إلى الآن، الأولى في دهشور جنوبي سقارة، والثانية في ميدوم في الشمال من مدخل الفيوم، والهرم الأخير يطلق عليه الأهالي اسم الهرم الكاذب لعدم انتظام شكله، ونحن نجهل تمامًا في أي هرم من الاثنين دفن الملك «سنفرو»، وفي عهده قامت حملة بحرية عظيمة إلى المواني السورية رجع منها المصريون بنحو أربعين سفينة محملة بالأخشاب للبناء قطعت من غابات لبنان، وقد كان الخشب يجلب من جهات لبنان لمصر بكل الوسائل لخلو جهات القطر المصري من الغابات، وكانت مصر في عهد هذا الفرعون مملكة متحدة ثابتة الأركان، وكانت كل القوة مجتمعة في يد الملك الذي حل محل رؤساء القبائل، ولما كان الملك هو الوارث لمعبود القبائل أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقي، فعندما ينتقل في أرجاء قصره أو خارجه كان لزامًا على رعيته أن يركعوا أمام جلالته الإلهية، ويُقَبلوا التراب الذي تحت قدميه، وعند تتويجه كان يقام له احتفال عظيم، ويعد يوم التتويج يوم عيد وأفراح، يحتفل به سنويًّا، ولما كان هو الواسطة بين الشعب وآلهته، فكان حقًّا مكتسبًا له أن يقوم مقام الكاهن الأكبر في كل المعابد وفي كل الطقوس الدينية، وكذلك كان الملك يعتبر في أعين عظماء بلاده وحاشيته أنه إله، وبعد وفاته كان القبر الذي يضم رفاته موضع تقديس كما يقدس محراب أي إله، وكانت حاشيته وعظماء البلاد تدفن حول قبره أو بالقرب منه حتى يقدموا له خدماتهم في دار الآخرة بنفس الولاء والإخلاص الذي تعودوه أحياء.

وكانت مصر تنقسم إلى مقاطعات ربما كانت هي التي سكنتها القبائل منذ عهد ما قبل الأسرات، وهي التي أطلق عليها اليونان كلمة «نوم» أي مقاطعة، وقد كان الوجه القبلي يتكون من ٢٢ مقاطعة من الشلال الأول إلى منف، وكان الوجه البحري يشمل ٢٠ مقاطعة — كما ذكرنا آنفًا — وفي عهد «سنفرو» كان لكل مقاطعة حاكم يعينه الملك يلقب بلقب «الأول بعد الملك»، وهذه التسمية تدل على أن حاكم المقاطعة كان تحت إدارة الملك مباشرة، وكان المسئول الوحيد أمامه في مقاطعته، لذلك كانت السلطة كلها في يد الملك، وكان الموظفون يتسلمون الأوامر من الفرعون وحده الذي كان في يده كل شيء، ولما كان الملك يسكن في الوجه القبلي فيظهر أنه لم يندب أحدًا ليمثله في تنفيذ أوامره في هذا القسم من المملكة، على خلاف الوجه البحري، فإنه كان ينيب عنه موظفًا كبيرًا يلقب

بحامل خاتم الملك في الوجه البحري، أو حامل الختم كما يسمى في عصرنا هذا، وكان ينتخب من الأسرة المالكة.

وكان تحت إدارة حاكم المقاطعة أو المديرية عدد من الموظفين يساعدونه على تصريف أمور المقاطعة، وأهمهم رجال القضاء والمالية، والظاهر أن قانون الوراثة بين أفراد الشعب كان يجري على نظام الأمومة، وكان كذلك عندما ينقطع نسل الذكور في الأسرة المالكة، فإن الملك الذي يتولى من غير الأسرة المالكة لا بُدَّ له من أن يتزوج بإحدى بنات البيت الملكي، وكان ذلك من الضروري حتى يأتي خَلَفُه يجري في عروقه الدم الملكي.

وقد كان للآلهة في هذا الزمن السحيق معابد من حجر على حين أن الملك كان يسكن في مأوى بسيط من اللَّبِن، أو من طين النيل المجفف في الشمس، ولم يكن لأحد الحق في أن يسكن في مساكن من الحجر إلا الموتى لأنهم كانوا يُعَدُّون كالآلهة.

وقد كان يظن أن معبد الملك خال من النقوش، ولكن الكشوف الحديثة دلت على أن معابد الملوك كانت منقوشة مثل الحجر التابعة لمقابر الأمراء وعِلْيَةِ القوم، وقد بدأت تظهر فيها النقوش البارزة والغائرة وتلون بألوان زاهية منذ الأسرة الثالثة، وهذه النقوش كانت تمثل مناظر من الحياة اليومية التي كان يشاهدها الميت في حياته، وكان الغرض منها أن تمثل للملك الحياة كما كان يتمتع بها وهو في دنياه، وفضلًا عن أن هذه الرسوم تعطينا فكرة تامة عن الحياة الاجتماعية في هذا العصر عند عِلْيَةِ القوم وعامة الشعب، فإنها تعطينا فكرة عن الفن في هذا الفن العصر ومقدار ما وصلت إليه الحضارة المصرية من جميع وجوهها، وقد ظلت الفكرة القائلة بأن هذه المناظر الاجتماعية ظهرت أوَّلًا في مقابر الأعيان والأمراء سائدة إلى أن كشف في العام المنصرم عن الطريق الجنازي الممتد بين معبد الوادي والمعبد الجنازي لهرم الملك «أوناس» آخر ملوك الأسرة الخامسة، وقد ظهرت على جانبيه نقوش ومناظر تدل دلالة واضحة على أن الملوك قد بدءوا في استعمال هذه المناظر أولًا، ثم قلدهم الأمراء وعِلْيَةُ القوم، وسنتكلم عن ذلك في موضعه.

(٢) الملك خوفو

هو ثاني ملوك هذه الأسرة وباني الهرم الأكبر الذي يعد مع الأهرام الأخرى في منطقة الجيزة من عجائب الدنيا السبع.

وقبل أن نتناول الكلام على حكم خوفو وأخلافه، سنتكلم بشيء من الإيجاز عن الأهرام عامة، حتى يتسنى لكل زائر لمنطقة الأهرام أن يعرف شيئًا عنها.



الملك «خوفو».

كان أول من أقام هرمًا من ملوك مصر هو الفرعون «زوسر»، وهو المعروف بالهرم المدرج بمنطقة سقارة، وقد أقام بعده «سنفرو» هرمين في منطقتي دهشور وميدوم كما ذكرنا، ولكن خوفو قد ترك هذه الجهات واختار لنفسه هضبة الجيزة ليقيم عليها هرمه الضخم، وربما كان السر في ذلك أن هذه الهضبة كانت قريبة من عين شمس مقر عبادة «رع»، وكذلك لأنها متسعة ومرتفعة لتجعل هرمه يشرف على كل ما حوله، يضاف إلى ذلك أن أحجار هذه الهضبة صالحة لقطع أحجار المباني لصلابتها ومتانتها، فكان من السهل عليه أن يقطع الأحجار منها ليقيم بها هرمه الضخم.

وبمقارنة أحجار هذه المحاجر بأحجار الأهرام وجد أنها نوع واحد، وبذلك هدمت النظرية القديمة، وهي نظرية «هيرودوت» القائلة بأن أحجار الأهرام كانت تجلب إليه من محاجر الجهة الشرقية من النيل «محاجر طرة»، وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه بعض الأثريين الحالين، والواقع أن الأحجار التي كانت تكسى بها الأهرام، هي التي كانت تجلب من محاجر طرة، وكذلك كانت تستعمل أحجار هذه الجهة لصنع التماثيل، ولعمل الأبواب الوهمية التي كان يكتب عليها النصوص الهيروغليفية، وذلك لملاستها وناصع بياضها وسهولة الحفر عليها، ومن ذلك يتضح أن موضوع بناء الأهرام لم يكن من الأعمال التي كانت تبذل فيها المشاق العظيمة التي كنا نقرؤها في الكتب القديمة

والحديثة، والمحاجر التي قطعت منها أحجار الأهرام ظاهرة واضحة بجوار كل من الأهرام الأربعة لمن يريد أن يراها الآن بعد أن أزيحت عنها الرمال والأتربة التي غطتها منذ آلاف السنين، ومما سهل بناء الأهرام كذلك كيفية رفع الأحجار عند قدماء المصريين، إذ قد ظل العالم إلى زمن قريب جدًّا يعتقد أن المصريين كانوا يبنون المزالق فقط لجر الأحجار عليها في بناء الهرم، ولكن الكشوف الحديثة برهنت على أن المصريين كانوا قد وصلوا في هذا العصر إلى استعمال «البَكَر» لرفع الأحجار، وقد عثر في حفائر الجامعة المصرية على بكرتين إحداهما وجدت بجوار الهرم الثاني، والأخرى عثر عليها في إحدى بيوت مدن الأهرام التي كشف عن جزء منها حديثًا شرقي الهرم الرابع، ومن كل ذلك يتضح للقارئ أن أجدادنا المصريين كانوا قد وصلوا إلى مدى عظيم في فن البناء واستخدام قوى الطبيعة، وقبل أن نصف الهرم الأكبر يجب أن نذكر كلمة عامة عن الهرم وملحقاته والغرض من بنائه.

اختلف علماء الآثار في تكييف شكل الهرم عند قدماء المصريين وأصل بنائه، والواقع أن أشكال الأهرام تختلف في منظرها وفي تركيبها في كثير من الأحيان، فمثلًا نجد الهرم المدرج في سقارة قاعدته مصطبة مربعة فوقها عدة مصاطب تصغر تدريجًا، وهناك هرم آخر قاعدته مربعة وفوقه عدة مصاطب مربعة أصغر من الأولى، ولكن بدون قمة، وهناك الهرم الرابع ويختلف عن الأهرام كلها، فإن قاعدته المربعة تحمل فوقها تابوتًا. وأحسن بناء هرمي تام أهرام الجيزة.

ويتبع البناء الهرمي عدة ملحقات مكملة له ومن لوازمه، وبدونها لا يعتبر هرمًا بالمعنى الحقيقي:

أوَّلًا: يكون للهرم في الجهة البحرية أحيانًا بابان، واحد في المداميك السفلى والثاني فوقه بقليل، وكل منهما يوصل إلى حجرة الدفن، ومن المؤكد أنه كان يوجد أمام الباب محراب صغير للعبادة.

ثانيًا: في الجهة الشرقية من الهرم كان يقام معبد ضخم يسمي «المعبد الجنائزي»، وهذا المعبد كان يتصل بمعبد آخر يسمى «معبد الوادي» بطريق مبني بالأحجار الضخمة المحلية يبلغ عرضه أحيانًا نحو ٢٥ مترًا، وفي وسطه طولًا أقيم ممر ضيق مسقوف، كان يستعمل لمرور الكهنة الذين كانوا يقومون بالمراسيم الدينية للملك من المعبد الجنائزي إلى معبد الوادي أو بالعكس، وهذا الطريق الذي كان يوصل بين المعبدين طويل جدًّا، وقد بلغ طوله نحو ٦٠٠ متر للهرم الثاني. ولما كان من المستحيل اختراق

هذا الطريق عرضًا كان ينحت في منتصفه نفق تحت الأرض، تسهيلًا للذين يريدون أن يعبروا الطريق عرضًا.

أما المعبد الجنائزي الذي يقام ملاصقًا لجدران الجهة الشرقية من الهرم، فكان يقسم قسمين: قسم يعتبر معبدًا للوجه البحري، وآخر للوجه القبلي، وعلى جانب معبد الوجه القبلي كان يحفر الملك لنفسه قاربين ليقوم فيهما بسياحته اليومية مثل الشمس؛ إذ كان الفرعون يعتبر نفسه بعد موته كالشمس؛ يولد صباحًا ويسبح في الأفق طول النهار في سفينة خاصة، ثم ينقل عند الغروب إلى سفينة أخرى ليقوم فيها بسياحته ليلًا، ثم يعود إلى الدنيا ثانية وهكذا، ولما كان المفروض أن سفينة الليل لا ترى فقد أخفاها المصريون عن العيان، وذلك بأن جعلوا لها سقفًا، ويبلغ طول سفينة النهار نحو ٢٩ مترًا وطول سفينة الليل نحو ٣١ مترًا، وقد وجد في الجهة البحرية من معبد الوجه البحري قاربان مماثلان لمركبي الوجه القبلي ولكنهما أقل حجمًا.

وفي محاذاة الهرم من جهة الشرق كذلك كانت تنحت سفينة ضخمة للحج إلى «العرابة» (؟) وقد بلغ طول هذه السفينة المحاذية للجهة الشرقية من الهرم الثاني نحو ٤٢ مترًا.

ثالثًا: وكان من مستلزمات الهرم كذلك أن يقام حوله سور ضخم حتى لا يقرب منه أحد غير الكهنة، وهذا السور كان يبني بالحجر أو باللَّبِن حسب مقدرة الفرعون.

رابعًا: وكانت تقام بالقرب من كل هرم مدينة مبنية باللَّبِن للكهنة والخدم الذين يقومون بأداء الواجب نحو الملك المتوفى، وقد عثر أخيرًا على هذه المدن في الجهة الشرقية من الأهرام، وكشف عن جزء كبير منها، غير أن معظمها لا يزال مطمورًا تحت الرمال، وربما تكشف لنا عن صفحة جديدة في الحضارة المصرية من ذلك العهد الغامض.

ورغم ما عثرنا عليه من التماثيل الجميلة والأواني الفاخرة في معبدي الوادي والجنائزي للهرم الثاني والثالث فإنه قد وضع جزء كبير منها؛ إذ قد هشم الثوار بعد الأسرة السادسة معظم مخلفات الأسرة الرابعة.

وقد عثرنا بجوار الهرم الثاني على بقايا أكثر من ٢٠٠ تمثال خلاف ما نقله الألمان إلى «ميونخ» و«هلدسهيم» من بقايا هذه التماثيل.

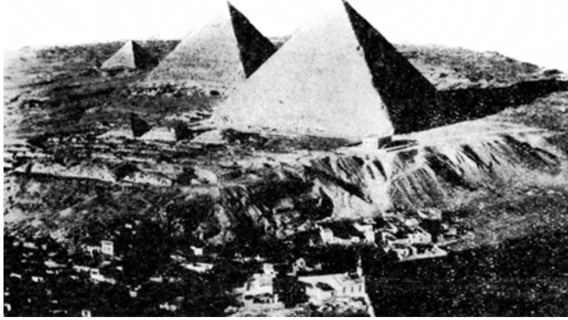
ورغم كل ما كشف حديثًا حول أهرام الجيزة، فإن معلوماتنا لا تزال ناقصة عن الهرم وكنهه، وإلى أن يكشف أحد الأهرام من كل جهاتها كشفًا علميًّا تامًّا فإننا سنبقى في الظلام وستبقي الأهرام سرًا غامضًا.

(٢-١) الهرم الأكبر

يعد الهرم الأكبر الذي بناه الملك «خنوم خوفو» (كيوبس) أضخم الأهرام الموجودة في مصر، وقد زالت كسوته التي شيدت من الحجر الجيري الأبيض المقطوع من محاجز طرة، ويبلغ طول قاعدته نحو ٢٢٧,٥ مترًا، أما ارتفاعه الحالي فيبلغ نحو ١٣٧ مترًا، ويبلغ حجمه نحو مليونين ونصف مليون من الأمتار المكعبة. أما عدد أحجاره فيبلغ نحو ٢٣٠٠٠٠٠، ويبلغ وزن كل منها ٢ ١/٢ طنًّا؛ أي إن مقدار وزن الهرم يبلغ نحو ستة ملايين طنًّا، وإذا علمنا أن سني حكم «خوفو» لم تتجاوز العشرين عامًا فإننا نقف حائرين أمام هذا المجهود الجبار الذي أقام هذا البناء الضخم في تلك السنين القليلة. هذا على الزعم القديم من أن الأحجار كانت تجلب لبنائه من محاجر طرة ولكن إذا علمنا أن الأحجار التي استعملت لبناء الهرم قطعت من محاجر مجاورة له، وأن البَكَر كان يستعمل لرفع هذه الأحجار، سهل علينا فهم المجهود العظيم الذي قام به «خوفو»، وبخاصة إذا علمنا أن جَمًّا غفيرًا من المصريين كانوا يشتغلون في بنائه طول مدة الفيضان من كل سنة، وذلك لخلودهم من أعمال الزراعة في فترة الفيضان، ولا تزال المساكن التي كانوا يقطنونها تشاهد منحوتة في الصخرة العظيمة الواقعة قبلي الهرم الأكبر، ولا شك أن السر في إنجاز هذا العمل العظيم بسرعة يرجع إلى تنظيم العمل وإدارته بالطرق الفنية.

ورغم أن الهرم الأكبر يعد أعجب شيء في مصر، فإنه لم يكشف عنه من كل جهاته، ولا يزال معبده الجنائزي ومعبد الوادي مطمورين تحت الأرض، والظاهر أن الطريق الموصل بين المعبدين كان ظاهرًا في عهد «هيرودوت»، وقد قال عنه أنه كان أعجب من الهرم نفسه، والآن تقوم حفائر في الجهة الشرقية من هذا الهرم في المعبد الجنائزي أوقفت فجأة، وقد عثر على صورة للملك «خوفو» منقوشة على أحد أحجار المعبد، وكذلك عثر على بعض نقوش وصور تدل دلالة واضحة. على أن المعبد الجنائزي للملك «خوفو» وجد عليه نقوش وكتابات، وبذلك هدمت النظرية القائلة بأن معبد الهرم الأكبر لم يكن عليه نقوش، والواقع أن رسم «خوفو» الذي عثر عليه هنا هو أول صورة معروفة له في

التاريخ، وآخر ما عثر عليه سفينتان للشمس يبلغ طول الواحدة منهما نحو ٥٥ مترًا، وسفينة أخرى يتوصل إليها بدرج ويبلغ طولها نحو ٤٠ مترًا.



منظر من الجو لأهرام الجيزة يظهر فيه الهرم الأكبر والأهرام الصغيرة التابعة له في الجهة الشرقية.

أقام «خوفو» هذا الهرم ليكون مأواه الأبدي، إلا أنه لم يمكث فيه طويلًا؛ إذ وجد تابوته المحفوظ في حجرة دفنه خاليًا خُلوًّا تامًّا من كل شيء، ولا بد أن حجرة دفنه قد اقتحمت في عهد الثورة التي قامت بعد تدهور حكم ملوك الأسرة السادسة، على أننا نجد آثار التخريب الذي قام في الفترة بين أواخر الأسرة السادسة والأسرة الحادية عشرة ظاهرة في هذه المنطقة كما سنتكلم عنها فيما بعد.

وربما يتوهم البعض أن بناء الهرم الأكبر قد شغل «خوفو» عن باقي أعمال ملكه، ولكن الواقع أننا نجد له آثارًا باقية في مدن ملكه مثل «قفط» و«دندرة» و«تل بسطة» وغيرها، وقد ترك خوفو اسمه منقوشًا في مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سينا، والنقوش التي بقيت في هذه المنطقة تخبرنا أنه أشعل نار الحرب ضد الساميين الرُّحَّل الجائلين في هذه الجهات، وهم الذين يُعرفون باسم «منتيو»، ولا شك أنه كان يقوم بهذه الحروب ليحمي الحملات التي كان يرسلها إلى هذه الجهات للحصول على المعادن والأحجار، وقد كان يضطر أحيانًا إلى اقتفاء أثر هؤلاء اللصوص إلى مسافات بعيدة شمالًا، حتى إن الفرص سنحت له لأن يختلط بالمدنية الشمالية والشرقية، ورغم أنه ليس لدينا براهين قاطعة من ذلك العهد الموغل في القدم، على وجود علاقات حقيقية بين مصر

وبابل، فإنه من المؤكد أن المصريين كانوا يعلمون شيئًا عن المدنية البابلية، يضاف إلى ذلك أنه كانت توجد علاقات تجارية من حين لآخر في ذلك العصر بين بعض القبائل التي كانت تسكن الصحراء بالقرب من حافة وادي النيل وبعضها، وقد كان قيام هذه العلاقة ميسورًا وبخاصة من جهة الجنوب؛ لأن النيل كان يسهل هذه التجارة، أما النوبيون فقد أحجموا عن الإغارات على حدود الفرعون، ثم قبلوا أن يكونوا تحت سلطانه.

والظاهر أنه بعد وفاة «خوفو» قامت منازعات على الملك؛ إذ نجد في قوائم الملوك التي وصلت إلينا أن الملك الذي خلف خوفو هو «ددف رع» ولكن بعض العلماء ينكرون ذلك وقد استمر في الحكم مدة ثمانية أعوام، ولكن المدهش في أمره أنه لم يقم هرمه في منطقة الجيزة، بل اتخذ «أبو رواش» مكانًا مختارًا له لإقامة هرمه الذي تهدم الآن ولم يبقَ منه إلا الشيء اليسير، والظاهر أن سبب هذه المنازعات يرجع إلى تعدد زوجات «خوفو»، وقد كان كل ملك يتزوج من عدة نساء، وكانت له حظايا كثيرات، وفي هذا الوقت كان زواج الأخ من أخته من الأمور المألوفة في الأسرة المالكة، على أنه لم يكن تولي امرأة عرش الملك مألوفًا، والأمثلة التي لدينا قليلة معدودة تنحصر إلى الآن في «خنتكاوس» في أوائل الأسرة الخامسة، و«سبك نفرو» آخر من حكم الأسرة الثانية عشرة، و«حتشبسوت» من الأسرة الثامنة عشرة، ورغم ذلك فإن الملك كان يثبت حقه في الملك حينما تكون زوجته أو أمه من دم ملكي، ولم تكن الوراثة هي الطريق الوحيد لتولي الملك، بل كانت هناك عوامل أخرى ترجع إلى شخصية الفرد وأخلاقه، أو إلى المؤامرات التي يقوم بها حريم القصر، ولذلك كانت وراثة الملك أحيانًا مفتوحة أمام صغار أفراد الأسرة المالكة، بل أمام أفراد خارجين عنها بتاتًا، ويظهر أن تولي فرد من غير الأسرة المالكة عرش الملك كان يعد بداية أسرة جديدة، وكان هذا المؤسس الجديد يعمل على تثبيت ملكه بزواجه من إحدى قريبات الملك؛ أي من الدم الملكي الحقيقي، وقد كانت التقاليد أو القانون المتبع يقضي بأن تكون الأحقية في الملك حسب النظام التالي:

(١) أن يكون الوارث للعرش ابن ملك ولد من زواج ملك بأخته، وكلاهما من الدم الملكي الخالص.

(٢) أن يكون الوارث ابن ملك ولد من زواج ملك ليس من الدم الملكي الخالص بابنة ملك من الدم الملكي الخالص.

(٣) أن يكون الوارث للعرش رجلًا قويًّا تزوج من ابنة ملك من دم ملكي خالص.

ومما سبق يتضح أن تولية العرش في مصر لم تكن من الأمور الهينة، وبخاصة إذا علمنا أن «خوفو» تزوج من عدة نساء، وأن المنافسات قد قامت بعده بين أولاد زوجاته المتعددات على تولي عرش الملك، والظاهر أن «ددف رع» لم يكن حقه في الملك قويًّا كأخيه «كاوعب»؛ إذ يظن أن «ددف رع» كان ابن ملكة لوبية الأصل وليست من الدم الملكي، وقد تزوج من أخته «حتب حرس الثانية» ابنة الملكة «حتب حرس الأولى» وهي المعروفة بالشقراء، ولذلك نجد أن ملامح «ددف-رع» تختلف عن ملامح ملوك هذه الأسرة، والظاهر أن فرع أسرته الأصلي كان في عداء ظاهر له، إن لم يكن في مشاحنات ضد تسلطه على العرش، على أنه لما توفي وخلفه أخوه «خفرع» لم تسكت على ذلك أسرة «ددف-رع» إذ قام ابنه «باكارا» يناهض «خفرع» مدة أعوام بدون جدوى.

(٣) خفرع

عندما تولى خفرع عرش مصر لم تكن يده مطلقة التصرف بسبب المنازعات الداخلية التي قامت بينه وبين أولاد «ددف-رع» غير أن ذلك لم يثن عزمه عن إقامة هرم يضارع هرم «خوفو» في عظمته وفخامته وإن كان أقل منه حجمًا بقليل، والناظر إلى الهرم الثاني الآن يجد أنه في شكله أكثر أناقة واحتفاظًا برونقه من الهرم الأكبر؛ إذ لا يزال الجزء الأعلى من كسوته التي أحضرت له من محاجر «طرة» باقيًا إلى الآن.

وقد دلت الحفائر التي عملت حديثًا في جهته الشرقية على أن قاعدة الهرم من جهاتها الأربع مكسوة بمدماكين من الجرانيت الأحمر المحبب، ولا تزال بقايا هذه الأحجار في مكانها من الجهة الشرقية إلى الآن. هذا وقد كشف عن المعبد الجنائزي الملاصق للهرم من جهته الشرقية وكذلك عن الطريق الموصل إلى معبد الوادي ويبلغ طوله نحو ٦٠٠ متر تقريبًا، وبجوار المعبد الجنائزي كشف عن سفن الشمس وسفينة الحج إلى «العرابة»، وعثر في المعبد الجنائزي وما حوله على بقايا أكثر من مائتي تمثال لـ «خفرع» ليس بينها تمثال واحد سليم، ويرجع السبب في ذلك إلى عصر الثورة التي قامت بعد سقوط الأسرة السادسة فحطمت كل ما كان أمامها. أما التماثيل التي عثر عليها في معبد الوادي المبني بالقطع الضخمة من الجرانيت الأحمر المحبب، وهو المعبد الملاصق لأبي الهول، فقد وجد منها اثنان سليمان، ويعد أحدهما وهو المصنوع من الديوريت من أجمل ما أخرجه الفنان المصري في كل عصوره، بل ومن القطع النادرة في عالم الفن.

وقد بقيت أسرة «خفرع» مجهولة في معظمها إلى عهد قريب، فلم يكن يعرف من أولاده أكثر من ثلاثة، أما الآن فقد كشف عن معظم أفراد الأسرة ويبلغ عدد أولاده نحو



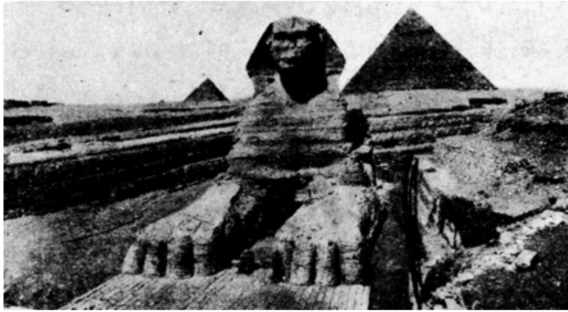
الهرم الثاني والطريق المقدس الموصل من المعبد الجنائز إلى معبد الوادي.

١٦ فردًا من الذكور والإناث، وقد وجدت مقابر بعضهم سليمة لم تصل إليها أيدي اللصوص، ومعظمهم قد نحتوا لأنفسهم قبورًا في الصخر، وهي إما في الجهة الشرقية أو الجهة القبلية من هرمه، وإما بجوار الطريق الموصل بين معبده الجنائزي ومعبد الوادي. والظاهر أن «خفرع» لم يتمكن من بناء أهرام صغيرة في الجهة الجنوبية من هرمه لزوجاته، كما فعل «خوفو» من قبله و«منكاورع» من بعده، وربما كان السبب في ذلك قيام المشاحنات على العرش، وقد كانت قائمة بينه وبين أخلاف «ددف–رع»، ويظهر ذلك جليًّا في الهرم الذي أخذ في تشييده بالجهة الجنوبية ولكن لم يتم بناءه، ويحتمل أنه لم يدفن فيه أحد، وبقاياه لا تزال موجودة إلى الآن، وربما كان عدم قيامه بحملات إلى البلاد الأجنبية شمالًا أو جنوبًا يرجع إلى نفس السبب؛ إذ الواقع أننا لم نعثر على اسم «خفرع» في الجهات التي كان فراعنة مصر يرسلون إليها البعثات أو الحملات التأديبية أو للبحث عن المعادن، ومما يعزز هذا الرأي إن مقابر أسرته العدة التي كشف عنها حديثًا لم يكن قد تم نحتها عند الدفن، وبقيت كذلك إلى الآن، وقد كان المفروض أن مقابر الأسرة تعطى عناية عظيمة من الملك في نحتها ونقشها.

(٣-١) أبو الهول

جرت العادة عند علماء الآثار والمؤرخين أنهم عندما يكتبون عن الملك «خفرع» أن ينسبوا إليه تمثال أبي الهول قائلين بأن هذا التمثال العجيب هو للملك «خفرع» بعينه، ولذلك يعتقد الكثيرون أن المعبد المجاور له هو معبد أبي الهول، والواقع أن تمثال أبي الهول ليس له علاقة قط بالمعبد المجاور له، وأنه كان إلهًا يعبده الملك خفرع وله معبد خاص قائم أمامه، كما سنفصل ذلك فيما يلي.

لم تصل إلينا معلومات عن هذا التمثال من مؤرخي اليونان الذين زاروا مصر قبل الميلاد، بل كان كل همهم موجهًا إلى الأهرام ووصفها، ولا ندري لذلك من سبب، فهل كان أبو الهول مغمورًا بالرمال أم أنه لم يلفت نظرهم؟



تمثال أبي الهول.

يقع هذا التمثال في الجهة الشمالية من نهاية الطريق الممتد بين المعبد الجنائزي ومعبد الوادي للملك خفرع، وهو محفور في قطعة واحدة نحتت من صخرة محلية، ولكن الناظر إليه الآن لا يصدق ذلك، والسبب في هذا أنه رمم في عصور مختلفة، ويبلغ طوله ٤٦ مترًا وارتفاعه من الأرض إلى قمته ٢١ مترًا، والظاهر يدلنا على أنه تمثال، رأسه رأس إنسان وجسمه جسم أسد.

أما تاريخ نحته فقد اختلف فيه المصريون أنفسهم، فهناك نقوش متأخرة تدل على أنه نحت في عهد «خوفو»، ولكن برهن البحث العلمي على أنها نقوش دخيلة من عصر

الدولة الحديثة وما بعدها، وقد غالى بعض المؤرخين فقال: إن هذا التمثال قد نحت في عهد ما قبل الأسرات، وقد بقيت الآراء متشعبة في تاريخ نحته وفي كنهه وما يرمز إليه.

ومما يؤسف له أننا إلى الآن لم نعثر على تاريخ أو نقش معاصر له يدلنا على زمن نحته بالضبط، ولذلك يعده الأثريون لغزًا من الألغاز في تاريخ مصر، ولكن إذا تأملنا فيما كان يحوطه به ملوك مصر من الاحترام والتقديس وخاصة من أوائل الأسرة الثامنة عشرة إلى آخر عهد الرومان، اتضح لنا أن هذا التمثال لا بد أن يكون معبودًا من المعبودات المصرية القديمة، وإذا كانت الأشياء يُحكم عليها بأشباهها، فلدينا في التاريخ المصري ما يُثبت ذلك؛ إذ منذ الأسرة الخامسة نجد أن الملك كان يشبه بعد وفاته دائمًا بالإله «أتوم» الذي كان يعد أعظم الآلهة المصرية قوة وسلطانًا، ولذلك مُثِّل هذا الإله برأس إنسان أي القوة المفكرة، وجسم أسد أي القوة الجسمانية، هذا إلى أن الملك نفسه كان يمثل نفسه بهذه الكيفية، وقد بقي هذا التمثيل إلى أواخر العهد الروماني، ومن هنا جاء الالتباس بأن «خفرع» هو الذي صنع تمثال أبي الهول ليمثله نفسه وبخاصة لأنه بجوار معبده، وقد أثبت الكشف الحديث أنه صنع في عهد الملك «خفرع» وعلى صورته، ولكنه يمثل إله الشمس عند الغروب، وقد كان يطلق عليه للمصريون اسم «أتوم».

ولكن المصريين أنفسهم قد أخبرونا كتابة أن تمثال أبي الهول هو الإله «حور إم آخت» أي (حور في الأفق) «الملك المتوفى»، وقد ذكره المؤرخون الإغريق باسم «حرماخيس»، وليس أدل على ذلك من اللوحة التي كتبها «تحتمس الرابع» تعبُّدًا لهذا الإله وسرد ما فعله لربه من الخدمات إجابة لطلبه عندما أظهر «حور إم آخت» رغبته في إزالة الرمال التي كانت متراكمة حوله، ولا يزال أثر هذا العمل الجليل الذي قام به «تحتمس الرابع» باقيًا إلى الآن؛ إذ نجد أنه بعد أن أزال الرمال التي كانت متراكمة حوله، بنى من جهاته الأربع سورًا من اللَّبِن لا يزال جزء منه باقيًا إلى الآن، وعلى مسافة نحو أربعين مترًا غرب السور أقام سورًا آخر لحماية السور الأول من إغارة الرمال، وقد جاء بعده ملوك من الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين بنوا مساكن للكهنة الذين كانوا يقومون بتأدية الفرائض الدينية لهذا الإله، وبخاصة عندما نعلم أن ملوك هذه الأسر كانوا قد اتخذوا البقعة التي حول أبي الهول مكانًا للصيد والقنص لشهرتها بحيوانات الصيد، ولذلك كانوا يطلقون على هذه الجهة اسم «وادي الغزلان»، وقد عثر أخيرًا على بيت وحمام لـ «توت عنخ آمون» في هذه الجهة، ربما كان لراحة الملك عند خروجه للصيد، ولما جاء «رعمسيس الثاني» نقش اسمه على هذا البيت بعد أن طمس بطبقة من

الجص نقوش «توت عنخ آمون»، ونجد كذلك أن جسم الحيوان قد رمم في أزمان مختلفة وبخاصة في عهد الأسرة الثامنة عشرة والأسرة العشرين، وفي عهد الإغريق والرومان، ومباني هذه العصور نراها واضحة في الترميمات التي أدخلت عليه وخاصة في جانبيه وذيله.

ومع كل هذا بقي الاعتقاد عند علماء الآثار سائدًا بأن أبا الهول يمثل الملك «خفرع» إلى أن كشف حديثًا عن معبد منفصل تمام الانفصال عن المعبد المجاور له، أي معبد «خفرع»، وموقعه في الجهة الشرقية من وجه أبي الهول، وهذا المعبد قد أقيم لعبادة هذا الإله، وقد نصبت فيه تماثيل للملك الذي أقامه، غير أنه لم يبقَ منها إلا قواعدها تدل عليها.

لكن الواقع أن هذا التمثال يمثل الشمس عند الغروب، وهي تعد أكبر المعبودات عند المصريين، وأن هذا المعبد الذي أنشئ أمامه أقيم خاصة لعبادته، ولا يمكن أن يكون قد أقيم لعبادة «خفرع»؛ إذ إنه قد أقام لنفسه معبدين أحدهما جنوب هذا المعبد وهو معبد الوادي، والآخر هو المعبد الجنائزي الواقع شرق هرمه مباشرة، ولا غرابة في إقامة تمثال أبي الهول في هذه الجهة؛ إذ كان على مقربة منه بلدة عين شمس التي كانت تعد أكبر مركز لعبادة الإله «أتوم» إله هذه الجهة المحلي، وكان يمثل فيها بشكل أسد رأسه رأس إنسان، وكان أمام معبده طريق تحفه تماثيل أبي الهول الذي يمثل الإله المحلي لهذه الجهة.

ومما يعزز إلاهية أبي الهول أن الأهلين في عصور مختلفة كانوا يصنعون تماثيل لهذا الإله ويعدونها تذكارًا في الحفلات الدينية التي كانت تقام له، وقد عثر منذ بضع سنوات على أكثر من عشرين تمثالًا له صغيرة الحجم في الرمال التي كانت تغطي معبده، وعلى تماثيل متوسطة الحجم أمام معبد «أمنحتب الثاني» الذي أقام فيه لوحته المشهورة.

والحقيقة إذن أن تمثال أبي الهول ليس بلغز وما هو إلا الإله «أتوم»، وإنما أخذ العالم على عاتقه أن يجعله لغزًا إلى الأبد، وسيبقى كذلك ولو ظهرت كتابات تدل على أصله وكنهه.

أما العهد الذي نحت فيه أبو الهول فقد عرف على وجه التقريب؛ إذ دلت الكشوف الأخيرة على أنه نحت بعد إقامة الطريق الموصل بين المعبد الجنائزي ومعبد الوادي للملك «خفرع»؛ أي إن أبا الهول لا بُدَّ أن يكون قد نحت في عهد «خفرع» باني الهرم الثاني أو بعده، وهذا أول تاريخ ثابت في عمر أبي الهول.

وفي عام ١٩٣٧ قامت مصلحة الآثار بحفائر لتنظيف المنطقة التي تقع حول أبي الهول والحفرة التي هو فيها، وقد أدت هذه الحفائر إلى كشف النقاب عن نيف ومائة وخمسين لوحة تذكارية وآثار أخرى وبعض مقابر في الجهة البحرية يرجع عهدها إلى الدولة القديمة، وأهم هذه اللوحات لوحة الملك «أمنحتب الثاني»، وقد نصبها داخل معبد خاص له تذكارًا لزيارته لمنطقة الهرم وأبي الهول، وفيها ذكر أبا الهول بأنه هو الإله «حور أم آخت» وأنه الإله «أتوم» وتكلم عن الأهرام بأنها أهرام أبي الهول؛ أي إنه نسبها إلى هذا التمثال العظيم بصفته إلهًا. أما اللوحات الكثيرة التي كشف عنها هذا العام فقد استخلصنا منها معلومات جديدة تلقي بعض الضوء على هذا التمثال فيما يلي:

دلت البحوث التي حول هذا التمثال على أن ملوك الفراعنة منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة حتى نهاية العهد الروماني كانوا يزورون هذا المكان المقدس، وكذلك كان يتقرب الأهلون إلى أبي الهول بتقديم القرابين، واللوحات التذكارية، كما كانوا يتقربون إلى الإله أوزير في «العرابة» المدفونة، فكانت هذه المنطقة تعد في نظر القوم والملوك أنها بقعة مقدسة، وقد كانوا يطلقون على معبد أبي الهول اسم «المكان المختار».

ولا شك في أن فراعنة مصر فضلًا عن تقديسهم لأبي الهول، فإنهم كانوا يأتون إلى هذه المنطقة لصيد الغزلان والأسود، ولا غرابة في ذلك، فإن هذه المنطقة كان يطلق عليها اسم «وادي الغزلان»، وتدل اللوحات التي كشفت في هذا المكان على ما يثبت ذلك، فنجد أن من زار هذه البقعة حسب ما وصلت إليه معلوماتنا هو ابن «تحتمس الأول» ثم «تحتمس الثالث»، «وأمنحتب الثاني» صاحب اللوحة المشهورة التي كشف عنها حديثًا، وهي التي يقول فيها إنه أتي بعربته من منف إلى مكان أبي الهول الذي بنيت من أجله الأهرام، ثم «تحتمس» الرابع الذي ذكر في لوحته أنه جاء في هذا المكان وهو أمير لم يتول الملك بعد، وأخذته سِنة من النوم في ظل أبي الهول، وطلب إليه «حور إم آخت» (أبو الهول) أن يزيل عنه الرمال عندما يتولى عرش الملك، رغم أن «تحتمس الرابع» لم يكن الوارث الحقيقي للعرش، وقد بر بوعده. ثم جاء بعده «أمنحتب الثالث»، وقد رسم في لوحة فتيا، للصيد والقنص، وكذلك حضر «توت عنخ آمون» إلى هذا المكان المقدس، وأقام في الجهة القبلية منه مكانًا للراحة باللَّبِن، وشيد فيه حمامًا ليستحم فيه بعد الصيد والقنص. وقد كشف عن هذا المكان حديثًا غير أن «رعمسيس الثاني» كعادته وضع طبقة من الجص فوق النقوش التي نقشها «توت عنخ آمون» على واجهة الاستراحة التي بناها في هذه الجهة، وكتب اسمه وألقابه، وقد وجدنا النقشين أحدهما فوق الآخر ورغم

ذلك فإن «رعمسيس الثاني» أصلح ما أفسده الدهر من الأجزاء التي تآكلت من تمثال أبي الهول، وكذلك أتى إلى هذا المكان الملك «آي»، ثم الملك «حورن أم حب»، ثم «سيتي الأول»، وترك الأخير لنا لوحة عثر عليها في معبد «أمنحتب الثاني» المقامة في الجهة البحرية من أبي الهول، وفيها يذكر صيده للغزال والأسود، ثم أتى الفرعون «منفتاح»، وترك لنا نقوشًا تدل على مقدار اهتمامه بأبي الهول، وهكذا تواترت زيارة الفراعنة والأباطرة لهذا المكان حتى عهد الإمبراطور «سبتميس سفرس» ١٩٣–٢١١ بعد الميلاد.



الملك «سيتي الأول» يتعبد إلى أبي الهول، وفي الأسفل شخص يتعبد إلى أبي الهول بصفته «حول» أو «حور إم آخت» (حرمخيس).

وأدهش ما كشف في هذا المكان أن قومًا من الكنعانيين وفدوا على مصر، وسكنوا في منطقة أبي الهول في عهد الدولة الحديثة، ومن المحتمل جدًّا أن ذلك كان في أواخر الأسرة الثامنة عشرة كما تدل على ذلك لوحة الفرعون «آي» من أواخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة؛ إذ جاء فيها أنه اقتطع ضيعة للحيثيين في هذه الجهة، وقد دلت اللوحات المكشوفة على أن هؤلاء الكنعانيين «أو السوريين» كانوا يسكنون في هذه المنطقة في بلدة سميت باسم إلههم الذي كانوا يعبدونه في بلادهم، وأعني بذلك الإله «حورون»، وهذا الإله كان



أبو الهول في شكل صقر، وقدس في النقش بصفته «حورنا» أو «حور إم آخت».

يمثل عندهم بشكل صقر، ولما كان أبو الهول عند المصريين، وبخاصة في عهد الأسرة الثامنة عشرة يسمى «حور إم آخت» أي «حور الأفق»، وكان يمثل بصقر، فقد راعى فيه هؤلاء الآسيويون أنه يمثل إلههم الذي تركوه في بلادهم، ولذلك أطلقوا على أبي الهول اسم «حورنا» أو «حورون» أو «حول» هو «حور إم آخت»، ومن ذلك يتضح جليًّا أن الاسم الجديد الذي أصبح يطلق على هذا التمثال هو اسم سامي الأصل، ولا غرابة في أن المصريين عبدوا الإله «حورنا» أو «حورون» في مصر، ووحدوه مع أبي الهول، فإن ذلك له ما يمثله في هذا العصر؛ إذ عبد الإله «ستخ»، وهو آسيوي الأصل في مصر، وأصبح موحدًا مع الإله «ست» إله الحرب، وكذلك الإلهة «عشترت»، فهي إلهة سورية نقلت عبادتها إلى مصر، ووحدت مع الإلهة «حتحور»، وهكذا كان بعض الملوك في فترة فتوحهم العظيمة يقربون بين البلاد السورية ومصر بكل الوسائل. ثم أطلق هؤلاء القوم على الحفرة التي فيها أبو الهول اسم «بر–حول» (بيت حول)، ومن ثم جاء اسم أبي الهول، ومن ذلك يتضح أنه ليس هناك أي علاقة بالمعنى الذي نعطيه لأبي الهول في عصرنا هذا بأنه صاحب الفزع، والحقيقة — كما ذكرنا — أنه اسم مصري سامي يرجع عهده إلى أواخر

الأسرة الثامنة عشرة عندما جاء هؤلاء القوم الآسيويون ووحدوه في إلهم «حورون» أو «حول»، ومن الطريف أننا وجدنا لوحة أقامها «تحتمس الرابع»، نجد فيها أنه حبس على هذا الإله بعض الضِّياع في فينيقيا ليقدم منها قربانًا له يوميًّا؛ أي إن الملوك أنفسهم كانوا يعبدون هذا الإله، ويقال إن اسم الملك «حورن أم حب» يحمل في تركيبه اسم هذا الإله. هذا وقد تعبد إليه «رعمسيس الثاني» صراحة، وكشفت لهذا الإله مجموعة تماثيل في جهة «تانيس» مثل فيها هذا الإله على شكل الإله «حور» ومعه «رعمسيس الثاني»، ولكن اسم الإله لم يكتب «حور» بل كتب «حورنا»، ولا أدل على وجود مستعمرة من هؤلاء الكنعانيين في هذه الجهة من اسم القرية التي كانوا يقطنونها في ذلك الوقت، وقد بقي لنا محفوظًا بنصه في اسم قرية صغيرة بالقرب من أبي الهول في جنوبه الشرقي وبينهما كيلومتران ونصف، وهي تسمى الآن «الحارونية» نسبة إلى الإله «حورنا»؛ أي أبو الهول كما ذكرنا، وهي تنقسم قسمين؛ الحارونية القبلية والبحرية، وقد جاءت النقوش مؤكدة لذلك؛ إذ وجد على لوحة من اللوحات «حارونية» بالمخصص الذي يدل على لفظة بلد في اللغة المصرية القديمة، وهي نسبة إلى الإله «حورون»، وقد بقيت شخصية هذا الإله «حورنا» مجهولة عند علماء الآثار حتى جاء العالم «فيرولو» سنة ١٨٣٧، ونشر قطعة من قصيدة شعر «رأس شمر» وقد ظهر فيها اسم الإله «حورون» بصفة قاطعة، وظهر أنه كان يعبد في «صيدا».

ومن ذلك يتضح أن أبا الهول ذلك اللغز العظيم قد اشترك في عبادته، وتقديسه بصفته إله الموتى، وحارس الجبانة السوريون والمصريون على السواء.

ولا نزاع في أن أبا الهول كان يمثل الإله «رع» عند الغروب أي «آتوم»، وأنه كان يعتبر في نظر القوم بأنه حارس الجبانة؛ إذ ورد على تمثال له ما يأتي، مخاطبًا المتوفى:

> إني أحمي مقصورة مدفنك، وإني أحرس حجرة دفنك، وإني أقصى كل أجنبي يريد اقتحامها، وإني أقضي على الأعداء بسلاحهم، وإني أقصي المؤذي عن قبرك، وإني أصرع أعداءك فلا يعودون إليه قط.

وتدل كل الآثار التي كشفت في هذه المنطقة حتى الآن، على أن أبا الهول هو الإله الذي يحرس الموتى في الغرب، وأنه مظهر الشمس عند غيابها في الأفق، وسنكتفي هنا بهذا القدر عن أبي الهول؛ إذ خصصنا له بحثًا خاصًّا في مجلدين ضخمين سننشرهما عندما تتهيأ الأحوال لذلك إن شاء الله.

(٤) منكاورع

خلف «خفرع» على عرش مصر الفرعون «منكاورع»، وبقي على أريكة الملك أكثر من عشرين عامًا، ومن المحتمل أنه ابن خفرع، وعلى أية حال فإن والده ترك له المشاحنات التي قامت بينه وبين أسرة «ددف رع»، ويظن أنه الذي أكمل مقابر أسرة والده، ومقبرة والدته «خع مرر نبتي» في الصخرة الواقعة في الجنوب الشرقي للهرم الثاني، ولما استتب له الأمر أخذ في الاستعداد لبناء هرمه الصغير بالنسبة لهرمي خوفو، خفرع، غير أنه وضع تصميمه على أن يكسى بجرانيت أسوان الأحمر بدلًا من الحجر السلطاني الأبيض الذي كان يجلب من طرة، ومع ذلك فقد كانت تكاليفه أقل بكثير من تكاليف أهرام أسلافه. غير أنه أثناء قيام هذا العمل مات «منكاورع» فجأة، وكان الهرم في تلك اللحظة قد كسي إلى نحو الثلث أي (١٦ مدماكًا)، ومعبده الجنازي قد كسي جزء منه من الخارج، وكذلك حجرة القرابين فقد كسيت بالجرانيت الأحمر والأسود. أما معبد الوادي فإنه لم يتم في عهده وأتمه من بعده «شبسكاف» باللَّبِن، ووضع في المعبد كل أدواته من تماثيل وأوانٍ، غير أن بعضها غير تام، وتدل الحجر الداخلية في هذا الهرم على حصول تغيير في تصميمها أثناء سير العمل، وقد دخل اللصوص هذا الهرم عام ١٢٢٦ ميلادية وقد وجدوا تابوته خاليًا ... ووجدوا في هذا التابوت (لا بُدَّ أن يكون تابوتًا آخر) بعد أن كسروا غطاءه، بقايا جسم إنسان من غير حلي ما، اللهم إلا بعض ألواح ذهبية مكتوبة بحروف لا تفهم، وفي عام ١٨٣٧ دخل الكولونيل «هاوردفيس» حجر هذا الهرم، فوجد في الحجرة العليا قطعًا من تابوت خشبي تعزى إلى «ملك الشمال والجنوب منكاورع حيًّا إلى الأبد» ومعه بقايا إنسان ملفوف في ثوب من الصوف الخشن لونه أصفر، وقد وجد كذلك في الحجرة السفلى تابوت من البازلت، وهو الذي خيب آمال لصوص سنة ١٢٢٦، وقد نقل التابوت وبقايا الجسم إلى المتحف البريطاني. أما التابوت البازلتي فإنه شحن إلى إنجلترا، ولكن السفينة غرقت به في «لجهورن» في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٣٨، ولا يزال في قعر البحر إلى الآن.

وقد كشفت لنا حفائر الدكتور «ريزنر» في معبد الوادي لـ «منكاورع» عن نفائس فنية ودينية، وهذه المجموعة تعد أنفس مجموعة وجدت في الدولة القديمة من الأسرة الرابعة. ومن بينها مجاميع إلهات المقاطعات، وكذلك تمثالان لـ «منكاورع» وزوجته في قطعة واحدة بالحجم الطبيعي تقريبًا من الجرانيت، وهما يعدان أجمل قطع في الفن المصري في هذا العصر، ولم يصلنا شيء عن بعثات هذا الملك للخارج سواء أكانت للفتح

أم لقطع الأحجار. وأهم وثيقة وصلت إلينا من عهده عثر عليها في مقبرة أحد كبار موظفيه المسمى «دبحن» وفيها يقص هذا الموظف الكبير كيف أن مولاه قدم له خمسين عاملًا لبناء مقبرة خادمه الأمين، وهذه المنحة وإن كانت تعتبر في أعيننا شيئًا قليلًا لكنها أكبر خدمة يقدمها الملك إلى رجل خدمه بصدق وأمانة، وقد تعطف عليه «منكاورع» بذلك حينما كان جلالته على الطريق التي بجانب هرم «حر» يتفقد حال العمل في هرمه المسمى «المقدس» وهو اسم الهرم الثالث. أما هرم «حر» فلا بد أن يكون هرمًا آخر له علاقة بـ «منكاورع» من جهة ما، وقد ظن البعض أن «منكاورع» كان له هرمان كبعض أسلافه مثل «سنفرو»، وهذا غير مطابق للواقع، والحقيقة أن هرم «حر» هو هرم ابنته «خنت كاوس»، وفعلًا عثرنا على الطريق التي تربط الهرمين ببعضهما، وقد كشف منه جزء. وقد سمي هرمها «حر»؛ أي العالي من مسميات الأضداد؛ إذ الواقع أن هرم الملكة «خنت كاوس» في منخفض، وسنتكلم عليه فيما بعد.

ومن الطريف أنه جاء في نقوش «دبحن» هذا أن الملك أمر بإحضار بابين وهميين من الحجر، وكذلك كتلتين لواجهة المقبرة، وتمثال بالحجم الطبيعي لتقام في مقبرته، وقد وجدت كل هذه الهدايا التي أمر بها الملك في مقبرة «دبحن» عند الكشف عنها في عام ١٩٣٤، غير أن التمثال لم يوجد منه إلا بقايا مهشمة وفي عهده أرسل ابنه «حرددف» ليفحص المعابد المصرية بأجمعها، وقد كشف هذا الأمير في الأشمونين الفصلين ٣٠ و٦٤ من كتاب الموتى «كما في النسخة الصاوية»، وكان «منكاورع» يعرف في الأزمان التي تلت عهده بأنه رجل تقي، وكان يُحترَم ويُقدَّس كحكيم من الحكماء في عصر الرعامسة.

(٥) الملك شبسكاف

لما تولى «شبسكاف» عرش مصر بعد والده «منكاورع» لم يشيد لنفسه هرمًا مثل والده على هضبة الجيزة، بل رجع إلى مكان أجداده بالقرب من سقارة، وابتدع لنفسه مقبرة فريدة في بابها، وذلك أنه بنى لنفسه مصطبة ضخمة وبنى فوقها مصطبة أخرى على شكل تابوت. غير أنه جعل لهذه المقبرة كل الملحقات التي تتبع الهرم، وهذا البناء يعرف عند أهالي جهة دهشور باسم مصطبة فرعون.

وإذا اعتمدنا على النقوش القليلة التي كشفت وحكمنا بأن هذا البناء الغريب هو قبر «شبسكاف»، كان أمامنا سؤال لا بد من الإجابة عليه وهو: ما السبب الذي دعا «شبسكاف» إلى العدول عن السُنة المتبعة في بناء القبور على شكل هرمي، وابتداع شكل غريب كهذا؟

والظاهر في تفسير ذلك أن الهرم قد بني ليكون مقبرة للملك، ولم يتخذ هذا الشكل اعتباطًا، بل لأنه رمز لعبادة الشمس في بلدة عين شمس، وفي إقامة المقبرة على هيئة الهرم اعتراف بإلاهية الشمس وسلطانها العظيم، ووضع المتوفى تحت حمايتها ليصل إلى العالم الآخر، وإذا لاحظنا أنه منذ بداية حكم الملك الثالث من الأسرة الرابعة قد دخل في تركيب اسم الملك لفظة «رع» أي الشمس، ولاحظنا أنه في أوائل الأسرة الخامسة اعتبر ملوك هذه الأسرة أنفسهم أولاد «رع» مباشرة وخلفاءه على العرش. لعرفنا منزلة ذلك الإله في نفوسهم وتأثيره عليهم ولأدهشنا أن نرى ثلاثة ملوك لم نجد في تركيب أسمائهم لفظة «رع» كأسلافهم وهم «شبسكاف» و«خنتكاوس» و«وسركاف»، وفي ذلك ما يدل على أن هؤلاء الملوك قد تنحوا عن الانتساب إلى عقيدة عين شمس التي احتلت منزلًا ممتازًا في ذلك الوقت، وما يفسر لنا موقف شبسكاف من قبره، والعدول عن المألوف عند أسلافه في بنائه.

وقد كان هو أول من تخلى عن هذه العقيدة، وأظهرها في بناء قبره مقتنعًا بفكرة أقل روحانية، وهي أن يخلد في القبر نفسه بدلًا من السماء، وذلك بأن يبني لنفسه قبرًا على شكل تابوت ضخم (وهو المكان الذي تأوي إليه «الكا» (أي الروح المادية)، وتجعل الجسم المادي مخلدًا ما دامت تزوره)، ولا شك أن هذه الحركة كانت لا بُدَّ قائمة ضد كهنة عين شمس الذين كان سلطانهم يزداد كل يوم على سلطان الملك، كما حدث فيما بعد في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وربما كان الواضع لهذه الفكرة هو «شبسكاف» نفسه حصنًا له ضد كهنة عين شمس، وفي عهد هذا الملك كان «فتاح شبسس» الذي يعد من أهم الشخصيات التي عاشت في هذه الفترة، وقد ترك لحسن الحظ ترجمة حياته كما كتبها بنفسه، مما يلقي بعض الضوء على تاريخ هذا العصر من بعض النواحي، ولا غرابة في ذلك، فإنه كان أعظم المعمرين؛ بلغ من العمر أرذله، إذ أفنى في خلال حياته الطويلة ستة فراعنة، تقلب مدة حكمهم في وظائف عدة، ولا نبالغ إذا أطلقنا عليه عميد الموظفين، ولقد أحصى الوقت الذي خدم فيه هؤلاء الملوك، فوجد أنه يربو على الثمانين حولًا، والظاهر أنه كان موظفًا حكوميًّا بالمعنى الذي تتطلبه هذه المهنة في مصر؛ إذ كان لا يحسب للمبادئ أي حساب، بل كان بطبيعة الحال يميل عند تأدية عمله إلى ما يجر له المنفعة الشخصية أولًا، ولا أدل على ذلك من أنه رغم رابطة الرحم التي كانت تربطه بالأسرة الرابعة فإنه لم يجد أي وازع يردعه عن الخدمة تحت لواء ملوك الأسرة الخامسة الذين ربما كانوا هم المغتصبين لعرش الملك منه؛ إذ كان متزوجًا من كبرى بنات الملك

«شبسسكاف» الذي لم يُرزق وارثًا ذكرًا ليتولى الملك بعده، وقد كان في استطاعة «فتاح شبسس» في مثل هذه الأحوال أن يطالب بالعرش لنفسه، ولكنه كما يظهر لنا، كان رجلًا حريصًا عاقلًا قنوعًا، لم يزج بنفسه في مثل هذه المغامرة، ورضي أن يتقاضي مرتبًا دسمًا تحت لواء أي ملك يقبض على ناصية الأمور، وتاريخ حياة «فتاح شبسس» استغرق عهد ستة ملوك من فراعنة الأسرة الخامسة خدمهم كلهم موظفًا حكوميًّا مطيعًا، ولكن لما كانت أول خطوة خطاها نحو الرقي في الوظائف جاءت في عهد الأسرة الرابعة فقد آثرنا أن نجعله يتكلم هنا بنفسه عن ترجمة حياته كما دونها على مقبرته، وبخاصة إذا علمنا أنه يعدد فيها لنا أسماء الملوك الذين جاءوا بعد «شبسكاف» ووظف في بلاطهم، فيقول مع ذكر اسمه في نهاية كل فقرة: ولد في عهد «منكاورع» الذي رباه مع أطفال الملك في الحريم الملكي»، وكان مقربًا لدى الملك أكثر من أي ولد، «فتاح شبسس». (وكان لا يزال يلبس الحزام) في عهد الملك شبسكاف الذي رباه بين أولاد الملك في قصر الملك، وفي داخل الحريم الملكي، وكان مقربًا لدى الملك أكثر من أي شاب، «فتاح شبسس». (وقد لقي حظوة عند جلالته) وزوجه جلالته من كبرى بناته «معات-خع»؛ لأن جلالته أراد أن يكون بصحبته أكثر من أي رجل آخر، «شبسس فتاح».

المقرب من «وسركاف»، كبير كهنة منف» المحترم من الملك أكثر من أي خادم، فكان ينزل في كل سفينة تابعة للبلاط، وكان يدخل بطريق القصر الجنوبي في كل أعياد التتويج، «فتاح شبسس».

التابع لـ «سحورع» المبجل عند الملك أكثر من أي خادم، الذي كان يعمل أمين سر لكل الأعمال التي يريد إنجازها جلالته، وهو الذي كان يسلي قلب سيده كل يوم، «فتاح شبسس».

التابع للملك «نفر إر كا رع» والمبجل عند الملك أكثر من أي خادم، وعندما يثني عليه جلالته لأمر ما، كان جلالته يسمح له بأن يقبل قدمه، ولم يرضَ جلالته أن يقبل الأرض، «فتاح شبسس».

التابع للملك «نفرف رع» المبجل لدن الملك أكثر من أي خادم، وكان ينزل في السفينة المقدسة في كل أعياد التتويج، المحبوب من سيده، «فتاح شبسس».

المحبب لقلب سيده «نوسر رع» عاش أبديًّا في بلاطه، المحبوب من سيده والمحترم لدى الإله «فتاح»، وهو الذي يفعل ما يرغب إلهه، والذي يرتاح إليه كل فنان في عهد الملك، «فتاح شبسس».

ولا جدال في أن «فتاح شبسس» كان رجلًا قد أسعده الحظ، إذا كان مقياس السعادة بالحظوة الملكية التي عاش يرتع في بحبوحتها، ويتقلب في أعطاف نعيمها طوال حياته في عهد كل هؤلاء الملوك دون أن يغضب عليه واحد من بينهم، إذا صدقنا ما رواه عن نفسه، على أن أكبر فخر ناله في حياة أولئك الملوك ما حباه به الفرعون «نفر إر كا رع» الذي سمح له أن يقبل قدمه بدلًا من أن يلثم التراب الذي تحت قدميه وهو ملقى على بطنه أرضًا حسب التعبير المصري الصحيح.

على أن أكبر درس اجتماعي نخرج به من حياة هذا الرجل هو ما نشاهده في خلال هذا العصر السحيق في القدم من أن الوظائف الحكومية كانت الهدف الذي يرمي إليه كل عظيم مهما بلغت درجته، ولقد بقي هذا الداء العضال يتوارثه المصريون إلى يومنا هذا، نعم إن المصري كان بطبعه يتمسك بالعادات والأخلاق التي نشأ عليها أجداده، وكان الابن يرثها عن الأب، ولكن سنن الرقي كان من شأنها أن تجعله يتخلى عن بعض هذه العادات الموروثة، إلا حب الوظائف الحكومية، فإنه لا ينفك يطلبها، ويرى أن كل عمل سواها حقير ضئيل، وأنه في سبيلها يجب أن يضحي بكل شيء، ولا نزاع في أن «فتاح شبسس» قد ضرب الرقم القياسي في ذلك المضمار دون مراعاة أي مبدأ، ولا أكون مبالغًا إن قلت: إنه لا يوجد فرد واحد في مصر عاش في خلال الأربعين قرنًا التي تلت وفاة عميد الموظفين، يتردد لحظة في أن يضحي بمبدئه وعقيدته في سبيل أبهة الوظيفة والتنافس في نيل رضاء الحاكمين وعطفهم مهما كلفه ذلك غاليًا.

وقد ذكر المؤرخون بعد حكم «شبسكاف» ثلاثة ملوك، غير أن الآثار التي كشفت إلى الآن لم يأتِ فيها ذكر واحد منهم، وهكذا بقيت نهاية هذه الأسرة غامضة لا يعرف عنها شيء حتى عام ١٩٣٢، وذلك عندما كشفت بعثة الجامعة المصرية القائمة بأعمال الحفر في منطقة أهرام الجيزة عن الهرم الرابع الذي دفنت فيه الملكة «خنت كاوس».

(٦) الملكة خنت كاوس

ومما لا شك فيه أن «خنت كاوس» هي بنت الملك «منكاورع»؛ لأن «شبسكاف» مات ولم يترك له خلفًا من الذكور، فقامت «خنت كاوس» مطالبة بالعرش بعده، والظاهر أنه كان لها بعض المنافسين على العرش، غير أن الدم الملكي الذي يجري في عروقها جعل لها الأولوية في تولى الملك، ولذلك كتبت على باب هرمها «ملك الوجهين القبلي والبحري والأم الملكية وبنت الإله، وكل شيء تأمر به ينفذ لأجلها»، ويتضح لنا من هذا النص

أنها تزوجت بأحد عظماء القوم المنتخب وليًّا للعهد، ولذا سميت الأم الملكية، غير أنها لم تذكر اسم زوجها لأنه ليس من دم ملكي خالص، وأطلقت على نفسها لقب «ملك الوجهين القبلي والبحري» لا ملكة الوجهين، كما فعلت الملكة «حتشبسوت» في الأسرة الثامنة عشرة، وأن هذا ليدل على سمو مكانة المرأة عند المصريين القدماء في ذلك العهد.

والظاهر أن عصرها كان حافلًا بالاضطرابات والمشاحنات على تولي الملك، وقد ذكرت قوائم الملوك بعض أسماء في نهاية الأسرة الرابعة غير أنها لم تُذكر على هذه الآثار.[١]

ولما تزوجت «خنت كاوس» الوارثة الحقيقية للملك، وأنجبت «وسركاف» خلصت البلاد من تلك الفوضى السياسية، وكانت هي الحلقة الموصلة بين الأسرتين الرابعة والخامسة.

وهناك أقصوصة تكاد تكون خرافة عن أصل الأسرة الخامسة، وربما كان لزواج «خنت كاوس» من أحد الأفراد أو الكهنة وتأسيس الأسرة الخامسة صلة بها، وذلك أنه جاء في ورقة «وستكار» المنسوبة لأحد السحرة أن «حرددف» بن «خوفو» مثل بين يدي والده، وهو يقدم ساحرًا اسمه «ديدى»، وقد تنبأ هذا الساحر بولادة أطفال ثلاثة ستلدهم زوجة كاهن هليوبوليس من «رع» إله الشمس، ثم تسميهم الإلهات بأسماء تشبه في لفظها أسماء الملوك الثلاثة الأُول للأسرة الخامسة وهم «وسركاف»، و«سحورع» و«كاكاو»، وكذلك تنبأت الإلهات بأن كلًّا منهم سيحكم البلاد قاطبة.

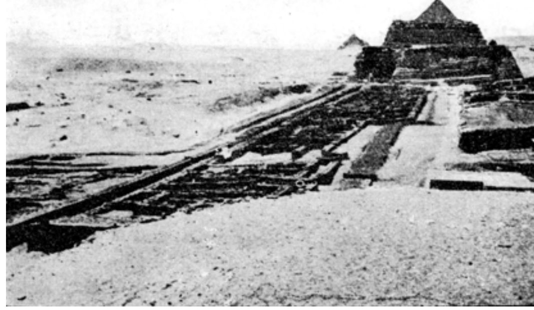
ولا شك في أن هذه القصة تنطوي على ارتباك تاريخي؛ إذ لا يعقل أن يولد «كاكاو» ثالث ملوك الأسرة الخامسة في عهد «خوفو»، ولكن المهم في هذه الخرافة أن هؤلاء الملوك الثلاثة هم الذين ورثوا الملك بعد أولاد خوفو وأحفاده، كما أخبر «ديدى» الساحر الملك بقوله: «إن ابنك سيحكم وابن ابنك سيحكم ثم واحد منهم»، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الملوك قد ولدوا من زوجة كاهن «رع» التي حملتهم من الإله نفسه، وأن الإله وعد الأم بأنهم سيحكمون، وأن أكبرهم سيكون كاهنًا أكبر لعين شمس.

ومن المحتمل جدًّا أن تكون «خنت كاوس» قد تزوجت من كاهن عظيم لعين شمس، وبذلك يكون الدم الملكي يجري في أولادهما، ويعزز كهنة «رع» الذين أخذ حظهم يرتفع،

[١] فذكرت ورقة تورين ومانيتون أنه كان هناك ملك حكم البلاد بين «شبسكاف» و«وسركاف»، وهو «أمحوتب» وقد وجد له نصوص في محاجر سينا.

ولذلك أصبح الملك يسمى «ابن الشمس»، وربما ادعى الملك نفسه أنه هو ابن الشمس الحقيقي، لأن والده هو كاهن الإله «رع» أو الصورة التي تقمص فيها «رع».

وقد أقامت «خنت كاوس» في عهد وصايتها على الملك هرمًا خاصًّا بها في منطقة أهرام الجيزة، وهجرت المنطقة التي بنى فيها «شبسسكاف» مقبرته الغريبة في بابها.



الهرم الرابع لـ «خنت كاوس» ومدينته.

ولا غرابة في ذلك؛ فإن «خنت كاوس» أرادت أن تكون بجوار والدها «منكاورع». غير أنها لم تتخذ شكل الهرم تمامًا، بل استحدثت في المعمار المصري طرازًا جديدًا يجمع بين الشكل الهرمي والهيئة الجديدة التي اختصت بها مقبرة أخيها «شبسكاف»، ولذلك جعلت قاعدة هرمها مربعة الشكل كما هو الحال في أهرام الجيزة، وأقامت على هذه القاعدة شكل تابوت لتحاكي مقبرة أخيها في دهشور، ويبلغ طول قاعدة هذا الهرم نحو ٤٥ مترًا وارتفاعه نحو ٣٥ مترًا، وقد قطعت القاعدة في الصخر المحلي ثم كسيت بالحجر الجيري الأملس من طرة، ووضع معبده الجنازي في داخل مربع قاعدته، ويتجه بابه شرقًا، وقد كسي معظم هذا المعبد بالجرانيت الأحمر، ونقشت جدرانه بالمناظر الدينية والقرابين على كسوة من الحجر الجيري الضارب إلى السمرة. أما حجرة الدفن فقد كسيت بالجرانيت المحبب، ويتوصل إليها بوساطة منحدر مكسو بقطع الجرانيت الأحمر.

وقد نحتت في جوانبها سبع حجرات صغيرة للأثاث المأتمي، ومن المدهش أننا وجدنا بابًا وهميًّا داخل هذه الحجرة، وكان بنهايتها من الناحية الغربية حجرة من الجرانيت

وضع فيها تابوت الملكة المصنوع من المرمر، وقد عثرنا على أجزاء صغيرة منه، وأمام الهرم من الناحية الشرقية أقامت «خنت كاوس» مدينة صغيرة لكهنتها لا تزال منازلها المبنية من اللَّبِن حافظة لشكلها، وبجوار معبد والدها الذي أقامه في الوادي شيدت «خنت كاوس» معبدها أيضًا، وهما متشابهان في نظامهما وبنائهما من اللَّبِن، وهناك أحواض ثلاثة لماء التطهير؛ أحدهم بالقرب من الهرم، والثاني في وسط المدينة، والثالث بجوار معبد الوادي، وقد نحتت في الناحية الجنوبية الغربية من الهرم سفينة تحكي سفن الشمس التي وجدت بجوار أهرام «خوفو» و«خفرع» وغيرهما من ملوك الأسرة الخامسة، ويحيط بالهرم والمباني الملحقة به سور عظيم يجمع بينها ويجعلها وحدة قائمة بذاتها.

وقد أثبتت البحوث التاريخية أخيرًا أن «خنت كاوس» ربما كانت هي الملكة «نيتو كريس» التي ذكرها المؤرخون ونسبوا إليها إتمام الهرم الثالث، وأن التحريف جاء من النطق فحسب كما سنذكر بعد، ولا شك في أن هذه النظرية يقبلها العقل إذا علمنا أن «خنت كاوس» هي بنت «منكاورع» وأنها قد بنت معبدها بجواره، فلا يستغرب أن تكون هي التي يقصدها المؤرخون الأقدمون.

(٦-١) الأساطير التي قيلت عن الملكة «خنت كاوس» بانية الهرم الرابع بمنطقة الجيزة

إن الباحث فيما تركه لنا مؤرخو اليونان عن منطقة الجيزة، يلاحظ في الحال أن هناك بعض أشياء تنطبق على الحقيقة تمام الانطباق. على أن هناك في الوقت نفسه أشياء أخرى لا تقوم إلا على مجرد الأساطير.

فمثلًا نرى هؤلاء المؤرخين يعزون الهرم الأكبر إلى «خوفو»، والهرم الثاني إلى «خفرع»، والثالث إلى «منكاورع». على أننا نرى من جهة أخرى أن «ديدور الصقلي» يذكر لنا استنادًا على مصادر مصرية، أو يونانية أن الأهرام الثلاثة هي لـ «أرمايوس» و«أموسس» و«أناروس»، وهناك أسطورة أخرى تدعي أن الهرم الثالث كان مقبرة لحظية تُدعى «رودوبيس»، وقد بناه لها بعض عشاقها من حكام الأقاليم، وظلت هذه الرواية الأخيرة متواترة، وقد ذكر «استرابون» الذي قال إن هذه الحظية كانت تدعوها «سافو» باسم «دوريخا» على حين كان يدعوها آخرون باسم «رودوبيس». غير أن «هيرودوت» فند هذه الأسطورة قائلًا إنه رغم الثروة التي جمعتها «رودبيس» فإنه كان

من الصعب عليها أن تجد الموارد التي تمكنها من أن تقيم مثل هذا الأثر. يضاف إلى ذلك أنها لم تكن معاصرة لبناء هذا الأثر؛ إذ كانت تعيش في عهد الملك «أماسيس»، وبعد ذلك نجده يقص علينا تاريخ «رودوبيس» ذاكرًا أنها كانت امرأة راقية الجنس، وأنها كانت جارية لشخص يدعى «جادمان» من جزيرة «ساموس»، وأحضرت إلى مصر حيث أعتقها «كراسوس» أخو «سافو» التي أحضرتها إلى مصر حيث أقامت فيها حظية.

وقد ذكر المؤرخ «أفريكانوس» نقلًا عن مختصر تاريخ مصر لمانيتون، أنه في نهاية الأسرة السادسة حكمت البلاد الملكة «نيتوكريس»، وهي التي أقامت الهرم الثالث، وقد وصفها بأنها أقوى وأجمل نساء عصرها، وأضاف إلى ذلك أنها كانت شقراء. أما نص «يوزيب» (نقلًا عن «مانيتون» أيضًا) فيصفها بأنها شقراء وردية الوجنتين، ولعل السبب الذي دعا إلى وضع «رودوبيس» مكان «نيتوكريس» يرجع إلى وصف الملكة «نيتوكريس» بكونها شقراء ذات وجنتين ورديتين؛ لأن لفظة «رودوبيس» تعني المرأة ذات الوجه الوردي اللون، وعلى ذلك يجب ألا يفهم من الاسم الذي جاء في هذه الأسطورة الإغريقية أنه اسم علم، بل يجب أن يفهم منه أنه وصف لـ «دوريخا». يضاف إلى ذلك أن «نيتوكريس» و«رودوبيس» توصفان بأنهما أجمل نساء عصرهما، وقد بذلت محاولات شتى بطرق مختلفة لحل التناقض الذي يظهر لنا في هذه الروايات فلم تسفر عن شيء، ولا جدال في أن «مانيتون» كان يعرف أن الهرم الثالث ينسب لـ «منكاورع» وأن اسمه كان يقرأ عليه، وفي قائمة الملوك المصريين يوجد في بدء الأسرة السابعة اسم «من كا رع» وهو اسم يشبه اسم «منكاورع»، وقد ظُنَّ هذا الاسم أنه لقب التتويج للملكة «نيتوكريس» التي وضعت تقريبًا في هذا الموضع في قائمة الملوك، ولكن هذا الفرض مشكوك جدًّا في صحته، ويعلل الآخرون النسبة المزدوجة لبناء الهرم الثالث بحقيقة وجود حجرتين للدفن فيه؛ إحداهما فوق الأخرى، وفي كل منهما آثار للدفن. وأخيرًا ظن البعض أن هذه الأسطورة ليست لها علاقة ببناء الهرم بل بإتمامه، وذلك لأن «ديدور» ذكر أن «منكاورع» مات قبل أن يكمل بناء مقبرته، ولكن ليس من المعقول أن نذكر أن «نيتوكريس» أو أية ملكة أخرى هي التي أتمت الهرم، لأنه معروف لدينا أن «شبيسكاف» بن «منكاورع» هو الذي قام بإكمال معبد الوادي الذي تركه والده ناقصًا، وعلى ذلك فإن الأسطورة القائلة بأن «نيتوكريس» (رودوبيس) هي بانية الهرم الثالث لم تفسر بعد.

والآن أصبح من المحقق لدينا تحديد نسبة هرم الجيزة الرابع، فاعتمادًا على النقوش المكتوبة على مدخله نعرف أنه لـ «خنت كاوس» (ملك الوجه القبلي والبحري، وأم الملك)،

والآن بعد هذا الكشف نرى أن رواية بناء ملكة لهرم يظهر أنها قد نقلت من الهرم الرابع إلى الهرم الثالث، وهذا التخمين قد أيده نص «يوزيب» الذي ذكر أنه في الأسرة السادسة كانت «نيتوكريس» تحكم البلاد، وكانت (أقوى من كل من كان في عهدها، وأجمل النساء جميعًا)، شقراء لها وجنتان ورديتان ويظن أنها بانية الهرم الثالث الذي يشبه تلًّا.

ولكننا نرى من جهة أخرى أن الهرم الثالث لا يختلف في شكله عن هرمي «خوفو» و«خفرع» وعلى ذلك يظن أنه قد وقع خطأ في نص «يوزيب»؛ وذلك لأن الوصف الذي أورده ينطبق تمام الانطباق على الهرم الرابع، فهو مبني على قطعة منحوتة في الصخر ويظهر في الحقيقة على شكل تلٍّ.

ولا نستطيع على وجه التأكيد ذكر السبب الذي أدى إلى اختلاط الأمر بين الهرمين، ومن المحتمل أنه في النص الأصلي لـ «مانيتون»، قد جاء ذكر الهرم الرابع، ولكن الكتَّاب الأقدمين قد اعتادوا أن يتكلموا عن أهرام ثلاثة بالجيزة، ويحتمل أنه قد وقع خطأ في النص في هذا الموضوع فوضع اسم الهرم الثالث مكان الهرم الرابع، ومن المحتمل كذلك أنه قد ظن أن الهرم الرابع لوقوعه بالقرب من معبد الوادي للهرم الثالث قد بني لإحدى بنات «منكاورع»، وفي عام ١٩٢٧ كشفت حفائر بعثة «هارفرد-بوستن» في مصر شرقي الهرم الأكبر عن مقبرة الملكة «مرسى عنخ الثالثة»، وقد رسم على الجدار الغربي للحجرة الرئيسية صورة أمها «حتب حرس الثانية» زوجة الملك «ددف رع» على شكل امرأة شقراء ترتدي رداء يختلف عما يرتديه عادة النساء المصريات، ومن المحتمل جدًّا أنها من نسل «خوفو» عن طريق زواجه بامرأة أجنبية من أصل نوبي.

أما «مرسى عنخ» ابنة حتب حرس الثانية» — وقد تكون زوجة «منكاورع» — فهي ممثلة في شعرها وجلدها باللون المصري المعتاد، ولكن يحتمل أن الدم الأجنبي قد تسرب ثانية في عروق الجيل التالي، وعلى ذلك يرجح أن «خنت كاوس» هي حفيدة «حتب حرس الثانية»، ويحتمل كذلك أن الدم الأجنبي قد انتقل من زوجة «خوفو» الشقراء، وبذلك ليس مصادفة أن تتحدث الأسطورة دون انقطاع عن ملكة جميلة شقراء صاحبة لهرم إذ إنها قد تكون منحدرة من جنس أشقر، وهنا يظهر لنا مرة أخرى شيء من التفاصيل قد يبدو لنا في ظاهره غير مهم ولكنه ينتقل من عصر إلى عصر لأهميته.

وعلى ذلك فإن كل شيء يشير إلى أن ما جاء في «مانيتون» خاصًّا بهرم الملكة له أساس من الصحة، وإنما جاء التناقض من تشابه الأسماء، ووضع أثر مكان أثر، وعلى ذلك «فخنت كاوس»، و«نيتوكريس»، هما اللتان أقامتا الهرم الثالث، وقد وضع اليونان

مكانهما «رودوبيس» وبهذه الكيفية انتقلت الأوصاف المستهجنة إلى الصورة الروائية للملكة التي ذكر عنها «مانيتون» أنها كانت تسمى أقوى وأجمل النساء. على أن حكاية «رودوبيس» ظلت متواترة في أسطورة عربية تروي أن الهرم الثالث ينسب إلى روح أنثى تحوم حوله، وتذهل عقول الرجال الذين يقعون في حبها.

الفصل السادس عشر

الأسرة الخامسة

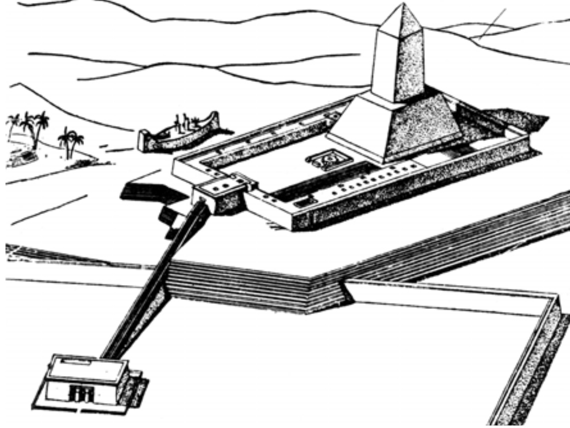
كان من جراء انتشار عبادة الشمس في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ازدياد نفوذ الكهنة في بلدة عين شمس، وقد كان الإله «رع» في بادئ الأمر الإله المحلي لهذه البلدة، ويعرف باسم الإله «أتوم»، وقد جاء في إحدى الخرافات التي وصلت إلينا عن عهد «خوفو» أن أحد أفراد الأسرة المالكة قد تزوج من إحدى بنات كهنة «رع»، يضاف إلى ذلك أن «منكاورع» قد أعلن في أحد ألقابه الرسمية أنه «ابن الشمس» مباشرة، وقد أصبح لقب «ابن الشمس» من الألقاب الرسمية التي يلقب بها الفرعون.

ولما كان آخر ملوك الأسرة الرابعة قد توفي دون أن يكون له وارث في الملك من الذكور قامت «خنت كاوس» بنت «منكاورع» وادعت لنفسها الملك بصفتها بنت ملك؛ أي يجري في عروقها الدم الملكي، والظاهر أنها تزوجت من أحد علية القوم أو من أحد أفراد الأسرة الذين لهم حق في وراثة الملك، ومن المحتمل أنه كاهن عين شمس، فقامت بنفسها بأعباء الملك مع زوجها الذي لم يذكر اسمه على الآثار، ولكنها رزقت ولدًا كان الوارث للعرش الفرعوني، وهذا الفرعون هو «وسركاف».

وإذا صدقنا الرأي القائل بأن «خنت كاوس» هي أم «وسركاف»، فلا بد أن يكون اللذان خلفاه على عرش الملك هما أخواه «سحورع» و«نفر إر كا رع»، والظاهر أنهما تمسكا بعبادة الشمس كما يدل على ذلك تركيب اسميهما.

ولا أدل على تمجيد الشمس وعبادتها في هذا العصر من ظهور مبان خاصة بنيت لتكون هياكل للشمس؛ إذ كان يوجد بجوار الهرم الذي كان مخصصًا لدفن جثة الفرعون معابد خاصة أطلق عليها علماء الآثار الآن «معابد الشمس»، وقد كان كل منها يحتوي في بهوه على مسلة، وعلى جدران المعبد قد نقشت قوارب كبيرة تمثل القارب الذي تسبح فيه الشمس نهارًا من الشرق إلى الغرب والآخر الذي تسبح فيه من الغرب إلى الشرق.

يضاف إلى ذلك أن القبر الذي كان يدفن فيه الملك كان على شكل حجر يعرف عند المصريين بلفظة «بن بن»، وهو يشبه الشكل الهرمي. وهذا الشكل الهندسي الخاص كان مقدسًا في معبد عين شمس ويعتبر رمز الإله «رع»، ومن أجل هذا السب اتخذه الملوك شكلًا لمقابرهم، وسنفرد فصلًا خاصًّا للكلام عن عبادة «رع» في الأسرة الخامسة، وهؤلاء الملوك الثلاثة المذكورون يضاف إليهم الملك «نوسر رع» هم الذين أقاموا معابد الشمس وبنوا الأهرام التي بجوارها في «أبي صير» الواقعة على مقربة من سقارة، وعلى جدران هذه المعابد نشاهد لأول مرة النحت البارز، وكذلك نشاهد لأول مرة عمدًا مقامة تحمل أسقفًا وبوابات مصنوعة من الجرانيت الوردي وتيجان هذه العمد مزينة بأشكال زهر البردي والبشنين، وهذه الأعمدة الجديدة تختلف اختلافًا تامًّا عن الأعمدة ذات القنوات التي أقيمت في سقارة في عهد الأسرة الثالثة، وعن الأعمدة الضخمة المربعة التي أقيمت في معبد «خفرع» في الجيزة، وقد بقي شكل الأعمدة ذات التيجان متبعًا في مصر إلى أواخر عهد الفن المصري ولم يدخل عليها إلا بعض تغيير طفيف في الحلية.



صورة كاملة لما كان عليه أحد المعابد الشمسية.

وقد شاهدنا كذلك لأول مرة من الوجهة الدينية أن الآلهة المصرية رسمت بأشكال لم تتغير حتى انقرضت الوثنية من وادي النيل؛ أي أصبح الإله يمثل بجسم إنسان ورأس حيوان أو طائر حسب أصله.

(١) الملك وسركاف

ونعود الآن إلى ذكر هؤلاء الملوك وأعمالهم فنجد أننا إلى الآن لا نعلم إلا شيئًا يسيرًا عن الملك «وسركاف»، خلافًا لما ذكر في ورقة «وستكار» التي كتبت بعد نحو ألف سنة من موته، وقد عثر منذ بضع سنوات على رأس ضخمة لتمثال من الجرانيت الوردي في سقارة بالقرب من هرم هذا الملك، وهذا الرأس يعتبر المثل الوحيد الذي وجد لتمثال ضخم أكبر من الحجم الطبيعي بكثير في الدولة القديمة، وكان قبل توليته عرش الملك كاهنًا أعلى لبلدة عين شمس كما جاء في ورقة «وستكار» والظاهر أن مدة حكمه لم تدم طويلًا، ومن الجائز أنه لم يحكم أكثر من سبعة أعوام، ولم يترك وراءه ما يستحق الذكر من الأعمال الجليلة في تاريخ البلاد، وقد جاء في نقوش حجر «بلرم» أنه وهب أراضي من أملاكه الخاصة إلى معبد الإله «رع»، وأمده بالقرابين في أيام الأعياد الخاصة ﺑ «أرواح عين شمس». هذا إلى أنه قد بنى محرابًا في معبد «حور» بمدينة «بوتو» (تل الفراعين)، وخصص لعبادة البقرة «حتحور» ضِياعًا في الدلتا باعتبارها أم الإله «رع»، وبنى معبدًا للإله «سبا» (الصقر الناشر جناحيه) وأوقف له ضيعة صغيرة، وعلى وجه عام أظهر العناية اللازمة نحو الآلهة، ولاسيما أنه ينتسب إلى طائفة الكهنوت، وقد عثر على خاتم أسطواني الشكل محفوظ الآن في المتحف البريطاني منقوش عليه لقب لهذا الملك ينم عن ميوله الدينية «محبوب الآلهة»، وأقام هذا الملك مثل أخلافه معبدًا للشمس يحتمل أنه كان في «أبي صير» بالقرب من سقارة، غير أنه اختفى نهائيًّا مثل هرمه ولا يبعد أنه استعمل فيما بعد موردًا ومحجرًا لمباني العصور التي تلت، واسم هذا المعبد «نخن رع» (بلاط قربان رع)، وقد عثر على إناء من المرمر الأبيض منقوش عليه اسم معبده في «سريجو» Cirego مما يدل على أنه كانت هناك معاملات من نوع ما بين مصر وجزر بحر إيجا في هذه الفترة.

وعثر في بلدة طهنة على مقبرة لأحد عظماء مصر في عهد هذا الفرعون اسمه «نكعنخ» ويحمل لقب مدير القصر، وحاكم المدن الجديدة والكاهن الأعظم للإلهة «حتحور» وسمير الملك، ولا شك في أن «وسركاف» كان محتاجًا في هذا الظرف الخاص إلى أن يستميل إليه عظماء بلاده، ولذلك منح «نكعنخ» وظيفتين عظيمتين؛ الأولى أنه نصبه كاهنًا للإلهة «حتحور» في نفس بلدته، وكذلك عينه كاهنًا مشرفًا على أوقاف «خنوكا» أحد عظماء البلاد وأشرافها في عهد «منكاورع» وقد خصص لذلك أراضي شاسعة تبلغ مساحتها

نحو ١٢٠ ستاتا،[١] ومما يذكر أن «نكعنخ» قد كان رب أسرة كبيرة يبلغ عدد أفرادها ١٣ شخصًا، وكتب وصيته بتقسيم هذه المنح الملكية بينهم على أن يقوموا بالواجبات التي تتطلبها هاتان الوظيفتان، وسنرى أهمية هذه الوصية عند الكلام على الأسرة في عهد الأسرة الخامسة، وبعد تقسيم الضِّياع بين نسله نقش على قبره ما يأتي:

> لقد كان جلالة الملك «وسركاف» الذي حباني بأن أكون كاهنًا للإلهة «حتحور» سيدة «قوص»، وكان كل ما يجبى للمعبد كنت أنا الكاهن «الذي يتسلم» كل شيء يدخل المعبد، والآن فإن أفراد أسرتي سيكونون من بعدي كهنة للإلهة «حتحور» سيدة «قوص» كما كنت، وإني سأذهب إلى الغرب الجميل رجلًا محترمًا تاركًا كل هذا في ذمة خَلَفِي من بعدي.

(٢) الملك سحورع

خلف «وسركاف» على عرش الملك «سحورع»، ولا نعرف نسبته إليه بالضبط، ويقال إنه أخوه، ويعد من الملوك الحربيين؛ إذ عُثر له في شبه جزيرة سينا على لوحة مثل فيها مرتديًا تاج الوجه القبلي ويضرب الآسيويين، وكذلك وُجد له نقش باسمه في «توماس» ببلاد النوبة مما يدل على أن حدود بلاده لم تكن تنتهي عند الشلال الأول، هذا إلى أن النقوش التي وجدت له في معبد الشمس الذي أقامه «بأبي صير» تدل على أنه أرسل أسطولًا إلى ساحل «فينيقيا»، وفي أواخر حكمه ذكر لنا حجر بلرم أنه قام بحمله إلى بلاد بنت عادت منها حاملة ٨٠٠٠٠ مكيال من الروائح العطرية و٦٠٠٠ مكيال من الذهب، ٢٦٠٠ عصًا ربما كانت من الأبنوس.

وأهم عمل قام به في داخل البلاد هو بناء معبد الشمس العظيم في «أبي صير» بالقرب من منف، ونموذج هذا المعبد كان المميز لمباني معابد الملوك في الأسرة الخامسة، وكان مقامًا بالقرب من هرم الفرعون، وزين بأشكال العمد الجديدة التي سبق الكلام عنها.

[١] كل ستات واحد يساوي $\frac{٢}{٣}$ فدان تقريبًا.

ومن بين النقوش التي لها قيمة اجتماعية في عهد هذا الملك لوحة جنازية لرئيس أطباء الملك «ني عنخ سخمت»، وقبره في سقارة، ورغم أنه قبر متواضع إلا أنه زين بباب وهمي من حجر طرة الأبيض، وقد ذكر الطبيب على هذا الباب الجميل ما يأتي معتزًّا:

> رئيس الأطباء «ني عنخ سخمت» يقول في حضرة جلالته: ليت شخصك المحبوب من «رع» يأمر بأن أمنح بابًا وهميًّا من الحجر لقبري هذا الذي في الجبانة، وقد أمر جلالته بأن يؤتى له ببابين من حجر طرة، وأن يوضعا في قاعة مجلس البيت المسمى «سحورع يضيء بالتيجان»، وأن يعطيا لكاهني منف العظيمين وصناع الجبانة، وأن يقوم العمل لإعدادهما في حضرة جلالة الملك نفسه، وقد قام العمل فعلًا كل يوم، وكان يفحص ما أنجز يوميًّا في البلاط، وبعد ذلك لوَّنهما جلالته ثم صقلهما باللون الأزرق.

وقال جلالته لرئيس الأطباء «ني عنخ سخمت»: ما دام أنفي سليمًا والإلهة تحبني فإني أتمنى لك أن تذهب إلى الجبانة بعد عمر طويل مقربًا، وقد دعوت للملك كثيرًا وصليت لكل إله من أجل «سحورع»؛ وذلك لأنه يعرف كل رغبات أتباعه. على أن كل شيء يتفوه به جلالته ينفذ؛ لأن الإله وهبه معرفة الأشياء التي في باطن الإنسان، ولأنه مبجل أكثر من أي إله، فإذا كنت تحب «رع» فعليك أن تدعو كل إله من أجل «سحورع» الذي فعل ذلك لي، ولقد كنت مقربًا عنده، هذا فضلًا عن أني لم أفعل أي شيء يضر بإنسانٍ ما.

ولا غرابة في أن نرى رئيس الأطباء يدون مثل هذا النقش على باب وهمي أهداه إليه الفرعون اعترافًا منه بالجميل، ليدلل أوَّلًا على حظوته عند الملك، وثانيًا لأن تلك المحاجر كانت خاصة بالملوك، ولم يكن في مقدور الأفراد أن يقوموا بقطعها ونقلها منها؛ وذلك لكثرة التكاليف، فكان الفرعون هو الذي يهب من يشاء من رجال دولته القطع اللازمة لإقامة مقابرهم، وقد بقيت محاجر طرة وقفًا على الملوك وأسرهم ومن هم في ركابهم فقط، وربما كان «اسم الحجر السلطاني» الذي يطلق على أحجار طرة حتى الآن قد جاءنا من عهد الفراعنة، والظاهر أن الفرعون عندما كان يهب عظماء دولته حجارة من هذه البقعة أو غيرها من المحاجر كان يأمر بكتابة اسم صاحب الأحجار بالمداد الأحمر بالخط الهيراطيقي على كل حجر بقطع ثم توزع على أصحابها في الجبانة، وقد عثر على مقابر فيها أحجار قطعت من طرة، منقوش على ظهرها اسم صاحب المقبرة، فقد وجدنا

مثلًا في جبانة الجيزة أحجارًا باسم «وب أم نفرت» صهر الملك «نوسر رع» وكذلك وجد اسم «رع ور» على كثير من أحجار مقبرته بالجيزة أيضًا، وهو من عهد الملك «نفر إر كا رع» ثالث ملوك الأسرة الخامسة وهكذا.

وكذلك كانت أحجار معابد الملوك وأهرامهم تُعلَّم بالمداد الأحمر باسم الفرعون وباسم المكان الذي كانت ستوضع فيه، وأحيانًا مقاييسها، كما نشاهد بين الأحجار التي عثر عليها بجوار الهرم الأكبر وأهرام سقارة نفسها.

ولا يبعد أن تكون المناظر الحربية التي بين الآسيويين والمصريين التي على مقبرة «إنتا» في دشاشة ترجع إلى عهد ذلك الملك الحربي. إذ في هذه النقوش نشاهد المصريين يغزون مكانًا في آسيا يسمى «نديا» (لا يعرف موقعه)، والمناظر توضح لنا تمامًا أطوار الحرب المختلفة في صور ساذجة، فنرى أوَّلًا المصريين يحاربون الآسيويين محاربة القرن للقرن والرجل للرجل ثم ينتهي الأمر بانتصار المصريين، وعلى أثر ذلك يفر الآسيويون ويحتمون بقلعة «نديا» فيحاصر المصريون محاصرة فنية منظمة ثم يتغلبون عليها فيثقبون جدرانها بوساطة خوابير مدببة من الخشب. ثم يستعملون سلاليم طويلة للهجوم النهائي على القلعة، وبعد ذلك يقبل المنهزمون على رئيسهم فيخبرونه بمصير القلعة فيشد شعر رأسه يأسًا، وفي أثناء ذلك نشاهد النساء يحملن القتلى ويسعفن الجرحى، وبعد النصر النهائي نرى المصريين يقودون عددًا كثيرًا من الأسرى رجالًا ونساءً وأطفالًا. ويحتمل جدًّا أن تكون هذه الجملة هي المذكورة على جدران المعبد الجنازي لهذا الملك في أبي صير ومما يحملنا على هذا الظن أن حملة الملك هذه ضد آسيا لم توصف بالتفصيل ولم يمثل منها على جدران المعبد غير خروجها من مصر ورجوع الجيش منتصرًا؛ إذ نجد الفرعون على رسوم المعبد يتقبل غنائم الآسيويين وفي حضرته شخصيات عظيمة من رجال بلاطه كل ثلاثة يكونون جماعة، ومن بينهم جماعة من موظفي ضِياع القصر الملكي عددهم ثلاثة أيضًا، وكذلك نجد فصائل من الجنود كل فصيلة تحمل شعارًا خاصًّا مثل: «ما أجمل سحورع أمام الزينة»، ومثل: «ما أعظم حب سحورع».

(٣) الملك نفر إر كا رع «كاكاو»

تولى الملك بعد وفاة «سحورع» الملك «نفر إر كا رع»، ولم تُبْقِ لنا الأيام من هرمه ومعبده الذي أقامه لنفسه في أبي صير إلا بعض كتل منقوشة عليها ألقاب وأسماء بعض الموظفين المعاصرين له، واسم معبده «مقر رع المحبب»، واسم الهرم «نفر إر كا رع» ظاهر وتدل الآثار التي وجدت بعده على أنه كان ملكًا محببًا لدى رجال بلاطه، وأنه كان يُعنى عناية خاصة بالمحافظة على معابد أجداده، ويبذل الهبات للآلهة، وقد ذكر لنا حجر بلرم بعض هذه الهبات، ومنها هبة عظيمة أوقفت باسم التاسوع المقدس أطلق عليها اسم «نفر إر كا رع» المحبوب من التاسوع المقدس، وأوقاف أخرى لأرواح عين شمس سماها «نفر إر كا رع محبوب أرواح عين شمس»، وهذه الأوقاف كانت تحتوى على ٢٥١س» أرورا[٢] في المقاطعة ١٤ من الوجه البحري تحت إشراف كاهنين عظيمين من كهنة عين شمس، وكذلك قدم للإله «رع» مذبحًا وللإلهة «حتحور» مذبحًا و٢١٠ قرابين مقدسة و٢٠٣ قرابين من الخبز والنبيذ … وفلاحين تابعين لهذه الآلهة، وقدم لها كذلك تمثالًا من الذهب المخلوط بالفضة. كل ذلك كان في السنة الأولى من حكمه، وقد قرب قربانًا أخرى، وأوقافًا غير أنه بكل أسف نجد الحجر هنا مكسورًا.

ومما سبق يمكننا أن نلاحظ أن اهتمام الفرعون كان عظيمًا بآلهة عين شمس وتاسوعها والإلهة «حتحور» مما يؤكد لنا تمامًا ميل هؤلاء الملوك إلى عبادة الشمس ومقرها بلدة عين شمس، يضاف إلى ذلك أن عبادة الفرعون في عهد الأسرة الخامسة كانت لها المكانة الأولى بعد الإله «رع»، فلم يكن يحتفل بها في معابد الملك فحسب، بل كان يحتفل بها كذلك في كل معابد الآلهة في طول البلاد وعرضها حيث كان يقدم — كما ذكرنا — موائد قربان أو مذابح للإله «رع» وللإلهة «حتحور» والملك معًا.

ولقد بلغ اهتمام هذا الفرعون بمعابد الآلهة أنه كان يصدر المراسيم لحكام جهات القطر بالمحافظة على حقوق المعابد، وما لها من ضروب الأعفاء من الأعمال، والميزات التي كانت تتمتع بها، ويعد هذا المرسوم أقدم وثيقة عثر عليها من هذا النوع إلى الآن وهو كما يأتي: «حور أوزير كا» و«نفر إر كا رع».

[٢] الأرورا: نحو ثلثي فدان تقريبًا، واللفظة المصرية هي «ستات» كما سبق ذكر ذلك.

مرسوم ملكي لرئيس الكهنة «حمور»:

إني لا أسمح لأي إنسان له السلطة أن يأخذ أي كاهن من الكهنة الذين في المقاطعة التي أنت فيها لأي عمل في المقاطعة تسخيرًا أكثر من العمل الذي يقوم به للإله شخصيًّا في المعبد الذي هو فيه، ويجب كذلك القيام بحسن المحافظة على المعابد بوساطة الكهنة القائمين فيها، ولا يفرض عملٌ ما تسخيرًا على حقلٍ ما من حقول الإله المكلفة به كل الكهنة، ولا يؤخذ لأية سخرة كانت في المقاطعة فلاحون أيًّا كانوا من الذين في أي حقل من حقول الإله المكلفة به كل الكهنة؛ وذلك لأنهم مُعْفَوْنَ لمدة الأبدية، وذلك طبقًا لمرسوم ملك الوجه القبلي وملك الوجه البحري «نفر إر كا رع». ولا توجد أية وثيقة في هذا الموضوع في أية مصلحة.

وكل فرد من المقاطعة سيستولي على كهنة ممن في حقل الإله المكلفين به في هذه المقاطعة ويسخرهم في المقاطعة. يجب عليك أن توجهه إلى بيت زراعة المعبد حتى يشتغل في كل أعمال التسخير الخاصة بمصلحة الحرث هذه في هذا المعبد، وهكذا مع كل فلاح في حقل الإله.

وكل أمير من أمراء الجنوب أو كل موظف، أو قريب للملك أو رئيس شرطة يعمل ضد تعليمات هذا المرسوم الذي اتخذ لقلعة «حور»، وذلك بالتصرف في ممتلكات الإله أو في الرجال أو في الممتلكات الأخرى أيًّا كانت مما يتملكها، فإنه سيكون تحت طائلة أي تسخير من أعمال المقاطعة.

خُتم في حضرتي أنا الملك في الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم العاشر.

ورغم تعقيد هذا المرسوم فإننا نفهم منه جيدًا أن الفرعون كان يعمل على معافاة رجال الدين وفلاحيهم الذين في ضِياع المعبد من القيام بأي عمل آخر في المقاطعة مهما كان نوعه. وسنرى أن تعدد مثل هذا الإعفاء، واستقلال الكهنة بالأملاك التي كانت توقف على المعابد من الأسباب التي أدت إلى ضعف الفرعون فيما بعد وأدت إلى سقوط الدولة القديمة في النهاية.

ومن أهم مظاهر عصر هذا الفرعون العظماء الذين عاشوا في عهده، وكانوا معه على أحسن حال من الود والصفاء المتبادل مما جعله مضرب الأمثال عندهم في الرقة وحسن المعاملة، ونخص بالذكر من بينهم أوَّلًا «رع ور» الذي كشفت الجامعة المصرية

عن مقبرته عام سنة ١٩٢٩ بالقرب من أبي الهول من الجهة القبلية، وهذا القبر يعد أكبر مقبرة ظهرت في الدولة القديمة إلى الآن، وكان «رع ور» هذا يحمل من ألقاب الدولة ما لا يقل عن ثلاثين لقبًا، منها أنه كان الكاهن لإلهة الوجه القبلي، والكاهن لإلهة الوجه البحري، وأكبر كاهن في الدولة، والسمير الوحيد، ومدير القصر، ورئيس أسرار الملك، وكان له خدم وموظفون بنوا قبورهم داخل مقبرته أو حولها. أهمهم «مرسو عنخ» الذي كان مدير ماليته، والواقع أن ما احتواه هذا القبر من الحجرات والتماثيل يكاد يضارع ما تفعله الملوك لنفسها؛ إذ عثر في قبره على ما لا يقل عن ١٢٠ تمثالًا معظمها هشمها الدهر والسرقة، وعدد حجراته لا تقل عن ٥٠ حجرة ولا نزاع في أن نفوذه كان عظيمًا في البلاط الملكي، ومقامه كبيرًا عند الملك نفسه يؤيد ذلك القصة التي وجدناها منقوشة على الحجر الجيري الصلب، وقد نصبت في واجهة جدار أحد سراديبه التي كان يوضع فيها تماثيله بمقبرته، وتفصيل ذلك أن الملك كان يقوم بافتتاح احتفال عيد خاص بجر سفينة الوجه البحري، وكان «رع ور» في ملابسه الرسمية، وتصادف أن كان بجوار سيده فلطمت عصا الفرعون ساق «رع ور» عفوًا، وعندما لاحظ الملك ذلك، ذعر واعتذر عما بدر منه نحو «رع ور» عن غير قصد، وقال له إنك أحب رجل عندي وأخص الناس بعطفي، ولكن الملك لم يكتف بذلك، بل أراد أن يعترف له أمام الناس، وأمام الخلف بمكانته عنده، فأمر بتدوين الحادث بفصه ونصه على حجر، وأن يوضع في قبر «رع ور» بجبانة الجيزة، وقد بقي هذا الأثر مختفيًا عن العالم حتى كشف حديثًا كما ذكرنا.

ولدينا وثيقة أخرى من عهد هذا الفرعون تدلنا على مقدار حنوه وتقديره لرجاله العاملين، ولكن مما يؤسف له جد الأسف أنها وجدت مهشمة ومشتتة؛ إذ يوجد جزء منها في «أبردين» والآخر في متحف القاهرة، والكل كان في مقبرة بسقارة لكبير المهندسين المعماريين، ورئيس القضاة الوزير «وشبتاح».

والواقع أن «وشبتاح» نفسه لم يقم هذا القبر، بل الذي بناه هو ابنه، وقد ذكر لنا السبب في ذلك العمل الذي لم يجر عليه العرف كثيرًا، ويتلخص في أن «وشبتاح» كان رجلًا مثقلًا بأعباء الأعمال التي كانت تتطلبها مهنه المتعددة أمام ملك البلاد، ومن أهمها أعمال العمارة التي كان يشرف عليها بنفسه، واتفق أنه كان منهمكا في بناء عمارة هامة، وتصادف أن جاء الملك وأسرته ذات يوم لفحص هذه العمارة ومشاهدتها، وقد سُرُّوا سرورًا عظيمًا بجمالها، وأُعجبوا أيَّما إعجاب أكثر مما يتصور، ولكن تأمل فقد أثنى عليه جلالته من أجل هذا. غير أن الإجهاد الذي بذله هذا الوزير أضناه حتى سقط

على غفلة مغشيًّا عليه، وذلك عندما كان الملك يتحدث إليه، وعلى أية حال فإن جلالته لاحظ أنه لا يصغي له فصاح قائلًا: إن «وشتاح» مريض، (وإن كان ذلك لم يذكر في المتن)، وعندما سمع أولاد الملك والأصدقاء الذين كانوا من رجال الحاشية استولى على قلوبهم الهلع أكثر مما يُتصور.

وفي الحال حُمل المهندس المعماري المصاب إلى قصر الملك الخاص، وعندئذ أحضر جلالته صندوق مخطوطات، ولا ريب أنها كانت أوراق بردي طيبة؛ لأن جلالته — جريًا على التقاليد الموروثة منذ أقدم العصور — كان مغرمًا بالطب وعلومه، ولكن لم يكن في وسع أحد إسعافه؛ لأن الحالة كانت على ما يظهر نزيفًا في المخ نتج عن الإجهاد في العمل. وعندئذ تركه الملك بقلب محزون ليصلي عليه في خلوته، وقد ذكروا أمام جلالته أنه مات، وكان قلب جلالته في شدة الحزن بدرجة لا مثيل لها، وقال جلالته أنه سيفعل كل شيء حسب رغبة «وشبتاح»، وعاد إلى حجرته الخاصة حيث صلى للإله «رع»، وعندما جاءت النهاية، أمر جلالته بأن يُصنع له تابوت من خشب الأبنوس المرصع، وهذا لم يصنع لواحد مثله من قبل. وكذلك أمر بتحنيطه أمام جلالته. أما الذي نقش هذا النص فهو ابنه الأكبر الذي كان يحمل لقب «الأول بعد الملك»، و«محامي الناس» (مرنثر نسوت) عندما كان يقبره بالجبانة، وقد أمر الملك بأن تكتب على قبره، وقد دعا له «الابن» جلالته بسبب ذلك، وشكر الإله كثيرًا (أي الملك).

وهناك قطعة من النقش نفهم منها أن الملك لم ينس خادمه المتوفى، لأنه حبس على مقبرة «وشبتاح» أوقافًا بالقرب من الهرم المسمى «سحورع يضيء».

حقًّا إن ما ذكرناه من النوادر في حياة هذا الفرعون مع كبار رجال دولته، لا يعد في أعين الكثيرين تاريخًا؛ إذ كان التاريخ في نظرهم لا يعرف إلا بالأرقام والحقائق الجافة، والمواقع الحربية، ولكن إذا نظرنا إلى هذه القصص من جهتها الاجتماعية والإنسانية، وما نقف منها عن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان منذ أقدم عصور تاريخ الإنسان المتحضر؛ أي منذ نحو ٤٠٠٠ سنة، فإن ذلك يكون له قيمة عظيمة في نظر المؤرخ الحقيقي أكثر من آلاف التواريخ ومن كتب مليئة بالحقائق الجافة، ومن أهم مرامي التاريخ أن يوقفنا على عهود من سبقنا من أجدادنا وغيرهم ممن عاشوا منذ آلاف السنين بعيدين عنا، وعلى علاقة بعضهم ببعض وحال مجتمعهم، وهل كانوا مثلنا من دم ولحم يشعرون ويتألمون، ويحبون ويخافون ويتعاطفون ويتراحمون عندما ما تدعو الطبيعة إلى ذلك رغم الفوارق الاجتماعية، وهل سيموتون في النهاية كما نموت، ومن أجل ذلك فإنا نعتبر

قص مثل هذه الذكريات التي نتصيدها من مجاهل الماضي، ونقتنصها من جوف أرض مصر مما يبرز لنا صورة واضحة للشعور الإنساني المتبادل بين الملك ورجال شعبه العاملين في هذه الأزمان السحيقة، وبين أفراد الشعب، وفي اعتقادي أن مثل هذه الصور الحية تعد أثمن خلاصة للتاريخ البشري، ولا عجب؛ فإن «نفر إر كا رع» قد ضرب المثل الأعلى في هذا المضمار وبخاصة في حسن المعاملة وطيب العلاقة بينه وبين كبار رجال دولته على مرأى من عامة الشعب في واقعتين سجلهما التاريخ، لم تكونا من وقائع حرب تقتل فيها النفوس بل وقائع رحمة وإخاء تؤثر فيها الأرواح.

وبعد وفاة «نفر إر كا رع» تولى الملك ثلاثة من الفراعنة، يظهر أنهم كانوا إخوة، غير أننا لا نعرف قرابتهم للفراعنة الثلاثة الذين سبقوهم، على أن الاثنين الأولين وهما «شبسس كا رع» و«نفرف رع». لا نعرف عنهما شيئًا. أما ثالثهم وهو «نوسر رع»، فيظهر أنه كان شخصية هامة في تاريخ الأسرة الخامسة، وقد حكم نحو ٣٠ عامًا، وقد عثر على معبده وهرمه في أبي صير ووجد منقوشًا على معبده أقدم رسم لاحتفال عيد «سد» الرسمي، وهو العيد الذي كان يقيمه الفرعون، إما عند بلوغه الثلاثين أو بعد حكمه بثلاثين عامًا، وذلك ليعيد إلى نفسه الشباب والقوة الحيوية، ولا يفوتنا أن نذكر أن من بين كهنة هرم هذا الملك الكاهن «تي» بسقارة، وقد عثر حديثًا على حجرة دفن ابنه ووجد فيها بعض أشياء قيمة، ومقبرة «تي» تمدنا بمعلومات قيمة جدًّا عن حياة هذا العصر من الوجهة الاجتماعية والدينية.

وتدل النقوش على أنه حارب في شبه جزيرة سينا حيث ترك لنا لوحة في وادي مغارة يظهر فيها ممثلًا وهو يضرب الآسيويين، وقد نقش عليها ما يأتي: «قاهر الآسيويين من كل الأقطار». على حين أن معبد هرمه في أبي صير كان محلًّى بالنقوش التي تشاهد عليها انتصاراته على اللوبين والأعداء من سوريا.

وقد حفظت لنا النقوش أسماء اثنتين من زوجاته؛ «ختي خوي» و«نبت»، وكذلك نعرف اثنتين من بناته وهما «خع مرر نبتي» و«مرتاتس».

ويعتقد بعض المؤرخين أن «فتاح حتب» مؤلف كتاب الحكم هو ابن «نوسر رع»، ولكن هذا الرأي لا يستند على أسانيد تاريخية، بل الواقع أن هناك ما ينفي ذلك.

وقد كشف عن بعض نقوش من عهد الملك في مقابر رجال عظماء بلاطه، تكشف لنا بعض نواحي خلقية للمصريين، ومعاملتهم للموتى؛ فمن بين هؤلاء «حتب حري أخت»،

وكان قاضيًا ونائب الملك في «نخن»، وقد نقل هذا القبر إلى ليدن كغيره من قبور الدولة القديمة، التي كانت مصلحة الآثار تبيعها بأبخس الأثمان لمتاحف العالم.[٣]

والنقوش التي على قبر هذا العظيم تدل على سلامة القلب التي بها يغري المارين على قبره ليعاملوه كما يحبون أن يعامَلوا هم فيقول: لقد أقمت هذا القبر من متاعي الحقيقي، ولم أستولِ على شيء للغير، فالذين سيقدمون إلي قربانًا فيه، فإني سأقوم نحوهم بالمثل، وسأدْعُو لهم الإله لذلك كثيرًا جدًّا، وسأفعل ذلك لهم مقابل الخبز والجعة، والملابس والعطور والحبوب بكميات عظيمة.

بعد ذلك نرى أن «حتب حري أخت» يظهر لنا تخوفه على قبره، فيكشف لنا القناع عن ناحية أخرى من نواحي الخُلق المصري في معاملة مباني موتاهم ومحتوياتها وما لها من الأوقاف. فنجده يري لزامًا عليه أن يعترف على نقوش مقبرته بأنه لم يسرق مقبرة أي إنسان، وكذلك يحذر كل مارٍّ من التعدي على قبره، أو أي شيء من محتوياته فيقول: لقد أقمت قبري هذا على المنحدر الغربي في مكان طاهر بكر (أي لم يستعمل من قبل)، ولم يكن فيه قبر أي إنسان، لأجل أن يحافظ على أملاك الذي قد رحل إلى قريته «الكا». أما من جهة دخول بعض الناس هذا القبر مدعين أنه عقار مأتمي لهم، أو إحداث أي شيء ضار به، فإنهم سيحاكمون من أجل ذلك أمام الإله العظيم، ولقد شيدت هذا القبر لأني رجل مبجل لدى الملك الذي أحضر لي تابوتًا، ولعمري، فإن هذا المتن يدلنا دلالة واضحة عن مبلغ تخوف المصري مدة حياته وما عساه أن يلحق بقبره بعد مماته، لأنه كان يرى بعينه ما يحدث لقبور الغير، وما كان عليه الخُلق المصري من هذه الناحية، ولقد بقي هذا الداء الدفين أهم ما يشكوا منه المصريون طوال تاريخ حياتهم، وقد تفننوا في الوصول إلى استئصال هذا الداء، ولكنه كان يزداد كلما ازدادت ثروة البلاد، كما سنرى فيما بعد.

[٣] نقلت مباني مقابر كاملة إلى لندن وبرلين وليدن وبروكسل وغيرها. كان بعضها يباع بعشرة جنيهات، وتحتوي على روائع الفن المصري.

(٤) الملك منكاوحر

جاء بعد «نوسر رع» الفرعون «منكاوحر»، وكل ما نعرفه عنه أنه أرسل حملة إلى شبه جزيرة سينا غير أن نقوشها وجدت مهشمة في معظمها، وما بقي منها هو: «حور منخو» ملك الوجه القبلي، والوجه البحري «منكاوحر» معطي الحياة والثبات … ومما يؤسف له جد الأسف أن اسم القائد الذي كان على رأس هذه الحملة وجد ممحوًّا، ولذلك لم نتمكن من معرفة اسم أول قائد حملة في التاريخ المصري إلى هذه الجهات، تجاسر أن ينقش اسمه بجوار اسم الملك، وكانت هذه الميزة وقفا على الفراعنة، ولكن بعد عهد هذا الملك أصبح القواد ينقشون أسماءهم بجانب اسم الملك على اللوحة التذكارية التي كانت تقام في هذه الجهات تخليدًا لعملهم، ويوجد الآن في متحف اللوفر نقش غائر للملك «منكاوحر». عثر عليه في إحدى جدران مدفن السرابيوم بسقارة ومن المحتمل جدًّا أنه اغتصب من معبد هذا الملك الذي اختفى الآن جملة، والظاهر أنه لم يمكث على العرش أكثر من ثمانية أعوام.

(٥) الملك إسيسي

جاء بعد «منكا وحر» الملك «زد كا رع» (إسيسي) ولا نعرف صلة الرحم بينهما، والظاهر أن عصر «إسيسي» كان عصرًا حافلًا بالأعمال العظيمة، ففي عهده أرسل المستشار الملكي «با ور دد» إلى بلاد بنت «الصومال» القاصية، ومن هناك أحضر قزمًا من نوع نادر، وقد أدمج مع أقزام آخرين للقيام باحتفالات الرقص التي كانت تعمل للآلهة، وقد كان لهذا القزم الشرف كذلك بالرقص مع الأميرات ونساء القصر الملكي اللائي كن يقمن بوظائف الكاهنات في المحراب الملكي.

وعثر لهذا الملك في شبه جزيرة سينا على ما لا يقل عن أربعة نقوش في وادي مغارة. كتب على واحد منها: «ابن الشمس» مما يدل على التوغل في عبادة الشمس، وأن هذا اللقب أخذ يكثر استعماله، وأرسل كذلك حملة إلى بلاد النوبة كما يدل على ذلك النقش الذي وجد على صخرة «توماس»، ووجد كذلك نقش في وادي حمامات عليه اسم هذا الملك. أما النقش الذي يلفت النظر لهذا الفرعون فقد وجد في سينا، وقد جاء في مقدمته التاريخ كما كان يدون وقتها: «السنة التي تتلو المرة الرابعة لتعداد كل الحيوان، الكبير والصغير، عندما جعل الإله الحجر الثمين يوجد في المنجم السري، الذي هو لوحة بخط الإله نفسه،

«حور زد خعو»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري محبوب الإلهتين «زد خعو»، و«حور الذهبي» … عاش أبديًّا. بعثة ملكية قام بها ضابط البعثة «ني عنخ خنتي خت» إلى المرتفع الذي يسمى الدهنج «ملخيت».» ويعد هذا الضابط أول قائد حملة معروف لنا نقش اسمه بجوار اسم الملك، وقد ظن بعض المؤرخين أن الحجر الثمين الذي يشير إليه في النقش هو حجر بلرم المشهور، ولكن هذا مجرد تخمين لا أساس له.

ومن الطريف أن «فتاح حتب» صاحب التعاليم المشهورة التي تعد أقدم ما وصل إلينا من حكم المصريين للآن، كان مربي الملك «إسيسي»، وقد أملى تعاليمه في شيخوخته وذلك لإعداد ابنه ليتولى بعده وظيفته في البلاط، وسنذكر هنا مقدمة هذه التعاليم لنبرز للقارئ السمو بالأسلوب المنمق لهذا الشيخ المسن، والميل الخاص عند الموظف المصري في هذه العصور للمحافظة على توارث الوظيفة بقدر ما تسمح به الأحوال: هكذا تكلم إلى جلالة الملك «إسيسي». قد حلت الشيخوخة ونزل هذيانها، وامتلأت الأعضاء آلامًا وظهرت حالة الشيخوخة كأنها شيء جديد، وانمحت القوة أمام الهزال، وصمت الفم فلم ينطق، وغارت العينان وصُمَّت الآذان … والقلب كثير النسيان غير ذكر الأمس، والعظام تتألم من كبر السن، والأنف كُتم وأصبح لا ينفس، والقيام والقعود سِيَّان؛ كلاهما مؤلم، والطب أصبح خبيثًا، وكل ذوق قد ولَّى، وما يفعله التقدم في السن مع الإنسان هو أن يصير حاله سيِّئًا في كل شيء، فمرني أن أصنع عكازًا لكبر السن، ودع ابني يأخذ مكاني لأعلمه أحاديث من يسمعون، وأفكار من سلفوا، وهم الذين خدموا السلف في الأزمان الخالية، ولَيْتهم يصنعون لك المثل حتى يُتَّقَى الشجار بين القوم، ويخدمك شاطئ النهر (أرض مصر). فقال جلالته: علِّمه أوَّلًا الحديث … وليته يكون مثالًا لأولادي العظماء، وليت الطاعة تكون رائده، ويدرك كل فكره صواب من يتكلم معه، وليس هناك ولد يحرز الفهم من تلقاء نفسه.

ولا نزاع في أن الملك «إسيسي» قد أجاب مُلْتَمَس «فتاح حتب» بعد كل هذه التوسلات، والتضرعات المؤثرة، وبذلك نال بغيته وسُرَّ؛ لأن الذي كان أعظم ما تصبو إليه نفسه في حياته ككل مصري، أن ينصب في وظيفة حكومية يتقاضى منها مرتبًا ضخمًا ويتيه بها على أقرانه الذين لم يسعدهم الحظ بمثل ما أسعده.

ومن عظماء رجال هذا العصر الجديرين بالذكر «سنزم إيب»، وكان يشغل أعظم مناصب الدولة؛ إذ كان وزيرًا وكبير المعماريين، وكبير القضاة، والواقع أنه كان أعظم رجل في عهد هذا الفرعون، وقد دون على قبره القريب من هرم «خوفو» ما ناله من

الحظوة في عصر مليكه؛ منها خطاب كتبه بخط سيده، وسبب ذلك أن الملك طلب إلى «سنزم إيب» أن يعمل له تصميم بحيرة، فقام هذا المهندس بعمل تصميم بحيرة يبلغ طولها ١٢٠٠ ذراع، فَسُرَّ «إسيسي» من المشروع سرورًا عظيمًا، وأرسل له خطابًا يظهر فيه ارتياحه وإعجابه بكبير مهندسيه فيقول «سنزم إيب»:

> إن جلالة الملك كتب بأصبعه نفسه ليثني عليَّ لأني أنجزت كل عمل أمر بعمله جلالته بغاية الإتقان والكمال كما يريد قلب الملك أن يفعل له، وقد كتب له الملك: إن جلالتي قد اطلع على خطابك الذي أرسلته لتخبرني وأن كل شيء قد تم من جهة المبني الذي يسمى محبوبة من «إسيسي» وهو الذي بني لأجل قصر «إسيسي» الذي يسمى «نهبت» وطولها ٢٠٠ ذراع، وعرضها ٢٢١ ذراعًا حسب الأوامر التي أعطيتك إياها … حقًّا إنك «سنزم إيب» (فرح القلب) عندما أدخلت الفرح على قلبي «إسيسي».

وفي هذا الخطاب تورية بين اسم «سنزم إيب» وفرح قلب الفرعون.

وقد ذكر ابنه على مقبرة والده، أن الملك قد خصص له أوقافًا أبدية، لأنه «سنزم إيب» وأنه أمر بإحضار تابوت له إلى مقبرته بالقرب من هرم «خوفو». والظاهر أن عظماء هذا العصر كان كل ما يحرصون عليه أن يدون بعدهم على قبورهم، التي كانوا يعتقدون ولو ظاهرًا أنها أبدية، ما كان ينالهم من الملوك من الحظوة، وما قاموا به من جلائل الأعمال، مع بعض المبالغة أحيانًا، وهذه الوثائق تكاد تكون مصدرنا الوحيد لتاريخ البلاد، وقد مكث «إسيسي» ما يقرب من ٢٨ سنة على أريكة البلاد.

(٦) الملك وناس

يُعتبر وناس في نظر التاريخ أنه آخر ملوك الأسرة الخامسة ومن أعظم ملوكها، وقد بقي قابضًا على صولجان الملك حوالي ثلاثين عامًا تقريبًا، وتنحصر شهرته في نظرنا في هرمه الذي بناه في سقارة وقد وجدت حجرة دفنه التي فيها تابوته، منقوشةً كل جدرانها بتعاويذ وصلوات دينية، كان الغرض منها أن تحفظ المتوفى في آخرته، وهذه هي أول مرة نجد حجرة الدفن في الأهرام مكتوبة بمتون دينية، وقد فتح «مسبرو» العالم الفرنسي باب هذا الهرم، وكذلك أبواب أهرام ملوك الأسرة السادسة، وهم «تيتي» و«بيبي الأول» و«مرن رع» و«بيبي الثاني»، وكلها في منطقة سقارة، وكان ذلك في عام ١٨٨١ أي بعد

وفاة «مريت باشا» مؤسس المتحف المصري، وهذه المتون المنقوشة في حجر دفن هذه الأهرام متشابهة وتحتوى على آلاف من الأسطر، وقد ترجمها «مسبرو» العالم الفرنسي. ثم أعاد ترجمة معظمها حديثًا العالم الألماني زيته، وتعد هذه المتون الآن الأساس الأكبر لمعرفة ديانة قدماء المصريين في عهد الدولة القديمة.

ولما جاء عصر الدولة الوسطى وجدنا متونًا مشابهة لها مكتوبة بالمداد الأسود على توابيت خشبية لِعلية القوم. أما في عصر الدولة الحديثة فقد وجدنا متونًا أكثر نموًّا وأغزر مادة مكتوبة على ورق بردي كان يوضع مع المتوفى في قبره، ويسميها علماء الآثار الآن بكتاب الموتى، وتقع في أكثر من ١٢٠ فصلًا، وكل هذه المتون في العصور المختلفة، أصبحت مصدرًا لا ينفذ لتعرف ديانة القوم، وأساطيرهم الدينية. ورغم أن هذه المتون قد وجدت لأول مرة في عهد الملك «وناس» إلا أنها تدل على أن أصلها يرجع إلى زمن سحيق في القدم، وربما ظهر ما يثبت ذلك في المستقبل [انظر الفصل الثاني عشر: مصادر المقاطعات في العهد الفرعوني وما بعده].

وفي العالم الماضي كشف عن المعبد الجنازي لهذا الملك ثم عن جزء من الطريق الموصل لمعبد الوادي، وفي الوقت نفسه كشف عن جزء من معبد الوادي، ويظهر أنه أعظم مساحة مما كنا نتصوره، ومن المدهش أن الطريق الذي يوصل بين المعبدين وجد بعض أجزاء مما كشف منه سليمة نوعًا ما، وقد كشفت لنا عن صفحة جديدة في تاريخ المعابد المصرية في عهد الدولة القديمة، ألقت شعاعًا من النور على بعض الحقائق الجنازية والاجتماعية كانت مجهولة لدينا، فقد وجدنا أوَّلًا أن هذا الطريق كان مبنيًّا بالحجر الجيري الأبيض، ومسقوفًا كذلك بقطع ضخمة من نفس الحجر فيها منافذ لإضاءة الطريق، وهذا السقف مزين بالنجوم لتمثل فيه السماء، أما جانبَا الطريق فقد نقشَا بمناظر غاية في الإتقان، بعضها جنازي، والبعض الآخر يمثل الحياة العامة، وحياة البلاط؛ فنجد مثلًا حاملي القربان يذهبون نحو الهرم، وآلهة مختلفين يباركون الملك، ونجد مناظر تمثل الملك وهو يتقبل القربان، وأخرى وهو يحارب الأعداء ويقتلهم، كما نشاهد رجال البلاط آتين في خضوع للملك كل يقدم طاعته، بينما يصطف رجال الجيش أمامه كل يحمل لقبه، وفي جهة أخرى نشاهد جنود الملك يقتلون الأعداء من البدو بحرابهم ومُدَاهم، وهناك نرى مناظر الزرع والحصاد ونباتات كل فصل، وجني الشهد وتوالد الحيوان، وفي أحد المناظر نشاهد صيد حيوان الصحراء من كافة أنواع الغزلان والأسود، من بينهما الزرافة التي لم يكن قد عثر على رسمها في نقوش الدولة

القديمة. كل هذا كان مهيأ لمنفعة الفرعون، وكذلك نشاهد النيل وفيه كل أنواع الأسماك، والحقول وما فيها من طيور.

ثم نشاهد بعد ذلك مناظر قد عُني الفرعون بها خاصة ليظهر لأخلافه كيف كان يُعنى بتشييد معبديه؛ إذ نشاهد منظرًا لبعض السفن المحملة بالأعمدة الجرانيتية وقطع الكرانيش التي كانت تستعمل في تشييد المعبد الجنازي، وقد كتب عليها: «أعمدة من الجرانيت أحضرت من أسوان»، ومن المدهش أن هذه الرسوم تدل دلالة واضحة على أن هذه الأعمدة والكرانيش قد صنعت في أسوان ثم وضعت على زحافات، وربطت، ثم وضعت في السفن لتكون جاهزة لإقامتها في أماكنها بمجرد وصولها؛ أي إنه كان يوجد في أسوان مدارس صناعات لهذا الغرض، ولم يشهد التاريخ منظرًا قبل هذا ولا بعده، اللهم إلا مسلة الملكة «حتشبسوت» التي حملت من أسوان، غير أنها لم تكن قد تم نقشها، يضاف إلى ذلك أننا عثرنا على صور مراكب منقوشة على جدران هذا الطريق أعظم حجمًا من السفن النيلية، وقد وجد فيها قوم آسيويون شبه أسرى، وهذه المراكب بلا شك آتية من بلاد سوريا مما يدل على العلاقة بين البلدين في هذا العصر، بل وسيطرة مصر عليها بعض الشيء، وآخر منظر كشفنا عنه هو منظر للسوق المصري وتبادل السلع وصنع الذهب ووزنه، وقد كشف حديثًا عن مقبرة زوجته «نبت»، ومقبرة لأحد أولاده المسمى «وناس عنخ».

(٧) ظهور عبادة الإله «رع» في الأسرة الخامسة

لاحظنا أنه منذ عهد الفرعون «شبسكاف» قامت نهضة لمقاومة عبادة إله الشمس «رع» الذي أخذ في النهوض والظهور منذ أواسط الأسرة الرابعة، ولكن تدل الأحوال على أن نجم هذا الإله أخذ يعلو في عهد الأسرة الخامسة ثانية، وأخذت عبادته تنتشر حتى أصبحت عبادة الدولة الرسمية، على أن إله الشمس «رع» الذي يحكم العالم لم يكن يُعبد في مصر من قبل إلا عندما كان يمثل في الإله «آتوم» معبود بلدة عين شمس المحلي، ولكن مصر قد أصبحت الآن أمة عظيمة متحضرة تعتقد في نفسها أنها مركز العالم، وأن أمم المعمورة الأخرى ليس لها أية أهمية، وقد كان كل هم الإله «رع» حاكم العالم أن يهتم بالبلاد المصرية وفرعونها، وقد أخذ الآن يحل محل الإله «حور» فأصبح إله الدولة والمسيطر على كل البلاد، وصارت الآلهة المحلية للمقاطعات كلها دونه وتحت سلطانه، كما كانت حكام المقاطعات تدين لسلطان الفرعون وإرادته، وقد أدَّى ذلك إلى القيام

بواجب جديد نحوه كان لا بد للفرعون وشعبه من القيام به، وهو أن يعترفوا بفضل الإله «رع» وأن يظهروا هذا ببناء المعابد وتقديم القرابين، وقد كان أول من ضرب المثل لذلك كما ذكرنا الفرعون «وسركاف»، ثم قفَّاه في هذا السبيل مَن خَلَفَه، وبعد ذلك أحدث الفرعون «كاكاي» ثالث ملوك الأسرة الخامسة نظامًا جديدًا نحو تمجيد إله الشمس والاعتراف به، وذلك أنه أضاف لاسمه الملكي اسم «نفر إر كا رع» ومنه نلاحظ أنه أراد أن ينسب لنفسه صفة من صفات الإله «رع»؛ «جمال قرين رع»، وقد أصبح هذا الاسم هو الذي يذكر في كل نقوشه تقريبًا، وقد حذا حذوه كل أخلافه دون استثناء في خلال هذه الأسرة، ولا يخفى أنه منذ الأسرة الرابعة كان يسمى الفرعون «ابن الشمس»، وذلك طبعًا في أحوال فردية.

غير أن هذه التسمية أصبحت أكثر استعمالًا في عهد الأسرة الخامسة، ولكن في خلال الدولة الوسطى منذ عهد الأسرة الإهناسية والأسرة الحادية عشرة أخذ هذا اللقب يدخل تدريجًا في السجلات الملكية، ولقد شاهدنا الفرعون «نوسر رع» عندما أهدى معبده للإله «رع»، لم يذكر بالتخصيص أن الإله «رع» هو والده كما كان الحال مع الفراعنة الذين جاءوا فيما بعد، ولم ينسوا أن يذكروا ذلك، ولكن من جهة أخرى نشاهد أن كل فرعون كان بمجرد اعتلائه عرش الملك يقوم في الحال بإقامة معبد جديد للشمس، وذلك مما يدل على أنه كانت هناك علاقة شخصية تربط الفرعون بالإله «رع»، والواقع أن الديانة في عهد الأسرة الجديدة كان ينظر إليها نظرة مخالفة لما كانت عليه من قبل؛ إذ كان أهم واجب على الفرعون أن يسهر على العناية بتمجيدها، ولا أدل على ذلك من المرسوم الذي أصدره الملك «نفر إر كا رع» وحفظ في «العرابة»، وهذا المرسوم خاص بكل الدولة، وفيه كما ذكرنا آنفًا يحرِّم الفرعون فرض أي سخرة على الكهنة وفلاحي أي معبد، أو أن ينتزعوا شيئًا من الضِّياع التابعة للمعابد. ولا نزاع في أن قصة ورقة «وستكار» خرافة، ولكن إذا كانت تجعل ولادة ثلاثة الملوك الأُول من الأسرة الخامسة من زوجة كاهن للإله «رع»، وإذا كان «رع» نفسه قد أنجبهم حتى يعتلوا عرش ملك مصر، ويبنوا المعابد للإله ويقربوا الضحايا، ويغذوا موائد القربان بالخيرات التي منها يشرب الإله، ويحبسوا عليها الأوقاف الطائلة، فإنا لا نشك في أن هذه القصة تعتمد على أصل تاريخي، هذا إلى أن الملك «وسركاف» كما ذكرنا في حينه كان كاهنًا أعظم للإله «رع» في عين شمس قبل توليه العرش.

والحق أن العبادة الجديدة نشأت في هذه المدينة، ومنها خرجت عبادة «رع» وأصبحت مهد الحياة الدينية في كل جهات القطر، وكان مثل معابد الإله «رع» في الأسرة

الخامسة مثل الأهرام تقام على حافة الهضبة الصحراوية الغربية خلف المدن الملكية في منطقة «منف». وترتيب بناء هذه المعابد في مجموعه يذكرنا بالتصميم الذي كان متبعًا في المعابد الجنازية في عهد الأسرة الرابعة، فكان يخرج من المقر الفرعوني طريق منحدر بعض الشيء ينتهي في طرفيه بأروقة توصل إلى المعبد نفسه، وهو مقام على تلعة ممهدة رقعتها ومثبتة بالأتربة المنقولة، وكانت تقام في وسط ردهة عظيمة غير مسقوفة مسلة ضخمة يبلغ ارتفاعها نحو ٦٠ مترًا على قاعدة تشبه قمع الخياط، وهذه المسلة كانت مبنية من كتل من الحجر الجيري المرصوص بعضه فوق بعض، وأمام هذه المسلة كانت تقام مائدة قربان أو مذبح عظيم الحجم منفرد من المرمر، وعلى جوانب هذه الردهة كانت توجد مخازن المعبد، وطراز هذا الهيكل يختلف عن كل المعابد المصرية؛ إذ لا يحتوي على أي تمثال لإله، ولذلك لم يكن فيه أي «ناووس» أو محراب للتعبد؛ وذلك لأن الإله الذي كان يُعبد فيه لم يكن مقرُّه على الأرض، ولم يتقمص أي حيوان، أو تمثال، ولكنه يسطع في السماء كل يوم بكل جلاله وبهائه، أما المسلة التي يحتمل أنها كانت في الأصل قطعة حجر منصوبة، فليست إلا رمزًا قديمًا لعبادة الشمس القديمة، ومن ملحقات هذا الهيكل سفينتا الشمس، وهما اللتان يسبح عليهما الإله في السماء. وقد كشفت سفن من هذا النوع منذ الأسر الأولى، ففي معبد «خفرع» كشفت اثنتان للشمس؛ واحدة للسباحة من الشرق للغرب، وأخرى من الغرب للشرق، والثانية مغطاة بالأحجار، لأنها تسبح ليلًا ومفروض أنها لا ترى، وكذلك كشف في العام الماضي عن سفينتين لمعبد الملك «خوفو» ويبلغ طول الواحدة منها أكثر من خمسين مترًا — كما سبق الكلام عن ذلك — مما يدل على أن عبادة الشمس كانت شائعة في الأسرة الرابعة تمامًا، والطريق المنحدر الذي يبتدئ من المقر الملكي عبارة عن طريق مغطى ينتهي عند المرتفع ذي القاعدة المكعبة، ومن هذا المكان يخرج الفرعون من الظلمات إلى نور النهار، محيِّيًا الإله الذي يبزغ من الشرق منذ مطلع الفجر ومعه جم غفير من القوم يحملون أمامه القربان إلى المائدة.

وفي هيكل الفرعون «نوسر رع» نجد على جدران دهليز معبده، وعلى جدران حجرة متصلة به نقوشًا بارزة ذات جمال خارق لحد المألوف، وهي تمثل إما احتفال تأسيس الهيكل والعيد الثلاثيني، أو تمثل نشاط إله الشمس الخالق ما على سطح الأرض، مثل حياة النبات، ودنيا الحيوان، وذلك في خلال فصول السنة الثلاثة، وقد عثر في العام الماضي على مثل هذا المنظر في طريق معبد الملك «وناس» في سقارة، ومن ذلك يتضح لنا

أن هياكل الشمس هذه لم تُبْنَ عبثًا، بل لتحقيق فكرة دينية عظيمة. ولا شك في أن هذه الفكرة قد استعير بعضها من المباني التي سبقتها لتعبر عن عناصر قديمة، فمثلًا نجد أن هذه الأروقة، والدهليز هي نفسها التي توجد في المعابد الجنازية للأهرام. أما مناظر الفصول فقد كانت بلا نزاع على جدران معابد الأهرام كذلك، ولكن لم يعثر عليها لأن كل مباني معابد الأسرة الرابعة قد اندثرت، ولم يبقَ منها إلا أشياء طفيفة جدًّا، وحقيقة كانت فكرة هذه الهياكل وتصميمها فذة وليس لها نظير في المباني الدينية في كل عصور التاريخ المصري.

ولكن إذا نظرنا إلى ظواهر الأمور وجدنا أن عبادة «رع» التي أدخلها ملوك الأسرة الخامسة قد أضافت إلهًا جديدًا للآلهة القديمة فحسب؛ وذلك لأن الفراعنة كانوا يحتفلون بعبادة الآلهة الآخرين بنفس الحماس الذي أظهروه لـ «رع» فكانوا يحبسون عليها القرابين والأراضي كما كانوا يفعلون للإله الجديد، وقد كان يعبد كذلك في هياكل «رع» مثيل له قد اختلط معه فيما بعد، وأعني بذلك إله النور الذي يطلق عليه «حور الأفق» (حور أختي)، وكذلك إلهة السماء «حتحور»، وقد كان هذا هو الفارق الرئيسي بين عبادة «رع» في هذا العصر، وبين عبادة «إخناتون» التي أسست فيما بعد، ومع كل ذلك فإنه يجب أن نتعرف في نفس عبادة «رع» خاصيات تجعلها مغايرة تمامًا لعبادة الآلهة الأخرى، وذلك أن في عبادة «رع» عنصرًا خارقًا للطبيعة؛ أي إن هناك فكرة عالية عن اللاهوت ظهرت في حياة المصريين. هذا إلى أنه في الوقت نفسه نجد أن فكرة الملكية المقدسة التي فرضت على الشعب في عهد الأسرة الرابعة، وجدت ما يناهضها في عبادة «رع»، فإذا كان واجب الفرعون منذ اعتلائه عرش الملك في عهد الأسرة الرابعة هو إقامة مقبرة ضخمة، فإنه منذ الأسرة الخامسة أصبح عليه واجب آخر لا يقل عن الأول في صعوبته وخطورته، وذلك هو بناء هيكل جديد لعبادة إله الشمس. على أن تأثير هذه الفكرة الجديدة يمكن ملاحظته تمامًا عندما بدأ آخر ملكين من ملوك هذه الأسرة يتنحيان عن بناء معابد جديدة للإله «رع»، ومنذ ذلك العهد أخذت عبادة «رع» تتضاءل كما سنرى أمام عبادة الآلهة الأخرى «وبخاصة الإله فتاح»، وهي الآلهة التي كانت عبادتها راسخة في ضمائر عامة الشعب، وليس شك في أن هؤلاء الآلهة قد خضعوا لنفوذ الإله «رع» خلال الأسرة الخامسة، كما خضعوا من قبل لعبادة الإله «آتوم» في عين شمس، وكان رجال علماء الدين، والمهذبون من أفراد الشعب يعتقدون أن الآلهة المحلية ليس لها أي نفوذ أو سلطان إلا لأنها مظهر من مظاهر الإله «رع». أما الإلهات فكانت

في اعتقادهم إلهات السماء، أو بعبارة أخرى أمهات للشمس، وكذلك كان الحال في فكرة الملكية، فإذا كان الملك يعتبر أنه ابن ملك العالم «الشمس»، فإننا نجد سلطانه من هذه الناحية يزداد، ولكن من جهة أخرى نجد شخصيته أصبحت خاضعة لفكرة دينية أكثر سموًّا، فلم يصبح موقف الفرعون متساويًا مع والده «رع» في أنهما يستمدان حقوقهما من مصدر واحد، (وهذا كان في الواقع موقف الملك بين الآلهة؛ إذ كان يعتبر «حور» الحي المتربع على العرش)، بل إن الفرعون أعلن على العكس طاعته وخضوعه وتنفيذه لإرادة والده «رع»، وهذا هو السر في أنه لم يعد يطلق عليه اسم «الإله العظيم» فيما بعد كما كان ينادى في عهد الدولة القديمة، بل أصبح لا ينادى إلا بلقب «الإله الطيب».

الفصل السابع عشر

الأسرة السادسة

لم تكشف لنا الآثار للآن عن أصل قيام الأسرة السادسة، والظاهر أن ملوكها قد تولوا حكم البلاد من غير شبوب ثورات أو قيام خلاف كبير، وقد ظل فراعنتها على عرش الملك ما يقرب من قرنين من الزمان.

ويظن أن مؤسسها هو الملك «سحتب تاوي تيتي»، ولا نعرف عن حكمه إلا الشيء القليل.

وقد علمنا التاريخ في كل العصور أن كل مؤسس جديد لا بُدَّ أن يكون رجلًا ذا بطش وقوة، ولكن قناع الوجه الذي عثر عليه الأثري «كويبل» بالقرب من معبد هرم «تيتي» في سقارة تدل ملامحه، على أن ذلك الملك كان رجلًا ناعم الخلق رقيق العاطفة إذا صح أن هذا القناع قد عمل شبيهًا لوجهه لا لإنسان آخر.

ويعزو المؤرخ «مانيتون» أصل هذه الأسرة إلى منف، وربما كان محقًّا في ذلك بعض الشيء؛ لأن الأسرة الخامسة كانت كل ميول ملوكها متجهة نحو عبادة عين شمس (الإله رع) أما ميول ملوك الأسرة السادسة الدينية، فكانت تتجه إلى عبادة الإله فتاح في منف.

وقد وصلت إلينا وثيقتان صادرتان عن كبير كهنة الإله فتاح في منف، وهما تدلان على أن الملك «تيتي» كان متجهًا بميوله إلى تنظيم كهنوت «فتاح»، وقام فعلًا بإصلاحات وتغييرات هامة في نظام كلية الكهنة، على حين أنه توجد كذلك لوحة في المتحف البريطاني نقشت عليها قصيدة من هذا العصر نسب فيها أصل كل ما ظهر وما خفي إلى الإله فتاح الإله الواحد الخالق لكل شيء، وكذلك عثر في سقارة على مقبرة لكاهن أعظم للإله فتاح في عهد الملك «وناس» اسمه «سابوابيبي»، وقد أخبرنا في نقوشه أنه خدم في عهد وناس «ثم أصبح اليوم في حضرة ابن الشمس تيتي» عاش أبديًّا، كاهنًا أكبر لفتاح، ومحترمًا

من الملك أكثر من أي خادم آخر، وكاهن «فتاح» الأكبر وحامل كأس الملك، ورئيس الأمور السرية للملك في كل مكان.

ومن هذا يتضح أن الكاهن الأكبر للإله فتاح في العهد الجديد كانت له مكانة ممتازة قريبة من الملك، كان لا يمكن أن يصل إليها عندما كان نفوذ عين شمس سائرًا في البلاد. هذا إلى أنه عثر على تمثال للملك «تيتي» نقش عليه: «محبوب فتاح».

على أنه في استطاعتنا أن نستنتج من كل ذلك احتمال قيام حركة رجعية ضد سيطرة بلدة عين شمس ومحبذة لمناصرة مناظرتها منف مقر «فتاح».

ومما يؤسف له جد الأسف أن هرم «تيتي» قد نهبته اللصوص؛ إذ حرقوا كل ما في طريقهم إلى حجرة الدفن وهشموا الحواجز الجرانيتية.

وقد نقش على جدران حجرة الدفن سلسلة نقوش، كثير منها مطابق لما وجد في هرم «وناس». وهذه النقوش قد كتبت بحروف وإشارات أصغر حجمًا من التي وجدت في هرم «وناس»، ولم يفلت من يد اللصوص من جسم الملك إلا ذراع وكتف، وقد ذكر لنا «مانتيون» أن هذا الملك قد قتله الحراس، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك، اللهم إلا أن الملوك الذين أتوا بعده لم يمكثوا على عرش الملك إلا فترة قصيرة، وربما كان سبب ذلك عدم استتباب الأمن كما يحدث عادة عند قيام عصيان في الجيش أو ثورات داخلية.

وفي عهد تيتي بدأ «وني» حياته، وهو يعد من أكبر الموظفين المصريين في هذا العصر، وقد عاش في عهد عدة ملوك، وقد دفن في «العرابة»، وترك لنا هناك على أحد جدران مقبرته أطول نقش عن حياة شخص، ويعد أهم وثيقة تاريخية وصلت إلينا من الدولة القديمة. على أن ما وصل إليه من علو المكانة قد بلغه في عهد الملوك الذين سيأتي ذكرهم بعد؛ إذ وصل إلى رتبة أمير وحاكم الجنوب وتشريفي، ونائب الملك في «نخن» وسيد «نخب» والسمير الوحيد.

وقد حدثنا «وني» عن نفسه في عهد «تيتي» قائلًا: كنت طفلًا لا يزال متمنطقًا الحزام في عهد الملك «تيتي»، وقد كانت وظيفتي مدير بيت الزراعة، وكنت أشغل وظيفة مدير ضِياع القصر الملكي.

وقد تلا حكم «تيتي» عصر غامض ربما كان سببه الاضطراب الذي حدث بعد قتله إذا صدقنا «مانيتون»، وكل ما نعلمه عن هذه الفترة أن قائمة الملوك بـ «العرابة» ذكرت لنا اسم ملك خَلَف «تيتي» لا نعرف عنه شيئًا مطلقا وهو «وسر كا رع». على أننا من جهة أخرى عثرنا على نقش من هذا العصر في وادي حمامات لملك يدعي «إتي»، وقد جاء

فيه أن موظفًا اسمه «فتاح أن كاو» جاء إلى هذه الجهة ومعه ٢٠٠ من الرماة و٢٠٠ من الحجاريين ليقطعوا أحجارًا لهرم الملك «إتي». وقد ظن بعض المؤرخين أن «وسر كا رع» و«إتي» اسم لملك واحد، ولا نعلم عدد سني حكم هذا الملك، ويحتمل أنه لم يخلف «تيتي»؛ إذ لم يذكره لنا «وني» ضمن الملوك الذين عاش في عهدهم، وبخاصة أنه ذكرهم لنا بالترتيب التاريخي، وربما كان عدم ذكره لسبب لا نعرفه.

(١) الملك بيبي الأول

ظهر بعد هذا الغموض على عرش البلاد ملك فتى يدعى «بيبي»، وقط ظلَّ قابضًا على زمام الأمور في البلاد بقوة وعزم نحو نصف قرن من الزمان، وهو يعد بحق من أكبر الفراعنة الذين قبضوا على ناصية الحال في مصر في كل عصور تاريخها بحزم ونشاط. حقًّا إنه لم يترك لنا وثائق تدل على أعماله مثل «رعمسيس الثاني» أو «أحمس الأول»، اللهم إلا نقوش «وني»، ولكنا نستعيض عن ذلك بالآثار التي تركها ونقوش المحاجر والتحف التي خلفها وعظماء الرجال الذين عاشوا في عصره، مما يلقي بعض الضوء على عهده، وما حدث فيه من جليل الأعمال، والظاهر أنه كان محببًا إلى أفراد رعيته؛ إذ تسمى الكثير منهم باسمه، وربما كان يشبه في ذلك «تحتمس الثالث»، وإن كان وجه الشبه هنا ضئيلًا لبعد ما بينهما من الزمن، ولكن رغم كل هذا فإن دلائل الأمور تنبئ بأن بيبي كان محببًا في أعين شعبه، وأنه كان الفرعون النابه بين ملوك أسرته.

وقد عثر له على تمثال آية في دقة الصنع من النحاس، ولا نكون مبالغين إذا قررنا أن دقة صنع هذا التمثال وقربه من الحقيقة تفوق كل ما صنع قبله من التماثيل، حتى التي عثر عليها لخفرع، و«منكاورع»، وهو يعد بلا نزاع من أعظم الكنوز التي عثر عليها علماء الآثار في عصرنا الحالي، وقد كشفه الأثري «كويبل» ومعه تمثال آخر صغير من نفس المعدن، عندما كان يحفر في بلدة «هيراكنبوليس» (الكاب). والظاهر أن التمثالين منسوبان لشخص واحد، وقد ظن بعض علماء الآثار أنهما يمثلان «بيبي الأول» نفسه وابنه الأمير «مرن رع» الذي خلف والده مباشرة، أو يمثل الأمير «نفر كا رع بيبي الثاني»، ولكن الأستاذ «فلندرز بتري» يعتبر أن التمثالين هما للملك بيبي نفسه، وذلك ليترك الخيار لقرينه أن يلبس جسم الملك في حداثة سنه أو في كهولته.

ويظن بعض المؤرخين أن «ببيي» هو ابن الملك «إتي» وبخاصة إذا علمنا أن الملكة «أبوت» أم ببيي لم تكن زوج «تيتي»، ولكن كل ذلك من ضروب التخمين المقبول شكلًا، ويمكننا أن نستدل بعض الشيء على نشاط هذا الفرعون خلال حكمه من المباني التي أقامها أو التي أصلحها في طول البلاد وعرضها، ولا نزاع في أن مباني «ببيي» الأصلية قد اختفت بسبب إعادة بنائها في العصور التي تلت، ولكن على الرغم من ذلك نجد بعض بقايا من آثاره لا تزال موجودة. إذ عثر له في تانيس وتل بسطة و«العرابة» ودندرة وقفط على آثار منقوش عليها اسمه. هذا إلى أنه خلف نقوشًا على الصخور حتى إقليم بلاد النوبة السفلية.

والظاهر أن «ببيي» لم يكن موفقًا في داخلية بيته؛ إذ نجد إشارة في نقوش «وني» إلى أن الملك أمر بمحاكمة زوجته «إمتس» أمام محكمة شكلت خاصة لهذا الغرض، ولكن لا نعلم شيئًا خلاف هذه الإشارة، وقد تركنا التاريخ في ظلام حالك عن سبب هذه المحاكمة وكنه الجريمة التي ارتكبتها، ولا يبعد أنها أرادت أن تتآمر على الملك غيرةً منها عندما رأت أنه تزوج من اثنتين غيرها كل منهما باسم «مري رع عنخس»، وعلى أية حال فإنا سنظل نجهل السر أبديًّا أو نعثر على أثر يكشف القناع عن هذا السر الغامض.

وقد كان المكلف بهذه المحاكمة كما ذكرت «وني» وقد لمح لها في نقوشه بكل حذق ومهارة دون أن يحكم على الملكة بالبراءة أو الإجرام، وبعد ذلك لم نسمع عنها في النقوش شرًّا ولا خيرًا، أما زوجتا الملك الأخريين فإنهما كانتا أختين، وقد كانتا كذلك سيدتين عظيمتين من نسل أمير وراثي وحاكم، وكاهن اسمه «خوي» وزوجته «نبت». والظاهر أن أملاك أسرتهم كانت في «العرابة» المدفونة، وقد رزق من كل منهما بوارث للملك، ولا غرابة إذا كنا نجد شقيق هاتين الملكتين الذي ينسب إلى أسرة أمراء بالوراثة قد أثرى ثراء عظيمًا وأصبح يحمل من ألقاب الدولة أعظمها فكان يحمل «زاو» شقيق الملكتين لقب الحاكم، وكبير القضاة، ووزير ورئيس الملابس الملكية، وحافظ خاتم الفرعون، وغير ذلك من الألقاب في عهد ابن أخته الصغير «ببيي الثاني»، ولما كان «زاو» هذا مدينًا لأختيه بالرقي والحظوة التي نالها فإنه أراد أن يعترف لهما بالجميل، وقد نحا في ذلك نحو الطريقة المصرية البحتة، وذلك بإقامة لوحة في «العرابة» أشاد في نقوشها بذكرهما؛ إذ جاء فيها ما يأتي: زوجة الملك، التابعة للهرم المسمى «مري رع يبقي جميلًا»، المحبوبة جدًّا، والمحظوظة جدًّا، عظيمة الممتلكات، رفيقة «حور» (الملك) أم الملك. وقد كان «مرن رع» هو ابن الملكة «مري رع عنخس الأول»، أما «مرن رع الثانية» فهي التي أنجبت

الملك بيبي الثاني «نفر كا رع» الذي عاش طويلًا حتى ناهز المائة، وجلس على العرش ما لا يقل عن ٩٤ عامًا، وقد ظن بعض المؤرخين أن «مري رع عنخس الأولى» قد توفيت بعد الوضع مباشرة، ولذلك تزوج «بيبي الأول» أختها «مري رع عنخس الثانية»، وقد يكون ذلك صحيحًا، كما أنه لا غرابة في خلق ملوك المصريين أن يجمعوا بين الأختين، وقد بنى «بيبي» لنفسه هرمًا في سقارة، وأطلق عليه اسم «الحسن التأسيس» وهو أكبر من هرم «وناس» ومن هرم «تيتي»، وقد نقشت على جدران حجرة الدفن الداخلية متون مماثلة لما في هرمي «وناس» و«تيتي» وكتابته أقل حجمًا من كتابة هرم «تيتي»، ويمتاز هذا الهرم بالتفنن في إخفاء حجرة الدفن والعناية بوضع العقبات في طريق الوصول إليها، ولكن رغم كل التحفظات التي بذلت في هذا السبيل فإن اللصوص نفذوا إلى مكان التابوت المصنوع من حجر البازلت وهشموه ومزقوا جثة هذا الفرعون العظيم، هذا فضلًا عن أنهم أزالوا كل خرطوش ملكي في الممر المؤدي إلى حجرة الدفن، ومن المحتمل أن هذا التخريب البالغ قد حدث في نهاية هذه الأسرة في الفترة التي كانت الثورة متأججة في البلاد بدرجة أن ذكرى «بيبي» وعظمته لم تقللا من حدتها عند الثوار. غير أن عمل الثوار هذا قد كشف لنا عن طريقة إقامة هذا الهرم؛ إذ نجد جدران جسم الهرم من قشور الحجر الأبيض محشوة بقطع صغيرة من شظايا الجير، بدلًا من الكتل الحجرية التي بنيت بها أهرام الجيزة العظيمة كلها، ومن ذلك نعلم أن القصد من بناء الهرم بهذه الكيفية أن يكون ظاهره جميلًا، ولا يهم حشوه بعد ذلك من الداخل، وتلك لعمري إحدى علامات الضعف التي أخذت تدب في نواحي المرافق العامة في البلاد رغم قوتها الظاهرة وعظمتها.

وتدل الآثار التي كشف عنها حديثًا على أن أشراف البلاد وعظماءها أحد نفوذهم يزداد تدريجًا وينالون الحظوة لدى الفرعون، ولم يكن لديهم وسيلة لإظهار سلطانهم وحظوتهم للخلف إلا بتدوينها على مقابرهم التي كانوا يعتقدون أنها ستكون أبدية، وأن السلف سيقرءون عليها أعمالهم العظيمة ومكانتهم الممتازة لدى الفرعون، وتلك ميزة أمتاز بها المصري عن باقي أمم الشرق، ولذلك نجد بصيص ضوء يرسل علينا أشعته من وقت لآخر من الكشوف الأثرية التي تقوم في طول البلاد وعرضها مما خلفه لنا هؤلاء العظماء فيجعلنا نعيش في وسطهم رغم تطاول الآباد والأجيال، فمن أعظم مخلفات هذا العصر النقوش التي تركها لنا «وني» السالف الذكر وقد عاش في عهد أكثر من ثلاثة ملوك، وقص علينا ما كان يقوم به من جليل الأعمال وما ناله في عهد كل

فرعون من الرقي، وها هو الآن يحدثنا عن الحوادث التي جرت له في عهد «بيبي الأول». قال: لقد أصبحت كبير بيت الزينة في عهد جلالة «بيبي الأول»، وقد رقاني جلالته إلى رتبة سمير وكاهن أعظم لأوقافه الجنازية (أي لأوقاف هرمه)، وبعد ذلك نصبني جلالته قاضيًا لنخن، ورئيسًا للمجلس الأعظم للستة. وكان قلبه مفعمًا بي أكثر من كل خدامه الآخرين، وكنت أحقق في قضاياه وليس معي غير الوزير، بكل تكتم باسم الملك، وكان ذلك خاصًّا بالحريم الملكي، وكذلك في المحكمة العظيمة للستة؛ وذلك لأني كنت محببًا إلى قلب جلالته أكثر من كل أشرافه وأكثر من كل عظمائه ومن كل خدامه الآخرين.

(١-١) إهداء تابوت من الملك

ولقد رجوت جلالة سيدي أن يأمر بإحضار تابوت لي من حجر طرة، ولهذا الغرض سمح جلالته بأن يقلع حامل خاتم ملكي ومعه فصيلة من البحارة تحت إمرته لإحضار هذا التابوت من طرة، وقد عاد حامل الخاتم بالتابوت في سفينة عظيمة من سفن البلاط ومعه غطاؤه، واللوحة، وخدتان للباب، والقاعدة الأرضية. على أن هذا لم يفعل قط لخادم آخر لأني كنت في منزلة فائقة في قلب جلالته، وكنت محببًا لجلالته، وكان جلالته يميل إليَّ.

وعلى حين كنت قاضيًا، وفم بلدة نخن (أي رئيس مجلس محكمة الستة)، فإن جلالته نصَّبني سميرًا وحيدًا، ومدير الأوقاف الملكية، وبهذا التعيين حللت محل أربعة المديرين الآخرين الذين كانوا قبلي هناك، ولقد عملت حتى إن جلالته أثنى عليَّ.

وبمناسبة قضيته في الحريم الملكي ضد الزوجة الملكية «ورت حتس» وقد أُديرت سرًّا، فإن جلالته قد منحني القيام بعمل تحقيق، وقد كنت منفردًا، وليس معي وزير أو عظيم، ولكن كنت وحدي؛ لأني كنت مثال الاستقامة ومحببًا إلى قلب جلالته ولأن جلالته كان ميالًا إليَّ، وقد كنت أنا الذي أقوم بدور الكاتب، وكنت وحيدًا ومعي قاضٍ واحد، وفم نخن، على حين أن وظيفتي كانت «رئيس أوقاف القصر»، ولم يحدث قط أن فردًا مثلي قد حقق قضية سرية خاصة بالحريم الملكي من قبل، ولكن جلالته أعطاها إياي لتحقيقيها لأني كنت ذا مكانة في قلب جلالته أكثر من كل عظمائه الآخرين، ومن كل أشرافه ومن كل خدامه الأخرين.

(١-٢) التأهب لمحاربة أهل البدو

ولقد قام جلالته بحملة تأديبية ضد الآسيويين رؤساء الرمال، وقد جهَّز جلالته جيشًا مؤلفًا من عشرات الآلاف من الرجال من كل الوجه القبلي من أول الفنتين في الجنوب حتى إطفيح شمالًا ومن الوجه البحري أيضًا، وقد جندتهم إدارة جيش المرتزقة بأجمعهم في القلعة، في داخل القلاع، من بين نوبيي بلاد «أرثت»، و«المجا»، «وإيام» و«واوات» و«كاوو» ومن بلاد لوبية.

(١-٣) مسير الجيش بإمرة «وني»

وقد وضع جلالته الجيش تحت إمرتي، على حين أن فيه الأمراء، وحاملي خاتم الملك في الوجه البحري، والسمار الوحيدين أصحاب القلاع العظيمة ورؤساء القلاع ونوابها في الوجه القبلي والوجه البحري، والسمار مديري القوافل، ومديري الكهنة للوجه القبلي والوجه البحري، ومديري الجيوش المرتزقة، وكان كل منهم على رأس فيلق من قلاع الوجه القبلي والبحري والضِّياع التي يحكمونها وعلى رأس «النحسى» (الزنوج) من البلاد الأجنبية، وقد كنت أنا الذي أسهر على نظامهم مع كوني كنت مدير أوقاف القصر، وبسبب مكانتي، لم يأخذ أحد مكان جاره، ولم يسرق واحد منهم عجينة أو نعلًا من السابلة، ولم يأخذ واحد منهم ملابس من أية بلدة، ولم تغتصب ماعز أي شخص، وقد قدت هؤلاء الجنود بطريق جزيرة الشمال، وبوابة «إمحوتب»، وصقع «سنفرو» …

وقد استعرضت كل فيلق من هؤلاء الجنود أمامي، على أنه لم يحدث أن خادمًا (للملك) قد استعرض جنودًا من قبل مثلي.

(١-٤) عودة الجيش

لقد عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن خرَّب بلاد البدو، لقد عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن نهب بلاد سكان الرمال. لقد عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن أزال قلاعهم.

لقد عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن قطع أشجار تينهم وكرومهم.

لقد عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن حمل الحديد والنار بين كل سكانهم.

لقد عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن ذبح كل جنودهم بعشرات الألوف العدة.
لقد عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن جاء معه بجنود عدة أسرى.
ولقد أثنى عليَّ جلالته لهذا أكثر من أي شيء.

(١-٥) إخضاع عصيان الأقوام المقهورة

ولقد أرسلني جلالته خمس مرات لقيادة هذا الجيش لسلب بلاد البدو، في كل مرة يثورون، ومعي فصائل من الجنود، وقد عملت بطريقة امتدحني جلالته من أجلها.

(١-٦) الحملة ضد فلسطين

وقد حدث أن جاءت الأخبار بأن ثورة انفجرت على إثر حادث ما بين المتوحشين في جهة الكرمل (بلاد أنف الغزال)، وعلى إثر ذلك أبحرت في سفن البحر ومعي فصائل جنود، ونزلت خلف مرتفعات الجبال الواقعة شمالي بلاد سكان الرمال، وعندما سار هذا الجيش على المرتفعات سرت وقبضت على الثوار بأكملهم وقضي على كل العصاة.

لقد تركنا «وني» يتكلم عن أعماله وما حدث له في عهد الملك «بيبي الأول»، غير أنه يجب علينا قبل تركه إلى عهد «مرن رع» أن نشير هنا إلى أن الحملة التي قام بها إلى فلسطين تعد الأولى من نوعها في تاريخ مصر، بل وفي تاريخ العالم على ما نعلم. إذ الواقع أنها تعتبر أول حملة اشترك فيها الجيش والأسطول دوَّنها لنا التاريخ. وقد برهن المصريون في هذه الحملة على نهم بحارة حقيقيون لا كما يدعيه البعض بأنهم غير أكفاء في جوف اليم، ولقد فطنوا بسرعة، بل وقدَّروا الميزة التي يجنيها الجيش من نقله بوساطة البحر إلى نقطة الهدف الذي يريدها، فتجنبوا الطرق الصحراوية الطويلة الخطرة التي ربما أفنت الجيش وجعلت عودته مغامرة عظيمة، لذلك يمكننا القول بأن مصر كانت أول دولة في العالم قامت بحملة حارب فيها الجيش المصري يحميه أسطول.

والظاهر أن سبب قيام الفرعون بهذه الحملة إلى فلسطين ما يقال عن هجرة جم غفير من الشمال الشرقي من بلاد ما بين النهرين «مسوبوتاميا»، وتقدمهم في هجرتهم إلى أن وصلوا إلى فلسطين، بل والحدود المصرية، فاضطر فرعون مصر إذ ذاك إلى منع هؤلاء المهاجرين الآسيويين من دخول مصر.

وقبل أن ننتقل بالقارئ إلى عهد الفرعون «مرن رع» سنلقي نظرة خاطفة على نقوش مقبرة من عهد «بيبي الأول» لكبير من عظماء البلاد الذين تسموا باسمه تيمنًا وهو «ني عنخ بيبي».

وقد كشف قبره في العام الماضي بسقارة ويحمل ألقابًا ضخمة، فكان يلقب بالسمير الوحيد، ورئيس الكهنة المرتلين، ورئيس أوقاف هرم «بيبي»، والظاهر أنه بدأ حياته في عهد «وناس»؛ إذ من بين ألقابه «المقرب من ملك الوجه البحري والوجه القبلي وناس»، وقد عُمِّر حتى عهد «مرن رع» إذ كان اسمه الثاني «ني عنخ مرن رع».

وقد نحت قبره في الصخر وكسا واجهته بالحجر الجيري الأبيض، ونقش عليها نقوشًا تكاد تكون فريدة في بابها لغرابتها بالنسبة للنقوش التي كشفت للآن في عهد الدولة القديمة؛ وذلك لأنها تكشف لنا عن ناحية خاصة، وهي مقدار تخوف المصريين من سلب قبورهم بعد وفاتهم واحتيالهم على ذلك بتهديد الأحياء بعذاب الآخرة والحساب أو بإقناعهم بأن صاحب المقبرة رجل قوي سيخرج من قبره ويعذب من يضره بكسر عنقه.

وأخيرًا يوحي إلى الأحياء بأنه يعرف السحر، ويمكنه أن يضر من يؤذيه والنقش كما يأتي: «السمير الوحيد، المرتل شريف الفرعون» يقول: أما من جهة أي فرد يريد أن يلحق أي أذى بهذا القبر الذي في المقبرة، وهو الذي تابوته مركب فيه الأب فوق أمه (أي الغطاء فوق التابوت)، فإني سأتقاضى معه في المجلس المبجل الفاخر للإله العظيم رب الغرب، وسأقبض على رقبته كما يقبض الإنسان على عصفور، وسيسري خوفي فيه أمام كل من على الأرض، وكل الأحياء سيرتعدون من الأرواح الممتازة، وإني روح ممتازة، ليس السحر أمامها بالشيء المستعصي، أما كوني حاذقًا فإني مرتل حاذق ورجل عالم بـ «أمور السحر».

وعلى جانب آخر من باب مقبرته يستعطف المارة ويستجديهم ليقدموا له قربانًا، فإذا لم يكن في مقدورهم أن يقوموا بذلك ماديًّا فليفعلوه بقراءة التعاويذ التي كان يعتقد أنها تقوم مقام المادة، إذ كان مجرد قراءتها يجعلها بقوة السحر تنقلب إلى صورها الحقيقية فيقول السمير الوحيد والمرتل وشريف الفرعون ورجل البلاط: أنتم أيها الأحياء الذين على الأرض، والمحترمون والمحبوبون من الإله، الذين سيمرون بهذا القبر، صبُّوا الماء والجعة مما معكم، وإذا اتفق أن لم يكن لديكم شيء فقولوا بأفواهكم، وضعوا مما في أيديكم خبزًا نقيًّا، وجعة، وحيوان قربان وطيورًا وبخورًا نقيًّا لشريف

الملك «ني عخ بيبي». ولا شك أننا نرى في هذه المتون أن المصري في هذا العهد كان يرهب، بل يرتعد من نهب مقبرته بعد وفاته أو الإضرار بها، ولا غرابة في ذلك، فقد عثر في نفس العام الذي كشفت فيه هذه المقبرة على مصطبة أخرى لوزير من عهد الملك «وناس» ملاصقة لها، ومن المدهش أن مقبرة هذا الوزير لم تكن قد أقيمت له، بل كانت لوزير سبقه وجاء هو واغتصبها لنفسه، وذلك بمحو اسم سلفه من كل جدران حجرة المقبرة حتى في حجرة الدفن، فقد وجد التابوت قد محي من جوانبه اسم صاحب المقبرة الأصلي، وكتب عليه اسم المغتصِب الجديد، وليس هناك شك في أن «ني بيبي عنخ» كان حاضرًا والوزير «ني كاوو حور» المغتصب يمحو اسم الوزير «آخت حتب» من كل مكان في المقبرة ليغتصبه لنفسه، ولعمري فإن هذا هو السبب الذي دعاه ليكتب هذا التحذير على قبره، فقد رأى الاغتصاب جهارًا أمامه وبجوار مقبرته، وهذا مثل من أفظع الأمثلة في عدم المبالاة بحقوق الأموات والتهكم بالعقائد الدينية والحساب والعقاب، وربما كان هذا هو السر في كثرة التعاويذ السحرية التي طغت على الدين في هذا العصر لإرهاب الناس من مفعولها.

(٢) الملك مرن رع

تولى أريكة البلاد بعد «بيبي الأول» بكر ولديه «مرن رع» وكان لا يزال صبيًّا، ومن المحتمل جدًّا أن بيبي تزوج من والدته في أواخر أيامه، ولقب هذا الفرعون «محتى أم ساف» ومعناه «الإله محتي حاميه»، ولم يمكث على عرش الملك أكثر من سبعة أعوام، ومات وهو لا يزال في بداية العقد الثاني من عمره، ولا نزاع في أنه قد بدأ بناء هرمه عند توليه الحكم مباشرة كما هو الحال عند كل فراعنة هذا العهد، وسنرى أن الرجل الذي كان يشرف على هذا العمل هو «وني».

وقد دخل هرمه حديثًا حوالي عام ١٨٨٠ ولحسن الحظ وجدت مومياؤه سليمة، وهي في الواقع أول جثة عثر عليها لفرعون بقيت إلى عهدنا هذا. حقًّا إنها جردت من كل كفنها باللصوص الذين نهبوا الهرم في الأزمان القديمة، وقد لوحظ أن خصلة الشعر التي كان يتميز بها الفتيان الحديثو السن لا تزال عالقة بجمجمته مما يدل على أن «مر رع» كان لا يزال صبيًّا عند وفاته.

وتدل النقوش التي من عهده على أنه قد وجَّه جُلَّ عنايته إلى الجنوب، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله عين «وني» حاكمًا ومسيطرًا على الوجه القبلي بلقب حاكم الجنوب. وسندع «وني» يقص قصته في عهد هذا الفرعون وما قام به من جلائل الأعمال.

ولما كنت موظفًا حاملًا لنعلي الفرعون في القصر العظيم، ونصبني ملك الوجه القبلي والوجه البحري مولاي «مرن رع» أميرًا ومدير الجنوب من «الفنتين» (أسوان) جنوبًا إلى إطفيح شمالًا، لأني كنت مثلًا أعلى في قلب جلالته، وما دمت مزدهرًا في قلب جلالته، كنت ملء قلب جلالته، وقد أثنى عليَّ جلالته، وأنا حامل نعليه لليقظة التي كنت أقوم بها في القصر، وقد مدحني أكثر من أي عظيم أو شريف أو خادم. على أن مثل هذه الوظيفة لم تُمنح لأحد ما من قبل، وقد قمت بعمل حاكم للوجه القبلي بما يرضيه، حتى إنه لم يغتصب أحد مكان جاره، وقد أنجزت كل عمل، وأجريت حساب كل شيء خاص بالخزينة في الوجه القبلي مرتين، وكل ساعات السخرة التي كانت تخص الخزينة في الوجه القبلي مرتين أيضًا، وكنت في ذلك أقوم بعمل وظيفتي على أحسن مثال في الوجه القبلي هذا. على أنه لم يعمل شيء كهذا في الوجه القبلي من قبل، وقد عملت كل شيء لأستحق ثناء جلالته.

(٢-١) الحملة إلى محاجر «إبهات» ببلاد النوبة ومحار الفنتين

وقد أرسلني جلالته إلى «إبهات» لإحضار تابوت (صندوق الأحياء) وغطائه، وكذلك قطعة هرمية صغيرة ثمينة ومحترمة لأجل هرم «مرن رع» الذي يسمى «خع نفر مرن رع». وبعد ذلك أرسلني جلالته إلى الفنتين لأحضر لوحة من الجرانيت وقاعدتها وجانبيها، وكذلك لأحضر أبوابًا من الجرانيت ورقعتها للحجرة العليا لهرم «مرن رع» المسمى «خع نفر مرن رع» وقد سحت في النهر من هناك حتى هرم «مرن رع» (خع نفر مرن رع)، بست سفن نقالة وثلاثة قوارب تشد بالأمراس بوساطة ستة عشر رجلًا، كل ذلك تم في بعثة واحدة. على أنه لم تعمل رحلة واحدة قط إلى «إبهات» و«الفنتين» دفعة واحدة في عهد أي ملك ما، وكل شيء أمر به جلالته قد نفذ برمته كما أمرني به جلالته.

(٢-٢) البعثة إلى محاجر المرمر في «حتنوب» في مصر الوسطى

وقد أرسلني جلالته إلى «حتنوب» لإحضار مائدة قربان من المرمر، وقد سرت في النهر شمالًا من أجل الملك لاستخراج هذه المائدة من محاجر «حتنوب» في سبعة عشر يومًا، وسحت شمالًا في سفينة نقالة، والواقع أني بنيت نقالة لهذا الغرض من خشب السنط طولها ستون ذراعًا وعرضها ثلاثون ذراعًا، وقد جمعت الأحجار في ١٧ يومًا خلال الشهر الثالث من فصل الصيف، ورغم أن ماء النهر كان قريب الغور فإني وصلت سالمًا معافًى إلى هرم «مرن رع» (خع نفر مرن رع)، وقد أتممت كل العمل بنفسي حسب الأمر الذي أمرني به جلالة سيدي.

وقد أرسلني جلالته لحفر خمس ترع في الجنوب، ولأصنع ثلاث نقالات وأربعة قوارب تجر بالحبال من خشب سنط أصقاع «واوات»، وقد كان رؤساء أقطار «إرثت»، و«واوات»، و«إيام»، و«مجا»، يقدمون الخشب لهذا الغرض.

وقد أنجزت كل العمل في سنة، يدخل في ذلك السياحة وتحميل الجرانيت بكمية لهرم «مرن رع» المسمى «خع نفر مرن رع». يضاف إلى ذلك أني قد حققت الاقتصاد في الزمن لأجل القصر وذلك بفضل هذه الترع الخمس معًا.

كل ذلك بسبب قيمتي، وصفاتي الشخصية، والاحترام الذي أكنه لقوة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «مرن رع» عاش أبديًّا، أكثر من كل الآلهة؛ لأن كل شيء قد حقق حسب الأوامر التي أعطاها إياي الملك.

وإني محبوب والده، والممدوح من والدته، وزينة إخوته، أنا الأمير، حاكم الوجه القبلي المعظم من الإله أوزير «وني».

ومما سبق يمكننا أن نرى أن «وني» كان له تأثير فعَّال في بلاد الجنوب؛ إذ أصبح يجلب كل شيء من أسوان، وبخاصة الأحجار، بسهولة دون أن يحتاج إلى عدد عظيم من الجنود.

أما آخر أعمال «وني» في عصر هذا الفرعون فهو حفر القنوات الخمس عند الشلال الأول لتسهيل سير السفن التي كانت تعترضها الصخور، وقد أتم هذا العمل في سنة واحدة وذلك بمساعدة رؤساء الزنوج الذين كانوا على ما يظهر رهن إشارته.

والظاهر أن حفر هذه القنوات كان جزءًا من سياسة عامة شرع في تنفيذها في عهد هذا الفرعون، وتنطوي على كشف كل الجهات الجنوبية كشفًا منظمًا وتحسين طرق التجارة والعمل على إنمائها بين مصر وبلاد النوبة، وقد كان آخر عمل قام به «مرن رع»

زيادة حدود بلاده، ولا نعلم إذا كانت قد حدثت قبل اعتزال «وني» خدمة مليكه أو بعدها، ولكن يغلب على الظن أن «وني» قد شاهد سيده يرى آخر أعماله التي كانت تعد من أكبر مفاخر ما تم على يديه «حفر القنوات». وعلى أية حال فإن الزيارة قد تمت وخلدها الفرعون بنقشين عند الشلال الأول، وهذه الرسوم تمثل «مرن رع» متكئًا على عصا وخلفه الإله «خنوم» (إله الشلال) وأمراء النوبة، ونقشت ألقابه الآتية: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري، مرن رع محبوب خنوم، رب الشلال»، والتاريخ الذي حدثت فيه الزيارة هو السنة الخامسة، الشهر الثاني من الفصل الثالث، اليوم الثامن والعشرون، ورسم مجيء الملك نفسه وهو يظهر خلف البلاد الجبلية، حتى إنه يتمكن من مشاهدة ما في هذه البلاد، على حين أن أمراء «المجا»، و«إرثت» ثم «واوات» كانوا يقدمون الخضوع والطاعة ويمتدحونه مدحًا عظيمًا.

ولقد كان من جراء فتح هذا الطريق وتسهيل التجارة بين مصر وبلاد النوبة أن قامت رحلات للتوغل في مجاهل هذه البلاد، وارتياد أقطارها والاتصال بأهلها اتصالًا وثيقًا، ويعد «حرخوف» أحد عظماء حكام «الفنتين» الذي لا يزال قبره محفوظًا لنا للآن على الضفة الغربية من شلال أسوان، من أعظم أبطال هذا المضمار، وقد قام «حرخوف» هذا بثلاث رحلات في داخل الأقطار الأفريقية قبل وفاة سيده «مرن رع»، وقد كان يحمل لقب «مدير القوافل»، وقد قص علينا بنفسه المخاطرات المختلفة التي قام بها، على قبره بكل دقة واختصار، وسندعه كطريقتنا في مثل هذه الأحوال يتكلم بنفسه، وقد بدأ يذكر ألقابه فيقول: الأمير، السمير الوحيد، الكاهن المرتل، التشريفي للملك، نائب الملك في «نخن»، ورئيس عبادة «نخب»، حامل الخاتم الملكي، مدير القوافل، رئيس كل الأسرار الخاصة بكل أوامر الحدود الجنوبية، محبوب الملك، «حرخوف» الذي يحمل كل محصولات الأقطار الأجنبية لسيده، والذي يأتي بالجزية التي تستحق، لإقامة المراسيم الملكية، ومدير كل الأقطار الأجنبية في الحدود الجنوبية، والذي ينشر سطوة «حور» بين الممالك الأجنبية، والذي ينفذ كل ما يرغب فيه سيده … «حرخوف».

الحملة الأولى: أرسلني جلالة «مرن رع» سيدي كما أرسل والدي السمير الوحيد والمرتل «إري» إلى بلاد «إيام» لأكشف الطريق الذي يؤدي إلى البلاد الأجنبية، وقد قمت بهذا العمل في ستة أشهر فقط، وقد عدت بكل أنواع الهدايا من هذه البلاد … وقد أثنى عليَّ كثيرًا من أجل ذلك.

الحملة الثانية: أرسلني جلالته مرة ثانية وكنت وحدي، وقد سرت على طريق الفنتين وذهبت نحو «إرثت»، و«مخر» أرض «ترس»، وذلك في مدة ثمانية أشهر، وقد عدت

بعد أن حملت معي منتجات هذه البلاد الأجنبية بكميات وافرة، ولم تعرف نظائر لهذه الأشياء قد جيء بها من هذه البلاد من قبل، وقد نزلت من مساكن رئيس جهات «سشو» و«إرثت» بعد أن رُدْتُ مجاهل هذه البلاد الأجنبية، والواقع أنه لم يتسنَّ قط لأي سمير ومدير قوافل أن يفعل ذلك ممن وفدوا إلى قطر «إيام» من قبل.

الحملة الثالثة: أرسلني جلالته مرة ثالثة إلى بلاد «إيام» Iam، فرحلت من «ستشت» (المقاطعة السابعة من الوجه القبلي) عن طريق منطقة الواحات (؟) وقد وجدت رئيس «إيام» الذي قام ضد بلاد لوبيا «تمح» ليحاربهم حتى الحدود الغربية.

وقد سرت بعده لغاية بلاد لوبيا، وأخضعته لدرجة أنه عبد آلهة مليكي ... وبعد أن أخضعت رئيس «إيام» نزلت ... حتى «إرثت» وحدود «سشو» ووحدت «رؤسا» و«إرثت» و«سشو» و«واوات» ... ثم عدت بنحو ٣٠٠ حمار محملة بالبخور، والأبنوس، والزيت ... وجلود الفهود، والعاج ... وكل المنتجات الطيبة، وعندما رأى رؤساء «إرثت»، و«سشو» و«واوات» عظم عدد جنود «إيام» وقوتهم، وهم الذين عادوا معي إلى البلاط، وكذلك الجنود الذين كانوا قد أرسلوا معي، فإن هؤلاء الرؤساء أحضروا لي هدايا من الثيران، والحيوانات الصغيرة وقادوني نحو طرق جبال «إرثت»، وقد كانت عيني ساهرة بفطنة أكثر من كل سمير ومدير قوافل من الذين أرسلوا إلى «إيام» قبلي، ومن ثم عاد في النهر الخادم «حرخوف» نحو البلاط، وقد أرسل «الفرعون» الأمير، السمير الوحيد ومدير قاعة المرطبات المزدوجة «خوني» لمقابلته ومعه سفن محملة بنبيذ البلح، والفطير، والخبز، والجعة. الأمير، حامل الخاتم الملكي، والسمير الوحيد، والكاهن المرتل، وحامل الخاتم الملكي، ورئيس أسرار كل أوامر حدود الجنوب، المقرب «حرخوف».

ولا شك أن الذي يمعن في تفاصيل ما جاء في هذه الرحلات لا يتردد لحظة في الحكم في «حرخوف» بأنه كان كاشفًا عظيمًا في عصره، وأنه يعد أول من فتح الطريق للكاشفين والرواد العظام في عصرنا للتوغل في مجاهل أفريقيا، وقد جلب الخيرات منها لمليكه «مرن رع» وسهَّل سبيل التجارة بين مصر وتلك الأقطار النائية التي لم يجسر أحد قبله أن يجوب مجاهلها ويستفيد منها مثله، ولا غرابة إذن إذا أرسل إليه الفرعون من يستقبله وهو عائد من تلك الرحلة الفذة، ولكن أطماع «حرخوف» لم تقف عند هذه الرحلة، بل سنسمع عنه في عهد الملك الصغير الذي تولى زمام البلاد بعد وفاة «مرن رع».

(٣) الملك ببي الثاني «نفر كا رع»

تدل كل شواهد الأحوال على أن الملك «مرن رع» قد توفي وهو لا يزال في بداية العقد الثاني من حياته، وخلفه على العرش أخوه «ببي الثاني»، وقد ذكر لنا «مانيتون» أنه جلس على عرش البلاد وهو في السادسة من عمره، والواقع أن «مانيتون» لم يخطئ في ذلك، وبخاصة عندما قال إنه حكم حتى بلغ المائة من عمره، وبذلك يتكون قد حكم نحو ٩٤ عامًا إذ كل هذا قد حققته الآثار، ومن الطريف أن المؤرخ «أراتستونيس» الإسكندري قد أخبرنا أنه حكم مائة عام إلا ساعة واحدة، ولا نزاع في أن «ببي» ضرب بسهم صائب في طول الحكم، وليس هناك من يضارعه، غير أنه كما يحدث غالبًا، في مثل هذه الأحوال، أن نهاية حكمه الطويل كانت نكبة على البلاد، ورغم توليه الملك صغيرًا لم يحدث في البلاط أي اضطراب، وقد يعزى هذا إلى أن «زاو» خاله ووزيره في آن واحد، قد حافظ على استتباب الأمن وقمع كل خلاف من هذه الناحية، والظاهر أن أمه قد لعبت دورًا تمثيليًّا معه في الحكم في بادئ الأمر، وربما كان ذلك هو السبب في ظهور اسمها وصورتها معه على إحدى نقوش وادي مغارة؛ إذ في هذا النقش الذي دُوِّن ذكرى لحملة في تلك المحاجر، نرى أن الملك رغم أنه ذكر بالاسم فإن صورته لم ترسم، على حين أن صورة والدته قد رسمت. وتدل ألقابها على أمومتها لهذا الملك وللملك بيني الأول: أم الملك، التابعة للهرم المسمى «نفر كا رع يبقى حيًّا»، وزوج الملك ومحبوبته التابعة للهرم «مر رع يبقى جميلًا» (عنخس مري رع التي يحبها كل الآلهة).

وفي الحق كانت مدة حكم هذا الملك الذي عُمِّر على عرش الملك طويلًا مليئة بالبعثات إلى البلاد الأجنبية، وبخاصة في الفترة الأولى من حكمه، ولا غرابة في ذلك، فإن سياسة استثمار البلاد الجنوبية كانت قد رسمت من عهد أسلافه وسارت بكل نشاط وفلاح، ولم يستجد أمام هذا الفرعون ورجال دولته ما يعوقهم عن المضي في هذا السبيل المنتج، وبخاصة أنه كان يدر الخيرات على مصر من تلك الجهات في عهد كانت موارد الملك قليلة نسبيًّا، ففي السنة الثانية من حكمه قام «حرخوف» بحملته الرابعة، وتعد المفخرة العظمى التي توجت تاريخ حياته، والظاهر أنه توغل في داخل بلاد النوبة، حتى وصل إلى أقزام أواسط أفريقيا، وأفلح في اقتناص قزم أو إغراء واحد منهم ليصحب القافلة إلى البلاط المصري، وقد كان المصريون في كل عصورهم يجعلون لهؤلاء الأقزام أعظم قيمة على أنهم أداة من أدوات الزينة واللهو في البلاط الفرعوني، ولذلك كانوا يسرون كل السرور عندما يحصلون على واحد منهم يضاف إلى ذلك ابتهاج صبي صغير في الثامنة

من عمره، فضلًا عن أنه كان فرعونًا، عند سماعه بإحضار لعبة جديدة حية يتسلى بها، ولذلك فإن خطابه الذي أرسله إلى «حرخوف» ليسرع في الحضور بالقزم ليس فيه ما يدعو للدهشة، بل كان شيئًا طبيعيًّا جدًّا، ولقد كان من حسن حظ التاريخ أن يكتبه «حرخوف» بنصه على جدران مقبرته مفتخرًا بذلك الشرف العظيم، وعليه نكون قد وصلت إلينا أقدم وثيقة في التاريخ عن كشف مجاهل أفريقيا وارتياد أقطارها التي كانت لم تطرق من قبل، ولا يسعنا هنا إلا أن نقدم للقراء هذا الخطاب الملكي برمته؛ ختم بالملك نفسه في السنة الثانية، للشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم الخامس عشر:

> مرسوم ملكي للسمير الوحيد، الكاهن المرتل، ومدير القافلة «حرخوف»، لقد فهمت المقصود من خطابك هذا، الذي أرسلته إلى الملك في القصر لتنبئه بأنك قد عدت سالمًا معافى من بلاد «إيام» بالجيش الذي كان معك، ولقد ذكرت في هذا الخطاب أنك أحضرت معك كل المحصولات العظيمة والطيبة، التي منحتها «حتحور» سيدة «إماو» إلى حضرة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نفر كا رع» (بيبي الثاني) الذي يحيا أبديًّا ومخلدًا، وقد ذكرت في هذا الخطاب أنك أحضرت قزمًا (دنج) يرقص رقصًا مقدسًا من أرض الأرواح «تا إخو» مثل القزم الذي أحضره حامل الخاتم المقدس «باوردد» من بلاد «بنت» في عهد الملك إسيسي.[١] وقد قلت لجلالتي: لم يحدث قط من قبل أن واحدًا مثله قد أحضر ممن زاروا «إيام».
>
> حقًّا إنك فعلت ما يحبه ويمدحه سيدك، حقًّا إنك تمضي النهار والليل في عمل ما يرغب سيدك ويحب ويأمر، وجلالته يرغب في أن يمنحك كثيرًا من الشرف العظيم حتى تصبح زينة لابن ابنك أبديًّا، لدرجة أن كل إنسان سيقول عندما يسمع ما فعلته لجلالتي: هل هناك شيء مماثل لما عمل للسمير الوحيد «حرخوف» عندما عاد من بلاد «إيام»، وذلك بسبب اليقظة التي أظهرها لعمل ما يرغب فيه سيده، وما يحبه وما يأمر به.
>
> عد حينئذ في الحال إلى البلاط نازلًا في النهر وأترك كل شيء آخر (؟) ولتحضر معك هذا القزم الذي جلبته معك من بلاد الأرواح حيًّا وسليمًا معافًى،

[١] كشفت أخيرًا مقبرته في سقارة وفيها رسم قزمه.

حتى يقوم بالرقص المقدس، وليسري عن القلب وليسر فؤاد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نفر كا رع» عاش أبديًّا.

وعندما ينزل معك في السفينة اعمل على أن يكون رجالك اليقظون حوله من ناحيتي السفينة، واعمل على ألا يسقط في الماء، وعندما ينام في الليل اعمل على أن يكون رجالك اليقظون نائمين حوله في حجرته (الكبين) وفتش عليه عشر مرات كل ليلة؛ لأن جلالتي يريد أن يرى هذا القزم أكثر من كل محصولات بلاد «البنت» وكنوزها.

وإذا وصلت إلى البلاط وبصحبتك هذا القزم حيًّا سليمًا معافًى فإن جلالتي سيقوم بعمل أشياء عظيمة لك، تفوق التي عملت لحامل الخاتم الإلهي «باوردد» في عهد الملك إسيسي، وذلك لرغبة قلب جلالتي في رؤية القزم، وقد أعطيت الأوامر لحاكم إقليم البلاد الجديدة، السمير، مدير الكهنة، ليأمر بإعداد المأكولات في كل قصر ببيت المحراث (ضِياع ملكية) وفي كل معبد دون استثناء.

ولدينا من عهد هذا الملك نقشان آخران لعظيمين من رجالات الفنتين لهما أهمية عظمى، فإنهما يظهران لنا مقدار النشاط في الكشف الذي كان يقوم به رجال هذا العصر رغم الأخطار التي كانت تحدق بهم، ورغم انقطاع أخبار بعض الكاشفين، وكذلك تبرز لنا ناحية خاصة من نواحي التفكير المصري والعقائد التي كانت تسود هذا العصر. حقًّا إن المصري كان يعتقد بأن ارتياد مجاهل البلاد النائية، كانت من الأعمال الجليلة، غير أنه كان لا يقبل بأية حال أن يترك جسمه يدفن في هذه الجهات القاصية، إذا حدث أن لاقى حتفه فيها، بل كان يعمل ذووه المستحيل ليحضروه إلى موطنه الأصلي حتى يكفن وتعمل له كل الطقوس والمراسم الجنازية التي كان لا بُدَّ منها حتى يكون له نصيب في الخلود بعد الموت؛ وذلك لأنه كان يعتقد أن خلوده في القبر كان يتوقف على هذه التجهيزات والاحتفالات التي كان لا يتسنى عملها في البلاد القاصية، ومن أجل ذلك كانت ترسل بعثة خاصة إذا قضت الحاجة لإحضار جثة الكاشف المتوفى، وقد حدث أن كاشفًا قد قام بإحضار جثة أحد هؤلاء الرواد، فكان الثناء الذي ناله على ذلك عظيمًا، ولم ينل أي ثناء على إحضار فيل يبلغ طول خرطومه نحو تسعة أقدام، وليس عجيبًا أن يقال في مصر أن التقوى تحل أولا ثم تحل بعدها الفائدة المادية، وإن كنا أحيانًا

نشاهد التقوى يضرب بها عرض الحائط إذا تعارضت مع الفائدة الشخصية كما أسلفنا في اغتصاب المقابر.

والنقش الأول لموظف كبير يدعى «بيبي نخت» وقد قام برحلتين إحداهما إلى بلاد النوبة والثانية نحو شمال البحر الأحمر.

وكان «بيبي نخت» يحمل ألقابًا عدة؛ منها أنه كان السمير الوحيد، نائب الملك في «نخن»، ورئيس عبادة «نخب»، ومدير كل القوافل، والمحترم من الإله العظيم «بيبي نخت». ويقول: كنت رجلًا يقول ما هو حسن، ويكرر ما يحب، ولم أقل قط شيئًا يسيء إلى رجل قوى ذمًّا في أي شخص؛ لأني كنت أرغب في أن تعرض الأشياء من جهتي حسنة في حضرة الإله العظيم. لقد أعطيت خبزًا للجائع، وكسوت العريان، ولم أقضِ قط بين أخوين بحيث يحرم ابن من متاع والده، ولقد كنت محبوبًا من والدي، ممتدحًا من والدتي ومحبوبًا من إخوتي ذكورًا وإناثًا.

ولقد أرسلني جلالة سيدي لأخرِّب بلاد «إرثت» فعملت ما مدحني عليه سيدي، ولقد ذبحت منهم عددًا عظيمًا، من بينهم أولاد الرؤساء والضباط المتفوقين من المحاربين (؟) وقد أحضرت معي عددًا منهم أسرى أحياء إلى البلاط، لأني كنت بطلًا على رأس جيش عظيم من الجنود الأقوياء، وقد سر قلب سيدي مني لكل البعوث التي وكل أمرها لي.

وعقب ذلك أرسلني جلالة سيدي لتهدئة الأحوال في هذه الممالك.

وقد قمت بذلك حتى إن سيدي أثنى عليَّ كثيرًا أكثر من أي إنسان آخر، ولقد أحضرت معي رئيسي هاتين المملكتين سالمين معافين إلى البلاط، ومعهما ثيران وماعز حية إلى البلاط، وكذلك أحضرت أطفال الرئيسين وضابطي المحاربين الذين كانوا معهما.

أما السبب في القيام برحلة البحر الأحمر فكان للنجدة ويلخص ذلك في أن أحد الضباط الذين أرسلوا في حملة إلى سواحل البحر الأحمر واسمه «عنخت نيتي»، وكان يريد أوَّلًا بناء سفينة والسفر بها إلى بلاد «بنت» التي كان يعتقد فيها المصريون أنها شبه مقدسة وأن أصلهم يرجع إليها، وعندما كان «عنخت نيني» هذا منهمكًا في بناء سفينة غير ملتفت إلى ما حوله، انقض عليه وعلى رجاله قوة من البدو وقضوا عليه، وقد كان من الضروري معاقبة المعتدين على فعلتهم هذه، ولكن الأهم من ذلك كان إحضار جثة «عنخت نيني» إلى مصر، ولذلك أرسل «بيبي نخت» ثانية للقيام بهذه المهمة، فيقول: وعقب ذلك أرسلني سيدي نحو بلاد «العامو» (الآسيويين) لأحضر له السمير الوحيد …

من البحارة «كاعبر» مدير القافلة «عنخت نيني» الذي كان مشتغلًا هناك ببناء سفينة (للسفر بها) إلى بلاد بنت، وقد داهمه الآسيويون الذين ينتمون إلى أهل البدو، فذبحوه هو وفصيلة الجنود الذين كانوا معه. بعد ذلك نجد أن النقش مهشم، وكل ما يمكن فهمه هو أنه قام بإنجاز المهمة التي أرسل من أجلها، فيقول: لقد ذبحت خلقًا منهم أنا وجنود الجيش الذين كانوا معي.

أما ثالث هؤلاء الرحالة من عظماء أسوان فهو «سبني»، فقد قام بحملة شبيهة بحملة «بيبي نخت» الأخيرة، غير أنه لسوء حظه كانت الجثة المكلف بإحضارها لمصر هي جثة والده، وكان في هذه المرة قبائل الزنوج هم الذين سطوا عليه وذبحوه، ونقوش «سبني» مهشمة في البداية، غير أنه في إمكاننا أن نفهم منها المعنى المقصود جملة، ولم يكن «سبني» عند قيامه بهذه الحملة جاهلًا بأحوال هذه البلاد التي قتل فيها والده، بل يظهر أنه كان مدربًا على ارتيادها، وكان لا بُدَّ له من ذلك؛ لأن وظيفة قيادة القوافل على ما نعلم كانت وراثية في حكام هذه المنطقة كما شاهدنا ذلك في «حرخوف» ووالده، فكان الوالد يعلِّم ولده الأعمال التي كانت تتطلبها وظيفته.

قام «مخو» والد «سبني» برحلة، ولكنه مات في خلالها في جهةٍ ما في قلب مجاهل أفريقيا، فقام ابنه بالبحث عن جثة والده، فكتب على مقبرته التي لا تزال إلى الآن بتلال أسوان مع قبر والده يقول:

> الأمير حامل خاتم ملك الوجه البحري، مدير الجنوب، السمير الوحيد، الكاهن المرتل «سبني».

وعندئذ ذهب ضابط السفينة «أبتف» ومدير … «بهكيسي» ليحملوا الخبز، إن السمير الوحيد والكاهن المرتل «مخو» قد مات، وعندئذ صحبت معي جنودًا من ضيعتي ومائة حمار، وأخذت كذلك عطورًا وشهدًا، وملابس وزيتًا و… لأقدمها هدايا في هذه الأقطار، وسرت نحو بلاد النحسى «العبيد» هذه … وقد أرسلت أناسًا كانوا عند بوابة الفنتين، وكتبت خطابات لأخبر الملك بأني سافرت لأحضر من «واوات» و«أوثث»، ولقد هدأت الأحوال في هذه الأقطار الأجنبية … وفي الأقطار … التي تسمى «عا تم ثر». ثم حملت جثة هذا السمير الوحيد على ظهر حمار ثم أرسلته مع فصيلة من جنود أوقافي، وصنعت له تابوتًا … وأحضرت معي … لأجل أن أنقله من هذه الأقطار الأجنبية، ثم عدت نحو «واوات» و«أوثك» وأرسلت الشريف الملكي «إري» مع اثنين من ملَّاك

الفلاحين من ضِياعي طليعة ومعهما الروائح العطرية ... وحاجز من العاج لأعلم ... أني حملت جثة والدي وكل أنواع هدايا هذه الأقطار. ثم عدت لأضع والدي ... أما من جهة «إري» الذي كان في البلاط فإنه أحضر أمرًا بتحنيط الأمير، حامل خاتم الوجه البحري، السمير الوحيد، الكاهن المرتل «مخو» وقد أحضر ... محنطين، والكاهن المطهر الأعلى والتشريفي، والكاهن الأعلى للأوقاف المأتمية والبكائين، وكل قربان بيت التحنيط، وأحضر زيت الطقوس الخاص ببيت التحنيط، والأشياء السرية لبيت التطهير المزدوج والخاصة ببيت السلاح، وملابس من بيت المال، وكل الملحقات الجنازية أتت من البلاط كما كان الحال في أمر الأمير «مرو»، وعندما وصل «إري» أحضر معه مرسومًا ليثني عليَّ على ما فعلته، وقد ذكر في هذا المرسوم: «لقد فعلت لك كل الأشياء الممتازة تذكارًا لهذا العمل العظيم لأنك أحضرت والدك ...» ولم يحدث مثل هذا من قبل.

ودفنت والدي في هذا القبر من الجبانة، على أنه لم يدفن رجل في هذه الدرجة بالطريقة التي دفن بها. ثم نزلت في النهر نحو «منف» حاملا معي منتجات هذه الأقطار الأجنبية، وكذلك ما كان والدي قد جمعه ... جيشي و«النحسى» (النخاسة) ... والخادم «سبني» قد أثنى عليه في البلاط ووجه الملك له مدحًا؛ لأنه كان صاحب حظوة عظيمة عند الملك ... وقد أعطيت صندوقًا من خشب الخروب يحتوي على عطور وزيوت، وكذلك منحت حقيبة من الكتان ... وملابس، وكذلك أعطيت ذهب الجدارة، وكذلك تسلمت قرابين من اللحم والطيور ... وعندما كانت تقرَّب الذبائح كان يذكر ما فعله لي سيدي.

وقد قيل للخادم «سبني»: لقد أُتي بمرسوم من القاضي الأعظم والوزير ... بلدة «نخب» الكاهن الأعظم «آني» الذي كان وقتئذ في «برحتحور رسيت» قائلًا: إنه يمكنني أن أحضر والدي في الحال ويمكنني أن أدفنه في قبره شمالي «نخب»، ولقد منحت ٣٠ أرورًا[٢] من الأرض في الشمال والجنوب وقفًا من الهرم المسمى «من عنخ نفر كا رع» تقديرًا لي.

ولسنا في حاجة للتعليق على رحلة «سبني»، وما قام به نحو والده، فالمتن يعطينا صورة ناطقة عن العادات والشعائر الدينية التي كانت تجري في هذه الفترة في مصر، وسنترك ذلك للقارئ نفسه.

---

[٢] الأرور مقياس يوناني ويقابله بالمصرية «إستات»، وهو يساوي نحو ثلثي فدان تقريبًا.

وقبل أن نتمم كلامنا عن عصر «بيبي الثاني» نرى لزامًا علينا أن نلقي نظرة إجمالية عن بيت أسرة الأمير «زاو» وهو كما ذكرنا من قبل شقيق زوجتي «بيبي الأول» وخال «بيبي الثاني» ووزيره لفترة من حكمه الطويل، وقد كان أمراء هذا البيت حكامًا وراثيين لمقاطعتي «هراكنبوليس» (مقاطعة جبل الثعبان، وهي الثانية عشرة بالنسبة لمقاطعات الوجه القبلي)، وكذلك كانوا حكامًا لمقاطعة «طينة» (المقاطعة الثامنة من الوجه القبلي وهي «العرابة»).

والظاهر أن هذه الأسرة يرجع نسبها إلى الوزير «مري»، وقد تزوج من إحدى بنات الملك «تيتي»، وقد بقي عظماء هذه الأسرة يتقلبون في مناصب الدولة العظيمة حتى تولى «زاو» رياسة الوزارة في عهد «بيبي الثاني»، وأصبح هو المسيطر على كل الأمور في البلاد لما له من الصلة الوثيقة بالفرعون الصغير، وقد ترك من بعده ابنه «إبي» وكان في أول الأمر حاكمًا لمقاطعة «هراكنبوليس» ثم لمقاطعة «طينة» بالوراثة عن أبيه، وأخيرًا عُيِّن حاكمًا للجنوب، وقد ترك كل من «زاو» و«إبي» نقوشًا على قبريهما، وهذه النقوش لا تختلف كثيرًا عن النقوش التي كانت شائعة الانتشار في هذا العهد، اللهم إلَّا بعض جمل تخرج أحيانًا عن حد المألوف قد جاءت ضمن نقوشها، فمثلًا نجد على مقبرة الأمير «زاو»: إني لم أقدم احترامي لأي رجل ولكن احترامي كان يقدمه لي العظماء، ولقد عمل لي تابوت وقربان ملكية من البلاط بمقدار عظيم جدًّا في عهد جلالة الفرعون «مرن رع».

أما مقبرة «إبي» فقد وجدنا في نقوشها الروح التي يظهرها كل مصري تحايلًا على استمرار بقاء وقف قبره وعدم الاعتداء عليه، ولذلك قد استعان بالتهديد وبقوة التعاويذ السحرية التي كانت شائعة الانتشار في هذا العهد، وبخاصة أن الملوك كانوا يستعملونها ويستعينون بها على المحافظة على أهرامهم وأوقافها، وكذلك كان يبرئ نفسه أمام العالم من كل المظالم التي كان يقترفها الناس فيقول: إذا دخل أي إنسان هذا القبر مدعيًا ملكيته فإني سأنقضُّ عليه كطائر مفترس، وإني روح فائقة، وإني أعرف كل التعاويذ وأسرار البلاط في الجبانة، وإني المحبوب من والده والمُثْنَى عليه من والدته و«المقرب» (إبي).

ثم يقول: إني أعطيت خبزًا للجائع، وملابس للعريان … وحبوبًا، وثيرانًا وفلاحين من أوقافي … إلخ.

وقد ترك «إبي» وريثًا له على مقاطعتيه ابنه «زاوشما»، ولكن يظهر أنه لم يُعَمَّر طويلًا فورثه ابنه وسَمِيُّه «زاو»، وكان كذلك حاكمًا على «طينة»، وقد دفن مع والده «زاوشما» في المقبرة التي أقامها له في جبانة «هراكنبوليس» في عهد «بيبي الثاني».

وقد ذكر لنا كيف دفن والده بكل عظمة وأبهة ونجد ذلك كثيرًا على مقابر هذا العصر ولكن الأمر الذي يلفت النظر في هذه النقوش أنه أظهر رغبته في أن يدفن مع والده في القبر الذي أقامه هو له، ولم يكن ذلك من عجز كما يقول في عمل مقبرة أخرى له خاصة ولكن حبًا منه في أن يكون على مقربة من والده ويراه كل يوم، فيقول: لقد دفنت والدي الأمير «زاو» بطريقة فاخرة جميلة أحسن من أي فرد من أسرته الذين في الجنوب، وقد التمست أن يشرفني جلالة سيدي ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نفر كا رع» (بيبي الثاني) عاش أبديًّا بمنحي تابوتًا وملابس وعطورًا جنازية لوالدي «زاو» هذا، وقد أمر جلالته مدير الأوقاف بأن يحضر تابوتًا من الخشب وكذلك زيت العيد، وملابس و٢٠٠ قطعة من الكتان الممتاز ومن كتان الجنوب الرقيق، وأقمشة تصرف من بيت المال «البلاط المزدوج» لوالدي «زاو» هذا على أن هذه الأشياء لم تعط قط لأحد في نفس هذه المنزلة.

وكذلك وصَّيت أن يكون دفني في نفس القبر مع «زاو» هذا حتى أكون في صحبته في نفس المكان، ولم يكن ذلك عن عجز مني لبناء مقبرة ثانية، ولكني فعلت ذلك رغبة مني في رؤية «زاو» هذا كل يوم، ولأني أريد أن أكون معه في نفس المكان.

هذه صفحات من أخلاق هذا العصر وعاداته، وهي في الحق تكشف لنا عن نواح طريفة مختلفة في حياة المصري رغم أنها قد كتبت على القبور. والباحث في تاريخ مصر لا يمكنه أن يصل إلى معرفة تاريخ البلاد إلا بتحليل مثل هذه النقوش واستنباط الحقائق التي نراها قد جاءت عفوًا وعن غير قصد، والواقع أنا نجد في أسرة «زاو» دروسًا عدة من الوجهة السياسية والاجتماعية والدينية؛ فقد كانوا هم القابضين على زمام البلاد في عهد «بيبي الأول» و«بيبي الثاني» لما كان لهم من المكانة في البيت المالك لقرابتهم له ولما لهم من المجد القديم؛ إذ كانوا حكام مقاطعتين وراثيتين من أعظم مقاطعات البلاد، وكذلك لأنه كان منهم الوزير وحاكم الجنوب، ولكن رغم كل هذا فإن عوامل الضعف كانت قد أخذت تدب في البلاد، وكانت قوة الملك أخذت في التدهور شيئًا فشيئًا مما سنفصله بعض الشيء هنا؛ إذ بعد اختفاء «بيبي الثاني» هوت البلاد دفعة واحدة إلى الحضيض ولم تقم لها قائمة مدة طويلة من الزمان، والأسباب التي أدت إلى ذلك سنشرحها ببعض التفاصيل فيما بعد.

وخلف «بيبي الثاني» فرعون آخر يدعى «مرن رع محتي إم ساف»، غير أننا لا نعرف شيئًا عن حكمه. وتولى العرش بعده كما يقول «مانيتون» ملكة تُدعى «نيتوكريس»

التي كانت تعد أجمل نساء عصرها، وكانت شقراء اللون، وقد تكلمنا عن هذه الملكة والملابسات التي حدثت في اسمها واسم الملكة «خنت كاوس» عند الكلام عن الأخيرة، ولا غرابة فإن نهاية الأسرة السادسة كانت غامضة، ولم نعثر في الآثار للآن على ما يكشف لنا القناع عن الحقيقة وربما بقي ذلك سرًّا غامضًا إلى الأبد؛ لأن خاتمة الأسرة كانت عصر ثورات واضطراب لم يقم فيه من الآثار ما ينير لنا الطريق.

الفصل الثامن عشر

سقوط الدولة القديمة والثورة الاجتماعية

لقد كانت سلطة الفراعنة في الأسرة السادسة آخذة في التدهور شيئًا فشيئًا وبخاصة في عهد الفرعون «ببيي الثاني» الذي حكم البلاد أكثر من ثلاثة أجيال، وقد انتهى الأمر بعده بانحلال البلاد وتفشي الثورة فيها مما قلب الأمور رأسًا على عقب كما سيأتي شرحه، ويرجع السبب في ذلك إلى أمرين هامين؛ الأول: إغارة الأجانب من البدو على البلاد من جهة، والحروب الداخلية من جهة أخرى، وتفصيل ذلك أن البدو رغم الهزيمة المنكرة التي لحقت بهم في عهد «ببيي الأول» لم يفقدوا الأمل في غزو البلاد المصرية التي كانت في تلك الفترة تزخر بالثراء والغنى، وقد سنحت لهم الفرصة في عهد الملك «ببيي الثاني» لنيل مأربهم؛ إذ كانت الأحوال مهيئة لهم، فقد كان كل حاكم من حكام المقاطعات الوراثيين منهمكًا في المحافظة على مقاطعته التي كانت تعد بمثابة مملكة صغيرة مستقلة.

أما في الوجه البحري الذي كان فيه مقر الملك، فيحتمل أن القوم كانوا ملتفين حول الملك بعض الشيء، ودافعوا عن بلادهم، غير أنه ليست لدينا وثائق تاريخية تحدد لنا الموقف بالضبط، ولكن على أية حال كان موقف الحكومة المصرية في هذا العهد في حالة يرثى لها، حتى إن الشعب انتهز هذه الفرصة، وقام بثورة اجتماعية طاحنة امتد أمدها أكثر من قرنين من الزمان كانت البلاد ترزح خلالها تحت عبء ثقيل من الفوضى والخراب؛ إذ كان سلطان فرعون قد زال وأملاكه قد اختفت والحقوق المدنية والدينية قد تولاها كل من كان في قدرته أن يبسط يده عليها، وأخذ كل شخص يغير على ما يستطيع أن يصل إليه، ضاربًا بكل نظام وقانون عرض الحائط، وقد كان من جراء امتداد هذه الفوضى أن ساد البلاد الخوف وانتشر القحط وعم الانحلال الخلقي وعدم المبالاة بالتقاليد الدينية والمعتقدات الموروثة، وليست لدينا وثائق تاريخية تنير لنا

الطريق خلال هذا العصر المظلم، اللهم إلا معلومات ضئيلة جدًّا، ولكن من جهة أخرى قد أسعفتنا الوثائق الأدبية الشعبية؛ إذ الواقع أن أزمة هذا العصر طال أمدها فأثرت على أذهان القوم، وبخاصة على أفكار الحكماء وأهل الفكر وعلى خيال القصاصين، فنراهم يصورون ما حاق بالبلاد من ضنك وشدة وما قاست من ويلات وخراب بعبارات مؤثرة جدًّا خارجة من الأعماق، وأهم كتاب وصل إلينا من هذا العصر هو «تحذيرات نبي» وهو من الكتب الأدبية النادرة في حسن تركيبها وتأثيرها في النفس، حتى إن أدباء العصور التي تلت كانوا يتخذونها نموذجا أدبيًّا يدرس في المدارس، ومن المرجح جدًّا أنها كتبت في عهد الأسرة التاسعة والعاشرة، ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه القطعة الأدبية تصف لنا أول انقلاب اجتماعي في آخر عهد الدولة القديمة الذي كان سببه الفوضى، ويشبه في تصويره حالة البلشفية المتطرفة في تاريخ العالم.

وموضوع هذا التحذيرات هو أنه حاقت بالبلاد مصيبة شنعاء في عهد أحد حكام الأزمان القديمة، فثار عامة الناس على الموظفين وعلية القوم، وكذلك عصى الجنود المرتزقة من الأجانب قادة البلاد، ويحتمل أن الآسيويين هددوا الحدود الشرقية أيضًا، وبذلك انحل الحكم المنظم في مصر جملة، ولكن الملك الطاعن في السن كان يعيش في طمأنينة في قصره، لأنه كان يُغذَّى بالأكاذيب، وعندئذ ظهر حكيم يدعى «إبور»، وأخبر الملك بكل الحقيقة فوصف له البؤس الذي عم البلاد وتنبأ بما سيأتي بعد، وحرَّض سامعيه على أن يحاربوا أعداء البلاد، وذكَّرهم بأن عبادة الآلهة لا بدَّ أن تعاد إلى ما كانت عليه.

والعهد الذي حدث فيه هذا الانحلال في نظام الحكم لا بُدَّ أن يكون في نهاية الدولة القديمة، وذلك أنه في ختام الأسرة السادسة (٢٥٠٠ق.م) اختفت مصر عن الأعين فجأة وصارت في ظلمة كأن مصيبة عظمى قد نزلت بها، وأن ما ذكر هنا من أن الملك الذي كان يخاطبه الحكيم كان مسنًّا يتفق تمامًا مع الحقائق التاريخية؛ لأن الملك الذي اختفت معه الدولة القديمة عن أعيننا لا يكون إلا الملك «بيبي الثاني» الذي جلس على عرش الملك في السنة السادسة من عمره وحكم مدة أربعة وتسعين عامًا كما نقل عن المصريين أنفسهم.

يبتدئ المتن بوصف البؤس العام الذي حلَّ بالبلاد من سرقة وقتل وتخريب وقحط، وتشريد الموظفين وتفكك الإدارة، والقضاء على التجارة الخارجية وغزو الأجانب البلاد وتولية الغوغاء مراكز الطبقات العليا، فيذكر الحكيم أن أهالي الصحراء قد حلوا مكان

المصريين في كل مكان، وأصبحت البلاد ملأى بالعصابات، حتى إن الرجل كان يذهب ليحرث أرضه ومعه درعه، وشحبت الوجوه وكثر عدد المجرمين، ولم يعد هناك رجال محترمون، وفقد الناس الثقة في الأمن، وعلى الرغم من فيضان النيل فإنهم أحجموا عن الذهاب لفلاحة أراضيهم خشية اللصوص وقطاع الطرق، وصارت النساء عاقرات، ولم يعد هناك حمل بسبب إعراض الإله «خنوم» عن هذا العمل غير المجدي، وأصبح المعوزون يمتلكون أشياء جميلة، بينما نجد الأشراف في حزن، لا يشاطرون أهليهم أفراحهم، ثم إن القلوب صارت ثائرة، والوباء انبث في كل الأرض، والدم أريق في كل مكان، وكثر عدد الموتى حتى أصبحت جثثهم من الكثرة بحيث استحال دفنها، ولذا فإنها ألقيت في الماء كالماشية الميتة، وأصبح أصحاب الأصل الرفيع مفعمين بالحزن، بينما امتلأ الفقراء سرورًا، وكل بلدة تنادي قائلة: فليُقْصَ أصحاب الجاه عنَّا، وصارت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، فأصبح اللص صاحب ثروة، وتحول النهر إلى دماء عافتها النفوس، ودمرت البلاد وصار الوجه القبلي صحراء جرداء، وأصبحت التماسيح في تخمة بما قد سلبت، وانتشر حفارو القبور في كل مكان بسبب كثرة الموتى، وخربت المنازل، وأصبح المصريون لا يرون الآن، وصار الذهب واللازورد والفضة والياقوت تحلِّي جيد الجواري، بينما تمشي السيدات النبيلات في طول البلاد يقلن: ليت لدينا بعض الشيء لنأكل، وصارت أعضاؤهن في حالة يرثى لها لما عليها من الخرق البالية، وقلوبهن تنفطر حزنًا عندما يشاهدن أنفسهن في حالتهن هذه، وأصبح مهندسو السفن الملكية يشتغلون عمالًا عاديين، ولم يعد الناس يذهبون إلى «ببلوص»، (وهي جبيل بلبنان) لإحضار خشب الأرز لأجل الموميات.

وأصبحت المدن لا تؤدى الضرائب بسبب القلاقل، وصارت الخزينة من غير دخل، وقُضي على الضحك ولم يعد يُسمع، بينما أخذ الحزن يتمشى في طول البلاد وعرضها ممزوجًا بالأسى، وكره الناس الحياة حتى أصبح كل واحد منهم يقول «ليتني مت قبل هذا»، والأطفال الصغار يقولون: «كان يجب عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة»، وأولاد الأمراء يضرب بهم عرض الحائط، والأطفال الحديثو الولادة يلقون على قارعة الطريق، وانتزعت موميات علية القوم من مقابرها وألقيت في الطريق العام، وأصبح سر التحنيط جهرًا، وأُلقي المواطنون على أحجار الطواحين، وأصبح الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل يجلدون، واضطرت سيدات الطبقة الراقية اللائي كُنَّ يسكنَّ في البيوت إلى العمل الشاق في حرارة الشمس، وأصبحت اللاتي كن على أَسِرَّة أزواجهن يَنَمْنَ على

مضاجع مُقِضَّة، وصارت السيدات مثل الجواري، وتحولت أغاني العازفين إلى أناشيد حزن، وأصبح الرجل الأحمق يشك في وجود «الإله» فيقول: ... «إذا عرفت أين يوجد الإله قدمت له قربانًا»، وأصبحت الماشية والقطعان تندب بسبب حالة البلاد، والرجل يقتل أخاه من أمه، والطرق شائكة، فاللصوص يكمنون في الحشائش، حتى يأتي المسافر في ظلام الليل ليسلبوا منه حمله، ويسرقوا ما عليه، ثم يضربوه بالعصى حتى يقطع نفسه، ثم يُذبح ظلمًا، وقد انمحى ما كان يشاهد بالأمس، وأتلفت المحاصيل، وأصبح القوم يأكلون الحشائش، ولم تعد هناك فاكهة ولا أعشاب تقدم للطيور، وقد أصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير بسبب الجوع، وانعدمت الغلال، وجرد القوم من الملابس والعطر والزيت، وصارت المخازن خاوية، وسلبت كتابات قاعة المحاكمة الفاخرة، وأذيعت التعاويذ السحرية التي كانت ملكًا للحكومة، ونهبت الإدارات العامة ومزقت قوائمها، وذبح الموظفون وصار القوم يطئون بأقدامهم قوانين قاعة المحاكمة، ويجيئون في البيوت العظيمة (المحاكم العليا القديمة) دون خوف ولا وجل.

وبعد ذلك يأخذ الحكيم في وصف مصائب حلت بالبلاد تفوق بمراحل تلك التي سبق أن شكا منها؛ إذ تنهار الملكية وينتصر العامة، وهنا يظهر ثانية كيف أن الأغنياء أصبحوا فقراء بينما أصبح الغوغاء أثرياء فيقول: انظر فقد حدثت أشياء لم تحدث فيما مضى؛ إذ اغتصب الفقراء القبر الملكي، وأصبح الملك الذي دفن كصقر يرقد على نعش، وآل الأمر إلى أن حرمت البلاد الملكية بسبب بعض القوم الذين لا شعور لهم، وأظهر الناس العداء للملك الذي جعل الأرضين في سلام، وأفشيت الأسرار الملكية، وأصبح مقر الملك رأسًا على عقب، وامتلأت الأرض بالعصابات، واغتصب الجبناء الرجال الشجعان، وأصبح من لم يكن في مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتًا يملك قبرًا قد اغتصبه لنفسه، وألقي بأرباب المكان الطاهر (الموتى) على قارعة الطريق، وحدث أن الذي لم يكن يستطيع أن يقيم لنفسه حجرة يملك فناء مسوَّرًا، وطرد حكام البلاد وأصبحوا ينامون في المخازن، واضطرت السيدات الكريمات إلى الرقاد على الفراش الخشن، وأصبح الرجل الميسور ينام ظمآن، وذلك الذي كان يستجدي منه العقاقير صار يملك الجعة المسكرة، والذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا في خرق بالية، وذلك الذي كان لا ينسج لنفسه أصبح يملك الكتان الجميل، ومن لم يبنِ لنفسه قاربًا أصبح الآن صاحب سفن، ومن لم يكن له ما يظله أصبح يملك أفياء، وهؤلاء الذين كانوا يملكون ما يأويهم أصبحوا الآن عرضة لزعازع العواصف، وأصبح من كان يجهل الضرب على العود يملك قيثارًا، وذلك

الذي لم يكن يُغَنَّى له أحد أصبح الآن مُثْنًى عليه من إلهة الموسيقى، وأصبح من كان ينام أعزب بسبب الحاجة يجد الآن سيدات نبيلات، ومن كان لا يملك شيئًا صاحب ثروة ويمتدحه الأمير تملقًا، ومن كانت لا تملك صندوقًا صاحبة صوان، ومن كانت تشاهد وجهها في الماء صاحبة مرآة، وأصبح القصابون يغشون الآلهة، فيقدمون لهم ذبيحة من الإوز بدلًا من الثيران، ولم يعد هناك موظف في موضعه اللائق به، وأصبح الناس كالقطيع المذعور من غير راع. أما الماشية فهي تجول ولا أحد يُعنى بها، وكل إنسان يأخذ لنفسه منها ما يريد، وأصبح الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه في الضيق لينجو بنفسه، ولم يعد هناك صانع يعمل؛ إذ إن العدو قد حرم البلاد حرفها.

ثم يأخذ الحكيم في حث المخلصين للعرش على مقاومة أعداء الجالس عليه فيأمرهم بتدمير خصوم المقر الملكي صاحب الموظفين المتفوقين وصاحب القوانين العدة.

ثم ينتقل الحكيم إلى تذكير القوم بعبادة الآلهة، وكيف كانت تجري فيما مضى، وكيف يئول أمرها في المستقبل، فيذكرهم كيف كانت تجلب الإوز سمينة وتقرب إلى الآلهة، وكيف كانت تقام عمد الأعلام عند مدخل المعبد، وتنقش ألواح القربان، وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد، وكيف كانت ترعى الأنظمة وتذبح الثيران.

ينتقل الحكيم بعد ذلك إلى مخاطبة الملك المسن فيقول له: إن القيادة والفطنة والصدق معك ولكنك لا تنتفع بها، فالفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، ولكنها مع ذلك تغذى بالأكاذيب التي تتلى عليك، فالبلاد قش ملتهب والإنسانية منحلة، ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك …

بعد ذلك يصف لنا الوقت السعيد الذي يحفظه المستقبل، فيذكر أنه لحسن عندما تشيد أيدي الناس الأهرام، وتحفر البرك، وتنشئ للآلهة مزارع فيها أشجار، وعندما يكون السرور شاملًا، وكبار الموظفين واقفين ينظرون إلى الأفراح وهم يرتدون أجمل الثياب، وعندما تكون الأَسِرَّة وثيرة ووسادات العظماء محمية بالتعاويذ التي تقيهم الأرواح الشريرة. بعد ذلك نشاهد فجوة كبيرة في المتن لا بُدَّ أنها كانت تحوي جواب الملك على هذا الكلام. ثم يجيبه الحكيم بأن القوم يغطون وجوههم من المستقبل، ويستمر في وصف سوء حال البلاد واقتحام مقاصير القبور وحرق التماثيل. غير أن المتن مهشم تمامًا.

الفصل التاسع عشر

الأسرتان السابعة والثامنة

(١) مقدمة

يعد العصر الذي تلا الأسرة السادسة إلى ظهور الأسرة الحادية عشرة من أظلم العصور في تاريخ مصر، وقد اختلف المؤرخون في تقدير طول هذا العصر؛ فقدره الأستاذ «فلندرز بتري» بنحو ٣٤٤ سنة، وذلك من بداية الأسرة السابعة إلى الأسرة الحادية عشرة، وقدره الأستاذ «برستد» بنحو ٣١٥ سنة من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة.

والواقع أن هذا العصر مجدب في الحقائق التاريخية، وما ذلك إلا لعدم وجود آثار معاصرة، وبخاصة في عهد الأسرتين السابعة والثامنة، وكل ما يمكن الإشارة إليه من الآثار في عهد هاتين الأسرتين بعض جعارين للفرعون «نفر كا رع» الذي يظن أنه من فراعنة الأسرة السابعة، وكذلك أسطوانة من حجر اليشم الأخضر تعزى إلى الفرعون «خندو»، ويقال إنها من صناعة سورية، وهذا الفرعون «خندو» ينتسب إلى ملوك الأسرة الثامنة، وكذلك عثر على خاتم للفرعون «نفر كا رع تلولو» رب الشمال، وعلى مراسيم للفرعون «نفر كاوحور» وسنتكلم عن محتوياتها فيما بعد.

عثر على جعران لفرعون اسمه «رع إن كا»، وهذا الجعران رغم ما عليه من الإشارات المصرية فإنه وجد عليه رسم يدل على أنه من أصل سامي محض، وهو يشبه الرسم الذي على أسطوانة الفرعون «خندو»، وهذه الدلائل التي ذكرناها رغم قلتها مضافة إلى الفوضى التي سادت البلاد في هذا العصر تزكي الفكرة القائلة بأن البلاد في هذه الفترة قد غزاها قوم من أهالي سوريا، وهي نظرية يميل إليها الكثيرون من المؤرخين المحدثين.

والظاهر أن هؤلاء الفراعنة الذين حكموا البلاد في خلال هاتين الأسرتين لم يشيدوا مباني عظيمة كأسلافهم في طول البلاد وعرضها؛ إذ الواقع أننا لم نعثر لهم في محاجر سينا والحمامات على أي أثر من النقوش؛ إذ كان المتبع في عهد أسلافهم أن كل ملك

من الذين أقاموا المعابد العظيمة ينقش اسمه على صخور هذه الجهات تذكارًا للحملات التي كان يرسلها لقطع الأحجار النادرة لعماراته ومقابره الخالدة، ويظن الأستاذ بتري أن الوجه البحري وجزءًا ومن الوجه القبلي قد غزيا في نهاية الأسرة السادسة، بل يقال إن قومًا من الشمال الشرقي من سوريا فتحوا مصر ولا يبعد أن يكون ذلك مقدمة للغزوة العظيمة التي قام بها الهكسوس للبلاد فيما بعد، وأهم ما لدينا من الدلائل على حدوث هذه الغزوة ظهور الأزرار التي كانت تتخذ شارات منذ نهاية الأسرة السادسة، ثم اختفت في الأسرتين التاسعة والعاشرة، وهذا النوع من الأزرار التي عثر عليها في مصر رغم وجود بعض الأشكال المصرية البحتة عليها أحيانًا مثل علامة «☥ الحياة» وعلامة الصقر 𓅃 كان الطابع الأجنبي ظاهرًا في صناعتها واضحًا. هذا إلى أن الأسطوانات الخضراء التي عثر عليها من عصر الملك «خندو» هي صناعة أجنبية بغير شك، وإن كانت بعض التفاصيل التي عليها مصرية، ولا يفوتنا كذلك ذكر بعض أسماء وجدت في هذا العصر مثل «شماي» و«ني» و«تلولو» و«عانوا» يستدل من تركيبها أنها سامية الاشتقاق، وكذلك كان نفوذ الفرعون قد تدهور تدهورًا عظيمًا في نهاية حكم الملك «بيبي الثاني» كما أسلفنا، وسادت الفوضى البلاد، حتى إننا لا نعرف من الآثار التي بقيت لنا من عهد الأسرة السابعة شيئًا محدودًا، وكل ما وصل إلينا كان عن طريق رواية «مانيتون»، فقد روى لنا أن هذه الأسرة كانت تضم سبعين فرعونًا حكموا سبعين يومًا، ولا نظن أن مثل هذه الأسرة كان لها وجود بهذه الصفة، بل ربما ضرب لنا «مانتيون» ذلك مثلًا للفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في البلاد بعد سقوط الأسرة السادسة.

(٢) الأسرة الثامنة القفطية (٢٢٨٠–٢٢٤٠ق.م)

أما الأسرة الثامنة فرغم ورود أسماء ملوك لها في قوائم الفراعنة، فإن تاريخها غامض غموضًا تامًّا، اللهم إلا بعض حقائق عن بعضهم ضئيلة سنذكرها فيما بعد؛ ففي قائمة «العرابة» نجد أسماء ١٧ فرعونًا حكموا زمنًا في عهد هذه الأسرة، وفي قائمة تورين نجد مذكورًا ثمانية فراعنة فقط، أما المؤرخ «مانيتون» فإنه ذكر لنا أن عدد ملوكها ثمانية عشر دون أن يذكر أسماءهم، على حين أن قائمة سقارة لم يرد فيها ذكر فرعون بعد «بيبي الثاني» إلى أوائل الأسرة الحادية عشرة؛ أي إنها أهملت الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، هذا ما ورد في القوائم، أما الآثار فإنها لم تذكر لنا ما يشفي غلة.

حقًّا أنه يوجد في سقارة بعض أهرام لا بُدَّ أنهم أقيمت بعد عهد «بيبي الثاني»، غير أننا لم نتحقق من بينها اسم ملك، ولكن إذا حكمنا حسب الأسماء التي ذكرتها لنا قائمة «العرابة» في عهد الأسرة الثامنة وجدنا أن فراعنة هذه الأسرة قد بقوا محافظين على تسمية أنفسهم بأسماء أسلافهم في معظم الأحيان، فمثلًا نجد من بين ملوك الأسرة الثامنة خمسة فراعنة تسموا باسم «نفر كا رع» وواحد تسمى باسم «ددف رع» وآخر أطلق على نفسه اسم «نفر إر كا رع» وهكذا، والظاهر أنه كان من جراء الحركة التي قام بها حكام المقاطعات للمحافظة على استقلالهم في مقاطعاتهم منذ الأسرة السادسة، أن حاكم مقاطعة قفط آنس من نفسه القوة فضم إلى مقاطعته المقاطعات السبع العليا من الوجه القبلي، وأسس منها مملكة مستقلة تحت سلطانه عن أسرة منف، ومما يؤسف له أن «مانيتون» لم يذكر لنا شيئًا مطلقًا عن هذه الأسرة القفطية، ويرجح أنها قد مكثت نحو أربعين عامًا، وقد حفظت لنا الآثار أسماء بعض فراعنتها؛ إذ عثر في قفط نفسها على بعض آثار تدل على أن فراعنتها كانوا يحملون كل الألقاب الفرعونية، وقد كانت نقطة ضعف ملوكها أنهم كانوا يغمرون وزراءهم الذين كانوا ينتخبون من أسرة خاصة بسلطة واسعة، حتى إنهم كانوا في الواقع هم المسيطرون الحقيقيون على شئون هذه المملكة، وقد عثر على مراسيم عدة للفرعون «نفر كاو حور» أحد ملوك هذه الأسرة في قفط نفسها، منها مرسوم خاص بوقف تمثال الفرعون.

وقد أرسل الأمر الخاص بهذا الوقف إلى رئيس كتبة الحقول للمقاطعات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة من مقاطعات الوجه القبلي لتنفيذه، ولا نزاع في أن جميع الحقول الفرعونية في المقاطعات الخمس السالفة الذكر هي المقصودة لتحبس على هذا التمثال مما يدل دلالة واضحة على أن هذه الممتلكات كانت ضئيلة، وأن أملاك الفرعون في المقاطعات أخذت تتناقص وتتضاءل بسبب ما كان يهبه الفرعون لحكام الأقاليم من أملاكه الخاصة في هذه الجهات مما زاد في سلطانهم وقلل من نفوذه وأضعف سلطانه، كذلك لدينا مرسوم آخر يعد من أهم المراسيم الإدارية التي عثرنا عليها في هذا العصر؛ إذ فيه نصب الفرعون وزيره «شماي» مديرًا على الوجه القبلي ووضع تحت سلطانه الاثنتين والعشرين مقاطعة التي كان يشتمل عليها صعيد مصر مع ذكر اسم كل منها من البداية إلى النهاية حسب ترتيبها الجغرافي، وبعد فترة عين الفرعون وزيرًا آخر لا نعرف اسمه، ويحتمل أنه ابن «شماي»، ليكون مديرًا للوجه القبلي، غير أنه قد حدد اختصاصه بالمقاطعات السبع الجنوبية فقط، ومن ذلك نرى أن الوزير قد اشترك

معه ابنه في حكم المقاطعات التي تحت سلطانه «من المقاطعة الأولى إلى السابعة» من الوجه القبلي، ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن وظيفة الوزير التي أنشأها الفرعون لكبح جماح حكام الأقاليم أصبحت وراثية يتولاها الابن عن الأب مما جعل نفوذ الملك صفرًا، وقد كان كذلك من حسن الصدف أن عثرنا في هذا العهد على مرسوم آخر في قفط لفرعون يدعى «دمزاب تاوي» وهذا الفرعون لم يذكر في قوائم الفراعنة المعروفة لدينا لهذا العهد، غير أنه من المحقق أنه من هذه الأسرة، وقد تأكدنا من ذلك من اسم الوزير الذي ذكر معه، وقد جاء في هذا المرسوم أن الفرعون كان يهدد بالعقاب الصارم كل أهل هذه الأرض الذين يعتدون على الأوقاف أو يتلفون أو يهشمون النقوش أو المعابد أو موائد القربان أو تماثيل الوزير «إدي» التي توجد في كل المعابد والأماكن الدينية. أليس من المدهش أن نرى للوزير «إدي» تماثيل وقربانًا في كل المعابد التي في الوجه القبلي وأن يحافظ عليها ويعتنى بها بهذه الكيفية؟

وأدهش من ذلك أنه بجانب العقاب الدنيوي الذي يلقاه كل من تعدى على حقوق هذا الوزير أن نرى الفرعون يعلق أهمية كبرى على العقاب في الآخرة. إذ يقول: إن المعتدين لن يجمعهم الإله مع الملائكة المطهرين، بل سيوثقون ويكبلون ويساقون أسرى للإله أوزير ولآلهة مدنهم، وهنا نشاهد أن الإله «أوزير» والآلهة المحلية كانت تعد قضاة، وقد كانت هذه المكانة محفوظة للإله «رع» حتى هذه الفترة، وذلك مما يدل على الانقلاب الديني ضد عبادة هليوبوليس «عين شمس» ومملكة منف، وأخيرًا نرى أن الفرعون «دمز إب تاوي» يهدد بسخطه وغضبه كل الموظفين بما فيهم الفرعون والوزير والأمراء الذين يعارضون في تنفيذ هذا المرسوم. على أننا سنشاهد مثل هذا التهديد للفرعون في مرسوم في عهد أواخر الدولة الوسطى، وهو عصر يشبه الذي نحن بصدده الآن من حيث الاضطراب والفوضى والغزو، ولا شك أن مثل هذه الحالة من العلامات المميزة لعصور الفوضي والاضطراب. ومنذ بضع سنين عثر على مقبرة لأحد حكام مقاطعة إدفو في بلدة المعلَّة، وتقع في منتصف الطريق بين إسنا وأرمنت على الشاطئ الأيمن للنيل، ونقوش هذه المقبرة لم تنشر بعد رغم أنها في غاية الأهمية من الوجهة التاريخية، وربما كانت النقوش الفريدة التي نفهم منها أن الثورة التي قام بها فراعنة قفط لم تقبلها حكام المقاطعات الجنوبية الثلاثة — الفنتين وإدفو وهيراكنبلوليس — عن طيب خاطر، بل حارب أهلها من أجل استقلالهم بكل عنف وبسالة؛ إذ الواقع أن النقوش تدلنا على أن أهلها حاربوا ضد طيبة وقفط في جانب ملك لم نعرف اسمه بكل أسف على وجه

التحقيق، وقد ختمت هذه الحروب بانتصار طيبة وقفط طبعًا غير أن نقوش هذا الحاكم لم تذكر لنا هذا الانتصار.

ومن المحتمل جدًّا أن الأسرة الثامنة المنافية قد اختفت حوالي عام ٢٢٤٠ق.م والظاهر أن قبل هذا التاريخ بعامين كانت المملكة الشمالية الصغيرة التي كانت قد حرمت ريفها الخصيب، قد اقتطع منها إقليم آخر يحتوي عدة مقاطعات، وذلك أن حاكم مقاطعة إهناس «هراكليوبوليس» واسمه «حيتي» أعلن نفسه فرعونًا على مصر السفلى ومصر العليا، واتخذ لنفسه لقب «أمر إيب»، ولا نعلم كيف انتهت تلك المملكة المنفية، على أن شواهد الأحوال كلها كانت تنذر باختفائها؛ إذ كانت فريسة بين الآسيويين الذين كانوا يحتلون الدلتا وبين ملوك إهناس الجدد، ولذلك لم يعد في مقدور ملوكها البقاء وقضي عليها من عالم الوجود، ومن ذلك الحين نرى أن مصر في هذا العهد كانت مقسمة ثلاثة أقسام، ففي الشمال كانت الدلتا في يد الآسيويين وفي مصر الوسطى كان حكام إهناس هم المسيطرون، وفي الوجه القبلي نجد أن البلاد كانت ملتفة حول حكام طيبة، ولا نعرف شيئًا عن اختفاء أمراء قفط الذين كانوا أصحاب السلطان في المقاطعات الجنوبية، وربما يعزى ذلك إلى ضعفهم وتغلب حكام طيبة عليهم، ويظن الأستاذ «بتري» أن الوجه القبلي في هذا العهد قد غزاه قوم من الجنوب، وكان من جراء ذلك أن الغزاة استوطنوا طيبة، وكان منهم فيما بعد سلالة ملوك الأسرتين الحادية والثانية عشرة. وقد اعترف الدكتور هول بهذه الفكرة في كتاباته عن مصر في هذا العهد، ومما يدعم هذا الرأي وجود الدم النوبي في عروق هؤلاء الملوك الذين كان يطلق عليهم اسم «منتوحتب» أو «سنوسرت» أو «أمنمحيت»، ومن كل ذلك نستخلص أن البلاد في هذا العهد قد اجتيحت بالغزوات الأجنبية من كل الجهات، فانقض عليها الآسيويون من الشمال والنوبيون من الجنوب واللوبيون من وسطها، وعادت البلاد إلى سيرتها الأولى من الفوضى والانقسام، ولم يبقَ فيها تحت سلطان الجنس المصري الحقيقي إقليم واحد. هذا إذا سلمنا بأن ملوك إهناس يرجع أصلهم إلى الجنس اللوبي (؟).

الفصل العشرون

الأسرتان التاسعة والعاشرة

كان مقر فراعنة الأسرتين التاسعة والعاشرة مدينة هيراكليوبوليس، وهي المعروفة الآن باسم إهناس المدينة، ويظن بعض المؤرخين أن ملوكها من أصل لوبي، وأنهم غزوا مصر عن طريق الفيوم حتى وصلوا إلى مدينة إهناس واتخذوها عاصمة لملكهم؛ لما لها من ماضٍ مجيد من الوجهة التاريخية والمكانة الدينية، فضلًا عن أنها كانت أعظم مدينة صادقتهم أثناء زحفهم على البلاد، وأهم حاضرة في وسط القطر، والواقع أن مدينة إهناس كانت حاضرة ملوك الوجه القبلي (نسوت) قبل توحيد الأرضين. هذا إلى أنها كانت من أقدم المواطن المقدسة في البلاد، إذ يعزى إليها حسبما ذكر في التقاليد الدينية والأساطير أن الإله «شو» إله الفضاء قد رفع في هذه المدينة السماء عن الأرض، وكانتا رتقًا إذ ذاك، وجعل الأرض يابسًا، وكذلك جاء في الأساطير الدينية أن الإله رع «إله الشمس» أرسل إلى هذه المدينة الإلهة «سخمت» إلهة الحرب لتهلك بني الإنسان بسبب عصيانهم وثورتهم على هذا الإله المسن. يضاف إلى ذلك أنه جاء في الأقاصيص الدينية أن الإله «أوزير» والإله «حور» ابنه قد تُوِّجا ملكين على البلاد في هذه المدينة، وقد ذكر كذلك في كتاب الموتى في الفصل ١٢٥ أن أحد القضاة الاثنين والأربعين الذين يحاكمون الموتى في قاعة الحساب ويدعى «كاسر العظام» أصله من هذه البلدة، وأول فرعون تولى عرش الأسرة التاسعة في إهناس هو «خيتي الأول» وقد كانت له شهرة سيئة في التاريخ حسبما جاء في الروايات التي رواها لنا عنه «مانيتون» المؤرخ المصري، ومن بعده المؤرخ الإسكندري إرستاتونيس، فقد ذكر الأول أن من بين الفراعنة التسعة عشر الذين حكموا في إهناس نحو ٤٠٩ سنة كان «أختبوي خيتي»، هذا أسوأ أسلافه، وقد أنزل الضرر بكل سكان مصر، وانتهى أمره بأن جن جنونه واغتال حياته تمساح، وهذا مثل صارخ من العدالة الإلهية إذا كان حقًّا «حيتي» كما صوره لنا المؤرخون. أما

«أرستاتونيس»، فإنه يروى أن الفرعون السابع والعشرين من ملوك طيبة الذي يطلق عليه اسم «خوتورتوروس» العاتي حكم سبعة أعوام (حوالي عام ٣٦٦٣ق.م) وقد ارتكب في خلالها مظالم كثيرة، ولا نزاع في أن «خيتي» الذي عثرنا على اسمه في النقوش هو نفس «أختيوس» الذي ذكره «مانيتون»، غير أنه ليست لدينا وثائق تاريخية تؤكد لنا ما وصفه به «مانيتون» ونسبه إليه زميله من الأعمال، ولكن حوادث التاريخ تعلمنا أن العظماء الذين يقومون بتأسيس دولة باغتصاب عرش غيرهم لا يبالون بمن يعترضهم في طريقهم، ولا يقيمون وزنًا للمظالم التي يرتكبونها في سبيل الوصول إلى أغراضهم وفتح طريق الفلاح أمامهم.

ولا غرابة إذا كان «خيتي» ظهر بهذا المظهر الوحشي عند تأسيس ملكه في إهناس، ولا غرابة كذلك إذا كان هذا الفرعون قد أحاط نفسه بهالة من الخوف والفزع حتى لا يقترب أحد منه أو يجرؤ على منازعته، ومما يؤسف له أن بعض أخلافه لم يكن فيهم شيء يذكر من قسوته وفظاظته، بل على العكس كانوا على جانب عظيم من التقى والصلاح كما سنرى، وإذا كان «خيتي» الذي نحن بصدده الآن هو نفس «نب كاو رع خيتي» الذي ذكر في قصة شكاوى الفلاح، فإنه بلا شك كان يمتاز بالنكات وحب المزاح، وربما كان للمؤرخ «مانيتون» عذر في وصفه بما وصفه به؛ إذ في قصة الفلاح كان الفرعون يقصد المزاح في شدته معه، ولكن القوم كانوا يرون في ذلك شدة وعنفًا وظلمًا حقيقيًّا. غير أن ذلك لم يحقق، بل يعده بعض المؤرخين آخر ملوك هذه الأسرة، وما يؤسف له جد الأسف أنه لا يمكننا أن نعطي رأيًا قاطعًا في ترتيب فراعنة «إهناس» خلال الأسرة التاسعة، ولكن المعترف به مؤقتًا أن خيتي الأول هو «مري إيب رع»، وقد حكم نحو ٢٢ عامًا (٢٢٤٢–٢٢٠٠ق.م) حسبما وصلت إليه معلوماتنا إلى الآن، غير أن البلاد كانت في ارتباك ومشحانات من طرفيها، ولم يكن في مقدور فرعون إهناس أن يقبض على زمام الأمور بعزم وحزم، فكانت الدلتا كما ذكر لنا «خيتي الثالث» عندما كان ينصح ابنه «خيتي الرابع» في حال سيئة ولم يكن في مقدور «خيتي الثالث» عندما كان ينصح ابنه «خيتي الرابع» في حال سيئة، ولم يكن في مقدور «خيتي الثالث» إلا أن يهدئ الأحوال بعض الشيء بعد جهد جهيد، وقد واتاه الحظ في الدلتا فنجح في التغلب عليها، أما في الجنوب فكان حظه عاثرًا، والواقع أن سلطان فراعنة «إهناس» كان ضئيلًا، بل منعدمًا، فيما خلف حدود مدينة «طينة» وبلدة «العرابة» المدفونة، وكذلك كان نفوذه في شمال طيبة نفسها ضعيفًا، ويرجع ذلك إلى أن الأمراء المحليين في أسيوط وإن كانوا

يدينون بسلطان فراعنة «إهناس» إلا أنهم كانوا في الواقع أعظم منهم قوة وأعز نفرًا، وكانوا يعملون جهد طاقتهم على حفظ كيان الفرعون الذي أخذ في التداعي والانهيار، وقد خلف لنا أمراء أسيوط الذين نحن بصددهم وثائق تاريخية هامة عن هذا العصر نقشوها على مقابره الضخمة، ومن بين هذه النقوش ثلاثة خاصة بالعصر الذي نتكلم عنه الآن، ومما يؤسف له أننا لم نوفق إلى الآن لترتيب هذه النقوش حسب مكانها في التاريخ، ولكن الظاهر أن الأمير الذي كان يقال بأنه «خيتي الثاني» (كان أمراء أسيوط في هذا الحين يطلق على كل منهم اسم خيتي تيمنًا بأسماء فراعنة إهناس) هو صاحب النقش الأول، ولذلك يعتبر أول الأمراء الثلاثة، ثم تبعه «تف إيب» ثم «خيتي الثاني»، ومهما يكن من أمر فإن نقوش «خيتي الثاني» تنبئنا عن عصره بأنه كان عهد رخاء وهدوء وسكينة مما جعله فريدًا في زمن هذه الأسرة حتى ختامها.

وقد حثنا النقوش أن أمير مقاطعة أسيوط قد تربي وترعرع مع أولاد الفرعون، وذكرت لنا بعض التفاصيل الغريبة، فيقول هذا الأمير: «إن الفرعون أمر بتعليمي السباحة مع أطفاله»، وقد ذكر لنا أنه كان له جيش وأسطول مؤلف من سفن عظيمة، وقد جعلها في خدمة مليكه كلما اقتضت الأحوال ذلك، وأنه قام بأعمال مجيدة لمقاطعته، وأن البلاد أثرت في عهده؛ إذ يقول: «إن أسيوط كانت مرتاحة مطمئنة لإدارتي، ودعا الإله لي أهل إهناس.» أما «خيتي الثاني» فرعون البلاد فلا نعلم عنه شيئًا إلا أنه مات في سلام ودفن في قبره. تولى بعده الملك «خيتي الثالث» ومنذ اعتلائه أريكة البلاد قام ببينه وبين أحد البيوتات الكبيرة في الجنوب نزاع كان له خطره عليه وعلى أخلافه، بل وعلى مستقبل البلاد المصرية والعالم المتحضر في تلك الفترة، وقد كان مقر حكومة هذا البيت العظيم الذي ظهر في الجنوب بلدة طيبة، وكان حاكمها في هذا العهد في الغالب هو «أنتف العظيم» (أنتف عا) ابن «أنتف الأول» مؤسس هذا البيت.

وكان «أنتف الأول» هذا هو الحاكم الحقيقي على المقاطعات الجنوبية لمصر وإن لم يكن يدعي لنفسه لقب الفراعنة، والواقع أنه كان يحمل عدة ألقاب عظيمة وهي: النبيل بالوراثة حاكم مقاطعة طيبة، والذي يشبع كل أغراض الفرعون، وحارس بوابة الحدود، وعمود الجنوب، والحاكم الإداري، والذي جعل كل أراضيه تحيا، ورئيس الكهنة، وهذه الألقاب كانت تمنح لكثير من عظماء الدولة المخلصين، وليس لدينا من المعلومات ما يحملنا على الظن بأن «أنتف» هذا كان غاضبًا على الفرعون أو خارجًا عليه، وبخاصة بعد أن علمنا أنه يحمل لقب «الذي يشبع كل أغراض الفرعون».

ورغم ذلك فإن ظواهر الأحوال كانت تدلنا على أنه ذو قوة عظيمة كما نشاهد ذلك في «خيتي الثاني» أمير أسيوط، وربما كان الفرق بين الأميرين أن «خيتي» أمير أسيوط كانت تربطه رابطة شخصية بفرعون إهناس؛ إذ تربَّيا معًا في البيت الفرعوني، أما الثاني فكان لا رابطة بينهما إلا ما يوجد بين الفرعون وأحد أمراء مقاطعاته، وفي الحق أنه لم يكن هناك ما يدعو أمير طيبة للخضوع لفرعون البلاد، ولذلك كان يتحين الفرص ليشق عليه عصا الطاعة ويعلن استقلاله، ولم يكن ذلك ليحدث إلا على يد أمير طموح، وقد حانت الفرصة فعلًا عندما تولى «أنتف العظيم» حكم طيبة، وكان توَّاقًا للمعالي والعظمة كما يشعر اسمه بذلك، وكانت طيبة في هذا العهد تشغل مكانة ضئيلة من حيث الشهرة بالنسبة لما وصلت إليه فيما بعد، فكان سكانها في درجة منحطة من حيث الثقافة إذا ما قرنت بالمدن الشمالية منها التي كانت دائمًا على اتصال بالحركة العلمية في عهد الدولة القديمة، وكان لا بُدَّ أن تتغير هذه الحال، وفعلا بدأت في مراقي التقدم حتى وصلت إلى درجة من الحضارة لم تبلغها مدينة مصرية في كل عصور التاريخ المصري إلى أن تدهورت البلاد وضاع استقلالها، ومن المحتمل جدًّا أنه لم يمضِ طويل زمن على تولي «أنتف العظيم» حتى قامت المشاحنات بين فراعنة إهناس وبين أمراء طيبة.

وقد بدأ النزاع من جانب الفرعون كما ذكر لنا «خيتي الثالث» مظهرًا أسفه وحزنه على ما بدر منه، وإن كان كل هذا قد حدث عفوًا ولم يشعر بنتائجه حتى حلت الكارثة، وقد استقينا معلوماتنا عن هذا الحادث من تعاليم الفرعون «مري كا رع» نقلًا عن بردية تدعي ورقة «بطرس برج»، ويرجع تاريخ كتابتها إلى حوالي عام ١١١٦ق.م وهذه البردية قد وصلت إلينا منقولة عن نسخة يرجع تاريخها للأسرة الثامنة عشرة، وقد عزى المؤرخون تأليف هذه التعاليم إلى الفرعون «خيتي الثالث»، وقد كتبها ينصح بها ابنه «خيتي الرابع» ويملي عليه تجاربه حتى تكون درسًا له، وفي هذه الوثيقة نجد إشارتين إلى سبب النزاع الذي قام بين «خيتي» ملك إهناس وأمير «طينة» الذي كان يعد من رعاياه في الظاهر، ففي الإشارة الأولى نجد «أن مصر تحارب في الجبانة وتخرب المقابر ... وقد فعلت ذلك نفسي، وقد حدث ذلك فعلًا، وهذه إشارة إلى انتهاك حرمة المقابر، ولا بد أنها تشير إلى مدينة «طينة» المقدسة، ويقول عنها الفرعون: «إنني استوليت عليها بالهجوم كالصاعقة.» وبعد ذلك بقليل يقول خيتي: «تأمل لقد حلَّت في زمني كارثة خرَّبت أحياء «طينة». وقد حدث ذلك فعلًا، وقد كنت أنا السبب، وقد أحسست بجرمي بعد أن اقترفته، وكان ذلك من سيئاتي، فاحذر ذلك؛ لأنه من عمل سيئة يجزى مثلها.»

والواقع أننا لا نعلم ما جرى بالضبط؛ لأن المتن غامض، ولكن يمكن أن نقرأ بين السطور ما يأتي: كان كل من «خيتي» فرعون إهناس و«أنتف» العظيم أمير طيبة يدعي لنفسه السلطان على «طينة» و«العرابة» المدفونة التي تتاخمها، فكان الفرعون يؤازره «تف إيب» أمير أسيوط يعتقدان أن هاتين البلدين يعدَّان حصن باب الجنوب لأملاكهما. أما «أنتف العظيم» فكان يراهما الباب المؤدي إلى الشمال لأملاك الفرعون، ومن المحتمل جدًّا أنه قد قامت بعض مشاحنات بين القابضين على إدارة تلك الجهة من كِلَا المتعاديين، مما أدَّى إلى نشوب حرب، وجعل «خيتي» يشير في تعاليمه لابنه عن هذا الحادث المؤلم. إذ كانت نتيجته أن نهبت المقابر الفرعونية المقدسة التي كانت في تلك الجهة، وقد حزن «خيتي الثالث» لإرساله الجنود الذين ارتكبوا تلك الفظائع.

وقد شعر بجرمه غير أنه لم يكن يعلم الحقيقة إلا بعد وقوعها، ولا غرابة فإن كل البلاد لا بُدَّ قد ارتاعت من تخريب الأماكن المقدسة التي كانت تعد أقدس بقعة دينية في البلاد المصرية قاطبة، وقد انتهز «أنتف» هذه الفرصة للكيد لعدوه؛ إذ حمَّله مسئولية تخريب الأماكن المقدسة ونهبها على جنوده وأعوانه، مما أشعل نار الغضب في قلوب الرأي العام ضد «خيتي» مناهضه، ومن هذا العهد نجد أن «أنتف» أخذ يحمل لقب «حور» الفرعوني فسمى نفسه «حور واح عنخ أنتف عا»، وقد قام «أنتف العظيم» هذا بحملة نيلية في أسطول سار به شمالًا مظهرًا العصيان الصريح ضد فرعون البلاد، وكذلك لينتقم لنفسه وشرفه ودينه، ولكن محاولته هذه كان مآلها الفشل التام، وفي ذلك يقول أمير أسيوط: إن أول مرة حاربت فيها جنودي المقاطعات الجنوبية طاردوا فيها الأعداء إلى أقصى الحدود الجنوبية، وعندما وصلت إلى المدينة هزمت العدو وأقصيته حتى حصن باب الجنوب. وقد حاول قائد «أنتف العظيم» كرة أخرى أن يغير على بلاد الفرعون فكان نصيبه الفشل التام والهزيمة المنكرة، وقد قصَّت النقوش علينا ذلك نقلا عن أمير أسيوط عضد الفرعون الأعظم؛ إذ يقول: وقد جاء آخر كأنه الفهد المفترس بجيش ثان مؤلف من أحلافه، فخرجت لملاقاته ولم أَتَوَانَ لحظة عن منازلته في سفني، وقد حاولت استخدام ريح الشمال وريح الجنوب وكذلك الريح الشرقية والريح الغربية حسب الأحوال الجوية، وقد انتهت هذه الحرب بأن غرق العدو وسفنه في النيل، وكانت جنوده تفر كالثيران عندما تهاجمها الحيوانات الوحشية رافعة ذيولها إلى الأمام. وتعد هذه الموقعة الأولى من نوعها في المواقع البحرية في التاريخ، ولا غرابة إذا كان أمير أسيوط يفخر بها، والواقع أن أهالي الصعيد كانوا في حاجة ماسة إلى رجل قوى الشكيمة

ليصدهم ويكبح جماحهم ويذيقهم الذل والهوان، وقد قيَّض الله لهم «أنتف عا» (أنتف العظيم) في حينه، وقد كان من سوء طالع «تف إيب» وسيده فرعون إهناس أن أمير طيبة لم يخضع لهما حتى بعد أن هزم في الواقعتين السالفتين، بل سار بجيشه شمالًا كرة أخرى، وفي هذه المرة يقص علينا «أنتف عا» ما حدث بنفسه؛ إذ يقول: لقد جعلت حدودها الشمالية (أي مملكته) حتى إطفيح، وقد رسوت بسفني عند الوادي المقدس واستوليت على كل مقاطعة «طينة» وفتحت معاقلها، وجعلتها باب الشمال لأملاكي بعد أن كان «تف إيب» قد اتخذ منها حصنًا لباب الجنوب بالنسبة لأملاك فرعون إهناس.

أما «خيتي الثالث» فكان لا يزال يشعر بوخز ضميره، وكانت ترتعد فرائصه في قصره بإهناس كلما فكر في جرم انتهاك حرمة الأماكن المقدسة، وبخاصة إذا علمنا أنه كان رجل تقى وورع. ولقد ظهر أثر ذلك في تعاليمه لأبنه؛ إذ يقول: «إن الضربة تقابل بمثلها»، والواقع أنه ربما كان يظن أن «أنتف عا» قد قابل فعلة «خيتي» بمثلها واستفاد منها أيضًا، وهذا ما يقرره الواقع؛ إذ نرى أن «خيتي» قد فقد سلطانه على بلاد «أنتف العظيم»، وفي الوقت نفسه كان يشعر بالآلام نسبة لما أحاق بـ «طينة» و«العرابة» من التخريب والنهب، يضاف إلى ذلك أن هذه البقاع المقدسة أصبحت مغلقة في وجهة، وكان لزامًا على كل مصري بعد موته أن يحج إلى تلك الأماكن المقدسة التي كانت تعد بمثابة طريق إلى الجنة في السماء، وقد أحزنه حرمانه ذلك ولكنه رضي الواقع، وعدَّه عقابًا من الإله على ما ارتكبه في حياته ضد هذه البقعة الطاهرة المقدسة، ومن المدهش أن الفرعون «حور واح عنخ أنتف عا» لم يتقدم في سيره في الغزو بعد استيلائه على «طينة» و«العرابة»، وربما يعزى ذلك إلى أنه كان من الرجال العظماء الذين لا يغالون في أطماعهم، ويعرفون متى يجب أن يقفوا عند حدودهم، وقد كان صمم على أن يمحو عن نفسه عار انتهاك حرمة الأماكن المقدسة حتى بعد أن هزم دفعتين، والآن وقد واتاه الحظ وانتصر على عدوه نصرًا لم يكن يحلم به، فعقد معه صلحًا وكفَّ عن دفع الجزية التي كان يحملها سنويًّا للفرعون في إهناس، وسمح له أن يستخرج ما يلزمه من حجر الجرانيت من محاجر أسوان التي كانت ضمن المقاطعات التي تحت سلطانه، وقد رضي بذلك «خيتي الثالث»، ونصح لخلفه بأن لا يهاجم عدوًّا أقوى منه وأكثر بطشا وسلطانًا، وقد أشار إلى ذلك مرات عدة في تعاليمه. إذ يقول: لا تخلقن أسباب عداء بينك وبين الأرض الجنوبية؛ لأنك تعلم ما تنبأ به مقر الملك من هذه الناحية، وقد يحدث ذلك كما حدث فعلا (أي هزيمة نفسه). كن لين الجانب معها لأن ذلك خير للمستقبل، كن على

وئام مع الأرض الجنوبية وبذلك يأتي اليك القوم محملين الهدايا، وقد قفيت في ذلك أثر الأجداد، ورغم أنه ليس لديها ما تقدمه لك من القمح فإنه من الخير أن تبقى وأن يظهر أهلها لك الضعف والاستكانة، واقنع بما عندك من خبز وجعة، (أي لا تحرك هؤلاء القوم ضدك للشر بجعلهم يدفعون اليك الجزية) هذا إلى أن الجرانيت الأحمر يأتي إليك دون عائق، (أي يجب عليك أن تحمد الله على هذا لأنه في يدهم).

ومن المدهش أننا نرى أن هذا الفرعون المسن يشير في تعاليمه إلى عادة كانت فاشية في مصر في كل عصورها، وكانت تعد من أكبر الجرائم التي كان يقترفها الفراعنة والأفراد على السواء، وأعني بذلك أن يُستولى على ما قام به الفراعنة وغيرهم من علية القوم من المباني والمخلفات التي كانت كمقابر أو معابد لهم دون مراعاة حرمة في ذلك، ولعمري لو كانت نصيحة الفرعون «خيتي» هذه قد أصغى إليها أخلافه لتغير وجه التاريخ المصري تغيرًا عظيمًا من الوجهة «المعمارية» والتاريخية، فكم من مبانٍ عظيمة اختفت نهائيًّا، وكم من وثائق تاريخية كانت منقوشة عليها ضاعت إلى الأبد، ولو وعى مثل هذه النصيحة «رعمسيس الثاني» ومن بعده «منفتاح» ابنه لعرفنا كثيرًا من تاريخهما على الوجه الحق، فيقول: «خيتي»: «لا تعتدين على آثار غيرك، بل اقطع لنفسك أحجارًا من طرة، ولا تشيدن قبرك من أنقاض غيرك.» ولكن «خيتي» كان رجلًا عاقلًا حنكته التجارب مفعم قلبه بالتقى، ولم يكن نداؤه هذا إلا صوت رجل ينادي في الصحراء ولم يعمل به أحد، فمضى الأمير والفرعون كل في طريقه يخرِّب وينهب معابد أسلافه ومقابرهم كلما دعت مصلحة إلى ذلك. بعد أن برأ «خيتي» نفسه أمام ربه من الذنوب التي ارتكبها في الوجه القبلي أخذ ينصح ابنه شارحًا الحالة التي كانت عليها أجزاء البلاد الأخرى، والواقع أنه وإن كان قد أساء التصرف في الجنوب إلا أنه عزَّى نفسه بتحسين الأحوال في الدلتا؛ إذ يقول: لقد هدأت كل الجهات الغربية إلى حافة البحيرة، وكذلك ساد الأمن الجهة الشرقية من الدلتا، حيث كانت الأحوال قد ساءت فقسمتها مراكز ومدنًا، وأصبحت السلطة التي كانت في يد حاكم واحد في أيدي عشرة (الظاهر أن أمراء الدلتا وأشرافها الذين كانوا يشعرون بقوة أكثر مما يجب قد أخضعوا)، فصاروا يقدمون الآن كل أنواع الضرائب، وأصبح الكهنة يملكون الحقول، والضرائب تجبى لك دفعة واحدة، ولن يحدث أن يأتي أعداء أشرار، ولن يأتي النيل منخفضًا فتتأثر البلاد بسببه، وسيكون لك محصول بلاد الدلتا.

أما في شرق الدلتا فإن الفرعون المسن كان يشعر أنها آمنة مطمئنة بعض الشيء، وما ذلك إلا بفضل الميزات الخاصة التي كان يمتاز بها العرب الرُّحَّل، وكانت هذه

الصفات سليقة في نفوسهم، وما زالت منذ القدم باقية فيهم لم يطرأ عليها أي تغيير إلى يومنا هذا؛ إذ يقول: «تأمل لقد وطدت سلطاني في الشرق فصارت الحدود من «هيتو» إلى ممر «حور» معمورة بالمدن الآهلة بالسكان من صفوة رجال البلاد وخيرتها وما ذلك إلا ليصدوا غارة الآسيويين …» وقد ذكر هذا كذلك للأقوام المتبربرين: «إن الآسيوي الخاسئ أينما حل يتبعه الشقاء في الأرض التي يحل بها حيث الماء الآجن ولا يمكن المرور في أرضه بسبب كثرة أشجارها، وكذلك الطرق فإنها وعرة بسبب جبالها، وهو لا يسكن في مكان واحد، بل يرخي لساقيه العنان، ومنذ أقدم العصور فإنه يحارب ولكنه لا يهزم ولا يهزم ولا يعلن اليوم الذي سيشن الغارة فيه»، ولعمري ليس هناك وصف أدق لأهل البادية من وصف «خيتي» لهم في هذه الجمل الموجزة.

وقد هدأ «خيتي الثالث» في نصائحه روع ابنه «خيتي الرابع» من جهة قوة أهل البادية الضعيفة الأثر في إلحاق الضرر والأذى؛ إذ يقول: لا تتعبن نفسك من جهته؛ (البدوي)، فإنه لا ينهب إلا مسكنًا منعزلًا، وليس في مقدوره أن يستولي على مدينة آهلة بالسكان. ولقد كان الجنوب في الواقع هو مصدر الخطر الذي يهدد الفرعون المسن باستمرار؛ إذ كان يعتقد أن أية ثورة تقوم ضده في مصر الجنوبية ستقضي قضاء عاجلًا على كل الأعمال العظيمة التي قام بها في الدلتا، اللهم إلا إذا اتخذ العدة في الدلتا نفسها، وقد كان فعلًا بعيد النظر من هذه الوجهة؛ إذ أقام عدة مدن محصَّنة، الغرض منها كبح جماح أي إقليم يقوم بثورة أو عصيان. وقد كتب لابنه في نصائحه مشيرًا إلى ذلك فيقول: إذا قامت بلادك من جهة الجنوب بثورة فإن ذلك يكون حافزًا لقيام الأجانب في الشمال بحروب ضدك، فعليك إذن أن تقيم مدنًا في الدلتا، ولا يكون اسم الرجل صغيرًا بما فعله من جلائل الأعمال، والبلد الآهلة بالسكان لا تُمَسُّ بسوء، فابنِ مدنًا. والواقع أن «خيتي» كان يقدِّر حرج مركزه؛ إذ كان يقع بين شرين؛ أهالي الجنوب في الصعيد والبدو في الشمال، ولذلك اتبع سياسة حكيمة لم تُتَحْ لابنه فرصة اقتفائها من بعده.

ولا نزاع في أن أغرب شيء في تعاليم الفرعون «خيتي الثالث» هو نصائحه لابنه في كيفية إدارة سكان البلاد سياسيًّا؛ إذ يقول: أما من جهة الرجل الذي له أتباع عدة وينظر إليه عبيده وخدمه بعين الحب والمودة ويتكلم كثيرًا فاقضِ عليه، واقتله، وامحُ اسمه، واقتلع ذكراه وذكرى أتباعه الذين يحبونه؛ لأن الرجل المشاغب يكون دائمًا مصدرًا للقلق بين سكان المدن، وهو الذي يخلق فريقين متنافرين بين الشباب، وإذا رأيت الشبان ينضمون إليه فما عليك إلا أن تذكر اسمه أمام رجال البلاط ثم اقضِ عليه؛ إذ هو في الواقع عدو أيضًا.

ولا نزاع في أن هذه هي السياسة الحازمة في مثل هذه الأوقات المضطربة، ولكن بكل أسف لم يكن لدي «خيتي الرابع» الفرصة ليستفيد من هذه النصائح ويجربها في الحياة، وقد كان «خيتي» يرى أن يكون رجال الحكم ممن عندهم كرامة وعفة وطهارة ذيل ويعود فيقول ناصحًا ابنه: اجعل مستشاريك عظماء حتى ينفذوا قوانينك؛ لأن الرجل الغني في بيته لا يتحيز في حكمه، وذلك لأنه مُثْرٍ فلا يحتاج إلى شيء، ولكن الرجل الفقير لا ينطق بالحق، والحاكم الذي يقول ليت لي، لا يكون عادلًا؛ إذ ينحاز إلى من يغريه بالمال، وعظيم الرجل العظيم الذي يكون مستشاروه عظماء، وقوي ذلك الفرعون الذي له محكمة «من الطراز الصحيح». تكلم الصدق في بيتك حتى يخافك الأشراف الذين يتسلطون على البلاد، والسيد الذي له قلب سليم تصلح أحواله، وما في داخل البيت هو الذي يوحي بالرهبة في خارجه.

وكذلك نلاحظ في هذه التعاليم أن «خيتي» يرى الإله موجودًا في كل أمور الناس، وقد اتخذ ذلك أساسًا لاعتداله في الحياة فيقول: احذر أن تعاقب إنسانًا خطأً، ولا تقتلن أحدًا؛ فإن ذلك لا يجديك نفعًا، وعاقب بالضرب والسجن (من لا يمكن إصلاحه) والإله يعرف الشقي وينتقم منه بأشد العقاب (على ذلك فالعقاب المحتَّم يمكن تركه لله) والإله يقول: إني أنا المنتقم، وسأعاقب كلًّا بذنبه، وعلى الإنسان أن يعمل كل ما يريد، على ألا ينسَ الحساب الأخير عندما يشرف «تحوت» إله الحكمة على المحاكمة، والقضاة الذين يقتصون للمظلوم يوم القيامة فإنك تعلم بأنهم ليسوا متهاونين في ذلك اليوم الذي يقضون فيه للتعس، وبخاصة عند ساعة النطق بالحكم، وكم تكون الطامة كبرى إذا كان المتهم هو الواحد الحكيم، ولا تعتمد على أنك ستعمر سنين عدة، فإنهم ينظرون إلى مدى حياة الإنسان كأنه ساعة زمن، ويعيش الإنسان بعد الموت وتكون أعماله بجانبه مكدسة، وسيبقى هناك أبد الآبدين، وإنه لأحمق من يستخف بهم (قضاة قاعة العدل). أما الإنسان الذي يدخل عليهم دون أن يرتكب خطيئة فإنه سيبقى هناك كإله، ويتقدم أمامهم بخطى ثابتة إلى الأمام كإله الأبدية. هذه هي تعاليم الفرعون «مري كا رع خيتي»، وتعد من أعظم الذخائر العلمية التي عثر عليها، وبخاصة فإنها تلقي ضوءًا على مستوى الفكر الإنساني في هذا العصر وعن الفكرة التي كان ينظر بها الفرعون في طريق حكم البلاد، ومن المحتمل أن قارئ هذه التعاليم ربما يحكم على «خيتي الثالث» بأنه كان فرعونًا مذنبًا أمام الله لانتهاكه حرمة «طينة» المقدسة، وذلك أراد أن يكفِّر عن سيئاته بالتوبة والغفران. على أنه في الواقع لم يمتز عن باقي فراعنة مصر الذين سبقوه

في شيء من الأمور الدنيوية، ولكنه كان رجلًا يمتاز بأخلاقه الدينية وصلاحه، ورغم كل ذلك فإن الصورة التي رسمها لنا تعد من أحسن الصور التي تصور لنا فرعونًا، وليس لدينا ما يفوقها إلى الآن في مخلفات المصريين، وحقًّا إنها رغم نقائص مؤلفها الظاهرة تشعرنا بعد قراءتها بأننا قربنا من فهم صورة الفرعون الإنسان، لا الآلة الحكومية.

ومما يؤسف له جد الأسف أن ابنه «خيتي الرابع» لم يستفد من نصائح والده وتجاربه ولم يكن ذلك عن ضعف منه، بل لأن مركز إهناس كان مزعزعًا رغم مؤآمرة أمراء أسيوط لها، وكل ما لدينا من الوثائق التاريخية عن آخر فرعون في الأسرة التاسعة وصل إلينا من نقوش «خيتي الثاني» ابن «تف إيب» أمير أسيوط. وقد قفا هذا الأمير خطوات والده، واستمر يعضد عرش إهناس الذي كان في حاجة لكل مساعدة، ولا نعلم كيف بدأ هذا النزاع بالضبط من نقوش «خيتي»، والظاهر أن القلاقل التي قامت، كانت قد بدأت في عاصمة البلاد نفسها أي في إهناس، ثم تخطتها إلى الجهات الأخرى، غير أن أمير أسيوط بقي في خلال ذلك على ولائه لمليكه، وسار بجيشه وأسطوله النيلي فقوي عرش البلاد الذي كان آيلا للتداعي، وكان أول عمل قام به أن أخضع الثورة التي كانت في إهناس نفسها، وبعد ذلك سار الفرعون وأمير أسيوط نحو الجنوب بجيشهما حتى الحدود، والظاهر أنهما هدَّآ الأحوال هناك مؤقتًا، ثم عاد الفرعون المنتصر وحليفه أمير أسيوط إلى الشمال، وقد كان أسطولهما العظيم يغطي النيل مسافة عدة أميال كما يرويه أمير أسيوط. إذ يقول: لقد أدَّبت مصر الوسطى وذلك طلبًا لمرضاة «الفرعون»، وأصبحت كل البلاد تدين له «كما دان له» أمراء مصر الوسطى وعظماء إهناس وإقليم سيدة الأرض (الإلهة المحلية) وهم الذين جاءوا ليكبحوا جماح المسيء، وقد كانت الأرض في ذعر واستولى الخوف على مصر الوسطى، وكان كل الأهلين في وجل والقرى في فزع، وتسرب الخوف إلى أعضائهم، أما موظفو العرش فكانوا فريسة للخوف، والمقربون ضحية للذعر في إهناس؛ (أي إن العصيان كان بين كبار رجال البلاط)، وكانت البلاد تحترق بلهيبها ... ولم يحدث أن مقدمة الأسطول وصلت إلى «شطب» على حين أن مؤخرته كانت لا تزال في (؟) ولقد نزلوا بالماء ورسوا في إهناس، وجاءت المدينة فرحة مستبشرة بسيدها وابن سيدها، واختلط الرجال بالنساء والشيوخ بالأطفال.

وقد كان هذا البصيص من النجاح آخر ضوء سطع على أسرة إهناس الفرعونية، ثم تلته فترة هدوء وسكينة وطمأنينة كأنها بَرْقٌ خُلَّبٍ قام في خلالها ولاة الأمور ببعض أعمال عامة في البلاد، ففي مدينة أسيوط أقيم معبد للإله «وبوات» الإله المحلي للمقاطعة؛

معناه «فاتح الطريق أو دليل الموتى» أما الفرعون فإنه شيَّد هرمًا له بسقارة وصنع لنفسه تمثالًا، ومن المحتمل أن أمير أسيوط قد مات في خلال تلك الفترة دون أن يرى نذير الشر الذي كان يقترب من البلاد؛ إذ إن ختام نقوشه يدلنا على الثراء والخير والفلاح الذي كانت تنعم البلاد فيه فيقول: إن إله مدينتك يحبك، أنت يا «خيتي تف إيب» … ما أسعد ما حدث في وقتك، والمدينة راضية عنك، وما كان قد أخفي عن الناس فإنك قد فعلته علنًا حتى يقدم هدايا لمدينة أسيوط حسب رأيك فقط، وكان كل موظف قائمًا في عمله، فلم يكن هناك من يحارب أو من يُفوِّق سهمًا. ولم يهن الطفل على مرأى من والدته، ولا المدني على مرأى من زوجه، ولم يكن هناك مسيء في … ولا إنسان يرتكب أي عنف في بيته، وإله مدينتك هو والدك الذي يحبك ويرشدك. وفي خلال هذه المدة توفي «أنتف العظيم» وخلفه اثنان من الأمراء حكم كل منهما مدة قصيرة حدث في خلالها بعض قلاقل واضطرابات. ثم خلفهما فرعون يدعى «منتوحتب الثاني»، وقد جاء في نقوش له عثر عليها في «الجبلين» أنه قبض على أمراء الأرضين، وأنه المسيطر على الجنوب والشمال وعلى الأرض المرتفعة وعلى القطرين وعلى قبائل البدو التسع وعلى الأرضين، ومن ذلك نعلم أن المصيبة التي حاقت بفراعنة بيت إهناس الذين حكموا مصر في عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة لا بُدَّ أنها حدثت في المدة التي ظهر فيها «منتوحتب الثاني» فرعونًا على عرش مصر في طيبة.

وليست لدينا معلومات عن كيفية حدوث هذا التغير، وكل ما نعلمه أن «مانيتون» ذكر لنا أن الأسرة العاشرة في إهناس كانت تتألف من ١٩ فرعونًا حكموا البلاد نحو ١٨٥ عامًا، وهذه معلومات لا يعتمد عليها قط؛ إذ ليس لدينا من الآثار ما يثبتها، وكل ما وصل إلينا من مخلَّفات هذه الأسرة من الآثار ثلاث جعارين باسم ملك يدعى «شنيس» ويحتمل أن يكون من فراعنة هذه الأسرة، والواقع أننا في هذه الفترة نواجه عهدًا كانت البلاد فيه منقسمة ضد نفسها، ولم يكن هناك دواء ناجع للقضاء على عللها إلا حروبًا داخلية تطهر البلاد، وتمكن بيت طيبة الناشئ الفتي من بسط نفوذه، ووضع البلاد تحت حكم سلطة قوية منظمة تسير بها نحو الفلاح والمجد.

الفصل الحادي والعشرون

مراجع التاريخ المصري في عهد الدولة القديمة

تنقسم مراجع تاريخ مصر في عهد الدولة القديمة قسمين؛ مصادر أصلية: وهي النقوش التي عثر عليها منذ حل رموز اللغة المصرية وقبلها. ثم مصادر ثانوية: وهي الكتب التي استنبطها علماء الآثار والمؤرخون من هذه النقوش ونظموها على شكل تاريخ للبلاد متتابع حتى بداية الفتح الفارسي للبلاد عام ٥٢٥ق.م.

ويرجع الفضل في جمع كل النقوش التاريخية المصرية منذ ظهور الكتابة حتى الفتح الفارسي وتنظيمها وترجمتها إلى الإنكليزية، إلى الأستاذ «جيمس برستد» جمعها في خمسة مجلدات، ولم يترك شاردة ولا واردة خاصة بالتاريخ إلا وضعها في مؤلفه هذا، وقد كان أكبر مساعد له على جمع هذه النقوش وترجمتها بطاقات قاموس اللغة المصرية الذي كان لا يزال يؤلف في برلين. إذ منذ عام ١٨٩٧. أخذ المجمع العلمي الألماني يجمع مواده من كل متاحف العالم، وما كشف من الآثار المصرية حتى يومنا هذا، وقد ظهر أول جزء منه في عام ١٩٢٥ تقريبًا، وتم الآن طبعه وقد اشترك في جمع مواده أكثر من ثلاثين عالمًا، كلٌّ في اختصاصه، وقد جمع الأستاذ «برستد» ما هو خاص بالتاريخ من بين هذه المواد الضخمة في كتاب سماه: Ancient Records of Egypt. 5 vol. Chicago, 1906، ولم يترك أي نقش خاص بالتاريخ معروف لديه إلا دوَّنه، والجزء الأول منه جمع فيه كل نقوش الدولة القديمة حتى عام ١٩٠٥ (من صفحة ٥١–١٩١)، وبعد هذا التاريخ ظهرت نقوش عدة من الحفائر التي عملت في منطقة سقارة وأهرام الجيزة، وقد جمع كل هذه النقوش الأستاذ «زيته» في مجلد خاص حسب ترتيبها التاريخي تحت اسم «وثائق الدولة القديمة»، Urkunden des Alten Reiches, Leipzig, 1932، والواقع أن

هذا الكتاب أكبر مصدر عن تاريخ الدولة القديمة، وتوجد ترجمة معظم نقوشه في كتاب «وثائق التاريخ المصري» للأستاذ «برستد» السالف الذكر.

يضاف إلى ذلك بعض نقوش لم تُطبع بعد، كُشف عنها في منطقة الأهرام في سقارة، وقد أشرنا إليها في خلال كلامنا عن تاريخ الدولة القديمة.

أما أهم المصادر الثانوية التي يمكن الاعتماد عليها في تاريخ الدولة القديمة فهي ما يأتي:

(1) J. Pirenne. Histoire des Institutions de l'Ancienne Egypte, 3 Vol. Bruxelles 1935.

بحث القانوني «بيرن» في هذا المؤلف الممتع كل الأنظمة المصرية الحكومية في عهد الدولة القديمة منذ الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة، وقد استند في استنتاجاته على النقوش المصرية، وهذا الكتاب يعد فريدًا في بابه؛ إذ لم يترك بابًا من نواحي الأنظمة المصرية إلا تناوله بكل دقة ومهارة من البداية حتى النهاية، اللهم إلا بعض هفوات صغيرة لا تقلل من قيمة مؤلفه.

(2) Breasted, A history of Egypt. 1905.
(3) Breasted, A history of the Ancient Egyptians, 1908.

(أ) كتب الأستاذ «برستد» الكتاب الأول: مطولًا عن تاريخ مصر مستندًا إلى المصادر الأصلية التي جمعها في مؤلفه العظيم.

(ب) ثم كتب مختصرًا له مستندًا على نفس المصادر، وما كتبه الأستاذ «برستد» عن تاريخ مصر يعد أكبر مصدر يمكن الاعتماد عليه، ولكن منذ آخر طبعة ظهرت آثار جديدة جعلت كتبه تحتاج إلى تغيير، غير أن المنية عاجلته منذ عامين قبل أن يدخل التغييرات على كتبه، وكان آخر ما كتبه في التاريخ بعض فصول عن تاريخ مصر في كتاب:

(4) Cambridge Ancient history, 1924–36.

وقد كتب في هذا المؤلف بعض علماء الآثار عدة مقالات. عن تاريخ مصر القديم نخص بالذكر منهم الأستاذ هول Hall، والأستاذ إرك بيت Eric Peete.

(5) Ed. Meyer. L'Egypte jusqu'â des Hyksos. Paris, 1914.

هذا الكتاب يعد من أحسن الكتب التي ألفت عن مصر في عهد الدولتين القديمة والمتوسطة. وقد ترجمه إلى الفرنسية عن الألمانية الأستاذ «موريه» A. Moret.

(6) Maspero, the dawn of civilization Egypt & Chaldaea, Translated by sayce, London, 1910.

وقد كتب في هذا المؤلف الأستاذ «مسبرو» فصولًا ممتعة عن تاريخ مصر في عهد الدولة القديمة، وترجمه إلى الإنكليزية الأستاذ «سايس» بعد أن أضاف إليه كل المعلومات الجديدة التي ظهرت في عالم الآثار بعد الطبعة الأولى الفرنسية، وهو يعد من أكبر المصادر الغزيرة المادة في التاريخ المصري.

(7) Gauthier, Précis d'Histoire d'Egypte, le Caire, 1932.

هذا المؤلف قد كتبه عدة علماء ولكن الجزء الفرعوني منه اختص به الأستاذ «جوتييه» من صفحة ٥١–٢٥١ وهو مختصر لا بأس به عن تاريخ الفراعنة.

والجزء الأول منه خاصة بالدولة القديمة.

(8) Petrie. A history of Egypt, 3 Vol. London.

ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بكثرة المصادر التي يذكرها في أول كل باب أو أول حكم كل ملك.

(9) Weigall, A short history of Egypt, London, 1934.

يمتاز كتاب الأثري «ويجول» بأنه من نوع التاريخ السهل الممتنع، ولكن مؤلفه يترك لنفسه الخيال كثيرًا في موضوعات شتى لا ترتكز على أصل تاريخي.

(10) Moret, L'Egypte Pharaonique dans Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, t. II. Paris, 1932.

هذا المؤلف تناول تاريخ مصر في العهد الفرعوني، ويمتاز بأنه قد تناول موضوع الدين المصري فيه أكثر من أي شيء كما هو عادة مؤلفه في كل كتبه.

(11) Weidmann, Ægyptische Geschichte, Von den Altesten Zeiten bis Zum Tode Tutmes III, Gotha, 1884.

وقد جمع فيه تاريخ مصر باختصار ويمتاز بكثرة مصادره.

(12) James Baikie, A history of Egypt, Vol II, London, 1929, From The earliest times to the end of the XVIIIth Dynasty.

يمتاز كتاب المستر «بيكي» بأنه يرتكز في معلوماته على المصادر الأصلية ثم يحللها، وإن كان أحيانًا يخطئ في النقل، وعلى العموم فهو من الكتب القيمة في عهد الدولة القديمة.

(13) Junker Delaporte, Volker des Antiken Orients Freibung im Breisgan, 1933.

كتب الأستاذ «ينكر» في هذا الكتاب الجزء الخاص بمصر تحت عنوان Geschichte der Ægypter في ١٧٤ صحيفة، وقد ضمن فيه كل آرائه الخاصة عن التاريخ المصري القديم.

والجزء الخاص بالدولة القديمة يحتوي على نواح جديدة في تاريخ المصري، وبخاصة عهد وانتقال الحكم من الأسرة الرابعة للأسرة الخامسة.

رمز المقاطعة	آلهة العاصمة	العاصمة	اسم المقاطعة اليوناني
		مقاطعات الوجه البحري	
(١) «إنب حز» الجدار الأبيض	العجل «أبيس»، الإله فتاح، الإلهة سخمت، الإله نفرتم، ثم إله الجبانة «سكر»	«إنب حز» ثم «من نفر» (البدرشين، وميت رهينة)	منفيس Memphis
(٢) «دواو» الفخذ	الصقر المحنط، «حور خنتي إرتي»	«سخم» (هيكل الإله حور) بلدة أوسيم الحالية	ليتو بوليس Letopolis
(٣) «إمن» (الغرب) = ريشة نعام	«أمنتي»، إلهة الغرب وعلى رأسها ريشة	«بحدبي» (دمنهور الحالية)	«هرموبوليس» برفا Hermopolis Parva
(٤) سهما الجنوب	الإلهة «نيت»	«زكا» (بالقرب من منوف)	بروزبيتس Prosopites
(٥) سهما الشمال	الإلهة «نيت»	«ساو» (صا الحجر)	سايس Saïs

رمز المقاطعة	آلهة العاصمة	العاصمة	اسم المقاطعة اليوناني
(٦) «كاخاست» (ثور الصحراء)	الإله «رع»، (آمون رع)	«بوتو» (إبطو؟) تل الفراعين	اكسوويس Xoïs (سخا)
(٧) الخطاف الغربي	(١) «حا» إله الجبل. (٢) الثالوث أوزير وإزيس وحور الطفل.	«برحا نب أمنتي» (فوه؟) بيت الإله «حا» (سيد الغرب)	ميتليس Metelis (فوة)
(٨) الخطاف الشرقي	الإله «آتوم»	(١) تكو. (٢) «بر آتوم» (بيت آتوم) بالقرب من أبي الهول؟	بتاموس «بتوم» (هيرون بوليس) Patamos. Pithom Heroonpolis (بيت الإله حورون)
(٩) «عنزتى» = الحامي	إله على رأسه ريشتان يسمى «عنزتى» ثم الإله «أوزير»	«بر أوزير نب زد» (بيت أوزير سيد «زد»)، أبو صير القريبة من سمنود	«بوزيريس» Busiris
(١٠) «كم ور» الثور الأسود العظيم	«حور خنتي خت» (حور الذي يسيطر على الجسم المقدس)	«حت تا حزي إب» (قصر الإقليم الأوسط) بنها الحالية	أتريبيس Athribis (تل إتريب الحالي)
(١١) «كاحسب» = ثور حسب	«حور مرتي» والثور العظيم	«حسبت»«شدنو» هربيط	فاربوتس Pharboetus
(١٢) عجل ثور	«أنحور» (أنوريس) والإلهة إزيس	«زبات نتر» (هيكل الإله) سمنود الحالية	سبنوتس Sebennytos إزيوم Iseum
(١٣) «حكا عز»	(١) الفنكس. (٢) الثور منفيس. (٣) آنوم. (٤) رع والتاسوع.	«إيون الشمالية» (عين شمس) ثم «بر رع» (بيت رع)	هليوبوليس Heliopolis
(١٤) «خنت إيابتي» = نهاية الشرق	الصقر «حور»	«زبات مح مسنت» ثم «بحدت محت» (هيكل الوجه البحري للإله حور)	زيله (زالو) Sele Djalou تل أبو سفا «تانيس»

رمز المقاطعة	آلهة العاصمة	العاصمة	اسم المقاطعة اليوناني
(١٥) «تحوت» (أبيس)	الإله «تحوت» (أبيس)	«بر تحوت» تلة بلة، (البقلية؟)	هرمو بولييس برفا Hermopolis Parva
(١٦) الدرفيل	التيس «خنوم» ثم «أوزير»	«بر با نب زد» (بيت روح سيد زد)	منديس Menes (تل الربع الحالية)
(١٧) «بحدتي» معبد حور	«أنوبيس»، ثم «حور»، ثم «آمون رع»	«بحد» و«بر إيو إن إمن» (بيت جزيرة آمون) (البلمون؟)	ديسبوليس برفا Diospolis Parva (شرقي بحيرة البرلس)
(١٨) «إموخنتي» (الطفل الملكي العلوي)	الإلهة «باست» (القطة)	«بر باست» تل بسطا الزقازيق الحالية	بوبسطس Bubastis
(١٩) «إموبحو» (الطفل الملكي السفلي)	الإلهة «وزيت» الإله «وبوات» الإله «حور الطفل»	«إمنت» ثم «بوتو» (تل نبيشة الحالي) في الجنوب الغربي من صان الحجر (تانيس)	«بوتو» Bouto
(٢٠) «عخم» تمر محنط على سري	«حور سبد»	«بر سبد» صفت الحنا	العرب Arabia
		مقاطعات الوجه القبلي	
(١) تاستت أرض الإلهة «ستت»	(١) الكبش «خنوم». (٢) الإلهة «ستت». (٣) الإلهة «عنوقيت». (٤) الإله «ست».	«آبو» مدينة الفيلة (أمبوس)	الفنتين Elephantine
(٢) «وتست حر» (عرش حور)	(١) «حور حر أختي». (٢) الإلهة «حتحور». (٣) «أحي» ابنهما «حور» قاهر «ست».	«زبات بحدت» (مسنت) هيكل الوجه القبلي للصقر	أبولونوبوليس Apollinopolis إدفو

رمز المقاطعة	آلهة العاصمة	العاصمة	اسم المقاطعة اليوناني
(٣) «نخن؟» ريشتان	(١) الإلهة «نخبت». (٢) الإله «حور». (٣) الإلهة «نيت».	«نخب» على الشاطئ الأيمن للنيل، و«نخن» على الشاطئ الأيسر، ثم «إيونيت» وهي إسنا	اليتياسبوليس هراكنبوليس
(٤) «واس» الصولجان عليه ريشة	(١) الإله «منتو». (٢) «آمون رع». (٣) الإلهة «موت». على شكل نسر والإله. (٤) خنسو «القمر» ابنهما.	(١) «بر منتو» (أرمنت). (٢) «إيون شمع» عين شمس الوجه القبلي. (٣) «واست» مدينة الصولجان وتسمى «نت آمون» مدينة آمون «طيبة».	لاتوبوليس Latopolis هرمنتس Hermonthis ديو سبوليس مجنا Diospolis Magna طيبة
(٥) «نتروي» الصقران	(١) «مين حور». (٢) إزيس الأم للإله «مين» (ست) و«نوبتي».	«جبتيو» بلد رجال القوافل قفط	قبتوس Koptos أمبوس Ombos
(٦) «زام» التمساح وعلى رأسه ريشة	(١) «حتحور». (٢) «حور بحدتي». (٣) «إيحي» ابنهما.	«تا إيونت نترت» عمود الآلهة	تانتيريس دندرة Tentyris
(٧) «سششت» رأس بقرة ثم شخشيخة	(١) «نبت حت» نفتيس. (٢) حتحور.	«حت» بلدة (هو) الحالية	ديوس بوليس برفا Diospolis Parva
(٨) «تا ور» الأرض العظيمة ثم «آب»	(١) «خنتي أمنتي». (٢) أوزير «في الجبانة» على شكل ذئب.	«تني»: «طينة» الجبانة: «أبدو»	أبيدوس Abydos «العرابة» المدفونة
(٩) «خم؟» صاعقة الإله «مين»، والريشة	«مين»	«آبو» إخميم	بانو بوليس Panopolis

رمز المقاطعة	آلهة العاصمة	العاصمة	اسم المقاطعة اليوناني
(١٠) «وزيت» ثعبان على رأسه ريشة	البقرة «حتحور»	«زيتي» بلدة النعلين «أبو تيج»، «بر وازيت» بيت وازيت في الوجه القبلي (كوم إشقاو الحالية)	أفروديتوبوليس Aphroditopolis
(١١) «ست» حيوان الإله «ست» وفي رأسه سكين	(١) «ست». (٢) الكبش «خنوم».	«شاس حتب» شطب الحالية	هيبسيليس Hypselis
(١٢) «زوحفت» جبل الثعبان، أو «زوف»	«حور نبتي»، «حور» قاهر «ست» الإلهة «ميتيت» على هيئة لبؤة	«بر حر نبتي» بيت حور نبتي قاو الكبير	هراكنبوليس Herakonpolis أنتيوبوليس Antiopolis
(١٣) «آنف خنتت» شجرة البطم العليا	«وبوات» لمصر العليا	«ساوتي» (أسيوط)	ليكوبوليس Lycopolis
(١٤) «آتف بحوت» شجرة البطم السفلى	«حتحور»	«جسا القوصية»	كوساي Kousai
(١٥) «ون» الأرنب البري	«تحوت»	«ونت» بلدة الأرنب البري «خمنو» بلدة تحوت الأشمونين الحالية	«هرموبوليس» مجنا Hermopolis magna
(١٦) «ماحز» وهي المها الأبيض يحمل الصقر فوق ظهره	«حور» قاهر المها	«حبنو» زاوية الميتين	هيبيس Hibis
(١٧) «أنوبيس» (على ظهره ريشة)	(١) «أنوبيس». (٢) «حور».	«كاسا» القيس الحالية «حت نيسوت» قصر ملك الوجه القبلي	كينوبوليس Cynopolis «سينوبوليس»
(١٨) «سبا» صقر محلق	«حور»	«سبا» ثم «حت بنو» قصر الفنكس	هبونوس Hipponos الحيبة الحالية
(١٩) «وابو» الصولجان	«ست» (أرو شبسس) (الصورة الفخمة)	«واب سب موي» أو «بر مزد»	أوكسيرنيكوس Oxyrhynkhos البهنسا

رمز المقاطعة	آلهة العاصمة	العاصمة	اسم المقاطعة اليوناني
(٢٠) «نعرت خنتت» (شجرة النخيل أو الرمان العليا)	الكبش «حرشف» (الذي على بحيرته)	«حنن نيسوت» بلد طفل الملك «إهناسيا»	هراكليو بوليس مجنا Herakleopolis magna
(٢١) «نعرت بحوت» شجرة النخيل أو الرمان السفلى	«حور» والكبش «خنوم»	«شدت» (برشدت) الفيوم «بيت التمساح» أو «سمن حور» * كفر عمار الحالية (؟)	كروكوديلوبوليس الفيوم Crocodilopolis
(٢٢) «دمات» السكينة	«حتحور» إزيس	«برحمت» بيت البقرة «حمت»	أفروديتوبوليس Aphroditopolis الشمالية، إطفيح الحالية

* J.E.A. Vol. III, p. 142.


هنداوي